

عبدي نور إفتين

بالاشتراك مع ماكس ألكسندر

ناديني الأمريكي



ترجمة: علي عبدالامير صالح

نادني الأمريكي



Author: Abdi Nur Iftin

with: Max Alexander

Title: Call me American

Translated by: Ali AbdelAzim Saleh

Cover Designed by: Majed Al-Majedy

P.O.: Al-Mada

First Edition: 2020

اسم المؤلف: عبيد نور إفتين

بالاشتراك مع: ماكس ألكسندر

عنوان الكتاب: قلني الأمريكي

ترجمة: علي عبد الأمير صالح

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدي

الطبعة الأولى: 2020

جميع الحقوق محفوظة: دار المدي

Copyright © 2018 by Abdi Nur Iftin

and Max Alexander



للإسلام والثقافة والفنون

Al-mada' for media, culture and arts

☎ + 964 (0) 778 2799 888
+ 964 (0) 778 8080 888
+ 964 (0) 798 2519 298

بغداد: حي أبو نؤاس - عمارة 100 - شارع 11 - بناية 111
Iraq Baghdad- Abu Nuwas-100 - 11 Street - Building 111
✉ www.almada-group.com ... email: al-mada@al-mada-group.com

☎ + 961 906 13617
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

بيروت: المحرق - الفرع لوت - بناية منصور - الطابق الأول
... al-mada@al-mada-group.com

☎ + 963 11 252 2216
+ 963 11 252 2215
+ 963 11 252 2299

دمشق: شارع كريمة - حداد - طابق من شارع 25 آذار
... al-mada@al-mada-group.com
... ص.ب. 8272

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

This book is the author's responsibility, and the opinion and contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

الكل الحقوق محفوظة. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو تخزينه في نظام، أو نقله بأي شكل من الأشكال، إلكترونيًا، ميكانيكيًا، تصويريًا، تسجيليًا، أو بأي طريقة أخرى، دون إذن مسبق من الناشر.

هذا الكتاب، مسؤولية المؤلف، والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

عبدی نور اہتین

بالاشتراك مع

ماكس ألكسندر

نادني الأمريكى

ترجمة : علي عبد الأمير صالح



المحتويات

الإهداء	7
1. تحت شجرة النهم	11
2. الرصاصات الأولى	43
3. سمر الأشواك	65
4. مدينة النساء والأطفال	75
5. العربة إلى الإنكليزية	97
6. الشخص الذي ينادونه الأمريكي	123
7. بوفيس	153
8. نعيذات الرقاب	173
9. الإثم والعقاب	193
10. وُلِّع في الفخ	211
11. من دون رقم	227
12. رسائل من موقاديشو	243
13. موقاديشو الصغيرة	265
14. طوز غير مُرَجِّع	299
15. غرف بيض	323
16. احترام	357
شكر وعرفان	389
المترجم	391

الإهداء

هذا الكتاب أهديه إلى أمي البدوية الأبية، التي أنقذتني.
أُمّاه، لقد داريت قدمي الدامينين بعد أن مشيتُ أميالاً عدّة
معك من دون حذاءين؛ وهبتي الأمل بقصص حياتك
الجريئة في المنطقة الكثيرة الأدغال؛ ولما أرحتُ رأسي في
مقبرة مليئة بأولاد في مثل سنّي، لم تدعيني أنضمّ إليهم.
قوتك أبقتني حيّاً في مدينة الأموات. أعيش الآن آمناً في
أمريكا. طالما أننا كليتنا على قيد الحياة، فسوف أعيد هذه
القوة وذلك الدعم إليك.

«اليفل الذي يرعى مع الأحصنة يحسب أنه حصان».
• قتل صومالي

تحت شجرة النيم

وُلِدْتُ تحت شجرة نيم⁽¹⁾ في الأرجح سنة 1985. أشجار النيم تنمو في كل أرجاء الصومال، وهي ذات أزهار فوّاحة تشبه زهور الليلك وذات نسغ طيّبٍ مُرٍ يمنع حدوث التقرّحات. الناس في جميع أرجاء الصومال يفرّشون أستانهم بتلك الأغصان الصغيرة. ثمارها الخضر تغدو صفراء وملينة بالمعصر، وهي علاج شافي للظهور. هذه الأشجار لها أوراق صغيرة، إلا أنّ أغصانها الكبيرة تمتد وتنتشر وتوفر ملاذاً من أشعة الشمس الحارقة — هي مكانٌ جيد كي تضع فيه المرأة. ومكانٌ جيد كي يولد فيه المرء.

وُلِدْتُ في كنف ثقافةٍ لا يتم فيها الاحتفال بأيام الميلاد، وحتى أنها لا تُسجّل. هذا الأمر أمسى مشكلةً بالنسبة لي عندما غادرت الصومال ودخلتُ عالم الوثائق والعمل الورقي. يوم ميلادي الأول تم تسجيله في كينيا في مركز تسجيل اللاجئين. الموظفون في المركز لم يكلفوا أنفسهم بأن يسألوني عن زمن ولادتي، لأنهم يعرفون أن الصوماليين ليست لديهم

1 - شجرة النيم: Neem tree: يطلق عليها أيضاً شجرة الماروزا، هي شجرة سريعة النمو، وأوراقها عريضة، يعود أصلها إلى الهند وميانمار، واستخدمت مستخلصاتها على مدى وقت طويل في آسيا كمبيدات حشرية، ومعاجين أستان، والدوية، ومقويات صحية أيضاً، وتستخدم الشجرة في مشاريع إعادة التشجير في المناطق الحارة والجافة، وحديثاً انتشرت معرفتها إلى المغرب حيث اعتُبرت نباتاً عجيّباً، وتجرى حالياً أبحاث ودراسات للاستخدامات الصحية الممكنة للمواد الكيميائية المستخرجة منها - م.

أدنى فكرة عن هذا الموضوع؛ كان اللاجئون الصوماليون القادمون إلى كينيا أفواجاً أفواجاً يندھشون دوماً عندما يُوجه إليهم سؤال من هذا النوع. دُون الموظفون ببساطة تاريخ ميلادي في الأول من كانون الثاني / يناير، 1985. بالنسبة لهم، كل الصوماليين وُلدوا في «يوم السنة الميلادية الجديدة». أما يوم وصولي إلى أمريكا فكان يوماً مختلفاً تماماً. هنا الموظفون لم يرغبوا أن يجعلوا الأول من كانون الثاني / يناير يوم ميلادي. عليّ أن أرتجل يوم ميلاد معيناً وأبقى متشبثاً به طوال سنوات عمري الباقية. إنه شيء غريب أن تختار يوم ولادتك. بعض الناس يولدون محظوظين، في حين يُولد آخرون سيئي الحظ، لكن المرء لا يستطيع أن يختار زمان ولادته، أو مكانها. إلا أن حالي كانت هكذا. عقدتُ العزم على أن أختار تاريخاً في منتصف السنة تقريباً، بحيث يكون قريباً على السواء من تاريخ ولادتي الحقيقي مهما كان هذا التاريخ. وأردتُ رقماً سهلاً تذكره. ولذلك اخترتُ العشرين من حزيران / يونيو، 1985.

أبوي لا يعرفان يوم ولادتي، إلا أنّ أمي تذكر أن يوم ولادتي كان يوماً شديد الحرارة. كانت الشمس الوهاجة قد حوّلت شوارع موقاديشو ببضاعة كالرماد وحجرات منازلنا الصغير المُشيد بقطع البلوك إلى أفران خبز. كانت أمي نائمة على ظهرها تحت ظل شجرة النيم، مستريحة على «جمبر»، وهو سرير مصنوع من جلد البقرة ممدود على العصي. كانت جارتنا ماريان تَبْرَد رأس ماما بمروحة مُحاكاة من القش، وتُنظف الدم. نساء منطقتنا السكنية احتشدن في المنزل، يستبد بهن الفضول لرؤية ما إذا سيكون المولود ذكراً أم أنثى. جلبن مواد صمغية فوّاحة وأعواد بخور كالْمُر¹ والأُونسي². جلبن لي حليديداً، وهو جذر نبات يُمزج مع الماء من أجل استحمام الطفل الوليد وحمايته. حليديداً هو واحد من بين مئات

1- المُر myrrh: صمغ راتنجي يخرج من ساق شجر المُر - م.

2- الأُونسي onychi (بالصومالية): تبخة ذات مبطي واحد أو مبطيين - م.

النباتات العلاجية التي تُزرع في الصومال. بوسعك أن تشمّ الزهور الحلوة والأوراق اللاذعة في الأشجار والشجيرات الخفيفة الكثيفة الأغصان المزروعة في كل حديق وصوب.

في يوم ما كانت الصومال تُسمى «بلاد العطور» قبل أن تندلع الحروب، كانت بلادِي تُصدّر النباتات العطرية والطيبة إلى أنحاء العالم كله. كانت ماما تتذكر سوماتالي، وهي نبتة موسمية تنبت من جذورها، الأرض في الموسم المُمطر. كانت أمي تجتث النباتات من جذورها، تسحقها، وتلصق المسحوق على الجروح النازلة بشتى أنواعها. وكانت الـ «أرضية» نبتة أخرى تعودتُ أن تُستخدمها كي توقف النزيف وتمنع حصول الالتهايات الجرثومية. ما تزال أمي تؤمن بتلك النباتات التقليدية التي تعالج كل شيء. إنها تعتقد أن معرفتها بتلك النباتات قد ساعدتها في أن تبقى على قيد الحياة في الأمكنة كلها. كان يساور أمي قلق من احتمال ألا أكون قوياً مثلها لأن سكان المدينة لا يعرفون كثيراً عن النباتات وعن كيفية العيش على الأرض وحدها. اليوم تسألني في هاتفها ما إذا كانت توجد أيّ واحدة من تلك النباتات في أمريكا. لم أر تلك النباتات هنا، لكنني أقول لها إنني تعلّمتُ أن أعيش بطرائق أخرى.

فيما كانت أمي تلد، كانت نساء الحارة يجلسن على حافات الـ «جمبر» متحدثات ومباحكات، سعيدات بالترحيب بوليد جديد. كانت الثقافة الصومالية تُعطي على أيّ أن يبقى بعيداً عن المنزل؛ يمكنك في منزل صديقه سعيد طوال أربعين يوماً، وهي المدة الزمنية التي من المفترض أن تبقى فيها المرأة عفيفة بعد الوضع. وخلال هذه المدة لا تُسمى باسمها بل بـ «أومول»، الذي يعني «أم فلان».

لحظة مجيئي إلى العالم، هرولت ماريان في الشارع كي تنقل الأبناء السارة إلى أبي بأن أمي أنجبتُ صبياً (في الصومال الصبيان يتم تقديرهم أكثر بكثير من البنات). وفيما كانت النسوة اللاتي بطوّفن أمي يزغردن

بفرح، انضمت إليهن جارات أخريات. أخذ أبي يوم إجازة من عمله وأقام حفلة لأصدقائه، مشرياً لهم ورق القات، وهو مادة منبهة تشبه القهوة القوية يعضفها الرجال في الجزيرة العربية، وفي «القرن الأفريقي». القات حيازته واستخدامه ممنوعان في الولايات المتحدة وفي معظم البلدان الأوروبية. كان يزورنا، بصفته ضيفاً في منزله، مرتين يومياً في الأقل. كانت أمي ما تزال تالمة تحت شجرة النيم، بالقرب من طاسات الفخار وجرار الزجاج المملوءة بالعصيدة وعصير البرتقال ومرطبات الـ «قيمتو» المعبأة بالقناني الزجاجية، وهي مرطباتها الأثيرة. انطلاقاً من احترامها لأبي كانت تغطي شعرها عندما يكون هناك، مخفضةً بصرها فيما هي ترد على أسئلة. لا يتبادلان القبلات ولا يتعانقان جهاراً. كان يقف مستصحب القامة وبعيداً عن سريرها، يتفحصني بنظراته، يتفحصني أنا ابنه الثاني، الرائد بجوار أمي.

عطرت النسوة غرف المنزل وكنسن الفناء ومن محبات الظهور ومستخدمات مكينة قصيرة. كن يدخلن ويخرجن. في ذلك المساء نفسه، دخلت ماريان منزلنا بصحبتها عشرة رجال، كلهم شيوخ⁽¹⁾ محليون محترمون. كانوا يلبسون قلاكد من الخرز، أطول قلادة هي تلك التي يلبسها الزعيم، وكل شيخ كان يحفظ، في جيبه الأمامي، بغصن نيم صغير كي يفرش به أسنانه ويمشط ومراة صغيرة كي يشرح لحبته بعد وجبات الطعام. أحاطوا بالـ «جمير» الكائن في فناء الدار حيث كنتُ مستلقياً هناك بجوار أمي. بعض النساء كن يظهون قدراً ضخماً من لحم البعير؛ في حين كانت هنالك نسوة أخريات يمزجن جرة من حليب النوق مع السكر ومكعبات الثلج التي جيء بها من المخزن، لحم البعير والحليب حلوا المذاق معاً يُطلق عليهما «دوكو»، وهما بركة للطفل الحديث الولادة. على مدى ساعة

1- شيوخ shokhs: المقصود هنا شيوخ الجوامع. وكذلك حينما ترد كلمة «أئمة imams» في كتابنا هنا فنقصدها بها أئمة الجوامع. والشيوخ والأئمة هم رجال الدين الذين يترصعون الصلاة في المساجد ويعطون خطب أيام الجمع، والإرشادات للمصلين فيما يتعلق بتعاليم الدين الاسلامي والالتزام بها - م.

كاملة باركني الشيوخ، قرؤوا الآيات القرآنية، آية بعد آية، بصوت عال جداً، الأمر الذي يجعل المباركة أكبر. بعدها، جلسوا جميعاً على حصير مفروش على الأرض، غسلوا أيديهم بصبحن مليء بالماء، واستمتعوا استمتاعاً بالغاً بتناول لحم البعير وشرب الحليب. لا بد أنهم كانوا يتضورون جوعاً لأن أمي تقول إنهم لما غادروا المنزل، كان الصحن الذي قُدم فيه الطعام خالياً إلا من العظام. المباركة والمأدبة هاتان كانتا تعنيان أني سأنمو بنحو أفضل، سأكون معافى ومطيعاً لوالدي. تركوا لأمي ملء طاس ماء مباركاً يُدعى «تحليل». بارك الشيوخ الماء بأن يصفقوا فيه؛ بصلاتهم يحتوي على صلوات. كانت أمي ترش الماء على جسمها يومياً. كما كانت ترش شيئاً منه في جميع أركان منزلنا وتشرب شيئاً منه كي تمنع عنها اللعنات. قبل مغادرتي الصومال متجهاً إلى كينيا في العام 2011، تعيّن على شيخين أن يصفقا في الماء من أجلي كي أبقي سالماً أثناء حلال رحلتي. كانت تلك فكرة أمي.

بعد ولادتي مباشرة، عاودت أمي القيام بعملها المنزلي، وأنا مشدود على ظهرها كي تكون قريبة جداً مني كلما أصرخ مطالباً برضاعة الحليب من صدرها. كانت تراقبني فيما كنتُ أزحف إلى خارج ظل شجرة النيم تلك نفسها نحو حرارة الشمس المحرقة، وكانت أمي هناك حين اتخذتُ خطواتي الأولى على الأرض الترابية الحارة. في وقت النوم كانت تروي لي الحكايات الشعبية الصومالية وتنشد لي التهويدات من مثل «هوايا هوايا» مومي ليست هنا، كانت تسير على أطراف أصابعها بعيداً. ربما هي مع رعاة قطعان الجمال. متعود عما قريب ومعها الزبد وحليب الناقة. كانت أمي وتخصصها هما الكون الذي أعيش فيه.

كان أبي يعمل ولم يكن ييالي بصحة الأطفال، وهذا شيء طبيعي في الصومال، باستثناء خلع أسناني اللبنية المرتخية أو حين قام بخنثي. كنا أنا وشقيقي الأكبر، حسن، قد نختنا في اليوم نفسه، يومئذ كان عمري ثلاثة أعوام وعمر حسن أربعة أعوام. حسن، نحن في البداية. «انظر إلى

الطائرة!! قال أمي. رفع حسن بصره ناظراً في السماء حيث كانت الطائرة، ونزلت شفرة الثوباز⁽¹⁾ الحادة على قُلْفَتِهِ. حسن حتى لم يصرخ! كان على الدوام أشجع غلام قابلته في حياتي. ولما جاء دوري، أدركتُ ماذا سيحدث لي وصرختُ، متدحرجاً على الأرض. جميع الناس في الحارة أقبلوا كي يشاهدوا هذا الهرج والمرج. أمسك بي رجلان بقوة وأنا راقد على الأرض فيما استخدم أمي الجانب الآخر من الشفرة في قص قلقتي. وفي لحظة اختفتْ جلدة عضو ذكورتِي. «الآن أصبحت رجلاً»، قال أمي.



بطبيعة الحال، لم نكنْ رجلين، أنا وشقيقي حسن. كنا ما تزال غلامين صغيرين، ولم نكنْ نَظَلْ بعيداً عن أمنا. كان يروقُ لأمي أن تسمي نفسها «الابنة الجسورة» لأبويها الجسورين. كان اسمها مدينة إبراهيم مُعلّم. سُمِّيَتْ بـ«مدينة» تيمناً باسم المدينة المقدسة في المملكة العربية السعودية. أحبُّ أبواها هذه المدينة؛ كانا يُحبَّان «مدينة» مثلما أحبُّ أمريكا. كان حلمهما الأكبر أن يشاهدا المكان الذي دُفِن فيه النبي محمد، إنما لسوء الحظ لم يُكتب لهما أن يشاهدا. إلا أن الحلم سُرق منهما وكان من دأب أمي أن تتكلم عن «مدينة» و«مكة» بوصفهما أفضل مكانين على وجه البسيطة. كان الذهاب إلى المملكة العربية السعودية لأداء الحج يُكلّف ثلاثة آلاف دولار أمريكي، وكانت أمي تريد الذهاب قبل أن تفارق الحياة. ولأنني نشأتُ مع عدد كبير من اللاجئين الصوماليين العائدين من المملكة العربية السعودية، لم أفهم لماذا كانت أمي ووالداها يحلمون بالإقامة في مكان لا يكون الصوماليون مُرحباً بهم. وسوف تمر سنوات طويلة قبل أن أعرف أن الصوماليين غير مُرحب بهم إلى حد كبير في الأمكنة كلّها، ولم نكنْ نملك سوى الأحلام.



1 - الثوباز Topaz: حجر كريم مختلف الأشكال والألوان - م.

ربما لا أعرف اليوم الذي وُلِدْتُ فيه، لكنني في الأقل أعرف المكان. وُلِدْتُ أمي في منطقة كثيرة الأدهال وليست لديها أي فكرة عن المكان لأن أبويها كانوا ينتقلان دوماً مع الماعز والجمال. لا بد أن ذلك جرى قبيل استقلال الصومال من الإيطاليين في العام 1960. لم يحدث أن رأيت مستعمراً إيطالياً أو بريطانياً غير أنها تتذكر أبويها يتكلمان عن أشخاص من دون جلد كانوا يقودون سياراتهم جيئةً وذهاباً. قضتُ أمي أيام طفولتها التي كانت تحبو فيها على سنام جَحَل، تتغذى من حليب ندي أمها وحليب الناقة. تقول إنه لا يهم كم كان عمرها في ذلك الحين، إلا أنها تعرف أنها كانت في سن جَمَلها «قرانلي»، الذي وُلِدَ في يوم ولادتها. مع مئات الجمال، كان لدى والديّ أمي حيوانٌ مولود حديثاً كل يوم تقريباً. لم يكونا يعرفان كيف يعتان الأرقام، غير أنهما كانا يُسميان ويُعلَّمان كل جَمَل، ومعزاة، وبقرة وكان يوسعهما أن يتعبها بأسمائها. وفي نهاية النهار، حين تعود الحيوانات كلها إلى زربتها المؤلفة من أغصان الشوك، تُحصي جدي الماعز كلها بأسمائها، بينما كان جدي يحلو حذوها مع الأبقار والجمال. كان العدد الكلي للحيوانات التي يملكونها يربو على خمسمئة حيوان. كانت تزود الأسرة بالحليب، اللحم، وتوفر لهم وسائل النقل، بيد أنهم كانوا يملكون حيوانات أكثر بكثير من الطعام الذي يحتاجونه. لم يكن للرعاة الصوماليين مساكن دائمة، وليست لديهم حاجيات باستثناء الثياب، بعض الحلوى، وأدوات الطهي. كانت ثروتهم هي حجم قطعهم. لم يكن لديهم أقمساط تأمين، لا سلف، وليس هنالك خطط مستقبلية، لا شيء يستدعي القلق عدا الأسود والضباع. بالنسبة لهما لا يوجد سوى يومين فقط: اليوم الذي يُولد فيه المرء، واليوم الذي يموت فيه. كل الأشياء الموجودة بين هذين اليومين هي رعي حيوانات.

أجدادي من جهة الأم والأب كانوا رعاة أباة. كانوا يرعون ماشيتهم عبر مراعي منطقة «الخليج» في الجزء الجنوبي من وسط الصومال، ينتقلون دوماً بحثاً عن الماء. لم يسمروا قط بـ «موقاديشو» أو «حتى يد» الصومال،

ناهيك عن أسماء من مثل تيروي أو نيويورك. الأرض التي يرحون فيها دوابهم هي كل ما يعرفونه. يقع الخليج بين نهري جوبا⁽¹⁾ والشيل⁽²⁾، اللذين يغذيان التربة. كان في هذه المراعي دواب أكثر من أي مكان آخر في الصومال وتشتهر بشلالها، شلال «إيشا بيدوة»، فائق الجمال وبمنظر الطين الأملس العُزَين بالرسوم حول قريتي «ديسو» و«أوفوزو». ينعم بدو منطقة «الخليج» بموسمين مطيرين على مدار السنة: موسم «قير»، بأمطاره الخفيفة، يبدأ في منتصف تشرين الأول/أكتوبر وموسم «غور» الذي يأتي بأمطار غزيرة في منتصف نيسان/أبريل. قبل هطول المطر، حين تتلبد الغيوم، يكون بمستطاع الدواب أن تشم رائحة المطر الآتي وترقص متوقعةً نزول المطر بين لحظة وأخرى. يشاهد الناس فرح الحيوانات، ويرفعون أيديهم شاكرين الباري: «الحمد لله».

الأمطار تعني مياهاً وفيرة، وهكذا يكون يوسع البدو أن يستقروا أخيراً طوال شهور قلائل وينسوا أكوادهم التي هي بمنزلة بدائل مؤقتة، يشيدونها من العبدان التي يحملونها على ظهور جمالهم. أثناء الليل تبقى الماشية قريبة من الكوخ في زريبةها، فيما تجلس الأسر حول النار القريبة منهم. يرقصون على وقع الأغاني التي يهدونها لدوابهم — يصفقون بأيديهم، وبقرة يدوسون الأرض بأقدامهم، يلقون ويدورون هازين رؤوسهم، مُتشددين، «هور هورويور ها!» أنت تعرف بعيري من خلال صفته المميزة، أنت تعرفني من خلال صفتي المميزة! يتخلل ذلك ضحك وماء عذب وابتهاج. فرصة مناسبة للقصاص الوطنية، للحكايات الشعبية، للقصاصد

1- نهر جوبا Juba River: نهر في جنوب الصومال. يبدأ عند الحدود مع إثيوبيا حين يلتقي نهر «داوا» و«كانالي دوريا»، ويتدفق مباشرة جنوباً نحو «بحر الصومال»، حيث يصب في «اتصال هودوين» - م.

2- نهر الشيل Shabelle River: يبدأ نهر الشيل في مرتفعات إثيوبيا، ثم يتدفق جنوب شرق الصومال باتجاه موقاديشو. أسفل موقاديشو يصبح النهر موسميّاً. في أغلب الأوقات يجف النهر قرب مصب «نهر جوبا» - م.

الشعرية ووجبات الطعام اللذيذة المكوّنة من الفرة واللحم. أثناء زمنه، إفتين، جدي، يروي قصصه الجريئة. يتحدث عن اليوم الذي قابل فيه مجموعة من الأسود وجهاً لوجه بالقرب من منزله وطاردها على مدى ميل. وفي الختام، تتوقف الأمطار، يجف الماء، ويحزم البدو أكواخهم المصنوعة من العيدان وزرائبهم الشائكة على ظهور الجمال وينطلقون في رحلتهم.

كان بوسع أبوي وكذلك جدي أن يسموا أجدادهم: الجد الأول، الجدة الأولى، الجد الثاني، الجدة الثانية، الجد الثالث، الجدة الثالثة؛ كان يستطيعون أن يقضوا ساعات الليل كلها وهم يستقونهم ويروون القصص التي توارثوها منهم. جميع أسماء الأجداد والجذات هذه تمتاز بالكبرياء؛ كل اسم مفرد منها هو اسم رجل جريء أو امرأة جريئة، اسم شخص يملك دواب كثيرة ويكون كذلك فائع الصيت في المنطقة وربما سبق له أن قتل أسداً. أبناء شجعان، وبنات شجاعات، من آباء شجعان. لم يكن أبوي يتحدثان عن حياتيهما من دون أن يتحدثا عن حيوات آبائهما وأجدادهما لأنه بالنسبة للبدو الصوماليين ليس هنالك حياة فردية، بل هنالك فقط حياة أسرته. وعلى غرار أجدادهما، كان أبوي يتبعان القواعد الإسلامية. يتعين على النساء أن يحترمن أزواجهن. الرجال يسيطرون على كل شيء. أبوي لم يرتابا قط بهذه القواعد أو في كيفية تشونها.

كانت أمي، مدينة، فتاة بدوية في غابة الجمال، طويلة ورشيقة، ذات شعر أسود، عنق طويل، ساقين طويلتين، وعينين جميلتين. في يوم صيفي عند حفرة تتجمع فيها المياه في موقع ما من منطقة «الخليج»، أغلب الظن بجوار «بورحقة» بثلاثها الضخمة، قابل أبي، نور إفتين، وقطيعه أمي وقطيعها، من دون توقّع. تذكر أمي أن السماء كانت تمطر مطراً خفيفاً.

كان الرحاة المقيمون بين النهرين يتبادلون احترام قطعان أحدهم للآخر، إلا أن هذا الحال لا يسود دوماً في الأجزاء الأخرى من الصومال. كما كانا كلاهما عضوين أبيضين من أعضاء عشيرة «رحانوين». لذلك حين

تقابلاً، كان لقلوبهما هذا ودياً. يقول أبي إنه لم يكن قادراً على أن يمنع عينيه من التحديق في أبي. لم يسبق له أن رأى امرأة بهذا الجمال الباهر، إلا أن الشيء الأهم هو أنه أحب الشكل الذي ظهرت به، هذا الأمر في الصومال يُعد علامة من علامات الاهتمام. كانت أبي حافية القدمين، تلبس ثوبها الـ «مونتينو»⁽¹⁾ الطويل، الذي يغطي كتفاً واحدة فقط، وقلادة من الخرز الخشبية السوداء، وأطواقاً معدنية حول زنديها. الندوب الظاهرة في رقبته وذراعيها تكشف من دون كلام مقدار شجاعته في مقاتلة الحيوانات البرية.

كان أبي في الـ «معاويس»⁽²⁾ خاصته، وهي قطعة قماش تصل حتى الركبتين ملفوفة بقوة حول خصره. كان يتعلل خفيه البدويين المصنوعين من جلد حيواني. اختلطت جماله بما عثر أبي حول الحفرة التي تتجمع فيها المياه. دنا منها، تياهي بثروته، ماشيته، التي تكون مقدّمة الحوار الوحيدة في الثقافة البدوية.

أحبته أبي من أول نظرة. لم يكن هنالك رجال أكثر أطول من أبي الطويلة، لكنه علا فوقها كثيراً. كانت لديه ندبة في جبينه تكشف أنه هو أيضاً صارع الحيوانات الوحشية. كانت تسريحة شعره «الأفريقية» العالية تتوّج رأسه وكنتيه العريضتين. قدماء المبيضتان من التراب، أظهرتا أنه سار أميلاً عذّة ولم يتعب حتى الآن. لمّا وقف هناك، عزّف أبي على جماله الأثيرة، وراح يسميها فيما كانت تأكل العشب. كما كانوا يطلقون الأسماء على الحيوانات الوحشية التي كانت تُخيف قطعانهم. تكلّما

1- الـ «مونتينو» (guntino): قطعة قماش طويلة تُشد فوق الكتف، وتكسو خصر المرأة وتنتهي حولها. وهو ثوب تقليدي يغطي كلّ قامة المرأة الصومالية، ترتديه النساء الصوماليات في الأيام العادية - م.

2- معاويس (macawis): قطعة قماش كبيرة، تُلف عادةً حول الخصر، تلبس في شبه القارة الهندية، جنوب شرق آسيا، وشبه الجزيرة العربية، شرق أفريقيا، وفي عدد كبير من جزر المحيط الهادئ. تُسمى بالإنكليزية sarong، وبالعربية: صارون. حرف C بالصومالية يُلفظ «ع» - م.

عن «فاري»، وهو أسد محلي يُخيف الماشية. سُمي «فاري» بسبب إصبع قدمه المفقود، الأمر الذي جعل آثار أقدامه في الطين مميزة. كان «فاري» وجماعته أسوداً ذكية قتلت حيوانات كثيرة، ومن بينها حيوانات كانت تنتمي إلى ماشية أسرتي أبيي، بعد حلول الظلام. كان أبي يقسم أنه سوف يجيد «فاري» وجماعته ويقتلها كلها كي يحمي ماعز أبي. لم يكن بمستطاعه أن يعثر فعلاً على ذلك الأسد، إلا أن تلك كانت طريقة كي يُظهر لأبي أن بوسعه أن يحميها ويرعاها.

بعد لقائهما القصير الأول، بحث كل واحد من والدي عن الآخر طوال شهرين، على غرار الرجل في فيلم «الآلهة يجب أن تكون سريعة الاستجابة»⁽¹⁾ الذي كان يفتش عن غلاميه المفقودين، حين تقابلا أخيراً في حفرة ماء أخرى، آمن أبي أن الله استجاب لدعوته. الآن لم يعد بمستطاع نور إقنين أن يخفي حبه لـ «مدينة» وقال لها إنه يرغب بالزواج منها. لم تقل «نعم» ولا «لا»، لكنها ابتسمت بسمة عريضة وخفضت بصرها بخجل. في الصومال، هذه الإيماءة تعني «نعم». كانت أبي في ربيعها السابع عشر تقريباً، أما هو فكان في عشريناته. رتب أبي لقاءً مع أبيوها، وفي يوم ما التقت الأسرتان في مكان قريب من «بيدوة»⁽²⁾، وهي أكبر المدن في المنطقة، حيث تم التفاوض حول الاتفاق: خمسين بعبراً كمهر للعروس دفعه والدها أبي إلى والدي أبي.

1- الآلهة يجب أن تكون سريعة الاستجابة: The Gods must be crazy: فيلم كوميدي جنوب أفريقي، أُلحِق العام 1980، من تأليف وإخراج جيمس أوبس، بتحويل من مصادر محلية. يُعدّ الاصدار الأنجح من الناحية التجارية في صناعة الأفلام بجنوب أفريقيا - م.

2- بيدوة Balda: مركز منطقة «الخليج» في الجنوب الغربي من الصومال، وتبعد 256 كم عن الطريق الشمالي الغربي للعاصمة موقاديشو. وبيدوة هي ثالث أكبر مدن الصومال والرابعة أهمية بعد كيسمايو. يُقدّر عدد سكانها أكثر من 800 ألف نسمة. وتحتل مركزاً استراتيجياً مهماً بالنظر لقربها من من الحدود المشتركة مع الحبشة وكينيا - م.

جرت مراسم الزفاف في مدينة تُسمى نُحُضر، تبعد نحو ستين ميلاً عن «بيدوة». كان هذا هو الموسم الممطر، لذلك كانت الحيوانات سمينة، وكانت هنالك كمية كبيرة جداً من اللحم والحليب في حفل الزفاف. كان المدعوون إلى حفل الزفاف هم الأقارب وآباءهم. كانت أمي في كوخ طين طوال اليوم مع ما يُطلق عليهن «النسوة الخبيرات»، اللاتي روين لها القصص حول ما يحصل في ليلة الزفاف، وكيف ينبغي لها أن تطيع زوجها، وكيف ينبغي لها أن تتقبل كل ما يتفوه به. كان كوخاً مستأجراً، كان يتعين عليهما أن يودعا الماعز في مكان آخر كي يمكننا هناك. لم يسبق لأي منهما أن رأى ورقة مالية أو قطعة نقد معدنية. في الوقت نفسه كان أبي في كوخ أحد الجيران مع الرجال الذين كانوا يعلمونه فيما يتعلق بالأيام الأولى من الزواج.

في مساء يوم الزفاف، سار ستة رجال بصحبة أبي إلى الكوخ حيث كانت أمي تنتظر فيه متوترة الأعصاب. في داخل الكوخ هنالك حلي خشبية منقوشة تُسمى «حيضو»، وهي زخارف من أجل الاحتفال بالزفاف، أوعية فخار ذات نقوش ساطعة تُدعى «فصيل» تحتوي على الحليب، الزبد، واللحم، وجلد بقرة لين لهما كي يرقدا عليه. بعد مضي سبعة أيام، حين انتهى شهر العسل خاصتهما رسمياً، ألبس أبي الثياب التقليدية، ملاحة قطن بيضاء نُفِثَ حول خصره بوصفها تنورة، وقطعة أخرى على كتفيه بوصفها شالاً، وأجلس خارج الكوخ. وبعدها حمل رجلان وعاء «فصيل» مليئاً بحليب الناقة وسكبوه عليه. هذا الطقس يُشير إلى أن أبي قد أصبح الآن زوجاً. انتهى المساء بأن امتطى أبي أحد جمالهما وهذا بمرتلة احتفال وقد رافقه عدد من الرجال كانوا يغنون ويرقصون، إلا أن أمي ظلت في داخل الكوخ، أكثر خجلاً من أن تخرج وتري الناس بعد أن قضت وقتاً في سرير الزفاف.

كان أبواي يقضيان معظم أوقات الأيام الأولى من زواجهما وهما

يجتازان الأدغال مع ماشيتهما، متذكرين الأمكنة من خلال الأشجار. كانا يعيشان أميالاً عدة كل يوم في أرض لا تعود لأي إنسان. لم يعترض سبيلهما أحد أو يسألهما من يكونان. كان زمناً آمناً. بالنسبة لأبوي، كانت الجنة وراء النجوم اللامعة التي كانا يشاهدانها أثناء الليل، أما الجحيم فهو تحت أقدامهما. لمّا احترقت قدما أبي الحافيتين في الشمس اللاهية، تذكرت كلمات الله بأنه على الأرض عينات من نار جهنم. كانا يؤمنان أن الأرض مستوية وتلك هي بلاد الله، وهما مجرد ضيفين. تظفر السماء حين يشاء الله، وتجف الأرض حين يشاء الله. الحيوانات تنفق، والبشر يموتون وفقاً لمشيئة الله. «إن شاء الله».

في بعض النواحي الحياة البدوية تشبه الحياة في أمريكا أكثر مما تشبه طريقة حياة الصوماليين في المدن. في المناطق الكثيرة الأدغال الرجال الصوماليون والنساء الصوماليات يعملون معاً، يتحدثون بحرية أحدهم مع الآخر، وحتى أنهم يمارسون الألعاب الرياضية معاً. كي يظلا حين على اليابسة، الزوج والزوجة عليهما أن يعملتا بصفة فريق كي يضمن أن دوابهما ترعى بشكل جيد وأنها كلها تعود إلى المنزل في العسق. كان أبي قد عرّف أبي على ألعاب كثيرة من مثل القفز العالي، العدو مسافة قصيرة بأقصى سرعة، ومطاردة الطباء الصغيرة¹، أبقار الوحش الصغيرة التي لا يزيد حجمها على حجم القط. أحبّت أبي تلك الألعاب الرياضية كلها. كانا يمسكان العصي بارتفاع خمس أقدام، ويعدّها يتادلان الأدوار في القفز فوقها. تعلّمتُ أبي الوثوب والهبوط على الأرض من دون زلة. قالت إن أبي لم يتفوق عليها قط في هذه اللعبة. كانت أبي تخبجل من زوجها وتحترمه، إنما فيما يتصل بالألعاب الرياضية واللهو، كانت متنافسة

1 - الطلي الصغير dik - dik: الدفدق. وهو اسم يُطلق على جميع الأنواع الأربعة من الطباء الصغيرة في جنس Madoqua التي تعيش في الأدغال في شرق وجنوب أفريقيا. ويبلغ طولها بين 50-70 سم، وتزن من 3 إلى 6 كيلوغرامات ويمكن أن تعيش لمدة تصل إلى 10 سنوات. وشعي بالدفدق محاولة لصوت إغثار الإناث - م.

قوية له. كانا يركضان بسرعة معاً عبر المنطقة الكثيرة الأدغال، يقفزان فوق الشجيرات الشائكة فيما هما يطاردان غلياء أفريقيا الشرقية السريعة.



تشتهر منطقة «الخليج» في الصومال بزراعة الذرة، الفاصولياء، الرز، السمسم، اليابايا⁽¹⁾، المنجا، والشجرة التي تتج رائحة البخور. أغلب ذلك الراتينج تشتريه الكنيسة الكاثوليكية في روما، إلا أن والذي كانا لا يعرفان شيئاً عن روما أو العقيدة المسيحية. بالنسبة لهما المكان الأكثر دهشة في العالم هو شلال «إشا بيدوة». هذا المكان كان أرض العطلات⁽²⁾ الخاصة بهما. «إشا» تعني «عين»، والماء يتدفق من بين الشق في أعلى الصخرة الذي يشبه عيناً. أمي ما تزال تؤمن أن العين تعود إلى ملاك. أثناء رحلاتهما البدوية كانا يتوقفان مرتين في السنة كي يستحمما بالماء المنهمر من عين الملاك.

كانت مدينة بيدوة تُسمى «بيدوة الجنة» بسبب الشلال القريب وبسبب الثروة الحمراء الخصبة. كانت حقول الذرة وال «مساعو»، وهي نوع من الحبوب، تنمو في داخل المدينة تماماً، وسط المنازل الطينية وأشجار المنجا والموز. في مركز المدينة سوق «أفار أردوكا» الضخم، حيث يأتي الناس من كل أرجاء البلاد كي يشتروا ويبيعوا الطعام، الأعشاب الطبية، والإمدادات. في جميع أنحاء تلك المدينة، كانت الحمير المُحملة بالإمدادات تتحرك نحو السوق.

تقيم عشيرة ال «زحانوين» في «بيدوة» وفي الأرض الواقعة بين نهري جوبا والشبيل ومن حولها. كلمة «زحانوين» يمكن ترجمتها إلى «عدد كبير». كان عدد أفراد العشيرة كبيراً جداً، وكانوا ينتشرون عبر المنطقة

1- اليابايا papaya: شجر أمريكي استوائي من فصيلة الياباياوات ذو ثمر أصفر ضخم مستطيل - م.

2- أرض العطلات vacationland: منطقة تزود أصحاب العطلات بمختلف وسائل التمتع والاستجمام - م.

الكثيرة الأجمات. كانت معظم العشائر الصومالية الأخرى تزدرى عشيرة الـ«رحانوين» لأن غالبيتهم بدو وفقراء ولا شأن لهم بالسياسة. زيادة على ذلك، كانت اللهجة التي يتكلم بها أعضاء عشيرة الرّحانوين تُسمى «معاي»، وكان يُصرف النظر عنها باعتبارها لغة الشحاذين والطبقة الدنيا من المجتمع لأنها غير مفهومة بالنسبة لمعظم الصوماليين الآخرين. إنها مختلفة من ناحية بناء الجملة وهي معقدة بالنسبة للغرياء. وهكذا ظل أفراد عشيرة الرّحانوين يعيشون على مدى قرون حياتهم الخاصة، في أرضي لا تعود لأحد.



كان تغزل أبويّ وزقاقهما قد حدثا في وقت ما من سبعينيات القرن العشرين. بُعيد الزفاف، في العام 1977، ضرب الصومال جفاف رهيب. لم تأت أمطار «مير» و«مرو» البتة. ذبلت نباتات الذرة. كانت أرض الطين الأحمر المحيطة بـ«بيدوة» قد أصبحت ظمأنة وجرداء، وتكثّمت في شقوقها الواسعة الهياكل العظمية للحيوانات النافقة. أما تلك الحيوانات التي ظلت حية فقد كانت هزيلة وعلى حافة الموت. كان البدو يعرفون أن تلك هي مشيئة الله إلا أنهم لم يفهموا لماذا فعل جلّالته هذا، لأنهم ليسوا أناساً أكمن. كانوا قد قرروا أن الله أراد الحيوانات له وكان يأخذها. أبوي، اللذان كانا فخورين جداً بقطعاتهما، أصبحا يشاهدان تروتهما وهي تُباد أمام أعينهما. «دزّيلي»، بعير أمي الأثير، أصبح نحيفاً ومن ثم تفق بصمت. حالات الجفاف هي جزء من الحياة بالنسبة للبدو في منطقة «الخليج»، إلا أن قوى جديدة في العالم، من مكان بعيد جداً عن الأرض الواقعة بين الأنهار، تجعل هذا الجفاف مختلفاً. في ذلك العام نفسه هاجمت الصومال إثيوبيا في حرب من أجل السيطرة على «إقليم أوغادين»، وهو جزء من إثيوبيا مأهول بأناس من أصول صومالية. نشرت الصومال قواتها على الحدود، والدبابات والعربات العسكرية التي غادرت موقاديشو

مرّت بجوار أبيي. كانت أمي واقفة هناك، حاجبها مرفوعاً، تشاهد هذه الأشياء المتحركة الغريبة. لم يرَ أبوي شيئاً يشبه الدبابات من قبل، ولم يسبق لهما أن فكرا بأشياء من مثل الحكومة أو الجيش. لم يكونا يعرفان ذلك، إلا أنه في ظل حكم الطاغية محمد سياد بري، مؤسس «المجلس الثوري الأعلى»، حشدت الصومال أكبر جيش في أفريقيا. كان سياد بري جنراً يفرض سيطرته على البلد في العام 1969، وعقب ذلك وبذكاء وحنكة استخدم «الحرب الباردة» كي يتزعزع دعماً من الاتحاد السوفياتي. إلا أياً من هذه الأشياء لا يعني شيئاً البتة بالنسبة لبدو الصحراء الذين كانوا يتطلعون إلى السماء ويصلون من أجل هطول المطر.

حرب العام 1977، المعروفة باسم «حرب أوغادين»، هي أكثر الحروب دموية بين بلدين أفريقيين، وراح ضحيتها عشرات الآلاف بين قتل وجريح. كان الجيش الصومالي قد أطلق العنان لأسلحته الثقيلة وجنوده الذين تلقوا تدريبهم في الاتحاد السوفياتي ضد الأثيوبيين في هجوم كاسح على الحدود. كان الصومال يملك دبابات تي - 35 وتي - 55 السوفياتية ضد الدبابات الإيطالية الأقدم التي يرجع تاريخها إلى الحرب العالمية الثانية. في أول الأمر تقدم الصوماليون في عمق الأراضي الأثيوبية، وأوشكوا على احتلال العاصمة، أديس أبابا. إلا أن الاتحاد السوفياتي كان يدعم أثيوبيا أيضاً، التي كان لديها نظام عسكري ماركسي، وسعى إلى إنهاء الاقتتال بين البلدين. ولما رفض سياد بري التنازل عن هذا المطلب، تخلّى السوفييت عن الصومال ووقفوا إلى جانب أثيوبيا، وهو بلد مساحته أكبر بكثير. وبعدها أصبحت الحرب كونية حين انخرطت الصين، اليمن، كوريا الشمالية، رومانيا، وبلدان أخرى داعمةً هذا الطرف أو ذاك. بإمداد الاتحاد السوفياتي القوة الجوية الأثيوبية بطائرات ميغ - 17 وميغ - 21 الثقيلة وبأسلحة أخرى، انسحب الجيش الصومالي من البلد وهُزم في العام 1978. استبد الغضب بسياد بري؛ طرد الروس كلهم من الصومال. كان يريد مصداً ضد أثيوبيا المدعومة من الاتحاد السوفياتي، فسارع

الأمريكيون لملء الفراغ وشرعوا يقدمون عوناً عسكرياً للصومال. لولا الدعم الأمريكي، لربما تمت الإطاحة بسياد بري بسبب انتفاء الحاجة إليه وبسبب الحرب التي كلفت البلد أموالاً طائلة. بدلاً من ذلك، أصبح قادراً على بناء جيشه من جديد.

جميع هذه التحالفات المتغيرة والأعيب السلطة لم تكن تعني شيئاً لأبوي. إلا أن النتيجة — بلد صغير بملايين البنادق واستياء يغلي ببطء ضد سياد بري لأنه تسبب في حصول حالات بؤس وشقاء كثيرة جداً — سوف تغير فوراً حياتهما إلى الأبد.

في غضون ذلك، كان جفاف العام 1977 هو الأسوأ في تاريخ الصومال المسجل، أباد الكائنات الحية وتسبب في نزوح عشرات الآلاف من البدو. حين بدأت الحيوانات تنفق، بعض البدو شرعوا يغادرون مواقعهم. كان البدو يتحركون في شتى الاتجاهات، في الأغلب صوب كينيا وأثيوبيا. بعضهم شدوا الرحال إلى أقرب المدن التي تشتهر بصيد السمك وبفرص عمل أخرى. وهكذا قرر أبوي أن يسعيا نحو حياة أفضل في موقاديشو. بعد خمسة عشر يوماً من المشي وتوسل الركوب مع الآخرين، نور إيتين وزوجته، مدينة، وطئت أقدامهما أول مرة تربة مدينة ذات صالات سينما، علامات مرورية، منازل مشيكة من الآجر، ومواطنين يتحدثون بلهجة غير مفهومة تقريباً.

وذاث تماثيل ونصب! كان هنالك تمثال برونزي في مركز موقاديشو، ينتصب عالياً على عمود حجري أبيض، تمثال لفدائي من العهد الاستعماري يحمل صخرة. كان التمثال يُسمى داغستور، الذي يعني رامي الحجر، وكان يتجمل الثوار الذين حاربوا البريطانيين بالحجر بعد الحرب العالمية الثانية. كانت أمي واقفة هناك تنتظر الرجل البرونزي حتى يرمي تلك الصخرة. لم تعرف أنه ليس رجلاً حقيقياً إلا بعد مضي أسبوع واحد. سيارات الأجرة المطلية باللونين الأحمر والأخضر التي

تقف في الأمكنة كلها، يورثريها سياد بزي المعلقة في جميع الشوارع،
لفتت انتباههما. سوف يعرفون لاحقاً أنه ليس من المفترض بك أن تتعلق
باسم سياد بزي من دون أن تضيف كلمة «جاكي» قبلها. كانت «جاكي»
كلمة جديدة في اللغة الصومالية ابتكرها سياد بزي، التي تعني إلى حد ما
الفوهرر أو الزعيم.

كان أخو أبي غير الشقيق حسن، المقيم أصلاً في موقاديشو، قد أعطى
لوالدي غرفة في منزله في حي «ويري». على بُعد ميل من منزلهما، جهة
الشرق، يقع مطار موقاديشو وتحيط به المياه الخضراء الجميلة لـ «المحيط
الهندي». إلا أن الحضارة أمرضت أمي. اشتاقت للغواب، اشتاقت لأبويها،
للقصص، للأرض، لحررتها. لم يغمض لها جفن طوال أسابيع عدة بسبب
أصوات الطائرات التي كانت تقلع من مدرج المطار وتهبط فيه. ظلت ترنو
بصرها إلى الأعلى وتتأمل متعجبة كيف صُنعت هذه الأشياء. كانت أول
زيارة لها للمحيط قد جعلتها تتذكر القصص التي رواها لها أبواها، ومن
بينها تلك القصة التي تدور حول شيء يُسمى «حوتاً» يمكنه أن يتلع مدينة
بأكملها. كانت تفلت بسبب تلك الحيتان، وتتأمل في سرها أين ينتهي
المحيط. استخدام المرحاض، الذهاب إلى السينما، وركوب حافلة، هذه
الأشياء كلها كانت أشياء غريبة جداً لكلا والدي، ربما بالطريقة نفسها التي
بدت فيها أشياء كثيرة جداً عن أمريكا غريبة بالنسبة لي، من مثل الثلج،
الطهي على مياخ، أو الامتثال للقواعد المرورية.

شيء الوحيد الذي حَيَّب أُمليها أكثر من أي شيء آخر هو شراء
الحليب واللحم. في حياتها البدوية كانت هذه الأشياء متوافرة؛ الآن
ينبغي لها أن تدفع ثمناً إن أرادت شرائها. كانت زيارتها الأولى للمجزر
قد دفعتها للبكاء. كان اللحم معلقاً على الكلاليب، الذباب يحط عليه
بشكل دائم. رجال مزودون بسكاكين حادة يصيحون بأصوات مرتفعة
على كل فرد يخطو إلى داخل المجزر، ملوحين بسكاكينهم في الهواء

وواحدين الزبائن بأكثر اللحوم جثة. كانت أمي خبيرة بلحم الجمل، وبوسمها أن تجزم أن هذا اللحم ليس جديداً، غير أنها لم تجرؤ على أن تسأل الجزارين المخيفين بسكاكينهم الطويلة ولكتهم الغريبة.

أثناء الفحط انتقل بدو كثيرون إلى موقاديشو. كان سكان المدينة يهزؤون بهم. تذكر أمي أن نسوة أخريات كن يطلين منها أن تقلد أصوات الحيوانات. كنّ يهزأن بها، غير أن الحيوانات هي موضوعها الأثير لذلك كانت تشعر بالقرح فيما هي تقلد أصواتها لجاراتها، بخاصة صوت معزاتها الأثيرة، إيسي، التي تعني «سمراء». نساء المدينة، اللاتي يرتدين ثياباً أجمل، لا يرغبن بأن يراهن أحدٌ مع أمي في الشوارع. كانت أمي في نظرهن تسبب لهن شيئاً من الحرج. كنّ يهزأن بلكتها، يحقرنها كلما قالت شيئاً ما بلكنة «معاي». كنّ يطلفن عليها تسمية «ري يادية»، أي «امرأة الأدغال».

كان الجيران يقولون إن منزلها يفوح برائحة تشبه رائحة بول الماعز، حين يشمون ملابسها. بالنسبة لأمي رائحة الماعز والجمال تشبه عطر وطنها، وكانت رائحتها أشبه برائحة الحرية. فضلاً عن ذلك، لم تتعلم أمي سوى حفنة من سور القرآن التي كان أبواها قد علّماها إياها، وهي تكفي فقط لأن تؤدي صلاتها خمس مرات في اليوم. غير أن نسوة المدينة، اللواتي تعلمن في المدارس، كنّ يعرفن القرآن بأكمله. كنّ يمارسن نوعاً من اللعبة الدينية التنافسية تُسمى «شياقي»، حيث كنّ يجلسن بهيئة دائرة ويرتلن القرآن مثل مائدة مستديرة. يتعين على كلّ واحدة منهن أن ترتل الآية التي تلي آية آخر امرأة؛ وإذا ما نسيت إحداهن أي آية فإن ذلك من شأنه أن يسبب لها الحرج. إلا أن أيّ واحدة من أولئك النساء لم تكن قادرة على أن تقفز أو تعدو مثل أمي. كنّ يدينات جداً بسبب طعام المدينة كله، وكن يتعاشين أشعة الشمس كي تكون لهن بشرة أقل سمرة.

نساء موقاديشو كنّ يُختنّ خلال سنوات طفولتهن، لكن البدو لا

يمارسون بثر العضو التناسلي الأنثوي. لذلك هذا الأمر كان يشكل مزيداً من الضغط النفسي على أمي. كانت جاراتها يدفعنها لأن تحس أنها غير نظيفة. في حائمة المطلق، لانتُ وخضعتُ بجرأة لعملية الختان. ثلاث جارات لها أخذتها إلى منزل «حواء»، وهي امرأة ذائعة الصيت في موقاديشو اشتهرت في القيام بذلك. بالطبع، لم تكن هنالك أدوية مُسكنة. تعودت «حواء» أن تُجري الختان للفتيات الصغيرات اللاتي لا يعرفن ما الذي يجري على وجه الدقة وربما يتم إلهاؤهن خلال قطع العضو التناسلي، مثل شقيقي الذي صرخوا ابتهاجه بالطائرة أثناء الختان الذي أثار دهشته. إلا أن أمي بالطبع كانت تعرف، مثلي أنا بعد أن رأيتُ شقيقي الشجاع. وجرى لها مثلما جرى لي في ختاني. أمي كان يجب أن تُمسك بقوة فيما كانت حواء تعمل بشفرة التوباز تلك نحو خمس عشرة دقيقة فيما كانت أمي تصرخ بصوت عالٍ. وما إن أعلنت حواء أنه تمت إزالة كل شيء، حتى بدأت النسوة يزغردن بفرح. نظفتُ حواء أمي بشيء من الماء الدافئ وأرسلتها إلى المنزل. أبي، الذي كان يعرف الإجراء وسبق أن وافق عليه، تعيّن عليه ألا يقترب منها على مدى أشهر قليلة.

هذا الأمر يجعلني استنشط غضباً حين أفكر فيه. في مهتي بوصفي مترجماً طيباً في «مين»¹، كان من دأبي أن أخبر المهاجرين الصوماليين الجدد أنه يتعين عليهم ألا يختنوا بناتهم في هذا البلد، الأمر الذي كان يشير استغرابهم. هذا الطقس المروّع يضرب جنوداً في الجهل ولن يتغير إلا من خلال التعليم.



١- مين Maine ولاية تقع في أقصى شمال منطقة نيو إنغلاند في شمال شرق الولايات المتحدة. ترتيب مين هو التاسع والثلاثون من حيث المساحة والحادي والأربعون من حيث السكان في الولايات والأقاليم الأمريكية. تحدها ولايات نيو هامبشاير إلى الغرب، والمحيط الأطلسي إلى الشرق، ومقاطعات نيو برونزويك وكيبك الكنديتين إلى الشمال - م.

في غضون ذلك كان أبي قد كسب بعض المال من خلال صيد السمك، الأمر الذي أتاح له في نهاية الأمر أن يستأجر غرفة مع أبي وأن يغادر منزل أخيه حسن. بعض الرجال كانوا يعضون في زوارق ومعهم شبك كبيرة بينما كان أبي يبقى عند ساحل «أوروبية»⁽¹⁾، منتظراً عودتهم. حين يعود الصيادون بشباك مُتْرَعة بالسمك، كان أبي يحمل السمكة الضخمة الثقيلة، بعضها بحجم كائن بشري، على كتفيه. كان يحمل تلك الأسماك مسافة ميل إلى سوق السمك في ساحل «جيل — لاك». في بعض الأحيان، كان يقوم بهذه الرحلة عشرات المرات. بعد يوم كامل من ذلك العمل الشاق من العفترض أن يدفعوا له شلناً صومالياً واحداً، بيد أنه لم يكن يعرف كثيراً عن النقود أو القطع النقدية المعدنية وكانوا يأخذونه في كثير من الأحيان.

في ذلك الزمن كان ما يزال هنالك إيطاليون في موقاديشو. قبل أن يحلّ الاستقلال في العام 1960، كانت الصومال تتكون من مستعمرتين: المنطقة الصومالية البريطانية في الشمال والمنطقة الصومالية الإيطالية، بما فيها موقاديشو، في الجنوب. لذلك هناك تاريخ طويل للأوروبيين في الصومال، وفي سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين كانوا ما يزالون يأتون بأعداد كبيرة للعمل. كانوا يمشون في «أوروبية هوتيل» الضخم، الذي تحول الآن إلى خرائب، حيث كانت النسوة الأوروبيات يتشمسن لابسات مابوهات البكيني. كانت تلك أول مرة يرى فيها أبي أناساً ببشرة بيضاء، ولم يكن يصدّق أن تلك النسوة يتجولن هنا وهناك شبه عاريات، ولقاً أخير أبي بذلك، لم يكن يوسعها أن تصدّق من ناحيتها أنهم أناس حقيقيون، من دم ولحم، إلى أن رأتهم يتنصّون فعلاً. كانت أبي خلال حياتها البدوية قد سمعت قصصاً عن «مُخاكروا»، الكفار، هم ليسوا مسلمين، كلّهم من دون استثناء بيض البشرة، وهم غير نظيفين. غير أنها لا تعرف

1 - ساحل أوروبية: في النص الإنكليزي الأصل Unaba beach - م.

أنهم بلا ملابس. كانت تبعد عن الأشخاص البيض غير التقيفين الذين شاهدتهم على الشاطئ. كانت تتساءل، ما الذي يفعلونه هنا في هذه البلاد، ولماذا لا يُصلّون خمس مرات في اليوم؟

في كل أرجاء موقاديشو، كان أبي يبرز في الزحام بجسمه القوي وقامته الطويلة. كان قد قصَّ شعره البهوي الطويل وحلق لحيته البدوية، إلا أنه ترك شاربته الداكنة ومساليقه الزغبين. هذا المظهر يبدو مسايرواً للموضة في موقاديشو في مطلع ثمانينيات القرن العشرين، بخاصة إذا ما كنتَ تلبس أيضاً سروالاً من طراز بيل — بوتومز¹. كان يخرج من المنزل ويمشي متباهياً في أرجاء المدينة. في «أوروبية هوثيل» ذاك نادٍ ليلي حيث كانت الرافعات يتجردن من ثيابهن وتقدّم فيه المشروبات الكحولية. كان عدد النوادي الليلية في موقاديشو أكثر من الجوامع في ذلك الحين، في الأمكنة كلها بومسك أن ترقص على أنغام موسيقى الفانك² كما هو الحال في البرنامج التلفزيوني الأمريكي «سول ترين»³ وتحسني الخمر في حانة على شاطئ البحر. بعض الرجال الصوماليين وحتى بعض النساء الصوماليات (من دون وشاح ولابسات جواهر كثيرة) كانوا يؤمّنون النوادي ويختلطون برجال الأعمال الإيطاليين، البريطانيين، والأمريكيين قبل نشوب الحرب الأهلية. في النهاية، ذهب أبي فعلاً إلى «نادي أوروبية»، مع أنه لم يخبر أبي بذلك. رأى نسوة صوماليات يرقصن مع رجال بيض، الأمر الذي سيفقدو بعد أعوام قليلة أمراً يستحق عقوبة

- 1- بيل — بوتومز bell - bottoms: يتطلون يبدأ في الاتساع من الركبة حتى الأسفل — م.
- 2- موسيقى الفانك funk music: نوع من الموسيقى الأثري — أمريكية ظهرت في الولايات المتحدة نهاية ستينيات القرن العشرين وسط حركة الـ «هارد بوب» التي انتشرت خلال طلبة الستينيات والسبعينيات. استوحيت موسيقى الفانك من موسيقى السول والجاز وهي تختلف عنهما بسيطرة الجزء الإيقاعي مصحوباً بتوقعات موسيقية مع تواجد آلات النفخ النحاسية والسكريفون بكثرة خلال «الريفات» — م.
- 3- سول ترين Soul Train: برنامج موسيقى / رقص أمريكي بُث عبر محطات إذاعية وتلفزيونية عديدة من 2 تشرين الأول / أكتوبر 1971 حتى 27 آذار / مارس 2006 — م.

الموت. اليوم هذه النوادي هي مجرد كسر حجارة في الرمال، أعمدة قليلة مهشمة ترتفع من الأنقاض التي تشبه أنقاض روما الغابرة.

صيد السمك والرقص ربما كانا سيستمران بالنسبة لأيي أن تأتي الحروب، إلا أنه حيثئذ في أحد الأيام فعل شيئاً ما غير مجرى حياته. قفز.

كان ذلك لا شيء، بالنسبة له، إنه مجرد قفز فوق سياج شائك، مثلما قفز في تلك الألعاب الرياضية مع والدتي في الأدغال. إلا أن هذه القفزة رآها صديق أخيه غير الشقيق حسن الذي كان يعرف أشياء كثيرة عن كرة السلة. تلك اللعبة الرياضية أصبحت شائعة جداً في جميع البلدان الأفريقية، والصومال كانت لديها نوادي رياضية، نواد للهواة والمحترفين، كل واحد منها يتنافس مع الآخر ومع نوادي البلدان الأخرى. قال صديق حسن لأن أبي طويل جداً وبمستطاعه أن يقفز عالياً جداً، يلزمه أن ينضم إلى فريق كرة السلة الوطني. إلا أن حسن كان يريد من أخيه غير الشقيق أن يلتحق بالقوات المسلحة، مثله هو. في ذلك الحين في ظل حكم سياد بري، كان الصوماليون وطنيين جداً، كان الالتحاق بالجيش يُعدُّ مسيرة نبيلة. كان أبي قد تلقى التدريب العسكري الأساسي، وهو شيء إجباري فيما يتعلق بالرجال البالغين في المدينة، وكان يناسبه أن يكون جندياً. زيادة على ذلك، كان لا يعرف شيئاً فيما يخص كرة السلة، وحتى أنه لم يسبق له أن أمسك بكرة. غير أن صديق حسن لم يستسلم. كان الفريق الصومالي الوطني قد خسر مباريات رياضية كثيرة جداً، وكانوا يجتهدون لاعبين جدد. أن يكون لديك فريق رياضي رابح هو جزء آخر من الروح الوطنية السائدة في البلاد.

وهكذا انضم والدي إلى فريق كرة السلة وكان هذا شيئاً طيبياً. كانت قامته أطول من قامات زملائه في الفريق الرياضي. كان بوسعه أن يقفز أعلى وكانت لديه يدان فويتان نتيجة العمل مع الحيوانات. كانت مهاراته في الرعي أيضاً قد جعلته خفيف الحركة ومنحه قدرة على الاحتمال. ولم يكذِّ يمضي وقتاً طويلاً عليه حتى تعود كيفية استخدام الكرة. وسرعان

ما صاروا يلقبونه بـ «نور خميري»، أي «نور الطويل»، وساعد الصومال في الفوز بالمباريات الرياضية. وفي الحال توقف عن حمل الأسماك والذهاب بها إلى السوق وبدأ يكسب مالاً أكثر من خلال ممارسة لعبة كرة السلة. تبدل العالم بسرعة بالنسبة لأبوي. تعلّم كيف يميزان ويعدّان أوراق الشلن المالية والقطع النقدية المعدنية وكيف يشتريان السلع من مثل الملابس، الستائر، مصاريع النوافذ المصنوعة من الخشب، سجادة كي يفرشوها على أرضيتهما الترابية، خزنة ثياب، ورقاً، أشياء لا يملكها سوى الناس الأثرياء. كما تعلّم أبي القراءة والكتابة باللغة الصومالية، وهذا شيء غير اعتيادي لأن الرجال البدو والنساء البدويات هم أشخاص أميون، لا يعرفون القراءة والكتابة.



في الوقت الذي وُلدت فيه، كان والدائي قد أصبحها أميرة كرة السلة الجديدة بالاحترام في الحي السكتي. كانا مشهورين في جميع أنحاء موقاديشو. كان أبي يسافر كثيراً جداً خارج البلد، ويجلب الأوسمة إلى الديار. كان لديه متبايع بموجة قصيرة في المنزل ومن عادته أن يتصت إلى الأغاني التي يُشدها مطربون صوماليون مشهورون. جرت لأبوي البدوين أشياء كثيرة جيدة، إلا أن أمي اشتاقت إلى كلّ الأشياء في العالم البدوي. كانت تحسب أن حياة المدينة صعبة وكانت تمتعض من البقاء في داخل المنزل طوال اليوم، تطهو وتنظف، بدلاً من أن ترعى ماعزها عبر المنظر الطبيعي، في حين يكون أبي في الخارج يلعب كرة السلة. كانت قلقة من مسألة أن ينشأ أبنائها في موقاديشو من دون أن يعرفوا شيئاً عن حياة البدو. النسوة القليلات اللاتي ارتبطتّ معهن بعلاقة صداقة، من مثل ماريان، لم يكنّ بينها وبينهن قاسم مشترك. كنّ يتكلّمن عن الموسيقى الصومالية الشعبية وعن البرامج التلفزيونية الصومالية. بدلاً من ذلك، كانت أمي تسلي نفسها هنا وهناك في المنزل بأن تنغم بأغانيها البدوية المفضلة.

كان أبي يقضي معظم أوقاته خارج المنزل، يتدرب مع فريق كرة السلة. كان من عادته أن يؤوب في يوم الخميس ويقي يومين (الجمعة يوم عطلة)، وهو ما يزال مرتدياً قميص الفريق الصومالي الأحمر جالياً لنا الثياب والملعب بوصفها هدايا، وغالباً ما يجلب الحلبي لأبي.

كان من دأب جارنا سعيد أن يزورنا حين يكون أبي بالبيت. كانا يجلسان تحت شجرة النيم مساءً بمضغان ورق القات ويقلان يتحدثان حتى ساعة متأخرة من الليل. كانت أمي تُنفي إلى المنزل حين يكون الرجلان منهمكين بالكلام، إلا أنها بين الفينة والفينة كانت تُحضر لهما الشاي. كان سعيد يبدو قصيراً وبديناً بالمقارنة مع أبي، وثمة بسمة تلوح باستمرار على وجهه المستدير. وعلى غرار أمي كان يروي قصصاً كثيرة وكذلك النكات، وكان يحث أبي على النقاش، للمجرد تضيئة الوقت. كان سعيد سائقاً محترفاً يكسب رزقه وهو يسلم الطعام والبنزين للحكومة. كان يعود إلى منزله بعد العمل تفوح منه روائح الفاكهة أو البنزين أو مهما كان ذلك الشيء الذي نقله في ذلك اليوم.

غالباً ما يأخذني أبي كي أشاهده وهو يتدرب في «ملعب هورسيد الرياضي» في مركز موقاديشو. كانت أمي تُلبسني قميصاً نظيفاً جميلاً وسروالاً قصيراً. كانت ساحة الملعب تقع وراء جدار كونكريتي سميك كان البوليس ومعهم كلابهم يحرسون المكان، يزورون الأشخاص الذين يحاولون التسلل إلى الداخل لمشاهدة اللاعبين. كان بعض المعجبين يتسلقون شجرة عالية كي يتمكنوا من النظر من فوق الحائط. كانوا يقعدون هناك طوال ساعات يتفرجون فيما كان أبي وزملاؤه في الفريق الرياضي، وهم أفضل اللاعبين في الصومال، يلعبون كرة السلة طوال ما بعد الظهر. كان لي الشرف أن أسير إلى داخل المبنى وأبي يمسك بيدي الصغيرة جداً بيده الضخمة الكثيرة الشعر. كان الناس يرحبون به مثل نجم سينمائي وكانوا يلحسون رأسي بلطف أيضاً. رجال الشرطة والجنود يلقون عليه

التحية كما لو كان جنرالاً في الجيش. كان أبي يلعب على مدى ساعات، وفي نهاية الأمر يغالبني النعاس وأنا جالس على الدرجات، ولا أبقى من النوم إلا على كفيه فيما هو يأخفني صوب البيت.

كانت ساحة التدريب لا تبعد سوى كيلومتر واحد عن منزلنا، وكنا نمشي نحو المنزل مساءً مارين بجزيرة المرور⁽¹⁾ الـ «KM4»⁽²⁾، بـ «دار سينما إكواتوري»، بالمخازن والمطاعم التي تنفجر بالضحك، والموسيقى، والنقاش. كان الناس يتكلمون عن الحفلات الموسيقية والمسرحيات المعروضة في صالات المسارح. كان نادي التسلية «وُبري»⁽³⁾ الذائع الصيت يقدم برامج هائلة في أيام الجمع تجعل الناس يضحكون كثيراً. كان هنالك ممثلون كوميديون من مثل أو كوكو، أو كومي، وأو دأنغو. معظمهم سوف يُقتلون أو يترحون حالاً، إبان الحرب الأهلية.

في الجزء القديم من المدينة، فوق أنقاض قلاع سلطانات القرون الوسطى، ارتفعت الأبراج البيضاء لمسجد «أربعة رُكن» الموقبل في القدم والكاثدرائية الكاثوليكية التي شيدها الإيطاليون. كان بوسعنا رؤية المحيط الواقع خلف فنار الـ «ألمارا»، المبني من الحجر في القرن الخامس عشر حين كانت موقاديشو ميناء أفريقياً رئيساً، وأحسنا بقوة نسيم البحر على وجوهنا. «موقاديشو مدينة كبيرة»، فكرتُ مع نفسي، «لعلها أكبر مدينة في العالم». كانوا يسمونها «الؤلؤة المحيط الهندي البيضاء». شعرتُ أنني محفوظ جداً.



- 1- جزيرة المرور traffic island: هيكل فيزياوي أو شيء مطلي في الطرقات أو الأرصفة. الغرض الرئيس منه هو السبابة حركة المرور وانتظامه. قد تكون هذه أشياء مرتفعة عن الأرض من الخرسانة أو هيكلًا فيزيائياً من الأنواع، الحواجز «الدرايزونات»، مخاريط المرور إلخ. - م.
- 2- الـ «KM4»: ساحة شهيرة في موقاديشو في تقاطع شارع وُبري وطريق أنغوي وشارع مكة المكرمة- م.

كانت أهدأ ذكرياتي عن مواقفهم تضم شقيقي، حسن. كان بطلاً بالنسبة لي، لم يكن يكبرني إلا بعام واحد إلا أنه كان على الدوام يحميني من الصبيان الآخرين في حين السكتي الذين كانوا يسعون إلى التنمر عليّ. لم يكن حسن يعرف الخوف وكان يتقاتل مع الصبيان الذين يكبرونه سناً في بعض الأحيان كان يتقاتل مع ثلاثة صبيان في الوقت ذاته، ويرجع إلى المنزل، جسمه مليء بالجروح، وثيابه مغطاة بالتراب. في إحدى المرات هجم عليّ غلامان طرحتني أرضاً، وبعدها راحا يتخسّاني ويركلاتني. لم أخبر أمي، لكنني أخبرت حسن، الذي طاردهما وضربهما بقوة. مع أنني كنتُ أصغر سناً من حسن، كنتُ أكل أكثر مما يستطيع هو أن يأكل، وكنتُ أخطف الطعام من يديه. مع ذلك لم يكن يتعظني. غير أننا كنا نمارس ألعاب اللهو من مثل «الغمضية» و«تفريز» (وهي نوع من لعبة الكريات الصغيرة تستخدم فيها المصخور بدلاً من الكريات الزجاجية)، و«خداع الأعمى»¹.

انتظم حسن في المدرسة، حيث تعلّم القرآن مع ثمانين غلاماً آخرين جالسين على الرمل في كوخ. لم يكن هنالك ورق للكتابة، والطلاب يكتبون على ألواح خشبية طويلة، مستخدمين حبراً مصنوعاً من القمح. كانوا يكتبون فقرة من القرآن بالعربية، يحفظونها عن ظهر قلب ويكررونها، ومن ثم يمسحون الحبر ويكتبون الفقرة التالية. يظنون يفعلون هذا طوال النهار. كان المعلم يُعاقبهم بقسوة إذا ما ارتكبوا خطأ ما. كان معلمهم رجلاً مثقياً مُقطب الوجه يُدعى مكالين تسياس، الذي يمكن ترجمة اسمه بنحو تقريبي إلى «المعلم الذي يستخدم الطفل الحار والمقلوب كي يلدغ الجراح». لم يُل شخصٌ ما اسماً أفضل من هذا الاسم، مع أننا

1 - خداع الأعمى blindman's bluff: لعبة شهيرة يمارسها الأطفال في بقاع مختلفة من العالم، ويعود تاريخها إلى القرن عام. أعصب فيها حيناً أحد الأطفال، أما اللاعبون الآخرون ممن لم يضعوا عصابات على عيونهم فيسألون أنفسهم بأن يجعلوه يفلد اتجاهه بعد أن يدور مرات عدّة ويطلبون منه أن يمسك بأحد منهم فيما هو يتفقدون هنا وهناك - م.

صرنا تلقبه فيما بعد بـ «ملاك العقاب». كان حسن يعود إلى المنزل نازفاً بسبب الضربات التي تلقاها من المعلم العبوس.

كانت المدارس⁽¹⁾ هي النوع الوحيد من المؤسسات التعليمية في موغاديشو ولا شيء يتعلمه الصبيان سوى القرآن. لذلك أصبحت أمي معلمتي الكبرى. كان بوسعها أن تطهو، تخبز، وتغني مثلما يفترض أن تكون كذلك أي أم صومالية صالحة، إلا أن أكثر الأشياء التي أحببتها فيها هي الحكايات التي كانت ترويها لي عن سنوات شبابها في البادية. كانت تجلس متقاطعة الساقين تحت شجرة النيم معي ومع حسن بينما كانت أحتا الرضيعة، نعمة، ربما لا يزيد عمرها على العام الأول إلا قليلاً، تنام وإيهامها في فمها. كانت أمي تتحدث عن زمناها بوصفها راعية في الصحراء ذات الشجيرات الخفيفة، تحمي الماعز والجمال من الأسود والضباع.

حكّت لنا عن اليوم الذي ظهر فيه ضبع فجأة، وراح يهز ويكز على أسنانه. طاردته بعصاها عبر الأجمة قبل أن تعود إلى قطعها، علماً أنها يجب أن تعود بماشيتها إلى الزريبة القريبة من أبيها قبل حلول الظلام، حين كانت الضباع في أعطر حالاتها. إلا أن الضباع كانت ترقّت قطعها أصلاً. ومن دون خوف أو تردد تعقبتهما، لأن الصوماليين يقيمون ماعزهم وجمالهم بقدر ما يقيمون حياتهم. فز ضبع عليها، نبتها على الأرض، وأنشأ برائنه الحادة في عظمها. لحسن الحظ، وصل عندها في الوقت المناسب وبدأ يضرب الضبع بعصا. بعد مرور ثلاثة أيام، وكانت ما تزال تعاني من آلام مُبرحة، أرسلها أبواها مجدداً كي تعني بالقطيع.

كان رأسي يستريح في حضنها، وأنا أنظر إلى الأعلى حيث ندية الضبع في رقبته. كانت ما تزال لابسة الفلادة التي كانت تلبسها لما قابلت أبي

1 - المدارس *madrasas* في الأرجح. هذا النوع من المدارس يُسمى في معظم البلدان العربية بـ «الكتّاب»، أو «مدارس تحفيظ القرآن الكريم» - م.

أول مرة — غررز أسود مصنوع من خشب صلب، ذاكن وصقيل^١، قلادة من النوع الذي تلبسه النساء في الأدغال إلا أن نساء المدينة قلماً يلبسنه. كنت أتساءل كيف كان يومع أمي الهادئة، التي كانت تختبئ في المنزل حين يأتي الرجال لزيارتنا، أن تطارد الفصيح.

أكثر القصص التي روتها لنا إثارة للخوف هي تلك التي تدور حول الليلة التي دخل فيها أسد الكوخ حين كان أحد أقاربنا نائماً مع أولاده. كان الكوخ مصنوعاً من البلاستيك المتروك والورق. إن منزلاً ورقياً لا يلائم أسداً جائعاً، وذلك القط الضخم سحب الرجل إلى داخل الأجمة وهو يصرخ ويولول فيما كان أولاده ما يزالون نائمين. كانت أمي أحد الأشخاص الذين خرجوا من الأكواخ مسلحين بالرماح، لكنهم حين وصلوا إليه كان على حافة الموت. «كان هنالك صوت صغير ينبعث من عظه حيث كانت أسنان الأسد قد غاصت هناك»، قالت. حاولت أن أتخيل كيف هي الحال حين يرى المرء أشخاصاً ميتين.

لازماني قصة الأسد زمناً طويلاً وسيث لي الكوايس. كنت غالباً ما أسأل نفسي، «ماذا لو أنني وُلدتُ بدوياً؟» يقيناً كان سينفض عليّ أسد ويقتلني. أنا أكره الموت. كنتُ أريد فقط أن أعيش حياة كريمة كالحياة التي كنا نعيشها والتي كان عبتها ملقى على كاهل أبي وهو يمشي هنا وهناك وكان الناس يشجعونه، وروث لنا أننا هذه القصص لا لكي نخيفنا بل كي تساعدنا على فهم طبيعة الحياة في البادية، كي نلذّرها وتذكرها. كان هدفها هو ألا نجعلنا نغدو أولاد مدينة لا يعرفون إلا القليل عن الحياة البدوية. كانت تريدنا ألا نهزأ بالبدو الآخرين الذين يؤمنون المدينة بل يلزمنا أن نحترمهم وننصت إلى قصصهم. كما كنا قادرين على تعلّم لهجة الـ «زحانوين» البدوية والتحدّث بها لأن أمنا تروي جميع قصصها بلكنة

١- ورد في النص: wenge wood هذا النوع من الخشب يؤخذ من أشجار ضخمة ومستقيمة تُزرع في غرب ووسط أفريقيا، ويُستعمل لصنع الآلات والأرضيات - م.

الـ «معاي». دريتنا في المنزل والفتاء كيف تقاتل، كيف تنسلق الأشجار، وكيف تقفز. أنا وحسن كان بمقدورنا أن تقفز أعلى من معظم الأولاد في حيننا السكني.

ذات صباح لما كنتُ في نحو السادسة، استيقظتُ من نومي كي أرى الريش يغطي الحصير تحت شجرة النيم؛ ثمة طائر قتله قط شخص ما، قالت أمي، إلا أن الكائن الوحيد الذي خطر ببالني هو أسد. «لا أسود في المدينة»، انبرت أمي قائلة، غير أنني لم أكن متيقناً من ذلك.

سألتُ أمي كيف يُمكن حماية الطيور. «هذه الطيور هي ضيوفنا»، قلت لها. «كيف حصل أننا لم نستطع أن نقتلها؟» لم تردّ على سؤالني. بعد هبوط الظلام خرجتُ إلى شجرة النيم وخاطبت الطيور قائلاً، «لا يمكنني أن أحملك من الأسد هذه الليلة؛ ليكن الله في عونك».



في ذلك الوقت نفسه تقريباً لما أخبر أبي أسرنا أن كرة السلة انتهت وأنه سوف يملك في المنزل الآن. لم أكن أعرف كيف يمكن أن تنتهي كرة السلة. كانت هنالك دوماً لعبة أخرى، في يوم آخر. هل من الجائز ألا تكون هنالك أيام أخرى؟ سرعان ما بدأتُ ألاحظ أن الناس كانوا متوتري الأعصاب وطراوت تغييرات كثيرة جداً على وتيرة حياتنا. سعيد أصبح يقيم معنا الآن معظم الوقت، يعود من منزله كي ينام فقط ويقضي ساعات طويلة مع أبي وهما يصفيان للمضيق. كانت زوجته وأولاده قد غادروا موقاديشو وذهبوا كي يسكنوا مع أقاربهم في شمال الصومال. وعلى غرار أبي، توقف عن الذهاب إلى عمله.

كان سعيد وأبي يتكلمان في السياسة. منذ نهاية «حرب أوغادين» الدعوية مع إثيوبيا في العام 1978، كان اقتصاد الصومال يترنح. كان التضخم عالياً جداً بحيث أنك تحتاج إلى سلال من النقود الورقية لتشتري كيلوغراماً واحداً من المعكرونة الإيطالية (تعود سكان

موقاديشو أن يحبوا السباهيتي من مُستعمرهم)، حين يكون باستطاعتك أن تجدّها. كان الناس غاضبين من رئيس الجمهورية سياد برّي، بخاصة الناس الساكنون حول موقاديشو، الذين كانوا يشكل رئيس يتمون إلى عشيرة «هوي». كان سياد برّي ينتمي إلى عشيرة «دارود» المنافسة في الشمال. كانت هنالك خمس عشائر رئيسة في الصومال، إنما منذ الاستقلال كانت عشيرتا الـ «هوي» والـ «دارود» قد رشحنا نفسيهما كونهما الوحيدتين اللتين يمكن أن يشغلا منصب رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء؛ أفراد العشائر الأخرى بمستطاعهم أن يكونوا أعضاء البرلمان أو الكابينة الوزارية. وفي الحال، بدلاً من رؤساء الجمهورية ورؤساء الوزراء، عشيرتا الـ «هوي» والـ «دارود» صارتا تعطينا الجزيئات المتوحشين.

قبل «حرب أوغادين»، عندما كان سياد برّي يتمتع بشعبية واسعة، تمكن من أن يُبقي على عشيرة الـ «هوي» تحت السيطرة، وكان يراقبهم بعناية وحذر. أحد زعمائهم، وهو جنرال في الجيش يحمل اسم محمد فرح عيديد⁽¹⁾، أودع السجن مدةً من الزمن. الآن أخطى سبيله ثانية وكان متأهباً لمقاتلة منافسه المنتمي إلى عشيرة الـ «دارود»، بفضل السلاح والعمال اللذين كان يحصل عليهما من أثيوبيا، التي كانت تكرر سياد برّي على خلفية الحرب. كان عيديد قد أثار حماسة عشيرة الـ «هوي» الساكنة في المناطق الريفية، وهناك جرى الاقتتال، مثل حفنة من الأسود والضباع في الأدغال. إنما كم يمكن أن تطول مدة هذا الاقتتال في الأدغال؟

1- الجنرال محمد فرح عيديد، رئيس المؤتمر الصومالي الموحد (USC): وهي واحدة من المنظمات السياسية الرئيسية وشبه العسكرية في الصومال. لعب عيديد في عام 1987 دوراً رئيسياً في الإطاحة بحكومة سياد برّي، وأصبح هدفاً رئيساً لحملة عملية إعادة الأمل في عام 1993. عُرف أيضاً بعتك وتشدده ورفضه المصالحة مع الفصائل الصومالية وكان أحد الأطراف الرئيسة في الحرب الأهلية الصومالية. قُتل محمد فرح عيديد في اليوم الثاني من آب/أغسطس سنة 1996 في هجمات مفاجئة على يد أحد خصومه - م.

بطبيعة الحال كنتُ أصغر سناً من أن أفهم هذا كله، وحتى أنني لم أفهم أن السباحة كانت تأتي من مكانٍ يُدعى إيطاليا أو أن السباحة سرعان ما يكون أقل المشاكل التي تعاني منها. كنتُ أريد فحسب الذهاب إلى مطعم الوجبات الخفيفة. توصلت إلى أبي كي يأخذني إلى هناك، إلا أنني أول مرة في حياتي رأيتُ وجهه غير سعيد. رأيتُ خوفاً في عينيه؛ كان باستطاعتي أن أشعر بهذا الخوف بالطريقة نفسها التي شعرتُ بها حين كان صبيان حينا السكني يتمرون عليّ. كان هذا شيئاً جديداً أراه لدى أبي، ولما فهمت أنه جزء من شيء أكبر قد بدأ يحصل، كل ما باستطاعني أن أفكر فيه هو أن كل ما كنتُ أعرفه قد شارف على الانتهاء.

لم يكن يرغب بأن يأخذني إلى مطعم الوجبات الخفيفة، قال لي -

الرصاصات الأولى

استيقظتُ في ميين رجلاً بالغاً، إلا أنني في كوليسي كنتُ ما أزال غلاماً
في موقاديشو بعد أن انتهتْ كرة السلة. ما جرى بعد كرة السلة لم يكنْ في
الماضي أبداً، إنه يعيش ثانية في كلِّ ليلة في منامي، وغالباً في صحوتي.



ختاماً في يوم ما يصل المقاتلون، ينهبون المخازن ويُطلقون
الرصاصات الأولى من الحرب الأهلية الدموية. في الليل أسمع
الرصاصات تضرب شجرة التيم وتحلّق الطيور في الاتجاهات كلّها. في
صباح اليوم التالي أفيق من نومي لأرى الأفرشة، الأسرّة، الطعام، كرات
السلة، وميداليات كرة السلة العائدة لأبي قد حُزمتْ كلّها في الخارج.
أبي يحمل الأشياء الفائقة الأهمية في كيس غيش بيد واحدة وفراشاً باليد
الأخرى. ترك وراءه الد «جمبر» والرفوف الخشبية التي تستخدمها أُمي
كي تُحافظ على ملابس أبي نظيفة ومكوية. أكياس الطحين، الرز، والنفرة
يجب التخلّي عنها. أُمي تحمل ثيابنا الغداء البديل¹ لشقيقنا الرضيعة،
الحليب، وبعض أدوات الطهي، فضلاً عن نعمة على ظهرها، ملفوفة
بوشاح كبير وفق الطريقة الأفريقية. كما كانت حبلتي بطفلها الرابع. أنا

1 - الغداء البديل formula: أي الغداء البديل عن حليب الأم - م.

وحسن كنا نمشي بتاقل وراء أبونا في يوم مُعبر، شديد الحرارة حيث الرصاص والدخان في كل أنحاء المدينة.

بعد أن مشينا ياردات قليلة لا غير بدأت أبكي كي يحملوني. تجاهلني أمي، وراحت تكلو آيات من القرآن، ناظرة إلى جاتي الشوارع قبل أن نجتازها. كان بمستطاعي أن أسمع إطلاقات البنادق وتار الصواريخ في البعيد؛ ما تمكنت من رؤيته هو النهب والدمار. فيما نحن نسير، أرى أقبالاً ضخمة في أبواب المنازل التي أعرفها في منطقتنا السكنية؛ كان الناس قد هربوا في وقت سابق. الأقبال تعني أنهم ياملون بالرجوع؛ أغلب الظن آمال العودة هذه كلها سوف تبيخر في غضون أسابيع قلائل. في كل حذب وصوب أرى أمهات يمسكن بأيدي أولاد آخرين في سني، واقفين في جانب الطريق مصعوقين، مشدوهين، بسبب المصير المجهول الذي ينتظرهم. أسمع صراخ وزعيق أطفال. المطعم الصغير الذي اعتدت أن أرتاده مع أبي، المسمى على اسم صاحبه، «حاشي»، نُهب. الطعام يختفي بسرعة؛ بعدها رجلان نحيلان أشعثان يحاولان أن يأخذا الباب المحدد إلى منزلهما. ينتمي حاشي إلى قبيلة رئيس الجمهورية سياد بري، الذي كان هؤلاء الثوار قد طردوه، وكانت أمي قلقة من المكان الذي يوجد فيه. ثمة حشد من الناس تجمعوا على بعد مسافة من المطعم حيث كانت هناك جثة مُسجاة ووجهها إلى الأسفل — أول جثة بشرية أراها في حياتي. تبين لاحقاً أنها جثة حاشي، صاحب المطعم. ثوار بلباس مدني يقهقهون ويرمون بأذرعهم في الهواء تعبيراً عن النصر، يهشمون واجهات المخازن بأعقاب بنادقهم قبل أن يتسابق أحدهم مع الآخر كي يجمعوا الثمن الغنائم. معظمهم يرتدون الـ «معاوريس»، التي تلبس بشكل رئيس في الأدهال. وهكذا عرفنا أن الثوار ليسوا سكان المدينة؛ كانوا قد اقتحموا المدينة قادمين من مناطق نائية ولعلهم يرون المخازن والمطاعم أول مرة، مثلما كان أبواي قبل بضعة أعوام خلعت.

وحينما لم يعد هنالك ما يُمكن أن يُنهب من المخازن، أرى أشخاصاً يُنهبون تحت التهديد بالقتل. في الشوارع كلها، كانت الحرائق تشب في المباني. رجلٌ من الثوار في شاحنة بيك آب يمرر البنادق إلى مجموعة من المراهقين. أحدهم يطلق النار من بندقيته بالمصادفة، الأمر الذي جعل رفاقه يتفرقون إلى داخل الأروقة المسقوفة للمباني وخلف السيارات. كانوا يسقطون خارجين من سيارات الـ «تويوتا لاند كروزر» ذات السقف التي قطعت بالمناشير. كان السائقون يصبحون ويلوحون بانتصار فيما كان الجنود في السيارة المفتوحة يهزّون بنادقهم في الهواء ويرقصون. بعضهم وثبوا إلى الخارج وراحوا يركضون وراءه حاملين بنادقهم بيد واحدة بينما كانوا يحملون إلى الأعلى سراويلهم والـ «صاوييس» المرتخية. في الظاهر، أنهم لم يسرقوا الأحزمة بعد. كلهم ذوو بشرة شديدة السواد أكثر سواداً وهزالاً من سكان موقاديشو الذين كانوا ذوي بشرة أشبه بلون بشرة عارضة الأزياء إيمان¹، التي كانت من موقاديشو أيضاً. كانوا يطلقون الألقاب على أنفسهم استناداً إلى ملامحهم كأفراد العصابات الذين ساءلهم نالياً في أفلام هوليوود السينمائية. الأسماء التي كان يستطيع أن اسمعها هي داغا ويني (ذو الأذنين الطويلتين)، ألفسيري (الضم الطويل)، إيللي (ذو العين الواحدة)، غاسمي (ذو اليد الواحدة). كانت الشعارات المؤيدة لسياد بزي في الشوارع قد اختفت. الآن تسميه البافطات «القم الكبير» و«الرجل الوحشي». كلمة الـ «جالي» قد تغيرت إلى «فقاش» التي تعني «القاتل». كانت ميليشيات الـ «هوي» تقتل كل

1- إيمان Iman: اسمها الكامل: إيمان محمد عبد المجيد. ولدت في 25 حزيران/يونيو 1955، عارضة أزياء، مثلة ومنظمة احتفالات وفعاليات، صومالية الجنسية، زوجة الموسيقي والممثل الإنكليزي ديفيد بوي، وابنة سفير صومالي سابق. أكملت دراستها الثانوية في مصر، وبعدها أقامت في كينيا ودرست العلوم السياسية في جامعة نيروبي. تجيد خمس لغات: العربية، الإنكليزية، الفرنسية، الإيطالية، والصومالية. شاركت في كليب «Remember the time» مع ملك الغناء العالمي مايكل جاكسون، حيث أدت دور كليوباترا في هذا الكليب - م.

شخص يتلقى بكلمة «عوي» من الأفضل لك أن تقول «فقاش». كان أبي وأمي قد تفرّيا على الكلمة الجديدة واستعدا لنطقها.

«إنهم يوزعون البنادق كما لو أنها قطع حلوى!» يقول أبي. «من هو المسؤول عن هؤلاء القوم؟»

حين امتدت الحرب الأهلية إلى داخل المدينة، تمكن بعض الناس من الهرب بواسطة الزوارق، الطائرات، السفن، وحتى السيارات كانت تعبر الحدود متجهة نحو البلدان المجاورة. معظم هؤلاء الأشخاص الذين لافوا بالفرار كانوا يعملون لمصلحة الحكومة. بعض رفاق أبي في فريق كرة السلة ساعدتهم عضويتهم القبلية كي يتمكنوا من الذهاب إلى أمريكا، كندا، أو المملكة المتحدة. لم يتصل أحد بأبي. كانت البلاد قد تقاسمتها العشائر والقبائل، والناس يساعدون الناس الذين يمتنون بصلة إليهم بواسطة تلك المجموعات. كانت عشيرة أبي الـ «زحانوين» هي عشيرة فلاحين وبدو ولا يسعهم أن يقدموا له العون كي يلوذ بالفرار. ولذلك استخدم أبوي مهارتهما البدوية كي يسعيا إلى إتقاذنا. ما يفعله البدو هو المشي. سوف نظل نمشي إلى أن نصل برّ الأمان.

وهكذا انطلقنا في مسيرة راجلة لن أنساها أبداً. وعلى مدى أعوام كنا نسميها «مسيرة الموت».

بعد أن مشينا سبعة أميال وصلنا إلى منزل قريبنا مؤمن، الذي كان جنراً في الجيش الصومالي. كان مؤمن ابن عم أبي، كان الفرد الوحيد في أسرتنا الممتدة الذي تبوأ أعلى المراتب في الجيش. كان رجلاً مثقفاً، درس في «جامعة لافولي» بموقاديشو قبل أن يقرر الانسحاق بالجيش. كان منزله يقع خلف سور ذي بوابة. يظهر مؤمن في البوابة ليس في زي النظامي المألوف بل في قميص قطني ويتطلون أسود، يداه تخذشان شاربته بعصية. كان العلم الصومالي الأزرق ما يزال يرفرف فوق منزله. «ما من أحد يقوى على إيقاف القتال الدائر»، يقول مؤمن، «ما من أحد يتكلم إلى

أي فرد آخر، إنهم يتقاتلون لا غير». يحدّق في العلم ويهز رأسه. يذكر أن الحكومة ما تزال تفرض سيطرتها على المطار، إلا أن رئيس الجمهورية سياد بري هرب في وقت سابق. يبدو أنه يتعذر إيقاف الثوار، وأن جنرالاً في الجيش سيكون هدفاً مؤكداً. «يلزمني أن أغادر مع أفراد أسرتي لأن كل فرد مشغول بحاله»، يقول. «أتمنى أن تكونوا آمين هنا». يمرر أصابعه على وجهي ووجه حسن، إلا أن دموعنا ظلت تنهمر بنحو أكثر غزارة.

«ستكون على ما يرام هنا»، يخاطب أبي مؤمن. «سوف نمكث هنا الليلة وغداً صباحاً نطلق في رحلتنا».

وهكذا أتيح لنا أن ننام في منزل جنرال في الجيش المهزوم، فيما كان الثوار يطلقون الرصاص وهم يشقون طريقهم عبر المدينة باحثين عن موظفي الحكومة كي يذبحوهم. لا يبدو الوضع آمناً جداً. كانت حجرات المنزل تملأ بالجيران وأفراد عشيرة الـ «رحانوين» من جميع أرجاء المدينة، معظمهم من النساء والأطفال، لذلك تعين علينا أن ننام في الخارج. طرحنا أفرشنا على النجيل في فناء الدار فيما كان أبي قريباً من البوابة. كان يوسعي أن أسمع لهجة الـ «رحانوين». كان الناس يتوجسون خوفاً رجالاً من مثل أبي كانوا يذرعون المكان جيئةً وذهاباً مفكرين في ما سيفعلونه. دسّ يديه المُشعرتين في جيبويه باحثاً عن آخر ما تبقى من ورق القات كي يمضغها. كان أبي يعتقد أن تفكيره يكون أفضل حين يمضغ القات. لم يهتم به أحد، لم يبال أحد بتور خيري ذي الشعبية الواسعة، لاعب كرة السلة الواسع وذائع الصيت. كان الناس قلقين جداً على حياتهم.

إنها ليلة غير مريحة بسبب الانفجارات العنيفة ولسمعات البعوض. كان الجانب الخلفي من منزل مؤمن يتاخم أكبر المستشفيات الصومالية، «مستشفى المدينة». كان المستشفى يحمل اسم أمتي نفسه. في تلك الليلة كانت الميليشيات مشغولة بنهب المستشفى، يقبضون على كل شيء ذي قيمة كي يبيعوه تالياً. كان باستطاعتنا أن نسمع أصوات النهب وصياح

السارقين؛ يركلون الأبواب ويهشمون الزجاج، وحتى كانوا يهدّون السقوف. نهضنا من النوم في ساعة مبكرة كي نرى ثقب الرصاصات في بوابة منزل مؤمن، واتسللنا بهدوء.



كان الطريق جنوباً يمر بمحاذاة البحر. هناك على الأمواج، كانت السفن البيضاء كالحيثان تتحرك ببطء في البعيد. لاحقاً اكتشف أن هذه السفن كانت تُجلب موظفي الحكومة. على اليابسة، الأبقار، الحمير، الكلاب الضالة والدجاج كانت تتحرك هنا وهناك من دون هدف عبر الجموع البشرية. ثمة رجل نحيل يُطلي الحروف «USC» — «المؤتمر الصومالي الموحد»، الميليشيا الرئيسة لـ عبيد — بالأبيض على المحيطان كلها. وكان هناك شخص آخر يرسم وجهاً قاسي الملامح ذا فم كبير ويصنّعه باعتباره «سيد بري».

أبونا يقول لنا أن نعود ونبقى في منزل مؤمن وأنه يسعى لأن يجد سعيد، الذي من الجائز أنه ما يزال يملك شاحنته ويستطاعته أن يأخذنا إلى «بيدوة»، التي تبعد 150 كيلومتراً عن موقاديشو. لذلك رجعنا إلى منزل مؤمن، ومن جديد رحنا تنفادي الرصاص. خلال المدة التي غادرنا فيها المنزل، كانت الميليشيات قد أثبت بعد أن أرغمت المستشفى ونهبت كل شيء في المنزل. حتى العلم الصومالي أُزيل من مكانه، وكان مرمياً في الثرى بالشارع، وقد مزقته الرصاصات وغُلقت فيه ثقوباً.

بعد ثلاث ساعات، شاحنة سعيد السوداء، المُتخمة بالحاجيات، الأطفال، والنساء، تظهر لدى المنزل — أبي يجلس في الجزء الخلفي من الشاحنة، الرياح تنفخ قميصه وكانت تغطيه طبقة كثيفة من الغبار بحيث أنني قلما تعرّضتُ على وجهه.

حشرنا أنفسنا في الشاحنة، أُمي محنية الجسم، تحملنا أنا ونعمة، وأبي يحمل حسن. كنا نطلق نحو «بيدوة». يلتفت أبي إلى سعيد ويسأله،

«هل لديك ورقتان؟» كانت ذخيرته من اللغات قد نضبت. مسح سعيد حفنة من الأوراق وسلمها باليد إلى أبي. يدمسها كلها في فمه ويمضغها كالمعزى فيما كنا راكبين بالشاحنة.

في نحو خمسمئة ياردة تظهر مجموعة من الثوار أمامنا، تأمر الشاحنة بالتوقف. رجل داكن البشرة، هزيل، وذو شعر مشموج يوجه بندقيته إلى سعيد. قلما كان المسلح بالبندقية قادراً على التكلم لأن فمه مملوء بورق اللغات هو أيضاً. كانت السيجارة التي في يده تشتعل بسرعة في الريح، الرماد يطير ويسقط في عيني سعيد. كانت لهجته هي لهجة منطقة «غالغادود»؛ كان يتحدث بسرعة ويخلق إلى الجانبين فيما كانت البندقية على رأس سعيد. ثلاثة رجال آخرين كانوا يسحبون أشياء من الثوار. صادروا الأفرشة كلها في الحال. أبي يشاهدهم وهم يصادرون ميداليات كرة السلة العائدة له. كانت عينا أبي مغرورتين بالدموع لما عثروا على قلادة خرز الخشب الأسود والحلي الأخرى العائدة لها. كرات السلة قفزت على الطريق وانتهى بها المطاف أن أصبحت هدفاً يتقرب عليه الثوار البافعون. في الختام التقط أحدهم قميص «فريق كرة السلة الصومالي الوطني» الأحمر ورماء إلى الأسفل مع الممتلكات الأخرى. كان أبي يجلس هناك فقط ويشاهد مسيرته الرياضية وهي تُدمر أمام عينيه. «من أنتم أيها القوم؟ ما هي عشيرتكم؟» يسأل الرجل المسلح بالبندقية.

«نحن من عشيرة زحانوين»، تجيب أبي. لعلهم يدعوننا وشأننا.

«ترجلوا من الشاحنة، كلكم!».

تحت شالها، كانت أبي تخفي حقيبتها التي تحتوي على النقود ونقريباً كل شيء آخر تركته أسرتي.

«ماذا يوجد تحت ردائك؟» يسألها.

«مراد تجميل»، تقول أبي.

«أعطني إياها»، بجأراً، رافعاً بندقيته واضعاً إياها على رأسي. في الأغلب كنتُ خائفاً من الطريقة المُحكّمة التي كان يمسكني بها الرجل المسلّح بالبندقية ومن الهزال الشديد لرجليه. ولأنني لم أكن سوى غلام صغير، وما يخيفني أيضاً هو أنني رأيتُ أمي تكي بحرقه. لم يسبق لي أن رأيتها تكي بمثل هذه الحرقه. يصادر النفود من حقيبتها، يرميها جانباً، وبهزة من بندقيته يهذف قاتلاً، «اذهبوا!». ولأنها فتاة بدوية، سمعتُ أمي قصصاً عن نهاية العالم. «هكذا تكون نهاية العالم»، كانت تفكر في نفسها. في اليوم الذي ينتهي فيه العالم، تشرق الشمس من الغرب وتغرب من الشرق. تعمّ القوضى العارمة، البشر يقتلون بعضهم بعضاً، الأطلاق يتم التحرش بهم. يظهر كائن مُخيف، يث الرعب في أفئدة البشر. تعتقد أمي أن زعيم الميليشيا عبيد لا بد أن يكون هو ذلك الكائن. إلا أنها تتساءل لماذا الشمس ما تزال تسير في الاتجاه الصحيح، صوب الغرب.



حينما لم يعد هنالك شيء لأي فرد كي ينهيه، غادرنا موقاديشو على نطاق رفيع من الطريق المسفلتة عبر منظر طبيعي من الرمل الأحمر الذي تتخلله الشجيرات الشائكة. كانت الطريق مزدحمة، وحركة المرور كلّها في اتجاه واحد: خارج المدينة. مركونة في جانب الطريق في فواصل كان هنالك مزيدٌ من شاحنات البيك أب فيها مراقبون يرتدون ثياباً بالية جالسون في الأمتعة¹. كثيرٌ منهم يلقون رؤوسهم بأوشحة من قماش خفيف. إنهم يدخنون السجائر، بعضهم ينادقهم موجهة نحو السماء، آخرون معهم في أحضانهم يشيرون بأصابعهم إلى المركبات المارة. بعضهم بهيئة مجموعات يحتفلون، يصفقون، يهتفون، ويتشدون الأغاني. بعض شاحنات البيك أب كانت مزودة أصلاً بمدافع أوتوماتيكية صغيرة

1- الأسرة bed: مفرد ما سرير bed، وهو الجزء الخلفي المكشوف من شاحنة البيك أب أو أي شاحنة أخرى، حيث يُمكن أن توضع فيه الأشياء الثقيلة، أو السلع، إلخ. يُسمى بالدارجة العراقية: البودي - م.

مشبة على الأسرة. كانت هذه الشاحنات تُسمى «التفنيات»، وسوف تصبح مألوفة بالنسبة لي. أشاهد شاحنة واحدة. لا بد أن السائق مستجد في جلوسه وراء عجلة القيادة لأنه كان يضغط على الغاز بقوة شديدة وجميع الأشخاص الجالسين في الأسرة يسقطون إلى الوراء. يهضون من جديد ويبدؤون بالضحك، ومن ثم يدلع أحدهم الآخر ويويخه بطريقة ساحرة على نحو ما يفعل تلاميذ المدارس. في بعض الأحيان أراهم يوجهون بنادقهم بعضهم إلى بعض ويهضون بلكنات غريبة. كان الأمر بالنسبة لهم محض لعبة لا غير.

هذه ميليشيات عشيرة الـ «هومي» الموالية لـ «إيديد». كانت قواته هي التي نهب المباني الحكومية في المدينة وتقتل كل امرئ تجده موالياً للحكومة أو كل فرد ينتمي لعشيرة الـ «دارود». وصلوا إلى موقاديشو قبل يوم واحد فقط كي يساهموا في الانتفاضة. كان أبي مشهوراً في موقاديشو، وكل شخص من المدينة شاهده وهو يلعب كرة السلة لن يتعامل معه بتلك الطريقة. يقول سعيد إنه يميز عدداً كبيراً من الثوار من خلال رحلات الشاحنة خاصة في أنحاء الصومال. كانت وجوههم وجوه بدو تعودوا أن يقرودوا الجمال، كما كان يفعل أبواي في سالف الزمان، لكنهم لم يكونوا من بقاع الـ «زحانوين» الأمنة. هذه الميليشيات أتت من وسط الصومال، وهو مكان يحمل فيه البدو البنادق كي يحرسوا جمالهم. هم الآن يقرودون «التفنيات» في موقاديشو.

«كيف تمكنوا من الحصول على هذه الشاحنات؟» تهمس أبي. «من خلال بيع حليب ماعزهم؟» لا أظن أنها كانت جدية في طرح هذا السؤال. وفيما نحن نواصل رحلتنا، أرى مزيداً من المركبات التي أجبرها أعضاء الميليشيات على التوقف. أرى فرداً ما على الأرض وهو يُركل في رأسه ومن ثم شاهدتُ جثة. بدأتُ أشاهد أكداً من الجثث. أحد الشبان يُري شاباً آخر كيف يُطلق النار من بندقيته. ومن ثم يستدير المبتدئ كي

يواجه رهينة ويتحو عشوائي يرشقه بوابل من الرصاص كما لو كان معلماً للتدريب. في مكان قريب أشاهد طابوراً من عشرين شخصاً تقريباً والقضين، يتظرون تنفيذ حكم الإعدام. أبرز رأسي قليلاً من الشاحنة كي أرى رجال الميليشيات يدفعون مزيداً من الأشخاص نحو الطابور؛ بعدها يُطلق النار عليهم جميعاً رجلاً رجلاً شديداً الهزال. مصيرهم المروّع هو حسن حظنا: كان الثوار مشغولين جداً في إطلاق النار على الملاً الذين جزّوهم من السيارات الأخرى بحيث أنهم لم يكتثروا بإيقاف الشاحنة التي فيها أفراد أسرتي، وتابعنا طريقنا. كانت أمي تتمتع بأبات ومسور من القرآن.

في نهاية الأمر، أوقفنا عند نقطة تفتيش أخرى مزوّدة بنحو مئة رجل من رجال الميليشيات، حيث كان الهواء مُثقلاً بالدخان المنبعث من إطارات السيارات التي كانوا يشعلونها في جانب الطريق. رجل مسلّح ببنقية في الطريق يطلق النار عبر الشاحنة؛ بينما كان سعيد يشايل كي يوقف السيارة، أتوا من الجهات كلّها، مهرولين صوبنا وشرعوا يصعدون على مؤخرة الشاحنة. نعمة تيكى، حسن يحاول أن يخشى خلف وعاء تخزين ونقل السوائل⁽¹⁾ مملوء بالماء، אחتي رأسي، متحاشياً بتأدق الثوار الوائسين في مؤخرة الشاحنة. جرّوا أبي وسعيد خارج الشاحنة ودفعوهما على الرمل بحيث كان وجهاهما إلى الأسفل. كانت نظارات أبي الشمسية الداكنة بجانبه؛ ينحني أحد الثوار ويرفعها إلى الأعلى، ينفخ الغبار عن العدسات، ويضعها على وجهه التحيل. يُري زملاء من الميليشيا وينسجم.

أبي ينظر إليه، عيناء مفتوحتان ويومئ برأسه لإماعة خفيفة كي يقول لنا أن نحفظ بهدوتنا ورباطة جأشنا. الرجل الذي أخذ النظارات الشمسية

١- وعاء تخزين ونقل السوائل Jerry can؛ يكون عادة من الصفائح المعدنية أو البلاستيك. اخترع الجركن في ثلاثينيات القرن العشرين في عهد الرايخ الثالث النازي لأغراض عسكرية. يُسمى هذا الوعاء في بعض اللهجات العربية «بيدون»، وهذه الكلمة مأخوذة من الإسبانية عبر الفرنسية. وباللهجة العراقية «جليكان»، ويُستعمل في العراق لنقل وتخزين النفط والبنزين وسواهما - م.

يرى الآن ساعة أبي وينزعها من معصمه بقوة. يهرع نحو مجموعة أخرى من الثوار، ويزهو يحمل النظارات عالياً فيما هم يراقبونه باحتفال مشوب بالفخر. امرأة غير مسلحة تقفز إلى مقعد السائق، حيث كانت تخبئ هناك سيدة أخرى مع أولادها. «لقد تركتم سيدة وأطفالاً هنا!» تصيح على قطع الطريق، وبعدها تفتش تحت مقعد السائق في شاحنة سعيد إلا أنها لا تجد سوى بطارية ترسل نوراً كشافاً ونوراً ساحلماً خافتاً. من دون فتاعة، تلقت إلى أم الأطفال وتفتشها بفتاة. تخلع وشاحها وتدس يدها تحت الـ «غورتينو» خاصتها، إلا أنها لم تتمكن من العثور على أي شيء. «أنتم قوم طغراء لا غير»، تقول بوجه متجهم وتسل من الشاحنة، لا شيء. كي تسرقه. كانت سيدة في منتصف العمر، ترتدي ثوب «ديرك»¹ رصياً طويلاً وتضع قبعة عسكرية على رأسها — تشكيلة غريبة، أفكر في نفسي. تغيب عن الأنظار في حشد رجال الميليشيات.

أحد المقاتلين الأصغر سناً، يبدو في السادسة عشرة من عمره، يضع يده على رأس سعيد. «دعنا نقتلهم».

«لا»، يقول رجل أكبر منه سناً. «قتلنا مع عشيرة الـ [دارود].»

يدير المقاتلون ظهورهم لنا كي يتناقشوا في مصيرنا. وبعدها يسحبوننا من مؤخرة الشاحنة ويقولون لنا أن نجلس في قاعة الطريق. يمسكون بأبي وسعيد ويبدآن بسحبهما بعيداً. أبي يهمس قائلاً، «لا تهتموا، سأكون على ما يرام». بعد عشرين دقيقة تحت الشمس الحارة، يقول لنا رجال الميليشيات أن نمضي في حال سبيلنا، إنما أولاً يخلون الشاحنة مما تبقى من ممتلكاتنا القليلة.

يظهر أبي وسعيد من زقاق ضيق ويُرْكَلهما الثوار بقسوة فيما هما

1- الـ ديرك (dirac) فستان صومالي تلبسه النساء، يصل عادةً إلى الكاحل، ويكون فضفاضاً، وله في الأصل لونان. بدأت شعبيته تزدهر في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين - م.

يتجهان إلى الشاحنة. لا بد أنهما تعرّضا إلى الضرب الشديد في الزقاق. كان الدم يسيل من وجه سعيد، وكان أبي هو الآخر قد حُرب ضرباً شديداً، إلا أنهما تمكنا من الصعود ثانية إلى داخل الشاحنة، جلس سعيد في مقعد السائق، وأبي في الخلف. «هل صعدتَ في سرير السيارة؟» يسأل سعيد من دون أن يلتفت إلى الوراء.

«أجل، انطلق»، يقول أبي.

أمي تنسج. «في المرة القادمة لن نتجوا! سوف نموت كلنا! أنا خائفة على الأطفال، إذا لم ننجُ وظلوا هم على قيد الحياة — فإنيهم لا يعرفون شيئاً. إلى أين سيذهبون؟ سوف يموتون في الصحراء. خيبر لنا أن نموت في المدينة من أن نموت في هذا الطريق. كُذِرَ إلى الوراء!».

لم يتحرك سعيد. «المدينة تشتعل فيها النيران وهناك بنادق أكثر من المكان الذي نقصده الآن».

«سوف نصل إلى [بيدوة] إذا شاء الله»، يقول أبي، «إذا أبقوا هادئين». تواصل أمي تلاوة آيات وسور من القرآن بصوت مرتفع وتواصل إخبارنا أنه بتلاوتها تلك ستكون بخير. كانت تتعنى لو أنها لم تسكن في موقاديشو قط. كان يلزمنا أن نبقى في الأدغال. من الأفضل لنا أن نرعى بالقحط والحيراث المتوحشة مقارنة بهذه الحال. كانت تتعذب عذاباً شديداً وهي ترى أبي القوي يتضرّع من أجل حياته أمام رجل ينصف حجمه.

كان أبي يتوقع الموت في أي وقت. «لستُ خائفاً من الموت»، يقول في نفسه، لكنه قلق علينا وعلى أمنا. هو أيضاً يحسب أن هذه هي نهاية العالم.

خارج موقاديشو بعدة أميال، لم يعد هنالك مزيدٌ من متاريس الطرق، بل فقط الرمال التي تلدوها الرياح، الشجيرات الشائكة، وطواير الصخور بجانب الطريق. وعقب ذلك انعطفتا إلى طريق ترابي ووصلنا إلى منحدر من الخضرة — أشجار منجد، أشجار الموز، البطيخ الأحمر، والعشب

الطويل — حين يصل الطريق إلى أحد الأنهار، حشد من القرود الزرق ينزل من الأشجار على ظهر الشاحنة، باحثاً عن الطعام؛ هذه القرود تسرق دوماً الطعام من الناس، وجوهها الفضية وعيونها البرتقالية الخالية من التعابير تُخيفني. بالطبع نحن ليس لدينا طعام، وما من أحد مولع بالقرود سواي. أنظر إلى وجنتها المتفخخة وأنيابها الطويلة وأدرك أنني أعاف من القرود أكثر من البنادق. في كل مرة تفتح فيها فمها على وسعها، أتخيل نفسي أنها ابتلعني. أمسك بشاب أُمي بقوة، إلا أن أبوي يتصرفان كما لو أن القرود ليست هناك.

نلحق بأسرة من حيّنا السكني القديم، سيدة قصيرة القامة ذات وجه مستدير مع أولادها الثلاثة، كلهم ينشجون، يُبرز أبي رأسه خارج الشاحنة؛ سعيد يخفض سرعة الشاحنة ويسألنا عما جرى. تقول السيدة إن زوجها أدخلوه في نقطة التفتيش. كان جندياً لدى الحكومة، وقد ميّزه أحد رجال الميليشيات. سعى سعيد وأبي إلى مواساتها، غير أن ذلك لم يردّها إلا بكاءً. كانت تجلس تحت شجرة أكاسيا كثيفة، طويلة تعشش اللقائ في أعلاها، وتمسح دموعها برفق بطرف شالها. أما أنا فلم أكنُ أفعل شيئاً سوى مراقبة القرود وهي تركض هنا وهناك.

نصل إلى حافة مدينة «أفغوي»، منازلها الصغيرة من أجرات الطين المُبيضة بماء الكلس وذات سقوف من الحديد المموج تظهر من وراء «نهر أفغوي» الموجل. حين كان أبي يلعب كرة السلة، كان يقطع هذا الطريق مرة واحدة في الأقل أسبوعياً. كان هو وزملاؤه في الفريق الرياضي يتوقفون في «أفغوي» كي يقطعوا بعض ثمار اليايايا الحلوة الطازجة وثمار المانجا. وكان الناس يحشدون حول أبي، تواقين للنظر إلى زيه الرياضي، زي كرة السلة، وكان يلوح لهم. أما اليوم فيكافح كي يقف على قدميه.

يوقف سعيد الشاحنة في جانب الطريق من أجلنا كي نريح أنفسنا. أمي

ترافقني أنا وحسن ونحن نُنزل نحو النهر. وفيما كنتُ أُنَبِّئُ، أواصل النظر من حولي بحثاً عن القرعة التي من الجائز أن تنتزعني من الأرض وتأكلني. كانت هنالك امرأة تحضل بسقوط الحكومة، مجللة بالسواد ورأسها مغطى؛ كانت تتكلم من دون كلفة فيما كنا نَبُول. الأرض المحيطة بنا من الجهات كلها مزرعة. الأشجار تمتلئ بشمار الموز والمانجا الناضجة. على الأرض، بطيخات حمراء مستديرة سمينة تلمع تحت كتلة متشابكة من الكروم والأوراق. الحرب لم تبتلع «أفغوي» بعد، إلا أن هذه المحاصيل الوفيرة سرعان ما تتلف. المرأة التي كانت تحضل تزعم أن هذه الأرض هي أرضها وتقول إنه من المفترض بنا ألا نأكل من محاصيلها. أمسك بأمي، وفيما هي تخفض بصرها ناظرةً إليّ بوجهها المُرهَق، أمسك بطني كي أريها أنني جائع. تقول لي إنه لا يسعها أن تفعل شيئاً على الإطلاق، إلا أنها تأخذ شيئاً من الماء من النهر الموجل. يبدو لي الماء قذراً، لكنني عطشان، ولهذا أشرب إلى أن يمتلئ بطني.

تقول المرأة المجللة بالسواد إن القوات الحكومية قد تجمعت من جديد في مدينة على بعد خمسين ميلاً وانتشرت إشاعة مفادها أنها تتوجه حالياً نحو «أفغوي». كانت تنتظر على أحر من الجمر ميليشيات «المؤتمر الصومالي الموحد» قبل مجيء جنود الحكومة. الجو متوتر.

يستمر الطريق بمحاذاة النهر. «انظروا إلى التماسيح! انظروا، انظروا!» تصبح أمي. لم يسبق لنا أنا وحسن أن رأينا التماسيح.

أحدها زحف ببطء هائداً إلى الماء، وكم أدهشني أن أرى رجلاً يقف في الماء بجواره، كانت الـ «معاويس» خاصته مثبتاً في حزامه كي يُبقيه فوق مستوى الماء. «ماذا يفعل هناك؟» أصبح. «سوف يلتهمه التماسيح!» «لن يلتهمه. إنه [بحار]»، تقول أمي، «أي فرد لديه صداقة خاصة مع التماسيح. باستطاعته أن يركب فوق ظهورها إذا شاء ذلك، وسوف تزور منزله الواقع بجانب النهر؛ في بعض الأحيان يبقى في منزله طوال ساعات

الليل. إلا أن التماسيح لا تُرحب بالأشخاص الآخرين! إذا ما حدث أن اقترب أي شخص آخر منها، سوف تقتله وتأكله. إذا ما ظلّ بين التماسيح الآن، سيكون في مأمن من الثوراء. كنت أتمنى أن يكون باستطاعتنا البقاء مع التماسيح، إلا أنه حان وقت مواصلة الرحلة.

الطريق الترابي يتصل بالطريق المُسفلت ثانية. الشمس المُحرقة تبرد ببطء فيما هي تتزلق أسفل الأفق المغبر. وسرعان ما تصل شاحتنا إلى نقطة تفتيش جديدة. دوايب سيارة مشتعلة وصخور ضخمة في الطريق من أجل إيقاف حركة المرور. أحد أفراد مجموعة الجنود يرتدي بزة القوات الحكومية النظامية، يرفع يده كي يُوقف السيارة. هم ما يزالون يلبسون شارة «المجلس الثوري الأعلى»، مع صورة رئيس الجمهورية سياد بري. هم ليسوا بالثوراء! بثقة يشب أبي إلى الأسفل كي يلتقي بهم. الأغاني الحربية تنبعث من سياراتهم محدثة أصواتاً ثابتة، كلماتها تحت الجنود على عدم الاستسلام وعلى القتال من أجل أن يسيطروا مجدداً على موقاديشو.

«الثوراء أرغمونا على النزوح إلى لايدوة!»، يقول أبي. يرد الجنود على تلويحه مشيرين إليه أن يواصل رحلته. في طريقنا نرى شاحنة أخرى محملة بأشخاص نازحين، توقفت في جانب الطريق. الركاب يلوحون ويتوسلون كي يركبوا في سيارتنا، إلا أن سعيد يستمر في رحلته. لم يكن بوسعهم أن يخاطروا بأن يجلب معه أشخاصاً ربما يكونون من القبائل المنافسة ويتسببون في مشكلة ما عند متاريس الطرق.

بعد مرور نصف ساعة نرى مركبة عسكرية تسد الطريق أمامنا — نقطة تفتيش أخرى لجنود موالين للرئيس سياد بري، وعلمهم لا يزال يرفرف. كانت لديهم دبابات وعربات ثقيلة مزودة برشاشات، وبيازوكات وقذائف أرض - جو. تنز بعض الطلقات وتلقت كي نرى مجموعة مؤلفة من ستة أشخاص تهوي أرضاً، وراحت جثثهم ترتعش وتلوي فيما كانت دماؤهم

تنسكب على الرمل. «هؤلاء الجنود هم الـ [مريحان]»، يتمتع سعيد لأمي. إنها تعرف ما يعني: الـ [مريحان] هم نفس عشيرة [دارود] كالريس، إلا أنهم ليسوا جيشاً نظامياً كالجنود السابقين الذين رأيتهم قبل قليل. إنهم أشخاص متمسكون بمبادئهم، على خلاف جنود كثيرين أحرقوا بزياتهم العسكرية واختفوا في الأدغال حين جاء الثوار. إنهم لا يبالون بالحكومة، إنهم فقط يسعون إلى الانتقام من القبائل التي طردتهم من المدينة. ثمة جوانب كثيرة جداً في هذه الحرب، وأنا كنتُ أصغر سناً من أن أفهمها.

يُغير سعيد وجهة الشاحنة بغتة، إلا أن البنادق الآن مصوّبة علينا من الاتجاهات كلها. تهشم رصاصة المرأة الجانية القريبة مني، وكادت تصمّ أفني اليسرى. يوقف سعيد الشاحنة. يهرع إلينا ثلاثة جنود أحدهم يضرب رأس سعيد بعقب بندقيته ويجزّء فوق سطح الأرض. الرجال ثلاثتهم يضربون سعيد بأعقاب بنادقهم. أمتنا تدفعنا إلى الأسفل كي نتقلنا من الرصاص. رجل يقيص عسكري وقبعة عسكرية إنما يبتطلون مدني يأتي إلى النافذة حيث كنت أختبئ. يخفض بصره ناظراً إلى الأسفل ويديه الموصختين يسحب رأسي كي يراني، لكنني أصمد. «يا للطفل الغبي!» يقول، ومن ثم يمضي مبتعداً.

أبي يلفي جامداً بلا حراك، مخبئاً وراء تخزين ونقل السوائل. ينظر إلينا أحد الجنود. «من تكونون؟»

«نحن أسرة فقيرة»، ترد عليه أُمي متوسلة. «أجبرنا على التزوج إلى [بيدوة] بسبب الاقتتال الدائر».

«لبن زوجك؟»

«لا زوج لي. غاب عن الأنظار. قتلوا أناساً كثيرين، وجثث الأبرياء مُلقاة على امتداد الطريق». أنظرُ في عينيّ الجندي وأنساءه لمأذا يريد أن يقتلنا. ماذا يعني أن أفعل؟

«ترجلي من الشاحنة، يا امرأة، وأنزلي أولادك معك أيضاً».

«لن تنزل. نحن لم نفعل شيئاً، نحن مجرد امرأة وأولادها؛ لماذا تريد أن تقتلنا؟».

«السلام عليكم!».

إنه صوت أبي. يقرر أبي أن يظهر نفسه، إنه رجل شجاع كشأنه دوماً. «هؤلاء أولادي وهذه زوجتي، إني آخذهم إلى الأدغال حيث الأمان». لكنه قبل أن يُنهي ما يريد قوله، يهشم غضب بتدقية رأسه. أنظر بيأسى بالغ فيما كان دم والذي الطويل، القوي، الأبّي يبلل قميصه. هو الآن جاثٍ على ركبتيه أمام رجل ميليشيا داكن البشرة، ذي جسم صغير جداً.

وبعد ذلك يصيح صوتٌ من مجموعة المقاتلين. «نور غيري!» — نور الطويل! يهرع رجلٌ إلى أبي. يتصافحان بفرح ويعانق كل واحد منهما الآخر. لم يكن بمستطاع أبي أن تحبس دموعها.

«أحمد، أحمد!» يقول أبي. أحمد ضابط مرور من موقاديشو وصديق أبي. كان طويلاً على غرار أبي، يلبس نظارات سمكة وله شارب طويل. يبدأ بالتحدث عن زمنهما معاً في وقت السلم ويتذكران المباريات الرياضية التي حضرها أحمد، المباريات التي فاز فيها أبي خلال مشاركته في «الفريق الوطني». أحمد يشكر أبي على تلك المرة التي أعطاه فيها أبي المال. الجنود، وهم يلاحظون الحوار الودّي بينهما، يلتفتون إلى الشاحنة خلفنا. سعيد، ما يزال متهازاً على الأرض، يتلو صلاة الشكر. الجنود يهجمون بعنف على الشاحنة التالية، وعلى شاحنة أخرى وراءها. أبي وأحمد ما يزالان يتكلمان. أحمد يسأل أبي ماذا رأى في الطريق وما إذا كانت ميليشيات «هوي» تتقدّم جنوباً نحو «أنغوي». أحسنا لحظة بالأمان وبأننا لم نُصب بأذى، إلا أنه كان بوسعنا سماع صراخ النساء الثلاثي كُنْ يُضربن في الشاحنة المتاعمة وتغيبكنا أن يحدث لنا هذا.

يتضم سعيد إلى أبي وأحمد، الذي يمد يده في جيبه بحثاً عن سيجارة كي يتفاسما تدخينها. يتحدثان دقائق أخرى فيما يتحدث أبي وسعيد

وبالتأويب بدخان السجارة وينفثان الدخان. أمي تجلس على الأرض تساعد نعمة وهي تبول. خلفنا الجنود يجزّون أشخاصاً من الشاحنات ويُطلقون عليهم الرصاص. كلما يطلق الجنود النار، أجفل وأتوارى خلف أمي. أحمد يتابع حديثه مع أبي ومع سعيد فيما كان رفاقه الجنود يطلقون النار على أعضاء الأسر في الشاحنات التي ورامنا ويشبعونهم ضرباً وتقرعاً. أمي المسكينة تشاهد كل هذا ويدها على رأسها.

بعد لحظات قليلة تنتهي السجارة ونفادر المكان. وجه أمي مشع ومبلل بدموع الفرح. «نجونا مرةً أخرى!» تهتف مخاطبة سعيد حين تنطلق في رحلتنا مسرعين. «أمامنا يوم آخر للعيش!» الطريق الذي أمامنا أكثر أمناً، وكنا على مشارف «بيدوة». أحمد وعدنا بأن جنوده لن يهجموا على «بيدوة»؛ قال إنهم عائدون كي يستعيدوا موقاديشو وإن الحرب لن تصل إلى «بيدوة». لاحت الابتسامات على وجهي أبي وأمي لأول مرة منذ أيام عدّة، إلا أنهما كان يجب ألا يثقيا بأحمد. قوات من قبيلته سوف تهاجم حالاً على «بيدوة» وتقتل أشخاصاً من عشيرة «زحاثوين» لا على النعبيين. أحمد سوف يظل يحمل بتدقية طوال أربعة أعوام أخرى إلى أن يُقتل على أيدي ميليشيات عبيد في تبادل إطلاق نار بالبنادق في موقاديشو.



الضجيج الوحيد الذي كان يوسعي سماعه، بصرف النظر عن طنين محرك الشاحنة، هو تهيق الحمير، خوار الأبقار، ثغاء الماعز، والأصوات الإيقاعية للأجراس المُعلّقة حول أعناق الجمال العائدة من الرعي. كانت المصاييح الأمامية لشاحنتنا تُظهر المنازل المبنية بالعيدان وروث الحيوانات، بينما حيز يكفي فقط للمشاحنة كي تواصل رحلتها. من داخل عدد قليل من المنازل يُمكنني أن أرى الضوء الكليل لقناديل الكيروسين. أبي يسير أمام الشاحنة الآن، يحني جذعه باستمرار كي يُبعد الأغصان عن جانب الشاحنة. أمي تشم رائحة روث ويول الحيوانات في الهواء وتنبري

قائلة، «أقسم أنَّ هذه [بيدوة]». تبدأ بدندنة الأغاني لدوايبها، كنت فرحة جداً بسبب عودتها إلى ديارها. تُشير إلى أكوام النمل الأبيض في جانب الطريق. «لما كنت فتاة صغيرة، كنا نلعب بهذه الأكوام»، قالت.

أسمع صوتاً غريباً آتياً من موضع قريب من الشاحنة. «أمي! أمي! أمي!» نوجستُ خيفة، لكن أمي، أمي، سعيد لم يجفلوا. لا يسعني أن أفهم لماذا لم يبال أبواي بالصوت إلى أن عرفت أنه صوت رعاة يقودون جمالهم إلى داخل الزوينة. يظهر رجلٌ عجوز يحمل عصا طويلة خلف الشاحنة ويمشي ببطء بمحاذاة الطريق. وفي الحال يلحق به أبي كي يتحدث معه عن الجمال. الرجل العجوز لا يكثر بشاحنتنا، ويواصل ترديد لازمته «أمي!» فيما هو يترددش مع أبي بلهجة «معاي». كان له صوت واطئ ذاق؛ أبي يعرف أنَّ الرجل ليست لديه أدنى فكرة عن سقوط الرئيس سياد بري والغزو الآتي إلى «بيدوة». سعيد لا يعرف لهجة «معاي»، ويكافح كي يفهم فحوى الحوار الدائر بينهما من خلال إيماءات أيديهما.

كنا نتصوّر جوعاً. من حسن الحظ، الرجل يتبع طقس البدو ويقرر أن يُطعمنا كلنا بالحليب الطازج من ناقته. أمي، سعيد، وأبي يساعدون في حلب الناقة. تضع أمي طاساً على ركبتيها فيما هي تقف على رجل واحدة. تستخدم كلتا يديها في حلب الناقة، تعصر حلقات أذنانها بأصابعها. أبي يرت برفق على قوائم الناقة فيما كنا أنا وحسن نراقب وجه الناقة بتعجب. لم يسبق لنا أن كنا قريبين جداً من أي ناقة أو جمل. كان عتق الناقة أكبر من أن يكون حقيقياً، وكانت تمضغ شيئاً ما، شفتاها كثيرتا الزغب تتحركان جيئةً وذهاباً بإزاء أسنان كهربائية معوجة. أفكر في الثور بأسانهم البنية، وهم يلوكون القاذ وعضون السجائر، ويرتعد جسمي.

غاز الشاحنة يكاد ينضب، يقول سعيد، ولا يوجد غاز في أي مكان كي نستطيع أن نشتره، حتى لو كان يحوزتنا تقود. نمشي بشاغل نحو مياح ميني من الأشواك، ويطفئ سعيد محرك الشاحنة. يترجل أبي ويفرج على

عمود السياج مرات عدة، لكن ما من جواب. في نهاية الأمر يعود ماشياً، يركض بسرعة كما لو أنه يقوم بتسديد كرة السلة، ويقفز من فوق سياج الأشواك.

«من تكون؟» يأتي صوت عميق من داخل السور بلهجة «معاي».

«هذا أنا، نور»، يقول أبي.

«سبحان الله! من أين أتيت في هذه الليلة الظلماء؟».

وبينما كان يتأرجح باب الأشواك مفتوحاً، دُعِلْتُ لَدَى رُؤُوسِي أَنْ الصوت صدر عن امرأة. إنها إيسي، خالة أبي. كانت طويلة وقوية، ثمة فجوات بين أسناتها، وعينها جاحظتان. كانت تقبض على عصا ضخمة لأنها تقول إن زهو الأسد فاري ما يزال قوياً أثناء الليل. عاتقتنا كلنا واحداً إثر الآخر ودفعتنا كي نجلس على حصير في ساحة الدار. وسرعان ما تقاطعت سيقاننا ورحنا نلتهم الدرة البيضاء مع الفاصوليا. تقول إن «الحركة الصومالية الوطنية»، وهي مجموعة من رجال قبيلة الـ «دارود» بقيادة عمر جيس، وهو منشق من حكومة سياد بري، في طريقهم لأن يهجموا على «بيدوة». كانوا يرومون الاستيلاء على الأراضي الخصبة المحيطة بالمدينة واحتلال موقعها الاستراتيجي في وسط الصومال. رجال الميليشيات هؤلاء كانوا في وقت ما جنوداً أوفياء للحكومة الصومالية إلا أنهم الآن شكّلوا زمرة الخيانة الخاصة. معظم الرجال قرؤوا من المدينة، لأنهم كانوا الأهداف الرئيسة. النساء يتخوفن من الاختصاب. لأول مرة يفهم أبوي أن الصراع الذي كانا يحسبان أنه يدور في موقاديشو فقط هو في حقيقة الأمر في الأمكنة كلها. هما لا يعرفان إلى أين يذهبان إذا ما هادرا «بيدوة».

يهب أبي واقفاً على قدميه، يحدّق في كلّ واحد منا بالترتيب. إنه يشتم، إنعائمة خوف في عينيه. «إذا ما انتظرنا حتى الصباح، فسوف تُغلق كلّ الطرق الخارجية لـ [بيدوة] وما من سبيل للهرب. أنا وسعيد يلزمنا

أن يغادر الآن حالاً. لا تقلقوا، ستكون حالنا على ما يرام». أبي يغادر كي يتركنا في سلام وأمان. إنه يعرف جيداً أن وجوده معنا من الجائر أن يؤدي إلى قتلنا كلنا من دون استثناء، لأن الميليشيات تقضي على الرجال وأفراد أسرهم كلهم معاً. لكنهم من المحتمل أن يُبقوا على الأولاد مع أمهاتهم. كانت النداءات القريبة التي سمعناها في رحلتنا من موقاديشو كافية كي تفسر لنا ماذا سيحدث تالياً.

أبي وسعيد يتحدثان عما سيفعلان. أبي يعرف أرض الأدغال جيداً وسعيد يعرف الطرق، مزيج جيد. إلا أنهما يقرران أنه من الأفضل لهما أن يفصلا أحدهما عن الآخر حين يخرجان من المدينة، ستكون رافيتهما أصعب. سوف يتغلغلان في داخل الأدغال، بعيداً عن نيران البنادق. تلك هي خطتهما الوحيدة. يترك أبي كل واحد منا في جيبه، ويعددها يغادر، متوقفاً هنيهةً خارج الباب كي يلوّح لنا ويرغم نفسه على الابتسام. يعود بعد ثانية ليأخذ عصا كي يضادي بها الضباع والأسود، وعقب ذلك يخرج ماشياً ويقطع الطريق ذهاباً وإياباً مع سعيد، مارين بالشاحنة وخزان الغاز خاصتها الفارغ. أراقب أبي الطويل وهو يغيب في الليل الدامس.

-3-

ممر الأشواك

نحن الآن أربعة، من دون أبي. خمسة إذا ما أحصينا الطفل في رحم أمي. فقط أنا، حسن، نعمة وأمي الحامل. في تلك الليلة سمعتُ إطلاق نار بنادق. إيسي مضتُ إلى الخارج نصف ساعة ورجعتُ مجدداً، تقول إنها شاهدتُ جثثاً مرمية في شوارع فيدوة¹. نحن نسمع مزيداً من أصوات إطلاق نيران البنادق، صرخات بعيدة. كلُّ طلق ناري يُطلق يُقلقنا فربما يسقط على أبنينا. أمي وإيسي تقرأن المصحف. يستمر القصف المدفعي طوال الليل. أرى الرصاصات الخطاطة² عبر السماء. الرصاصات تخترق بسهولة السياج الشائك حول المنزل، إحدى الطلقات تمر قريبة جداً مني بحيث يمكنني أن أتحسس دفأها على خدي. النوم في برودة العراء ليس آمناً، لذلك تكلمنا في المنزل المزدحم الذي كان يعج أصلاً بنازحين آخرين. تقول لنا أننا إننا سوف نغادر صباحاً مشياً على الأقدام متجهين صوب الأدغال؛ أنا أعرف من خلال قصصها أن بمستطاعنا أن نواجه الحيوانات المتوحشة، العطش، والجوع.

فيما كانت الشمس تشرق، نزحف عبر السياج الشائك. أرى جثتي رجل وامرأة في عناق الموت. خلفهما مباشرة أرى امرأة راكدة على

1- الرصاصات الخطاطة tracers: مفردة الرصاصة الخطاطة؛ وهي رصاصة تحتوي على مركب كيميائي للبين لخط انطلاق الرصاصة بواسطة محيط من دخان - م.

ظهرها تيكى، الدم يتر من بطنها، كلاب ضالة تستعد للانقضاض عليها والاستمتاع بشاؤل لحمها. وبعدها ترتطم الرصاصات بجدار يجانينا مُحْدَثَةٌ صوتاً مكتوماً وتنعطف وتهرب عائدتين إلى المنزل. أنا في سن السادسة وأعرف أنه ما من مكان آمن في العالم.

طوال ست ساعات ترتجف في داخل السور فيما نحن نختص إلى أصوات الحرب. في النهاية تضرب قليفة بازوكا السور في انفجار نارى. إيسى تدفعني وتدفع حسن خلف كدس هائل من النمل الأبيض في الغناء. «أحضري رجالك إلى الخارج وإلا قتلناك!» يقول رجل داكن البشرة، شديد النحول يقف خارج السياج المشعل.

«لا رجال هنا!» تقول إيسى، وهي تحاكي لكنة الـ «دارود» التي يتكلم بها الرجل المسلح بالبندقية على أمل أن تضادى شراً بنحو مؤقت.

إلا أن المسلحين بالبنادق يقتحمون المنزل عنوة عبر بقايا السور، وسحبونا بقسوة من وراء كدس النمل الأبيض إلى ناحية أمانا. أحاول ألا أتحرّك وأبكي كي يُنقِلَ الرجل يدي، إلا أنه يسحبها بقوة أشد، ومن ثم يرميني بعنف على الأرض الترابية ويركلني. إنه درسٌ موجه ألا أجادل رجلاً مسلحاً ببندقية. حين يأمرني بالوقوف، أفعل ذلك، بصمت، يمكنكني أن أرى إحدى يدي الرجل ترتجف على زناد بندقيته. كانت يدها مليئتين بالندوب وذواتي جروح صغيرة، يبدآن خشتان تُنبئان عن حياة مختلفة في الريف — الأدوات الوحيدة التي كان يمتلكها قبل البندقية، اليدان اللتان استخدمهما كي يجث الأشجار الشائكة من الأرض أو يحفر بهما القبور. كانت أظافره مقوّسة إلى الداخل وزرعت في الخوف. كانت رشاشته مكسوة بالغبار، على غرار يديه المغبرتين، البندقية مصوّبة إلى وجهي. أحسّ في الثقب الداكن الذي تخرج منه الرصاصات.

يسقط جسم مُشع في الرمل. رصاصة. ألتقطها وأحملها إلى الرجل المسلح بالبندقية. إنها أول رصاصة ألمسها في حياتي؛ تبدو صغيرة جداً

ولامعة بحيث أنه من الغريب أن تسبب سفك الدم الذي رأيته آنفاً. «يا عم»، أقول، لأنه في أفريقيا الأطفال يخاطبون النساء البالغات بالعمة أو الخالة، والرجال البالغين بالعم أو الخال كدليل على الاحترام. «يا عم، لقد أسقطت هذه».

في البداية يتجاهلني. «يا عم، يا عم، يا عم!» أتضرع إليه. ربما ثربكه لهجتي الموقاديشية. لعل الرجل يحسب أننا من عشيرة «دارود».

وفي النهاية يخفض بصره ويلتقط الرصاصة. ربما كان مُحَرَّجاً لأن غلاماً صغيراً عثر على رصاصة. تلقى نظراتنا. لم تكن عينا غاضبتين أو خطرتين كما توقعت؛ كانتا فقط متعبتين وحمازين. يمكنني رؤية الغبار في شعروهما، الجلد الخشن عبر أيام عدّة من اللحية التي لم تُحلق. أغدو واعياً بالرائحة القوية للعرق والغبار وقميصه الأسود الممزق.

ولمّا أرفع بصري، أرى فمه مفتوحاً مدة وجيزة، كاشفاً بقع فاتت فيبحة على أسنانه. يلتفت إلى رفيقه. «أترك هاتين المرأتين وأولادهما، يلزمنا الذهاب».

كل واحد منا ينظر إلى الآخر بصمت طوال ثوانٍ قلائل قبل أن يرحل، ما يزال يحمل الرصاصة التي أعطيتُه إياها. وعقب ذلك يلتفت من حوله ويهتف قائلاً، «عليكم أن تغادروا في أقرب وقت ممكن لأنه إذا رأيتمكم هنا مجدداً لن أدعكم وشأنكم! سأعود في منتصف الليل، وإذا وجدتمكم ما تزالون هنا، سأقتلكم جميعاً!».



الشفق. أمي تربط نعمة على ظهرها وتمسك بنا أنا وحسن بذراعيها. إيسي تذرع المكان جيئةً وذهاباً طوال دقيقة وتقرر مغادرة المنزل بمفردها. نودعها ونتوجه صوب الشوارع التي بدأت تظلم. إيسي نفسها صوف تتيه في الأدغال على مدى عام كامل، متفادياً نيران البنادق وتأكّل كلّ ما تستطيع أن تعثر عليه. وحين تؤولب أخيراً إلى «بيدوة»، نجد أن

منزلها قد احترق تماماً وتحول أنقاضاً، ولذلك تغادر ثانية، تختبئ في الأدغال إلى أن يستعيد «جيش مقاومة رحاتوين» السيطرة على «بيدوة»، بعد مضي عامين.

أما نحمل نعمة على كتفيها، تتقدمنا وأنا وحسن نمشي ورامها حافتي الأقدام - لم تكن لدينا أحذية حتى قبل نشوب الحرب - نشق طريقنا باحتراس مارين بكلاّب تمضغ جثث القتلى. نرى مزيداً من الرصاصات المخططة وهي تتخذ مسارات مقوسة عبر الليل، ومضات الضوء، وبين الحين والآخر نسمع صرخات النساء. كانت أمي تعرف هذه الألفة الضيقة منذ عهد طفولتها، وكانت تجد أمكنة للاختباء بجانب الأكواخ كلما رأينا أو سمعنا أي حركة.

في حافة المدينة ننظر إلى الورا ونرى أن جزءاً كبيراً من «بيدوة» قد شبت فيه النيران. أمامنا البادية، تلك الأرض الخطيرة التي تكثر فيها الأسود والضباع. تشير أمي إلى أمكنة طاردت فيها الضباع ودرعت فيها الماعز إبان طفولتها، إلا أنني هذه المرة لست مستعداً لسماع قصصها؛ أنا أكافح كي أظل واقفاً على قدمي.

البادية في الأقل تهبت شيئاً من السلوى بعد أن هيمت علينا القلق الشديد بسبب الرجال المسلحين بالبنادق. بدلاً من ذلك، علينا أن نرضى بالتسور والغريان التي كانت تطير بأسراب كبيرة في شتى الأرجاء، تتقاتل مع الكلاب على لحوم الجثث البشرية. وفيما نحن نتحرك، تلاحقنا الطيور البشعة التي تفتت على الجيف. تطردنا أمي بحرق. نتابع سيرنا صامتين، مع أن الجروح الناتجة عن الشجيرات الشائكة تجعلنا نرغب بالصراخ ألباً. في بعض الأحيان، كانت أمي تتوقف مدة وجيزة كي تقربنا إلى ثوبها وتطرد مزيداً من الغريان. وغالباً نتعثر في الظلام بتموجات الرمل أو بشجرة شائكة. الركوب مع أمي وسعيد في الشاحنة يبدو الآن أفضل بكثير. أمي مُعاداة على البادية، أما نحن فلا.

اكسحتني الجوع، العطش، والإعياء الشديد، هي ذي أمي تجرني
جزأ. نسيتُ ما يتعلق بأبي، قدماي اللتان تؤلمانني شعشان غير الرمال إلى
أن أسقط أخيراً. حسن يجلس بجانبني. شفاء مشققتان. طبقة من الغبار
تكسو وجهه. لم يعد يشبه شقيقي الجريء. أمي تتطلع للوراء وتشير إلى
أنها لم تعد قادرة على رؤية نيران أو سماع أزيز رصاص. «ربما تكون هنا
حيوانات مفترسة وثعابين، لكننا في مأمن من الجنود»، تقول. «سوف ننام
تحت شجرة الأكاسيا هذه».

تسعى أمي لأن تبقى يظقة كي تحرسنا، إلا أنها مُتعبة إلى درجة ياعنة
على اليأس. وما كادت تمر دقائق قليلة حتى نططنا كلنا في نوم عميق.
حين توقف الشمس أمي، تهب واقفة على قدميها بسرعة. «انظروا
إلى آثار أظلاف الحيوانات، عددها كبير جداً نمنا قرب عرين الضباع.
أعتقد أنها ذهبت إلى [بيدوة] كي تأكل لحوم البشر. دعونا نذهب قبل
عودتها». أصوات غريبة تملأ الأرض، أصوات لم يسبق لي أن سمعتها
في موقاديشو. وحتى لا يسعني أن أجزم ما إذا كانت أصوات طيور أم
أصوات حيوانات، إلا أن أمي بمستطاعها أن تجزم. وحتى أنها تعرف ما
إذا كان صوت أنثى أم ذكر. إنها تنظر، تشم، تكصت، وبعدها تعرف أي
طريق يتعين علينا أن نسلكه. أنا سعيد لأن لديها معلومات كثيرة جداً عن
البادية والحيوانات.

نواصل سيرنا عبر الجو الحار. لدي الآن آلام في المعدة وأحتاج إلى
أن أتوقف مراراً. أصرخ طوال الوقت لأن قدمي تترقان، إلا أن أمي تعرف
ما العمل. نجعلنا نجلس تحت شجيرة منخفضة، أنا وحسن يضغط أحدهما
على الآخر كي نكون تحت الظل القليل الذي ترميه. تذهب أمي دقائق
قليلة، وبعدها ترجع ويدها بعض الأوراق. هذه هي نباتات الـ «أرضية»،
تقول، وهي مفيدة للجروح. نشاهدها وهي تمضغ الأوراق، وبعدها تضع
العجينة على جروح أقدامنا كما لو كانت مرهماً. تبدو جيدة جداً. كنتُ

أعتقد على الدوام أن قصصها البدوية أشبه بحكايات الجان؛ بدت بعيدة جداً عن حياة المدينة التي خبرناها في مولاديشو. لكننا الآن نعيشها، وأرى الآن كم كانت أمي تعرف فعلاً كيف تبقى على قيد الحياة. والآن، من دون أيّنا كي يفقدنا، أرى كم هي قوية وجريئة. في تلك اللحظة وسط البادية، فيما كان ورق الـ «أرضية» وبصاق أمي كلاهما يلطّقان وجع قدمي المشققتين والتافقتين، أقسم أن أبقى دوماً على قيد الحياة مثلها تماماً.



فجأة تحني أمي جذعها، تلوّح بيدها بحركة إلى الأسفل كي نخبرنا بأن نحلّو حذوها. تعودت أن تفعل هذا حين نكتشف الأسود والضباع في موضع ما، لكن اليوم السبب ليس وجود حيوان مفترس، بل مجموعة قوامها خمسة من رجال الميليشيات يسحبون رجلاً قصير القامة، في منتصف العمر على امتداد طريق ما ويهتفون بلكنة «معاي». «إنهم من عشيرة الـ [زحانوين]! الحمد لله!» تقف أمي وتمشي نحوهم. «كيف حالكم؟» تصبح بلكنة «معاي».

جميع الرجال الخمسة من الـ «زحانوين» يبدون في ثلاثينياتهم، يرتدون قمصاناً ممزقة مفقودة الأزرار. كانت طبقات التراب قد طمست حواشيهم. أحدهم ثني سرواله حتى الركبتين، كاشفاً التراب على رجليه. يدفعون رهبتهم على صخرة وينصتون إلى أمي وهي تصف لهم هربنا. «لا يوجد احتمال أن يكون بمستطاعتك أن نهربي في هذا الطريق لأنك الآن تتجهين صوب حدودهم»، يقول أحد الرجال. «ستكون لك فرصة أفضل في [بيدوة]». وبعدها يُسدد بندقيته نحو الرهينة، الذي يناشده كي يُبقي عليه حياً. «سامحني!» كانت هذه هي الكلمة الأخيرة التي نطقها الأسير. الرصاصات ترمي التراب من جاكته على أنفي وخديّ. كانت هذه ميليشيات «جيش مقاومة زحانوين»، الذين سوف يسترجعون «بيدوة» لاحقاً.

أحد الرجال يُسلم أمي باليد إبريق ماء. نعمة تشرب أولاً، وبعدها أنا، ومن ثم حسن، وفي النهاية أمي، التي لن تتوقف عن الشرب إلى أن يُخطف الإبريق منها. «لا تُنهي الماء!» يوبخها الرجل. يعطون لأمي قطعاً قليلة من اليوسفي لكنهم يصرون على أن تغادر المكان. وهكذا نطلق ثانية سائرين على الأقدام، آكلين فاكهتنا، عارفين بأننا لا نستطيع العودة إلى «بيدوة»، ومتسائلين ما إذا كان هناك مكان آمن في هذه البقاع.

الآن تحوّل وجع بطني إلى إسهال؛ حسن لم يكن حاله أفضل كثيراً، لذلك نحن نحتاج إلى التوقف كثيراً. أمنا تجعلنا نمضغ الـ «كُرْصية»؛ إنها مرّة ولاذعة إلا أنها على الرغم من ذلك مُريحة. ذات مرة فيما كنت أنحني في درب ترابي غير مستو، يدنو رجل من البعيد على عربة خشبية صغيرة يجزّها حمار. حين يقترب منّا، يكون بوسعي أن أرى أن العربة تنقل جلد بعير قُتل منذ وقت قصير جداً، الدم ما يزال يقطر منه على الدرب في الأسفل. «هذا هو بعيري الأخير»، يقول البدوي المعجوز. «ذبحته قبل أن ينفق».

كان الرجل يعتصر عمامة حمراء حائلة اللون، ولم يبقَ لديه سوى شعر قليل أشيب. تسأله أمي ما إذا باستطاعته أن يجعلنا نركب في عربته. يوافق. تشكره أمي وتصعد أربعتنا إلى الجزء الخلفي من العربة ونعود إلى ضواحي «بيدوة»، جالسين على الجلد الدامي للبعير المذبوح. نسافر بصمت، الجلبة الوحيدة هي الأنفاس الثقيلة للحمار وهو يكافح كي يرفع الدواليب عبر الرمل. نواصل التحرك عبر الشجيرات الشائكة سالكين طريقاً جانبيّاً يقودنا إلى «بيدوة» سائق العربة التي يجرها الحمار يعرف أنّ الدخول إلى المدينة شيء خطير جداً. الرصاصات ما تزال تُسمع، وعلى طول الطريق باستطاعتنا أن نشاهد الجثث المتفخخة والمفسخة. كلبان يمزقان بطن إحدى الجثث، فيما كان هنالك جروان يلعبان لعبة شد الحبل مع كُهم مُلقطخ بالدم.

في خاتمة المطاف نصل إلى الطريق الرئيس المؤدي إلى موقاديشو، حيث نُشير إلى شاحنة بالتوقف. كانت الشاحنة مكتظة جداً بالناس بحيث

أنه لا يوجد حيز للوقوف إلا في الخلف. سائق الشاحنة ضخم الجسم، ذو بنية قوية يوافق على أن نصعد على ظهر سيارته، إلا أنه يرفض مناقشة امرأة جريحة تتوسل إليه أن يأخذها إلى المستشفى. «لا يوجد مستشفى الآن»، يقول لها. «من يستطيع أن يساعد جريحاً يشارف على الموت؟» المرأة تجلس في قارعة الطريق، ويعدّها تضطجع وتفارق الحياة. «اليوم الموت أفضل من العيش»، يقول السائق. «دعوا المحتضر يموت».

الشاحنة ذاهبة إلى موقاديشو، إلى المكان الذي هربنا منه قبل بضعة أيام لا غير. ماذا نسعى أن نفعل باستثناء ذلك؟ لم نعد نقوى على المشي عبر الياوية، وليس هنالك غذاء ولا ماء. إلا أن طريق العودة إلى موقاديشو ليس هو نفسه قبل يومين. كانت السلطة قد باتت بأيدي ميليشيات الـUSC، وكانت الأشلاء في كلّ حذب وحسوب. أشجار المانجا في «أفغوي» تلفت كلها. حتى التماسيح والقرود نفقت، متعفنة في الشوارع. الميليشيات تختبئ في الشجيرات المنخفضة، تهاجم الناس من مكانها وتغتصب النساء.

بجوازي في الشاحنة امرأة تحمل طفلاً ميتاً. لم تشأ أن تترك جسده في قارعة الطريق فنتهشها الكلاب. مئات من الذباب تحط على وجه الصبي، ويعدّها تحط على وجهي الوسخ وعينيّ الوسخين. نحن نركب في شاحنة مُحَمَّلة بالموز، ورائحة الموز تختلط مع الرائحة الكريهة المنبعثة من جميع الأشخاص في السرير المكشوف¹ حيث كنا نلقف. جميع الأشخاص يحاولون أن يجدوا ثمرة موز كي يلتهموها، إنما لم تبقَ ثمرة موز واحدة. الأشخاص الأوفر حظاً يجدون قشور موز قليلة ويأكلونها. لم نستطع أمة أن نجد شيئاً لنا. لم تكن تبالي بأن تدمر قاتلة إنها حيلة ما من أحد يقدر أن يمدّ يد العون لشخصي آخر.

١ - السرير المكشوف: المقصود هنا مؤخرة الشاحنة المكشوفة، أو «ميردي» السيارة، بحسب الدارجة العراقية - م.

كان الطريق مسدوداً بالجلاليد والسيارات المحترقة، والسائق يشق طريقه بحذر عبر الأنقاض. في نقطة ما يقف كي يزيح بعض الجثث التي تسد طريقه، يسحبها من الشارع إلى الأشجار الواطئة. أما الجثث المتيسة فكان يركلها فقط كي يجعلها تتدحرج كالبرميل.

«ابني!» تصرخ المرأة، وتنب من الشاحنة وتسقط، يلامس وجهها الأرض أولاً. جثة في الطريق هي جثة ابنها. الدم ينز من فمها فيما هي تتضرع إلى السائق كي يحمل جثمان ابنها حتى تدفنه نائلاً. يرفض السائق، قائلاً إنه لا حيز للجثث. يعود إلى داخل الشاحنة وينطلق ثانية في رحلته، تاركاً المرأة النازفة وهي تعانق ابنها الميت في جانب الطريق.

«أماء! تعالي معنا من فضلك!» كان لديها أولاد آخرون، ما يزالون أحياء، في داخل الشاحنة، التي شرعت تغادر المكان. «أماء!».

تتوقف الشاحنة وترجع ببطء في الاتجاه المعاكس. تعانق المرأة ابنها الميت مرةً أخيرة، وبعدها تعود إلى الشاحنة وتجلس بحزن صامت طوال ما تبقى من الرحلة. نمر بعدد أكبر من الجثث التي تفرش الطريق. أمي تنظر عن كثب إليها، باحثة عن جثة أبي أو جثة سعيد.

تظل راكبين ما يزيد على 120 ميلاً. بطني يخفق. أكاد أفقد وعي، أمي بالذباب، بالحرارة، وبالوجع ويد أمي المرتعشة وهي تقبض على يدي. أمي بنقطة التفتيش التي تدنو منها الشاحنة وتطلقات البنادق التي تضرب المركبة، إلا أنني الآن مستعد لتقبل أي عاقبة، حتى الموت.

وبعدها أمي بالسائق وهو على الأرض متوسلاً بأنه ينتمي إلى عشيرة «دارود» شأنه شأنهم وهو يأخذ أناساً عيليين إلى موقاديشو. إنه يعطي الرجال المسلحين النفود. أمي بالوجع القاسية، عديمة الشفقة وهي تتطلع إلينا، أمي بالقذارة وبرائحة وجوههم إلا أنني لا أرى أي شكل من أشكالهم. لا يسمعك أن تعرف إلى أي عشيرة أو قبيلة ينتمي شخص ما من خلال النظر إلى وجهه فقط. يمكنك أن تجزم فقط من خلال كلامه،

لذلك يتعلم الناس كيف يلفقون لكنتهم. ربما يتظاهر السائق بأنه أحد أفراد عشيرة «دارود»، لا أعرف. إلا أن أمي يمكنها أن تلتق أيُّ لكنة من اللكنات، إنها متأهبة لكل شيء.

أدرك أن المركبة شرعت تتحرك ثانية وأنها انعطفت عن الطريق كي تسلك طرقات غير مستوية حيث لا توجد، تأمل ذلك، نقاط تفشيش أخرى أو ميليشيات أخرى. إلا أنه بعدئذ، أقل من اثني عشر ميلاً عن موقاديشو، تحطم رصاصة النافذة الجانبية وتنفجر في داخل رأس السائق. الشاحنة تتحرف بنحو جامع عن الطريق، وبعدها ترتعد في حفرة وتتوقف أخيراً بزاوية. جميع الركاب يصيبهم الرعب ويتزلزلون خارج الشاحنة، الركاب يتدافعون ويرتطم أحدهم بالآخر. ترميني امرأة إلى خارج الشاحنة وأحط على الأرض. تكافح أمي كي تُبقينا معاً، تضم نعمة بقوة إلى صدرها. ألقي نظرة أخيرة على الشاحنة وإلى السائق الذي كان منذ لحظات قليلة يركل جثث القتلى كي يبعدها عن الطريق، الآن هو نفسه بات في جدار الأموات. أمي تعرف أننا أيضاً من الجائز أن نموت بين لحظةٍ وأخرى، نموت برصاصة بندقية طائشة أو عشوائية، وهي تفكر في أن أبانا فارق الحياة الآن، إلا أنها تقول إنها هي نفسها سوف تموت قبل أن تترك جثثنا تتفسخ في قارة الطريق. الثوار الذين أطلقوا الرصاص على السائق يهرعون إلى الشاحنة. أمي تأخذ أيدينا، أنا وحسن، نعمة على ظهرها، ونمشي مجدداً نحو الأدغال المحترقة. نحن أربعة، وسوف نصبح خمسة، ونحن نرمي أقدامنا وقدرنا إلى الأمام في النسيم المنبعث من البحر، نحو «اللؤلؤة البيضاء» للمحيط الهندي. مع أننا الشجاعة بجينا، سوف نموت أو نحيا في موقاديشو.

مدينة النساء والأطفال

أضحت موقاديشو مدينة النساء والأطفال، مدينة القبور. كانت الشوارع مغطاة بركام مبعثر من أغلفة الرصاصات والقنابل غير المتفجرة. رجال ميليشيات مُتعبون كانوا يتجولون في الأحياء السكنية الخالية، السقوف، والأبواب توارثت عن الأنظار، حاملين الأشياء التي نهبوها منتقلين من منزل إلى آخر، من دون أن يتركوا شيئاً وراءهم. المدينة - العاصمة الكبيرة للبلد أمست «وادي الموت». كان يُشق على أبي أن ترى حطام المدينة التي وصلت إليها قبل بضعة أعوام خلت بحثاً عن حياة أفضل. وقفنا هناك - حسن، أنا، أبي الحامل ونعمة على ظهرها، ومن دون أيئنا، كلنا دائخون. لم يكن باستطاعتنا أن نصدق ما يمكن أن تفعله البنادق بمدينة بأسرها. والرائحة. للدم رائحة، معدنية وعفنة كرائحة قطع نقدية في جيب وسخ، وبوسعك أن تشمه حين يغطي الشوارع ويغدو صدئاً في التراب. ذلك الدم والرائحة التنة للمباتي التي تحترق وتدخن من دون لهب. رائحة الموت.

ليما كنا أنا وشقيقي نمشي بتناقل خلف أمنا، مررنا بـ«سينما إكواتوري» التي دمرتها القنابل، خرائب المطاعم والنوادي. لم تعد هنالك يافطات تطوف المدينة من أجل الترويج لبرامج الكوميديين المحليين. لا شيء يشير الضحك بعد الآن. وفي نهاية الأمر نصل إلى منزلنا. كان قد

آل إلى الخراب. كانت الصواريخ قد احترقته وخلقت ثقباً مُثْقَمة في جميع جوانب حجراتنا. اخضت قطع الأثاث التي اشتراها أبواي بفخر بما كسبه أبي من مزاوله لعبة كرة السلة. اخضت مصاريع النوافذ الخشبية، كما اخضت أي نافذة يمكنك أن تغلقها. اخضت الرفوف. كان الجنود الثوار يستخدمون ما بقي من الغرف كمراحيض، كانت هنالك أكوام نثمة من البراز تكتظ بالذهب في كل الأرجاء. شجرة النيم ما تزال منتصبة، يكسوها الفيل. ونحتها الإطار المهشم لسير الـ «جمبر» الذي وُلدت عليه، تبعثر عليه ركام من أعشاش الطيور والأعصان.

أنا وحسن كنا سعيدين جداً بعودتنا إلى منزلنا ولم نكتث بالفوضى. إلا أن أمي قالت لا. «لا يسعنا أن نبقى هنا»، قالت. كانت تعرف أن أولئك الأشخاص الذين استخدموا منزلنا كمراحيض، كانوا من يكونون، سوف يقتلوننا حين يرجعون. رجل مسلح هندقي في البعيد كان يُشير لنا أصلاً أن نتحرك من هنا، كان سلاحه مصوباً إلينا. كان يرمي أن أشاهد طمه المفتوح؛ لم يكن بمستطاعي أن أسمع ما يقوله، إلا أن إيمانه كانت كافية لأن تقنعنا بأنه يكاد يطلق الرصاص علينا. قالت لنا أماً أن تواصل المشي. تباطأنا أنا وحسن، لكننا بعد لحظات قلنا أخيراً بدأنا نغد السير.

ظلت أمي تلاحظ المعالم التي غابت عن الأنظار. «انظروا!» قالت. «أحمد غزي»¹ اخضى! كان أحمد غزي هو إمام وجرال عاش في القرن السادس عشر، وهو فضلاً عن ذلك بطل قومي. كان تمثاله البرونزي وهو

1- أحمد غزي Ahmed Gurey (1506-1543): هو السلطان أحمد بن إبراهيم الغازي. كان الإمام من سلاطين الصومال الذين غزوا الحبشة وهزموا العديد من الأباطرة الأثيوبيين، وألحقوا الكثير من الضرر والهزائم في تلك المملكة، مع مساعدة من الجيش لتكون أساساً من الصوماليين، شرع الإمام أحمد في غزو ما يقرب من ثلاثة أرباع الحبشة وخضعها تحت سلطة سلطنة عدله خلال الحرب العدلية الحبشية 1529-1543. الإمام أحمد بن إبراهيم الغازي هو أعظم سلاطين المسلمين، نحاس معارك خالدة، وكان يفتي الحبشة لولا تدخل البرتغاليين وأوروبا. استشهد في معركة ضد البرتغال والحبشة. كلمة «غزي» تعني «الأحمر». م.

على متن جواد، يلوّح بسيفه مُهدداً، في وسط مساحة الـ (KM4) قد اختفى، وربما أذيب كي يتم الحصول على معدنه. أمي، القنّاء البدوية التي كانت نحسب في يوم ما التماثيل أفراداً حقيقيين، تهز الآن رأسها غير مُصدّقة أن تمثالاً يُمكن أن يختفي.

كانت مسيرتنا الراجلة قد أعاقتها معركة بالبنادق بين مجموعتين من الثوار في شاحتي بيك آب تقابلتا فجأة في الطريق. اختبأنا وراء هيكل شاحنة محترقة. بعد خمس دقائق توقفت نيران البنادق، وخرجنا فوجدنا الجثث على الأرض. أحد الرجال لم يكن ميتاً إلا أن إصابته خطيرة، ينزف ويصرخ طالباً النجدة. شاحنة ذات رجال مسلّحين بالبنادق جالسين في السرير مرّت بسرعة وقضت عليه تماماً بوابل من الرصاص. تصاعد الغبار من الأرض في المكان الذي ارتدت منه الرصاصات. كان بوسع أمي أن تجزم من خلال كلامهم أن هؤلاء الرجال المسلّحين المتناحرين يتمنون كلّهم إلى القبيلة ذاتها. المناوشة بأسرها، الدم والموت المعبّد عذاباً شديداً، ربما كان سببها شخصاً رفض أن يقاسمه أحد سيجارته. لذا بالفرار.

أقدامنا العارية تتّرف من جراء الركض في الأرض غير المستوية في الشمس المُحرّقة. في بحثنا عن مكانٍ نقضي فيه ليلتنا تلك، كلّ ما كان بوسعنا رؤيته هو أناس ينطلقون مسرعين فراراً من نيران البنادق فيما هم يجتازون الشوارع. في بعض الأحيان، كان باستطاعتنا أن نلتحق بأسرة مضطربة أخرى، أم مع أولادها مثلنا تماماً، لا رجال على الإطلاق، ومعاً نجلس في جانب الطريق. بدا شيئاً جيداً جداً أن نجلس بعد مسيرة طويلة. يزيل حسن أحجاراً شديدة الصغر من قدمي فيما أنا مضطجع على ظهري. تباكات الـ «أرضية» التي استخدمتها أمي كي تعالج جروحي لا تنمو في المدينة، لذلك علينا أن نتحمل الألم. شقيقتي، نعمة، كانت محظوظة في أن تكون على ظهر أمي أغلب الأحيان.

صوماليون كثيرون توجهوا إلى أمريكا الشمالية وأوروبا، حيث وجدوا

هناك حياة أفضل وشاهدوا المجزرة في الصومال من بعيد. كان أحدهم غلاماً في مني يُسمى برغد عهدي، قرّ مع أفراد أسرته إلى اليمن ومن ثم إلى ميناياوليس. ذهب إلى الكلية الواقعة في مينيسوتا، وبعدها أخذ يعمل في متجر للمهاوئف الخلوية بمول حين خضع لتجربة أداء كي يؤدي دوراً كقرصان صومالي في الفيلم السينمائي المعنون «كاتب فيليبس» من تمثيل النجم توم هانكس. الآن بات ممثلاً سينمائياً شهيراً ويقيم في هوليوود. كان رجلاً محظوظاً جداً.

وفضلاً عن ذلك هناك أناس مثلنا، أغلبهم نساء وأطفال، هائدون إلى موقاديشو لأنه ما من مكان آخر نذهب إليه. كنا قد وقعنا في الفخ.

سرعان ما جنّ الليل. بانعدام التيار الكهربائي أصبحت المدينة سوداء كالقار. آرث طلقات البنادق من الزوايا كلّها وكانت الكلاب تتقاتل على الجثث البشرية. أمي ما تزال تسعى لأن تجد لنا مكاناً نقضي فيه ليلتنا. في بالها مكان واحد لا غير: تحت جسر الـ «KM4»، وهو مكان يشق فيه أحد الطرق نفقاً تحت الطريق الرئيس. لا يبعد المكان سوى مسيرة بضعة أميال، إلا أننا حين وصلنا إلى هناك، تبين أنّ أمي على حق: بدا المكان أهدأ في النفق المظلم. لم نكنْ نسمع سوى أصوات طلقات بنادق بعيدة وصوت ريح الليل الخفيفة. نشرّت أمي وشاحها على الطريق الترابي. كنا جميعاً في غابة الإعياء. أنا وحسن أرحنا رأسينا على الوشاح؛ أمي حضنت نعمة. أمواج المحيط، التسيم البارد، والصراصر المزققة جعلتني أغط في نوم عميق.

إلا أنه تبين أنّ ذلك النفق لم يكن هادئاً جداً. كان نومنا قد تقطّع بسبب الكلاب التي كانت تهرّ فيما هي تفتش عن الطعام. وفي الختام، وقت الفجر، حين كان هنالك نور شحيح في الأفق، فتحت عيني لأرى أمي وحسن واقفين في النفق يكيان، «لا إله إلا الله!». كانا واقفين على قمة مقبرة. لم ننتبه ليلاً، لكننا الآن شاهدنا أن المكان الذي نمنا فيه هو مكانٌ

تُدفن فيه الجثث بسرعة، يدفنها أفراد هاربون من ويلات الحرب، كانت الجثث جديدة، لم تتعفن بعد، ما تزال في ملابسها التي يُمكن رؤيتها تحت الطبقة الخفيفة من التراب الذي يغطيها، جسد إحدى النساء كان نصف مكشوف، كانت الكلاب تنهش قدميها، اللحم البشري في كل الأنحاء، بدا ذلك أشبه بحادثة قتل في الطريق بأحد الشوارع الرئيسة في «الولايات المتحدة». هربنا من جديد، مشمذين من المشهد إلى حد التقيؤ.

طوال أسابيع عدة نمنا في الشوارع مع جثث القتلى، كانت أمي تشبه تهويده الـ «هوايا هوا»، بصوتها الضعيف، ولأن بطوننا فارغة لم تدفعنا الأغنية للنوم. كنا ننام ساعات قلائل من القيلولة ونواصل مسيرتنا صباح كل يوم، لمجرد أن نتوقع أننا ننضم إلى الأموات. تعودنا على الجثث، إلا أننا لم نستطع أن نتعود على بطوننا الفارغة بنحو مؤلم. بعد أيام من دون طعام ولا ماء، أحاول أن أتبول فلم أستطع، لم يخرج سوى الدم. كنا نأكل كل ما نستطيع أن نمضغه — ثمرة شجرة تيم غير ناضجة بدا طعمها أشبه بطعم حبات الزيتون المُرّة، والسحالي التي بامتطاعتنا أن نمسك بها، ما من شيء مفرز جداً حتى الجلد الميت الذي كنا تسلخه من أقدامنا. كنا نعاني من مرض الإسهال والجفاف ولم نكن وحدنا في هذا العذاب الأليم. كان أناسٌ كثيرون يموتون من المرض بقدر أولئك الذين تصرعهم مصاصات البنادق. سمعتُ أننا لأن تريحنا، فأخذتُ تروي لنا القصص عن حياتها البدوية لقما كنا نرنح على وشاحها في أمكنة مختلفة كل ليلة، إلا أنني لم أستطع أن أنبه إلى قصصها. حين كانت نعمة تصرخ من أجل أن ترضع الحليب، كانت أمي تسعى لأن ترضعها من ثديها، إلا أنه ما من حليب يدر من ذنك الثديين. كانت شقيقتنا الصغيرة تنكمش بسبب نقص التغذية.

في هذه الأثناء، كان بطن أمي يكبر مع نمو حجم طفلها، كانت شفتاها متشققتين من جراء الجفاف. كان البقي يمتص الدم من جلدها، وكانت

تكشط جلدها بين ثائية وأخرى. انفتحت جروح قتالها القديمة مع الضباع وبدأ الدم ينز من عنقها، يديها، ورجليها. طفلها الجديد سوف يولد عما قريب. توقفت سبي - شقيقنا الأحداث في طريقه إلى جهنم في الأرض. ما من أحد جال في خاطره أن هذا الطفل سينجو من الأهوال ويكون بمستطاعه أن يأتي إلى العالم. كانت أمي خائفة من ولادة الطفل.



كانت خديجة أحمد هي الجارة الوحيدة التي يمكننا أن نعرف أنها ما تزال باقية في المدينة. كان أعضاء أسرنا شجعان وعقدوا العزم على عدم مغادرة موقاديشو، إلا أن زوجها قُتل قبل بضعة أيام عثت كانت الأسرة في حالة حنّ حين وصلنا إلى هناك. قابلنا خديجة فيما كانت تزيل شيئاً من الأنقاض⁽¹⁾ في الشارع. تعانقت الاثنتان، أمي وخديجة، وكلتاهما دُعثتا لما رأيت إحداهما الأخرى أنها ما تزال على قيد الحياة. كان لدى خديجة ثلاثة أولاد أحياء، صبي يُدعى عبد القادر، كان في سنّي تقريباً، وابنتان تكبرانه سنّاً، فطومة وفردوسة. وابن آخر، كافي، يكبر شقيقي حسن بسنة واحدة، قتله قناص في الشارع. فطومة وفردوسة، كلتااهما كانتا في عهد المرافقة، كانتا تساعدان أمهما في جلب الماء وتنظيف المنزل.

قررت خديجة أن تزونا. قدّمت لنا شيئاً من الماء والعصيدة، إنما لا أحد منا كان بمستطاعه أن يتلع الطعام، كنا نعاني من جفاف شديد. كانت روعي تريد الطعام إلا أن جسمي لا يستطيع أن يتقبله. كانت راحة كبيرة أن نكون قادرين أخيراً على أن نهجع في حجرة، حتى إذا كان السقف قد اخترقته ثقوب الرصاصات. كانت الجدران مصنوعة من الورق المقوّى، بيد أن الغبار الجاف المنبعث من الشوارع لن يضرب وجوها على الأقل وأنا لن ننام فوق أجداث القتلى. كل ليلة قبل أن نأوي إلى الفراش، كنا نجلس

1 - الأنقاض rubble: قطع غير مصقولة من كتلة الحجارة. حيثما نرد كلمة «الأنقاض» في ترجمتنا هذه نقصد بها هذا المعنى - م.

بهذه حلقة تحت سماء موقاديشو الداكنة التي تومض فيها النجوم. غالباً ما تختفي في النور الساطع للرصاصات الخطاطة، لمجرد أن تومض مجدداً حينما تقل تيران البنادق. فطومة، ابنة خديجة الكبرى، ساعدتنا على نسيان الألم من خلال ألغازها. بعض تلك الألغاز كانت ألغازاً دينية، عن النبي محمد أو عن زوجاته. وبعضها الآخر كانت ألغازاً عن المنطق.

«شمة رجل كان يروم عبور أحد الأنهار مع معزاته، ومع حزمة من القش، ونمر»، تقول. «يوجد زورق صغير واحد يكفي لشيء أو مخلوق واحد في كل مرة. إذا حمل القش أولاً، النمر سوف يأكل المعزاة؛ إذا حمل النمر أولاً، عندئذ ستأكل المعزاة القش. إذا حمل المعزاة أولاً سيواجه المشكلة نفسها في الضفة الثانية من النهر حين يجلب إما النمر أو القش. كيف يكون باستطاعته أن يعالج هذه الحال؟».

فكرتُ في الأحجية طوال ساعات على ما يبدو، وأنا أرنو إلى النجوم. الصوماليون يعتقدون أن كلَّ نجمة تمثل فرداً رحل عن عالمنا في وقت ما. نظرتُ إلى أكثر الكواكب سطوعاً وتخيلت أبي يومض لي من السماء. «ياخذ المعزاة أولاً» قالت فطومة، وهي تُعيدني بسرعة إلى الدائرة. «ومن ثم يرجع ويأخذ النمر».

«لكن النمر سيأكل المعزاة في الضفة الأخرى!» قال حسن.

«آه، لا»، قالت فطومة، «لأنه الآن سيعيد المعزاة معه! يترك المعزاة في الضفة الأولى ويأخذ القش، ويعدّها يرجع ويأخذ المعزاة».

«كلا!» تقول شقيقتهما، فردوسة.

«نعم!» قالت فاطمة، بكلِّ جد. «هذا شيء صحيح».



حين دخلت ميليشيات عشيرة «هوي» موقاديشو وأطاحت بالرئيس سياد بري، كانت متوحدة في هذه القضية. لكنها في أواخر العام 1991، ما إن هُزم سياد بري وتم القضاء على الحكومة، انقسمت الـ «هوي» إلى

قيلتين، الـ «أبقال» والـ «حبار جدير»، وبدأت تقاثل إحداهما الأخرى بهدف السيطرة على المدينة. كان هذا هو الطور الثاني من الحرب الأهلية، التي تُسمى «حرب الشهر - الرابع». تبين لاحقاً أن هذه المعركة كانت أسوأ من المعارك التي سبقتها، لأنه الآن توافرت أسلحة كثيرة جداً في موقاديشو. وسوف تنتهي بالدمار الكامل للمدينة، وكانت قد بدأت حال وصولنا إلى منزل خديجة.

كانت أمي وخديجة تخرجان كل يوم كي ترفعا جثث القتلى من الشوارع، وتحاولان أن تدفنا تلك الجثث كما ينبغي. كانتا تفعلمان ذلك انطلاقاً من الاحترام وحفاظاً على الصحة العامة ومنع تفشي الأمراض. أنا وحسن كنا نشقى رويداً رويداً من الجفاف الذي كنا نعاني منه سابقاً وأصبحنا قادرين على تناول شيء من العصيدة. اتعقدت بيني وبين عبد القادر صلة صداقة. كنا نمارس ألعاب الحرب، نجعل بنادق الـ AK-47¹ تخرج من أغصان الشجرة ونطلق النار أحداً على الآخر. كان بمقدورنا أن نصنع بالفواها أصوات بنادق حقيقية جداً، لأننا كنا نسمع أصوات بنادق حقيقية يوماً. قطعنا سطح «جليكان» بسبع ثلاثة لترات وجعلنا منه نموذجاً للشاحنة أسلحة «تفتية»، مستخدمين قواعد صنادل الإصبع² الاسفنج بمنزلة دواليب سيارات. أضرمنا فيها النار، متظاهرين بأنها خربت بصاروخ. كنا نسلّي أنفسنا ونستهج. بهذه الطريقة كنا نتغلب على خوفنا وقلقلنا العميقين والدائمين. معاً أنا وحسن وفتيات خديجة كنا

1- AK-47 rifles (أو كلاشكوف): سلاح هجومي رشاش صممه الروسي ميخائيل كلاشكوف أثناء إقامته في المستشفى خلال الحرب العالمية الثانية سنة 1941 حيث قام بدراسة عدة تصاميم أسلحة وانتهى إلى وضع تصميم ليدقية آلية مشتقة من يدقية استعمالها الألمان في الحرب، وحربت يدقية كلاشكوف أول مرة من قبل الجيش الروسي في عام 1947 - م.

2- صندل الإصبع flip-top: نوع من الصنادل ذات القدم المكشوفة. ويُسمى أيضاً «القططية»، لأنه يُحدث طقططة جراء الصنع المتواصل لباطن القدم أثناء المشي. يُسمى بالدارجة العراقية: «نعال أبو الإصبع» - م.

نلعب «الغمضية» في المنازل الخالية المحيطة بنا، قافزين من نافذة إلى نافذة، مختبئين وراء الأنقاض. وما أن يُدمر أي منزل من المنازل حتى نهرع إليه على أمل أن نجد مواضع جديدة للاختباء.

لكن سرعان ما نفذت المصيدة، وكان يلزمنا البحث في الشوارع عن أي طعام. أصبحنا ضعفاء جداً بحيث كنا نتكلم همساً، غير قادرين على التطق. نظرتُ إلى حسن وأدركتُ أن عينيّه غائرتين في رأسه، هيكله العظمي مرئي بنحو جلي. كل مساء، أمي وخديجة تعودان إلى المنزل وعلى وجهيهما بلوح قدرٌ كبير من القلق. في هذه الأثناء كانت الميليشيات تتقاتل في أركان المدينة كلها، ساعية إلى السيطرة على بلوك إثر بلوك. كانت لديهم منصات إطلاق الصواريخ والبنادق الأوتوماتيكية التي كانت تُصينا بالصمم. كانت الحرب تدنو غالباً من منزلنا بحيث كان يوسعنا أن نسمع المقاتلين يهتفون بانتصار وغالباً ينتحبون حين يُصابون، الطلقات تنطلق مُحدثةً أزيزاً مازةً بغرقتنا. أنا وعبد القادر كنا نحذق عبر النُظوب التي أحدثتها الرصاصات في جدراننا، ونراقب مجرى القتال الدائر.

في بعض الأحيان، كانت الحرب تستقل إلى أحياء سكنية أخرى من المدينة، ماثحةً إيانا لحظةً كي نُبرز رؤوسنا ونرى الحال التي آلت إليها الشوارع. كنا نخطو ببطء في الخارج، نحذق بعجب عبر الدخان والغبار. كل ما يوسعنا أن نشمّه هو رائحة البارود والدم. كانت لعينا الوحيدة هي أخلقة العيارات النارية المُبعثرة في الشارع. تعلّمتا كيف نعدّ الأرقام مستخدمين تلك الأخلقة، وتعلّمتا أيّ واحدة من تلك البنادق هي التي أطلقتها. «هذه بندقية الـ AK-47» هذه دياجيكس، وهو الاسم الصومالي للرشاش «PK»⁽¹⁾ الروسي. كان بمستطاعتنا أن نسمي كل رصاصة وكل سلاح. وحتى كان باستطاعتنا أن نخلق ألقابنا الخاصة لكل نوع من تلك

1- الرشاش: PK أي كاي أو رشاش بيكا هو سلاح رشاش متوسط ضمن مجموعة الأسلحة المتعددة الاستخدام، يجمع صفات كل من الكلاشنكوف والديكتريوف والغرينوف - م.

الأسلحة، تُسمى القنابل اليدوية غير المنفجرة «أنوني» (دوريان⁽¹⁾) لأنها شبيهة بتلك الثمرة الشائكة. تلك الـ «أنوني» تنضج على الدوام، فائتلة الناس أو مُشوَّهة إياهم. اليوم في شوارع موقاديشو يمكنك أن ترى أناساً كثيرين بأطراف مفقودة بسبب انفجارات الـ «أنوني».

استمرت الحرب، سوَّت بالأرض ما بقي من المدينة الحُرية. وسرعان ما أتت مأساة جديدة. موقاديشو والصومال كلَّهما واجهتا جفافهما الأول منذ جفاف العام 1977 الذي أجبر أبويَّيَّ على التخلِّي عن حياة البداوة والمجيء إلى المدينة. كان جفاف العام 1992 حتى أسوأ. كلُّ أجدادي شهدوا جفاف العام 1977 إلا أنهم لم ينجوا من هذا الجفاف. ولم نعرف إلا لاحقاً أنهم كانوا قد غادروا عالمنا إلى غير رجعة، الأربعة كلَّهم، بعد أن نفقت جميع حيواناتهم المتبقية ولم يعد باستطاعتهم أن يجدوا الماء أو الزاد. كانت ثروتهم، جرائهم، وكريالهم قد اختفت تماماً. أسرة إختين التي كانت تنبأني في زمن ما بمئات الحيوانات اختفت من على وجه البسيطة كما لو أنها اختفت بسبب حلول نهاية العالم. ما من أحد تسنى له حتى الآن أن يجد قبور أجدادي. ماتوا مثلما وُلدوا، في أمكنة مجهولة. كلُّ ما جرى بين ولادتهم ومماتهم هو رعي الحيوانات.



كانت خديجة تُطلق علينا تسمية «أبنام» لأنه ليس لنا أب. الآن أصبح لدينا يتيم آخر في أسرنا. شقيقتي الرضيعة الآن وُلدت إيان «حرب الشهر — الرابع». ساعدت خديجة أمي وهي تلد طفلتها في منتصف الليل مستخدمةً نوراً كشافاً، فيما كنا أنا وحسن ننتظر خارج الغرفة، يستبد

1- دوريان (durian): هو جنس نباتي يباع فصيلة الخبازية من رتبة الخبازيات، وتُسمى ملكة الفواكه. ينمو بمناطق جنوب شرق آسيا خاصة في ماليزيا واندونيسيا وسنغافورة وتايوان والصين حيث يطلق عليها اسم «طعم الجنة ورائحة جهنم»، لكون رائحتها قوية وغلظة وكريهة جداً لدرجة أنه يمنع إدخالها إلى الفنادق والطائرات وسيارات التاكسي لسرعة انتشار رائحتها التي تدوم مدة طويلة، ولكنها تتميز بمذاق حلو. - م.

بنا الفضول. وبتحور عجيب، خرجت الطفلة تنفس ومعاذاة. على خلاف الحالة التي وُلدتُ بها، إذ لا أحد يزور أمي، لو يجلب الأشتاب، الطعام، والثياب. لم تكنْ هنالك راحة على مدى أربعين يوماً. بعد ولادة سعادتي بيوم واحد، كانت أمي مُجبرة على الخروج والبحث عن طعام لنا.

كانت قد أُمستُ أضعف. كان باستطاعتي أن أرى أن أمتا لديها قدمان متورمتان، بشرتها أكثر دكنة من أي وقت مضى، ولم تعد تلك الفتاة اليدوية الجميلة التي وقع أبي في غرامها من أوّل نظرة. الجوع، اللهاي، الأرق مع الطفلة، والقلق المستديم قد صرعاها تماماً. مدينة إبراهيم مُعَلَّم، ابنة جريشة لأبوين جريشين، تتخلى عن القتال. لم تعد تقوى على العناية بنا. في الأقل أنا وحسن كان لنا أصدقاء. نعمة كانت وحيدة تماماً. الفتيات في الصومال ليس من دأبهن أن يلعبن في الخارج مع الفتيات الأخريات. إنهن يمكنن في البيت مع أمهاتهن يتعلّمن كيف يطهون الطعام كي يكون يومعهن أن يتزوجن حين يصبحن مراعاتات. الآن، وقد أضعفتُ أمي ضعيفة جداً وما من طعام كي تطهوه لنا على أي حال، تجلس نعمة خارج المنزل بمفردها دائخة، تأكل الرمل كي تملأ معدتها الخاوية. أنا وشقيقي، هو في الثامنة وأنا في السابعة، كنا نعرف أنه إذا كان يجب أن يكون لدى أسرتنا الزاد والماء، علينا أن نحصل عليهما بأنفسنا. أمتا أبقتنا أحياء حتى الآن، الآن يتعين علينا أن نُبقِهما هي وشقيقتنا على قيد الحياة. هذا الأمر لم نناقش فيه أو نخطط له. حين تولمك بطنك من الجوع وتشفق شفتاك من العطش، لن يعود هنالك ما تنفّوه به. أنت لا تفعل سوى ما تحتاج إليه من أجل بقاءك على قيد الحياة. وهكذا نحينا جانباً ألعاب الطفولة، نحينا لعبة «القمضية» ولعب أغلفة الرصاصات وبدأنا نعمل.

الموضع الوحيد الذي يمكننا أن نجلب منه الماء في منطقتنا السكنية بموقاديشو هو مضخة ينر في «مستشفى المدينة»، التي تبعد ثلاثة أميال في طريق محفوظ بمواقع القناصين. هذا هو المستشفى نفسه المتناخم

للمزول مؤمن الذي قضينا فيه الليل حين نشبت الحرب الأهلية. الآن
 تحوّل المستشفى إلى أتقاضي، انهار سقفه وصالة العمليات الجراحية
 الرئيسة فيه كانت تستخدمها إحدى الميليشيات كقاعة اجتماعات، معظم
 أرضياتها أمست مغطاة مثلما هو الحال في أي مكان آخر في موقاديشو،
 مع أنه في الأقل هنا الأموات يُدفنون كما ينبغي. إلى هناك تعين علينا أنا
 وحسن أن نذهب مشياً على الأقدام مع «الجليكان» سعة عشرين ليترأ
 خاصتنا. لَمَّا وصلنا إلى هناك، وجدنا طابوراً طويلاً ينتظر أمام حنفية
 الماء، ودورنا لن يأتي قبل مرور ساعات عدّة، وكانت الشمس ساطعة
 والحرارة شديدة. الثوار الذين سيطروا على المدينة هم أنفسهم كانوا
 عاملين سابقين في المستشفى من قبيلة «هوي» ولم يكونوا سيئين على
 غرار ميليشيات الشوارع. كانوا مهتمين بعملهم فيما كنا نحن نملأ أوعية
 الماء خاصتنا. نضع الوعاء في الطابور ونحاول أن نجلس في ظل شجرة
 أو بناية، نراقب الوعاء عن كثب ونمنع أحداً أن يبعدنا ويحاول أن يسبقنا.
 بدا الأمر جيداً جداً لَمَّا حان دورنا وفي خاتمة المطاف حصلنا على ماء
 عذب. كان الوعاء يزن أربعة وأربعين رطلاً بكامل سعته، غير أنه كان
 ممتلئاً، لذا كان بإمكاننا أن ندرجه حتى وصولنا المنزل، بخاصة
 أن الطريق المؤدي إلى هناك يقع على سفح. إنما كان هنالك قناصون
 جالسون في نوافذ «وزارة التخطيط»، يطلقون الرصاص على الناس من
 سبيل التعرّين. لم يكونوا يعيزون بين الأطفال، النساء، وكبار السن.
 أنا وحسن كنا نركل ونندرج ذلك «الجليكان» ونهرع بمحاذاة جدار
 الوزارة، مخفطين جسمينا كي نتحاشى أن يرانا القناصون. الرصاصات
 التي ضربت الجدار فوق رؤوسنا جعلت الغبار يتسلل إلى داخل آذاننا.
 وعندما نتخطى مدى رمي القناصين، يتوقف حسن ويتفحصني خشية أن
 تكون إحدى الرصاصات أصابتنى، وأنا بدوري أحذر حذوه معه. حتى
 حين كنا في ذلك العمر الصغير، كنا نعرف أنك غالباً لا تشعر بالرصاصات
 إلى أن ترى الدم.

في أحد الأيام خطرت في ذهن أمي فكرة مفادها أنه يلزمنا أن نجلب الماء ليلاً، عندما لا يكون القناصون قادرين على رؤيتنا ولن يكون هنالك طابور يصطف عند المضخة. كانت بوابات «مستشفى المدينة» مغلقة، ولم يكن مسموحاً لأي أحد بالدخول بعد حلول الظلام، إلا أن حسن وأنا وجدنا بقعةً حول مؤخرة المستشفى حيث كان أحد الصواريخ قد دمر جزءاً من السور. عبر تلك الثغرة في السور كنا قادرين على أن نتقدم بهدوء ومعنا وعازونا. كان رجال ميليشيات المستشفى الذين كانوا يجهزون تجمع الناس من أجل التزوّد بالماء نهاراً في الأرجح لن يكونوا رحيمين جداً مع الأطفال الذين يتسللون تحت جتح الظلام. حرصنا على ألا نتكلّم، ملأنا «الجليكان» فيما كنا نأمل أن يغطي صوت الصراير على صرير مقبض المضخة. لم يكن بمقدورنا أن نُدحرج «الجليكان» المملوء على أرضيات المستشفى، كانت مستبعدة منه ضجةٌ شديدة، لذا كنا نرفعه أنا وحسن أقداماً قليلة في كلّ مرة، نريح أذرعنا خلال الفواصل، إلى أن وصلنا إلى ثغرة السور. في طريقنا صوب المنزل كان يوسعنا أن نسمع القناصين يطلقون الشنائم في نوافذ الوزارة؛ كان بمستطاعهم أن يسمعوا صوت «الجليكان» وهو يتدحرج على الطريق، إلا أنهم لم يكونوا قادرين على تحديد موضعنا.



ذات صباح استيقظنا على الصوت المألوف للمعارات النارية بل كذلك على صوت رجل في المنزل. لم يكن يصبح كما يفعل المقاتل، أي مقاتل. هل هذا زائر في مدينة النساء والأطفال؟ وتهضنا وشاهدنا ويا لفرغتنا أنه متكاليّن سياسي، معلّم القرآن في حينا السكني. كان «ملاك العقاب» قد رجع من الهادبة وهو يستعد لأن يفتح مدرسته من جديد. ظلت أمي وخديجة تطرحان عليه الأسئلة، كيف ظلّ على قيد الحياة؟ كان جوابه بسيطاً: «أحمد الله».

كان يرتدي «كنزرو»¹ رجل دين أبيض طويلاً، وكان يحمل حزمة من عصي صلبة في يديه — كانت تلك هي القضبان التي يضرب بها طلابه، في الظاهر أنه لم يكن يسافر من دون تلك العصي. كانت أمي وخديجة تومنان برأسيهما فيما هو يتحدث. تكلموا بإسهاب عن الحرب، مع أنهم تجادلوا دقائق قليلة عن يوم الاستراحة في الأسبوع. (لا أحد يعرف على وجه الدقة.) ومن ثم نزعنا كلنا في صلاة طويلة الأمد. إنني أتذكر كلماته: «عسى أن يمن الله على الأطفال بالأمان والصحة كي يكبروا ويصبحوا زعماء دينيين لهذه البلاد». وبعدها وقفنا أيدينا اليمنى عالياً وقلنا «آمين!». بتلك الصلاة، أنا وحسن فضلاً عن أولاد خديجة وقفنا من أجل الالتحاق بالمدرسة. مع الحرب ومن دون الحرب، تعلم القرآن يجب أن يستمر من دون انقطاع. حتى الرجال المسلحون بالبنادق الذين هذبونا تعلموا في المدارس وكان باستطاعتهم أن يرتلوا الكلام المقدس. الدروس تبدأ حالاً، وغادرتنا مع متكاليين بلباس متوجهين إلى مدرسته ذات الجدران الطينية.

كان هنالك عشرة طلاب فقط بمن فيهم نحن الاثنان، كنا جميعاً نجلس على التراب بألواح الكتابة الخشبية خاصتنا في أحضاننا. من ذلك اليوم فصاعداً، أنا وحسن ناهيك عن أولاد خديجة تعين علينا أن نحتمل، بالإضافة إلى الحرب، العطش، الجوع، الضرب اليومي لمعلمتنا متكاليين بلباس، وعصية الصلبة. أتي خطأ في دروسنا، وكانت كلنا تتعلق بحفظ القرآن بالعربية، بدلاً من لغة بلدنا، هو ذريعة للضرب العُبرج. يومياً كنتُ أحفظ عن ظهر قلب آيات عديدة من القرآن. كانت الفصول القليلة الأولى

1- الكنزرو: Roda أبيض اللون أو كريمي، يرتديه الرجال في منطقة «البحيرات الكبرى» الأفريقية. يصل طوله إلى الكاحلين. وهو الزي الوطني للرجال في تنزانيا، كما يلبسه الرجال في بعض البلدان الأفريقية الأخرى، ويُسمى بالعربية: الثوب الأرجح. يقصد المؤلف في السياق أحلام: جبة رجل دين، أو «صاية» رجل دين، بحسب الدارجة العراقية - م.

قصيرة^{١١}، وكانت معظمها سوراً حفظتها في البيت من أمي. غير أنه مع كل يوم يمر تصبح السور أطول وأصعب في الحفظ عن ظهر قلب، وكان الضرب بالعصي يتضاعف في كل مرة ترتكب فيها خطأ ما. أحسست أنني أحتاج إلى السحر كي أحملها كلها في رأسي.

كان «ملاك العقاب» يُرسلنا إلى منزلنا كل يوم والدم ينضح من جروحنا. لم يكن حسن ضخماً بما يكفي كي يحملني فيما كنت أغدو أضعف فأضعف جزاء الضرب اليومي، إلا أنه كان في الأقل قادراً على أن يساندني حين أجلس خلال الدروس. لم تكن قسوة المعلم استثنائية أو شخصية؛ المدارس كلها تعول على العقوبة الجسدية. في الواقع، كان الآباء يتوقعون تلك العقوبة بوصفها جزءاً من تربية صارمة. لما كنا نصل إلى البيت، في بعض الأحيان لا أكون قادراً على أن أفتح فمي كي أصف ألمي، إلا أن كل ما كانت تفهمه أمي هو أن ابنيها كنا يتعلمان سور القرآن الـ 114. كنا قد اشتقنا كثيراً جداً إلى المدرسة بسبب اندلاع الحرب، والآن حانت فرصتنا كي نلتحق بها ونبدأ بحفظ كلام الله المقدس عن ظهر قلب، وكي نتعلم الانضباط والقوة العقلية. لم تكن تبالي بالضرب، كانت تهتم فقط بالسور القرآنية الثلاث التي حفظتها في ذلك اليوم. كنت غاضباً وأحسست أنني تُخدعت، إلا أن المدرسة هي النوع الوحيد من التعليم المتوافر لنا، والأولاد الذين كانوا يتفوقون في القرآن ربما سيكونون في يوم ما رجال دين، وهي وظيفة ذات منزلة اجتماعية رفيعة في الصومال. في تلك الثقافة، في تلك الأزمنة الرهيبة، كان ذلك هو الطريق الذي تتطلع أمي إلى أن نسلكه. وعلى أي حال، الجروح الناجمة عن الضرب المُبرح مستهزأ، وإذا لم تبرا، فإن نموت ونحن نحفظ القرآن أفضل من أن

١- كانت الفصول القليلة الأولى قصيرة: سألت الكاتب عن تفسيره لهذه الجملة، فأجابني في رسالة إلكترونية، أنهم كانوا يبدؤون بسورة «الفاتحة» ومن ثم يتقلون إلى السور الأخيرة في القرآن الكريم، وتكون سورة «البقرة» هي السورة الأخيرة في الكتابة والحفظ، وبعدها يتخرج الطالب في المدرسة - م.

تموت برصاصة قناص. لأنه في الأيام التي لم تكن فيها مدرسة — الحمد لله — كان ما يزال يجب علينا أن نركل وعاء الماء ذاك مروراً بالقناصين.



في مطلع العام 1992، انتهت «حرب الشهر - الرابع» في ملزق. رجال ميليشيات مُرهقون، ما يزالون مدججين بالبنادق، جالسون في أسرة «تقنياتهم»، يعضقون القات، في زوايا المدينة كلها. السواد الأعظم من هؤلاء الثوار كانوا موالين لمحمد فرح عديد، الذي كان يحترمه كثيراً أغلب أفراد قبيلته في الناحية الجنوبية من موقاديشو، حيث كنتُ أقيم. كانت منظمة ثوار عديد الثورية، «المؤتمر الصومالي الموحد»، تسيطر على اثني عشر حياً من أحياء موقاديشو الستة عشر. أما البقية، بشكل رئيس في شمال المدينة، فقد كان يسيطر عليها القائد العسكري علي مهدي. بين قوات مهدي وقوات عديد، أسست «خطوط خضر» كانت تُقسم المدينة. في هذه الأثناء، كان عديد قد توغل في داخل الصومال بجنوده، ماسكاً الأرض وكان يقتل كل شخص مسلح لا يقف إلى جانبه. أحد تلك المواقع التي سيطر عليها عديد هي «بيدوة». لتأ دخل عديد وميليشياته المدينة، قابلوا الوجوه المحتضرة والجماعة لأفراد عشيرة الـ «رحانوين»⁴ كان الجفاف قد ضرب هذه المنطقة بشدة. بقيت ميليشيات عديد في المدينة طوال عامين إلى أن سلّح السكان المحليون أنفسهم وهجموا عليهم وزدوهم إلى نحورهم.

كانت الجماعة قد أبدتْ جموعاً غفيرةً من الناس من «بيدوة» ومن مناطق أخرى إلى «موقاديشو». كانوا يصلون عُرة الأقدام، بالمشات كل يوم. كانت الشوارع تعج بالنساء والأطفال المتوسلين والمحتضرين، هزيلين وعليلين جداً. توجه كثيرون إلى «مستشفى المدينة» كي يشربوا الماء. كانت الطوابير على المضخة الوحيدة تغدو أطول فأطول، مئات من البشر ينتظرون دورهم.

في هذه الأونة، كانت الورطة لا تعني أن الاقتتال توقف، إنه فقط أصبح منقطعاً وغير متوقع. عادة كانت الأطراف المتناحرة تُطلق صواريخها وقذائفها ليلاً، فتفجر في المناطق السكنية فيما كنا نرتعد خائفين في أسرتنا، آمليين ألا نكون بين سيني المحظ ممن تسقط عليهم تلك القنابل والصواريخ. في النهار الثوار الذين كانوا يرموننا بالقذائف طوال ساعات الليل يتسكعون هنا وهناك في شوارعنا، لصاحكين وماضيين القات.

كان بمستطاعي التعرف على بعض الوجوه من بين وجوه الأشخاص الذين عادوا حديثاً، أشخاص عرفتهم في المدينة قبل الحرب. رأيت نفس الأطفال الذين تعزّدوا أن يتمروا عليّ، الذين كانوا يحسدوني ويغارون مني لأن أبي البسيط المسمى لعشيرة الـ «زحانوين» كان نجم كرة السلة؛ وقد رجعوا الآن حيث كان أعمامهم وأخوالهم في الميليشيات. الآن صاروا يتمرون علينا كلنا. حسن، الذي كان قد واجههم وأوقفهم عند حدّهم ذات مرة، الآن يلزمه أن يقف هناك ويتقبل الأمر فيما هم يضربونه بشدة في وجهه. لو أننا قاتلناهم، فمن المؤكد أن أعمامهم وأخوالهم سوف يقتلوننا. وهكذا كانوا يتمرون علينا يومياً. هذا هو النظام الجديد لـ «موقاديشو». أسر تتعرّش بأسر أخرى، البنادق هي التي كانت تحكم المدينة. وحتى الأطفال كانوا يحملون المسدسات ويطلقون الرصاص على الناس. أنا وحسن كنا نخاف من المُراهقين أكثر مما نخاف من رجال الميليشيات الأكبر منهم سناً. لم تكن هنالك قواتين، ولا قواعد، العدالة لم تكن موجودة. الصومال أصبحت دولة فاشلة.

عشيرتنا الـ «زحانوين» كانت تؤسم دوماً من لدن الـ «هوي» الأقوى، لكن الآن في المدينة المنمردة على القانون كانوا يهددوننا يومياً. أصبحت العشيرة هي الشيء الوحيد الذي يتكلّم عنه الناس. أنا وحسن تعلّمنا أن نتكلّم بلكنة موقاديشو فقط، كي نخفي القبيلة التي ننتمي إليها، حين يسألنا شخص ما عن قبيلتنا، كنا نكذب كذلك قائلين إننا من عشيرة «هوي». أما

وَأَسَى اسْتَعْدَمْنَا التَّكْنِيكَ نَفْسَهُ كَيْ تَنْقُذَا حَيَاتِنَا خِلَالَ هَرَبِنَا مِنْ مَوْقَادِيشُو.
وَهَكَذَا تَعَلَّمْنَا مِنْهُمَا كَيْفَ يَبْقَى عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ. إِلَّا أَنَّهُمَا كَانَتَا بِدَوِشَيْنِ مِنْ
الْأَدْغَالِ. أَنَا وَحَسَنٌ وَوُلَدْنَا فِي مَوْقَادِيشُو، وَكُنَّا نَشْعُرُ أَنَّنَا كَالضُّيُوفِ فِي
مَدِينَتِنَا. الْأَشْخَاصُ الَّذِينَ لَمْ نَطَأْ أَقْدَامَهُمْ أَرْضَ مَوْقَادِيشُو قَبْلَ الْحَرْبِ
هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَحْكُمُونَ الشُّوَارِعَ.

عِنْدَمَا لَمْ نَكُنْ نَحْمِلُ الْمَاءَ أَوْ نَحْضِرُ الدَّرُوسَ، كُنَّا أَنَا وَحَسَنٌ نَتَجَوَّلُ
فِي الشُّوَارِعِ بَحْثًا عَنِ الطَّعَامِ الضَّرُورِيِّ لِأَسْرَتِنَا. كُلُّ النَّاسِ فِي مَوْقَادِيشُو
يَقُولُونَ الشَّيْءَ نَفْسَهُ: «كُلْ كُلَّ شَيْءٍ لَا بِأَكْلِكَ». كَانَ الْكَفَافُ هُوَ أَنْ يَبْقَى
حَيًّا فِي يَوْمٍ مُحَرَّقٍ آخَرَ، وَفِي كُلِّ يَوْمٍ كَانَتْ فُرْصَةُ الْعَيْشِ خَفِيفَةً. بَدَأَ كَمَا
لَوْ أَنَّ لَعْنَاتِ الْكَوْنِ كُلَّهَا قَدْ نَزَلَتْ عَلَيْنَا. فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ الْحَرْبِ، وَمِنْ
ثُمَّ الْكَارِثَةُ الطَّبِيعِيَّةُ، وَمِنْ بَعْدِهِمَا الْمَرَضُ. لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ مَسْتَشْفَيَاتُ
عَامِلَةٌ، وَلَا عِيَادَاتُ طَبِيبٍ أَوْ أَدْوِيَّةٌ كَيْ تَعَالِجَ الْمَلَارِيَا، التَّيْفُوَيْدِ، الزَّحَارَ،
وَالْكُولِيرَا. كُلُّ الْأَشْيَاءِ أَصْبَحَتْ أَشْيَاءَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعِيشَ مَعَهَا، أَوْ
تَمُوتَ بِسَبَبِهَا. مَوْقَادِيشُو أَصْبَحَتْ مَدِينَةً الْهِيَائِكُلِ الْعَظُمِيَّةِ الَّتِي تَمْشِي عَلَى
الْأَقْدَامِ، لَا تَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنْ صُورِ النَّاجِيَيْنِ مِنْ مَحْرَقَةِ الْهُولُوكُوسْتِ فِي
الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ. الصُّورَمَالِيُونُ يَسْمُونَهَا «كَالْخَاتِرَاكِي»، «زَمَنُ الْأَقْدَامِ
الْمَتَوَرِّمَةِ». أَقْدَامُ الْبَشَرِ كُلُّهُمْ انْتَفَخَتْ كَالْبَالُونَاتِ بِسَبَبِ نَقْصِ التَّغْذِيَةِ
الشَّدِيدِ وَتَجَمُّعِ السَّوَاتِلِ. أَصْبَحَ الْمَشْيُ شَيْئًا عَسِيرًا، إِنَّمَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا
أَنْ نَمْشِيَ كَيْ نَتَزَوَّدَ بِالْمَاءِ. لَمَّا كَانَ مِنْ دَأْبِ أَمَانَا أَنْ تَسْتَخْدِمَ أَشْوَاكَ الصَّيَّارِ
كَيْ تَنْقُبَ أَقْدَامَنَا وَتَفْرُغَ السَّوَاتِلَ الْمُتَجَمِّعَةَ فِيهَا.

بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ حَسَنٌ، نِعْمَةٌ وَأَنَا كُنَّا قَادِرَيْنِ عَلَى أَنْ نَلْقَى عَلَى أَقْدَامِنَا
وَأَنْ نَرَكُضَ أَيْضًا، إِلَّا أَنَّ شَقِيقَتَنَا الْمَوْلُودَةَ حَدِيثًا، سَعْدِيَّةً، لَمْ تَكُنْ قَادِرَةً
حَتَّى عَلَى الْجُلُوسِ. كَانَتْ صَغِيرَةً الْحَجْمِ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ وَنَحِيفَةً جَدًّا،
مَجْرَدُ جِلْدٍ مَمْدُودٍ عَلَى عِظَامٍ، تَكَافَحُ كَيْ تَنْتَفَسَ. أَنَا وَحَسَنٌ كُنَّا نَرَاقِبُ
أَمَانَا يَوْمِيًّا وَهِيَ تَجْعَلُ سَعْدِيَّةَ تَرَضُّعٍ مِنْ تَدْيِيبِهَا اللَّذِينَ لَمْ يَكُونَا يَدْرَانِ حَتَّى

قطرة حليب واحدة. نراقب أمنا وهي ترفع جسم سعدية الشديد الصغر، ساعيةً إلى أن تجعلها ترتاح. كنا نشاهدها فيما هي تحمم سعدية بالماء الدافئ، وتضع قطرات منه في قمها. الأشياء كلها لم تنفع قليلاً. كانت خديجة على الدوام مع أمي في الغرفة، تتناقشان ماذا يمكن أن تفعل كي تنقذ الطفلة المسكينة. وفي النهاية لم يعد هناك غير الصلاة. عينا أمي كانتا تغروران بالدموع فيما هي تهمس في وجه سعدية، «من فضلك، [مَلِك الموت]، خُذْ سعدية معك. لا يعني أن أفعل شيئاً آخر بعد الآن».

مرات عدة كانت سعدية تلتزم السكون وكنا نحسب أنها لفظت أنفاسها، إلا أنها بعدت تعود وتتنفس من جديد. وخاماً، في صبيحة يوم الجمعة، مَلِك الموت زار منزلنا وقرر أن يأخذ سعدية معه. حينما بدأت سعدية تدير مقلتيها، أنا وحسن نحاشينا النظر إليها وبدأنا نحفر قبراً لها في الفناء الأمامي للمنزل خديجة.

القبور الجماعية التي كانت بمنزلة بدائل مؤقتة كانت تنتصب في كل أرجاء موقاديشو. كي يكسبوا النقود، كان الرجال يحفرون القبور بعمق سبع أقدام، وبعدها يحرسون الحفرة مع معاولهم ويبتغون رشماً يأتي الناس بموتاهم، يعطونهم قطعاً نقدية قليلة كي يتقبلوا الجثث. أنا وحسن كنا نراقب فيما كان الرجال ذور المجارف وأسر الجثث يتجادلون حول سعر الدفن. كان الرجال يقولون إنهم يدفعون الجثث كما ينبغي، إنه عمل شاق، وكانوا يريدون أن يحصلوا على المال مقابل العمل الذي أنجزوه. تناقشنا أنا وحسن كيف ستصرف إذا ما فارقنا أمنا الحياة. بقينا نحن لا نملك النقود كي ندفعها للرجال مقابل الدفن المناسب. كنا نعرف أننا قادرون فقط على أن نغطيها بقليل من الرمل، حالنا حال كل امرئ ليس بحوزته مال، وترك جثتها مكشوفةً للكلاب.

وهكذا حاولنا أن نحفر قبراً بعمق يقدر عليه غلامان صغيران كي ندفن فيه شقيقتنا الطفلة سعدية. كان علينا أن نكون حذرين لأن خديجة كان

لديها جثث أخرى يَمَن فيها جثة ابنتها مدفونة كلها في البقعة ذاتها. وعلى الفور ارتطم معولنا بقدم شخص متوفى، وبقيتنا ندور هنا وهناك إلى أن عثرنا على حيز صغير غير مشغول كي نوارى سعدية الثرى.

في الوقت الذي أصبح فيه القبر جاهزاً، كانت سعدية قد لفظت أنفاسها الأخيرة. حدّقْتُ في شقيقتي الطفلة الرضبعة وطبعتُ قبلة على جبينها. لفظناها بوشاح أبيض صغير ووضعناها في قبرها الشديد الصغر قبل غروب الشمس، ففي هذا الوقت تبدأ الكلاب بالطواف في الشوارع. بكّت أمي ودرّت عنهاها دموع الحزن إلا أنها كانت دموع الفرح أيضاً لأنها كانت تعرف أن «مَلَك الموت» قد رفع روح سعدية إلى السماء، وفي العقيدة الإسلامية فإن موت الطفل، أيّ طفل، يعني حماية الأم من نار جهنم. وبعدها سكبتنا الرمل على كلّ جثتها حتى لم يعد بوسعنا أن نراها. لم يأت أحد لمواساتنا. أنا وحسن تقاسمنا موت شقيقتنا مع أصدقائنا وأناس المنطقة السكنية، إنما لم يعيّر أحدٌ عن حزنه أو حتى أبدى اهتماماً بالامر. الموت في كلّ مكان؛ لم يكن مسألة كبيرة. ما من شيء يُمكن أن يتكلّم عنه المرء. بعد أن تلونا بعض الصلوات عدنا وانشغلنا ببقائنا على قيد الحياة. في غضون أيام قلائل كان قبر سعدية قد توارى عن الأنظار في التراب؛ لم يكن لها مؤشر يدل على قبرها، ما من شيء باستثناء الرمل.

كانت شقيقتنا محظوظة لأنها غادرت عالمنا القاسي، عالم البنادق وسفك الدماء. هي الآن في الجنة تأكل الفاكهة الناضجة الحلوة المذاق وتعم من نهر من الحليب والعسل تحرسه الملائكة. أما نحن البقية فكنا نواصل كفاحتنا اليومي بشق الأنفس. صباح كلّ يوم كنا نفيق من النوم ونؤكد من أن الجميع ما يزالون يتنفسون وأحياء. كانت أمنا تصلي وتقرأ القرآن من أجل أن نحيا يوماً آخر.

القصاص التي روتها أمنا عن الجنة، عن حياة ما بعد الموت، امتياز أن يكون الطفل مسلماً شجعنا على أن لا نتوجس عيفةً من النهاية. تحدّثتُ

أما عن أنهار الحليب والعسل، الحياة الأبدية الجميلة في الجنة. لا حروب، لا ثمر. جعلتنا نشعر بالظئ لأننا نحيا في جحيم الأرض، كما لو أننا عملنا عملاً سيئاً واستحققنا هذا المصير. شيء آخر أخبرتنا به أننا جعلنا أقرىاء وأبقانا أحياء: «الله ينظر إلينا». قالت إن كفاحنا كله وأيامنا العصية هي اختيارات من الله، وأن المرة الأقوى والأكثر إخلالاً سوف يكافئه بدخول الجنة. لذلك صباح كل يوم كانت أننا نذكرنا بأن نصلي لله، وحسن وأنا كنا نقضي خمس دقائق في أداء الصلاة.

تبين أن الدين على خلاف مواطني موقاديشو نجا من الحرب القاسية بنحو جيد جداً. ومع عودة الناس كلهم من الأدهال، بدأت تظهر للعيان جوامع صغيرة في الزوايا كلها. المدارس الآن باتت مكتظة بالطلاب. كان فتالين بسباس يقف في مدرسته، تحت السقف السيك من العصي، ويشرف على قراءتنا اليومية للقرآن باللغة العربية. في أيام المدرسة كنا أنا وحسن نذهب شيئاً إلى المدرسة ومعنا وعاء صغير من الحجر الأسود، ويزداد إفراز الأدرينالين في جسمنا ما إن تقترب من تدخل المدرسة. كان فتالين بسباس يُعذب التلميذ، أي تلميذ، على أخطاء بسيطة. إذا ما حصل أن تأخرت دقيقة واحدة على المدرسة، سوف تنال عشرين دقيقة ضرباً بالعصا. إن لم تحفظ درس اليوم عن ظهر قلب، سوف تُعلق من معصمك على مدى ساعات عدة.

في صباح اليوم التالي لوفاة سعيدة، كنا نعتقد أننا من المحتمل أن يُغفر لنا إذا ما تأخرنا قليلاً عن دوام المدرسة، لكن فتالين بسباس لم يكثر بالامر. في ذلك اليوم ضربنا بشكل مبرح جداً بحيث إنني فكرت في التخلي عن المدرسة، إلا أنني كنتُ أعرف أن ذلك لن يحصل البتة، لأن أمي سوف تنبرأ مني وعلى أي حال سوف يأتي فتالين بسباس إلى الشارع ويحيدني ويعيدني إلى المدرسة عنوة ومن المؤكد أنه سوف يُشبعني ضرباً من جديد، لا مفر. في الصومال، معلمو المدارس يتهاونون

المنزلة الثانية بعد الآباء. أقوالهم لا يمكن رفضها حتى من قبل الأبوين. وعلى الرغم من ذلك، حتى «علاك العقاب» كان يسمح لطلابه بأن يغادروا مبكراً كي يجنوا الماء والغذاء لعوائلهم. نهاية الدرس في ما بعد الظهر تكون على الدوام لحظة سعيدة بالنسبة لنا، إنما في صباح اليوم التالي سوف يتواصل الضرب ثانية.

العربية إلى الإنكليزية

في أواخر العام 1992 هطل أخيراً مطر قليل في الصومال، وكان الناس يبيعون الطعام في الشارع — أكداًس قليلة من الطماطم، حزم من قصب السكر، أكواز ذرة — كانوا قد جلبوها من الريف. كنا في أمس الحاجة إلى القطع النقدية المعدنية كي نشترى بها شيئاً من هذا الغذاء، لذا رجعنا أنا وحسن خطة كي نكسب بعض النقود. حاولنا أن ننادي على بضائعنا متجولين في الشوارع، نبيع أي شيء يمكننا أن نجده. في بادئ الأمر جمعنا الحطب من المطار القريب، حيث قتل الجفاف أشجاراً لا تُعد ولا تُحصى، مُخلفاً أكداًساً من العيدان الميتة. جمعناها ورجعنا نركض وراء الناس، متوسلين إليهم أن يشتروا منا الحطب. لكن ما من أحد يشتري. الناس لا يملكون إلا التزر اليسير من النقود ويمسّطاعهم أن يجمعوا الحطب بأنفسهم. لذا خرجنا بخطة جديدة: أن نبيع الماء. في ما يتصل بهذه المسألة كان بحوزتنا وعاء ماء سعة عشرين ليتراً، لذا تعين علينا أنا وحسن أن نفصل. يجلب هو الماء للأسر في المدينة التي كانت خائفة جداً من المخاطرة بحياتها وهي تمر بمحاذاة القناصين وراغبة بدفع شللات قلائل مقابل هذا العمل الشاق. أما الوعاء الثاني فأجلب فيه الماء لأسرتنا. تعلّم حسن أن يتحرك بنحو أسرع، ويكسب مزيداً من المال، من خلال حمل صفيحة الماء على ظهره، يثبتها حول جبينه بواسطة وشاح.

لكن في النهاية سبب له هذا وجعاً شديداً في ظهره وكشفه بحيث كان يصرخ متألماً في كل ليلة. كنا نحتاج إلى خطة جديدة.

كان رجال الميليشيات قاطبة مدمنين على القات، إذ كانوا يمضغونه باستمرار ويهيمهم طاقاً من أجل القتال. كان القات يأتي إلى موقاديشو براً وبحراً، نسبة كبيرة منه من كينيا. تذكرت أبي وهو يمضغ القات قبل انهيار الحكومة؛ كان يحس بالسعادة دوماً حين يمضغه. هذا حين كان يأخذني إلى المطاعم ويشتري لي الأشياء. كنت أعرف أن بعض رجال الميليشيات ربما يكونون أيضاً في مزاج رائق حين يمضغونه، لذا أنا وحسن سوف نتسلل من ورائهم ونلتقط الأوراق التي تتساقط منهم، هذه الأوراق يمكننا أن نبيعها لاحقاً من جديد. انضممنا إلى مجموعة من الأولاد الآخرين ممن كانوا يجوبون الشوارع ليلاً ونهاراً يجمعون أوراق القات الطليقة التي يسقطها رجال الميليشيات أو تلك التي كانت تُترك عند الأكشاك حيث كانت النساء يبعن حزم الأوراق العائدة لهن.

في الختام، غدونا أكثر جرأة. حين كان القات الجديد يدخل المدينة ترافقه شاحنات مليئة برجال الميليشيات، كنا نركض وراء الشاحنات، نقتز عليها ونسرق الأوراق من الثوار عندما لا يكونون متهيئين. مرات كثيرة يضربني عقب بدقية ويجعلني أتشقلب من على الشاحنة المتحركة بحالي الوفاض. لكنني في مرات أخرى أنهي بعض الأوراق الجديدة التي يمكنني أن أبيعها في الشوارع. مرات كثيرة كانت أشتالي المخبأة تُصدر لاحقاً في نقطة تفتيش أو مع سكين على رقبتني. إلا أنه غالباً ما يحالفني الحظ فأكسب بعض النقد.

بطبيعة الحال لم تكن الحكومة تطبع العملات الورقية، لذلك سرعان ما تمزقت ونهرأت أوراق الشلن النقدية التي كانت ما تزال متداولة. لما كان الثوار يعطونا المال فعلاً عن ثمن أوراق القات الطليقة، كانوا يسددون ثمنها بأكثر أوراق الخمسمئة شلن قلادة وتمزقاً التي لديهم —

وهي أسامياً نقود بشعرون أنها عديمة النفع. كانت سيدات السوق اللاتي يبعن الطعام لا يقبلن هذه الأوراق المالية، لذلك أنا وحسن ابتكرنا خطة. عرفنا من أمنا، من النساء الحكيمات اللواتي يعتنين بالنباتات، عن نبتة تُسمى «تفاح سدوم» كانت أوراقها وأغصانها الصغيرة تحتوي على نسغ حليبي يشبه الصمغ. جمعنا هذه الأوراق وعصرنا نسغاً كافياً كي نلتصق الأوراق النقدية الممزقة بعناية. وبعدها انتظرنا كي نقوم بعملية التسوق لحاصتنا عند حلول الغسق، عندئذ سيكون أصعب على النساء أن يرين النقود. هذا الأمر كان يتجح دوماً.

بدا ذلك أشبه بحلب ميدالية إلى البيت لَمَّا كنا ندخل المنزل ومعنا الدرة، الحليب، والفواكه لأفراد أسرتنا. كانت أمي تطهو الدرة، تضعها في طاس، وتضيف إليها الحليب. حسن، نعمة، وأنا كنا نجلس بيهة دائرة حول الطاس. أمي لم تكنُ تناول الطعام إلا بعد أن نشبع. كانت على الدوام لا تأكل إلا التمر اليسير الذي يلتصق في قعر القدر، تكشط كل ما بقي فيه حتى آخر ذرة.

كانت نعمة قد غطشت أكثر فيما بدا أشبه بالجنون. في أغلب الأوقات كانت تقضي نهاراتها خارج المنزل، تحفر القنوات في الرمل بيديها، كما لو أنها تريد أن تصنع قبرها وتدخل فيه. في بعض الأحيان كانت تجلس باستقامة فوق قبر سعدية واضعةً رجليها على الرمل، كما لو كانت تتواصل مع شقيقتنا المتوفاة. ولَمَّا نصل أنا وحسن إلى المنزل، لم تكنُ نعمة تهرع إلينا وتعاتبنا. في الثقافة الصومالية المحافظة، الفتيات لا يرافقن الرجال، حتى أشقاءهن، إلا أن حسن وأنا كنا نرفض ذلك وكنا نسمع دوماً لشقيقتنا أن تكون من حولنا عندما نكون في المنزل. لم تكنُ تذهب إلى المدرسة، إلا أن حسن وأنا علمناها أساسيات القرآن بأن نقرأ لها بالعربية، وكانت قد استوعبت بعض الآيات، مع أنه لم تنبثق لها طاقة تقريباً.



بما أن جزءاً كبيراً من المدينة قد لحق به الدمار، كان الناس قد انتقلوا للإقامة في المنازل بالمناطق السكنية التي كان أصحابها إما ماتوا أو لم يرجعوا إليها حتى الآن. المباني القديمة للجامعات، المدارس، والمستشفيات أصبحت معسكرات للاجئين بشكل مؤقت. إلا أن بعض الناس رجعوا أيضاً إلى منازلهم السابقة، بمن فيهم امرأة تُدعى فاليس، وهذه المرأة سوف تغير حياتي إلى غير رجعة.

كانت فاليس طويلاً القامة، داكنة البشرة في عشرينياتها، وحالتها حال نساء مُتَكَفِّلات كثيرات من موقاديشو، كانت تضع مساحيق التجميل — من بينها المخطوط التي تحيط العينين والأساس الأصفر الساطع المصنوع من الكركم المطحون. في وقت السلم كانت بديئة، وهذه الصفة في الصومال علامة من علامات الجمال. كان يتعجبها رجال كثيرون. لكن إبان الحرب عادت وأصبحت شديدة الهزال من جديد، وكان يساورها القلق من أن جمالها قد ولى إلى الأبد. كانت محظوظة لأن منزلها نجا من الحرب وأهوالها، وجزء من هذا الفضل يرجع إلى أن لديها أقارب كثيرين في الميليشيات كانوا يحرسونه حين غادرته. قبل الحرب فاليس كانت لديها مهنة جيدة يوصفها بالثة تذاكر في «سينما إكواتوري»؛ وتذكرت أنها كانت ترى أبي في نهايات الأسابيع، وهو يتسكع مع أصحابه في تلكم الأيام المسالمة، لئلا رجعت إلى موقاديشو، كان باستطاعتها أن تمتلك جهاز تلفزيون، وبعض كاسيتات الفيديو، ومُسجلة كاسيتات الفيديو، التي كانت قد نصبها في كوخ مُلْحَق بمنزلها. بمولدة زيت الغاز ووقود كانت بشكل من الأشكال قد ضمتها من قوى الميليشيات، فتحت سينما بمنزلة بديل مؤقت وقاعة رقص، وكانت تقاضي قطعاً نقدية قليلة عن الدخول. في بادئ الأمر لم تكن تسمح لنا نحن الأولاد أن ندخل، إلا أنه كان يوسعنا أن نسمع الأصوات خارج الباب فيما هي تضحض الأجهزة. أحد أشربة الفيديو التي كانت تشغيلها المرة تلو المرة هو الفيديو الموسيقي لمايكل جاكسون المدعو

«ثرلر»، وكنتُ أرقص مع الصبيان الآخرين على الإيقاع الآتي من قناتها. أحببتُ تلك الأغنية حباً جماً.

ذات يوم حين كنتُ هناك في الخارج أرقص، خرجت فليس كي تُعلقُ مُلصقات لأفلام «رامبو»، «ذه تيرمينتر»، «ثوك نوريس»، التي كانت قد ادخلتها من «سينما إكواتوري». نظرتُ إلى صور الرجال في المُلصقات — أمريكيون أقوياء بأجسام ضخمة، عضلاتهم ضخمة ومرة، لا يشبهون الرجال الشديدي الهزال في موقاديشو. لم أفهم ما هو الممثل السينمائي أو ذلك الرجل الذي يسمونه «رامبو»، «ذه تيرمينتر»، و«كومانديو» الذين من الجائز أن تكون لهم أسماء أخرى في حياتهم الحقيقية. مضيتُ فقط وبتُ أحرق في تلك الملصقات يوماً، متخيلاً ماذا يُحتمل أن تكون هيات أولئك الأشخاص الأقوياء في حقيقة الأمر. غالباً ما كان الثوار يقتربون من الملصقات ويصفون عليها، كما لو أنهم يختارون أن يشنوا قتالاً مع الرجال في الملصقات. لكن كائنات من يكونون أولئك الرجال، كنتُ أعرف أنه سيكون قتالاً ليس بمستطاع الثوار أن يفوزوا فيه. كانت الأسلحة التي يحملها رجال الفيلم السينمائي أضخم بكثير ومشرقة أكثر من أي سلاح بحوزة الميليشيات في موقاديشو.

كانت فليس تحتاج إلى من يساعدها في تنظيف ذلك الكوخ ونهية كي يشاهد الناس الأشرطة السينمائية. لأنني كنتُ عارج الكوخ طوال الوقت، ناظراً إلى البوسترات أو راقصاً، سألتني ما إذا باستطاعتي أن أساعدها. لأول مرة مُنح لي بالدخول. للكوخ أرضية ترابية ووسخة. بلزمني أن أحمل، صعدتُ إلى الزوايا الضيقة وسحبتُ بيوت شباك العنكب، تفضتُ الغبار عن شاشة التلفزيون، نظفتُ الكاسيتات، جلبتُ الماء، ورتبتُ مكان جلوس الناس. وفي النهاية أصبح الفضاء جاهزاً. كنتُ مغتبطاً جداً لأنني سأرى الأشخاص الذين شاهدتهم في تلك البوسترات في شريط سينمائي! أول فيلم سينمائي شاهدناه أنا وحسن هو «كومانديو»، من تمثيل أرنولد

شوارزنتجر. جلسْتُ وفكي صمياً على الأرض الترابية، عيناى بارزتان. كان المصْرَجون يفرحون، يفقهون، ويصفقون كلما كان هنالك مشهد «أكشن». بالطبع لا أحد منا كان يعرف أي شيء من الإنكليزية، لم يكن بوسعنا فهم أي شيء بقوله الممثلون السينمائيون، لذا كلما كان هنالك شيء من الحوار في الفيلم، كنا نصيح على «كوماندو» كي يتوقف عن الكلام ويطلق الرصاص حتى يقتل. كان الجميع يكرهون الكلام؛ كانوا يريدون الرمي بالرصاص وقتل الآخرين وإراقة الدماء، كما يحصل في الحياة الحقيقية بموقاديشو لكن بشكل أحسن. كان الناس يتيهون خارج الكوخ أثناء الحوار ويرجعون راكضين حين يسمعون نيران البنادق. في حين كان آخرون يمشون في مقاعدهم لكنهم فقط يتحدثون مع أحدهم خلال الحوار إلى أن يبدأ «الأكشن».

أنا بفيت. لم أتحدث قط مع حسن أو مع أي فرد خلال الحوار. كنتُ أحب «الأكشن» أكثر، إنما كانت لدي رغبة متأججة في معرفة ماذا كانوا يقولون. لذا جلست هناك، مُلتصقاً بالشاشة، راقبُ الممثلين بحمق فيما هم يتكلمون، ساعياً إلى قراءة شفاههم. التفتتُ الكلمات والعبارات التي كانت تتكرر عادةً، معظمها تتعلق بالبنادق والموت. تعلمتُ أن أميز كلمات من مثل «بطلق النار» و«يقتل». أدركتُ أنَّ لدي بعض القدرة على سماع الكلمات بسهولة وتذكرها.

كنا أنا وحسن نعود لمشاهدة الأفلام في الأوقات التي لا نكون فيها بالمدرسة أو منشغلين بجلب الطعام والماء. كانت فاليس تسمح لنا أن نشاهد الأفلام مقابل كنس الأرضية الترابية. شاهدنا «رامبو»، و«ه نيرمينيتر» و«هوه الداتا». جميع أفلام «الأكشن». حفظتُ المشاهد عن ظهر قلب، ماذا سيحدث لاحقاً على وجه الدقة أو ماذا يقول كوماندو أو «النيرمينيتر» و«كاو». وفي الختام، حين كانت فاليس تقول إنها تريد أن تغلق الكوخ الآن، نعود مشياً إلى المنزل وكل واحد يمتحن الآخر في

ما يتصل بالفيلم، كل واحد منا يذكر الآخر بالمشاهد، متحدثين عما أحبيناه في الفيلم. وكنا نمثل بعض المشاهد، نرمي الأحجار، ونقفز فوق الأنقاض، متظاهرين بأننا نتكلم الإنكليزية. كنتُ أقرأ سُفْتي أرنولد وأحرّك قمي بالطريقة التي كان يفعلها. جعلتُ أمي تغضب لَمَّا كنتُ أقول لها «I'll be back» المرة تلو المرة. لم أكن أعرف ما معنى ذلك، إلا أنني كنتُ أعرف أن هذه الجملة تبدو ممتازة.

أول مرة على مدى أعوام عدّة، منذ أن ذهبتُ مع أبي إلى مباريات كرة السلة، أحسستُ أنني سعيد فعلاً. لم يعد لي أب قوي كي أرتو إليه، إنما لدي الآن أبطال «الأكشن» الأقوياء ذوي الأبدان الضخمة هؤلاء. وهم يمنحوني هذا القدر الهائل من السعادة. كنتُ أريد أن يأتي كوماتندو إلى موقاديشو ويقتل جميع أفراد الميليشيات في المدينة.

أنا وحسن ما يزال ينبغي لنا أن نوفر الغذاء لأسرتنا. كيف باستطاعتنا أن نذهب لمشاهدة الأفلام ونكسب قوت يومنا في الوقت عينه؟ لمعتُ في بالنا فكرة أن نبيع الفشار والفول السوداني في كوخ الفيديو. لم نكنُ نعرف أن الأمريكيين يشرون الفشار حين يؤمون صالات السينما؛ كانت هذه مجرد فكرة جالت في خاطرنّا. استدنا عشر كيلوغرامات من الفول السوداني الخام بالغلاف من امرأة في السوق، وافقتُ على الإعارة حين أخبرناها بخططنا ووعدناها بأن نسدّد لها مبلغاً أكثر من المبلغ الذي يُمكن أن تبيعه به وهو خام. كما حصلنا على أكواز الذرة بالطريقة ذاتها. أنا وحسن قشّرنا حبّات الفول السوداني وحمصناها على النار في المنزل. وضعنا الذرة في غلاية تعود لأمي. وبعدها حملنا سلتينا المملوئتين بالفول السوداني والفشار، وهي حاوة، إلى كوخ الفيديو وبعناهما كلّها. وحتى قالس نفسها اشترتُ منا شيئاً منهما. كنا قاندين على أن نسدّد الدين لنساء السوق، وأن نشري الطعام لأسرتنا، وأن نشاهد فيلماً.

أمسى كوخ السينما منزلي الثاني، وأمستُ قالس أشبه بواحدة من

أفراد أسرتي. وحتى بدأت أسميها «عائتي». أنا وحسن بدأنا نتغيب عن المدرسة كي نمضي لمشاهدة الأفلام وبيع الفول السوداني والفشار. كنا نكذب على أمنا صباحاً بأننا ذاهبون إلى المدرسة، لأنها لن توافق على أن نفعل ذلك. كانت تعتقد أن مشاهدة الأفلام عمل شرير، وأن السينما ليست مكاناً مناسباً للمسلمين الصالحين. إلا أننا لم نكن الوحيدين. طلاب كثيرون كانوا يتغيبون عن المدرسة كي يمضوا لمشاهدة الأفلام. ذات يوم ظهر متكاليين بسياس في كوخ الفيديو ووجد خمسة منا يشاهدون «كوماندو» في حين كان يلزمنا أن نكون في المدرسة. جئنا إلى الخارج وقادنا مشياً إلى المدرسة وهو يستمر غضباً. «الله سوف يرسلكم إلى جهنم لأنكم تذهبون إلى السينما!» صرخ قائلًا. «سوف يعاقبكم الله بأن يرسلكم إلى الجحيم! الله يكرهكم!».

العقوبة على الأرض هي الضرب بالعصي، والتعليق من المعصمين طوال نهار كامل. جردني «ملاك العقاب» من ملايسي، شدني إلى عمود، وجعل يضربني بالعصا طوال نهار كامل إلى أن غطت الدماء جسمي. لا يمكنني أن أقول ما هو الشيء الأكثر إيلاماً، هل هو الضرب بالعصي أم الألم الناجم من ذراعيّ اللتين كانتا تُسحبان من تجويفيهما فيما كنتُ مُعلّقاً. كل ما كان باستطاعتي أن أفكر فيه هو مشهد التعذيب في «رامبور» الدم الأول الجزء الثاني»، حين يتم القبض على سيلفيستر ستالون. سمعتهُ لأن أكون قوياً مثل رامبور، إلا أن ذلك شيء عسير في الحياة الحقيقية، وصرختُ طالباً النجدة. بدت عصي متكاليين بسياس الصلدة على جلدي حتى أسوأ من الرصاصات.

بعد ذلك تعين عليّ أن أتوقف عن الذهاب إلى السينما برهة من الزمن. بدلاً من ذلك، أنا وأصدقائي كونا زمرةً سمينها «ويرو». «ويرو» كلمة صومالية تعني «الحرب»، وكانت زمرةتنا هذه تمارس ألعاب الحرب

بالمقاليع^(١) والأحجار. كنا نهاجم مجموعة أخرى من صيان منطقتنا السكنية متى كانوا زميرتهم الخاصة بهم. على خلاف لعبة «الغصية»، لعبة الحرب هذه كانت خطيرة؛ إذ من المحتمل أن تفقد عينيك أو تكسر عظامك. كما أنك إذا ما أذيت ظلاماً من نفس عشيرة هيديد، من الجائز أن يطلقوا عليك النار وأن تقتل.

إن أفضل مكان لمزاولة ألعاب الحرب هو داخل «ملعب هورسيد الرياضي»، لأنه يمثل بأرض كوتكريتية صفيقة وتدرج مكشوف. الصواريخ والبنادق لم تلحق ضرراً كبيراً بتلك الخرسانة السمكية. إن أفضل شيء هناك هو الصدى الذي ينبعث من الخرسانة، لذلك حين كنا نغلت النفاقة، كانت فرقة قطع المطاط تتضخم مثل رصاصات البندقية. كان هذا الملعب هو مقر «فريق الصومال الوطني لكرة السلة»، المكان نفسه الذي كان يتدرب ويلعب فيه أي، وهو يحملني بزهو على كتفيه نهاية كل أسبوع. الآن كل شيء آل إلى الخراب ونهب، بما فيها الألعاب الصومالية التي كانت ترقف في داخل الملعب وخارجه. على الجدران التي كانت ما تزال قائمة رُسمت بنادق من الأنواع كلها، بعض العائلات من الريف استوطنت بعض أجزاء الملعب، نصبوا خيامهم هناك. حين كنا نلعب هناك، كانوا يحاولون دوماً أن يطار دوننا خارج ما كانوا يسمونه «مسكنهم الخاص».

وبعد ما بوقت قصير حدثت لمشاهدة الأفلام السينمائية ضرب مكالين سياسة بالعصي الغليظة لن يُتنبى عن ذلك. في تلك الأفلام عرفتُ عن عالم يتخطى الصومال والإسلام. لم يسبق لي أن رأيتُ خارطة العالم. لم

١- المقاليع (stings) جمع مقلع، وهو سلاح يتكون من قبضة ينشق منها صمغتان على شكل Y حيث يركب عليهما شريطان مطاطيان تربط بينهما قطعة على شكل مستطيل تكون غالباً من الجلد، ولاستعماله توضع قبضة داخل القطعة الجلدية المستطيلة التي يتم جذبها إلى الوراء لتمديد الشريط المطاطي ثم يتم إطلاقها لإصابة الهدف من بعيد. ويستخدم هذا السلاح بشكل واسع لصيد الطيور والحيوانات الصغيرة كما يمكن أن يستعمل بهدف الاستمتاع برماية إصابات الأهداف وقد يستعمله بعض الأشخاص لأغراض تخريبية. تُسمى بالدارجة العراقية «مصيدة» - م.

أَكُنْ أعرف الفارق بين أوروبا وأمريكا. لم تكن لي معرفة بالجغرافيا أو التاريخ، بل فقط ما علمنا إياه نكالين بِنِياس بالعربية عن الدين الإسلامي، «المملكة العربية السعودية»، ومصر. لكنني في الأفلام شاهدتُ جنوداً شجعان كثيرين جداً ونساءً حسناوات لا حصر لهن. لم تكن هنالك أنقاض وبنابات مُهدمة، كانت الشوارع نظيفة وجميلة؛ الحروب تجري دوماً في أمكنة أخرى. ما من أحد يعضغ القات ويصق أو يحضر القبور في فناء منزله. توجد كميات كبيرة من الأغذية. فكرتُ، «كائنا من نكونون هؤلاء القوم، لهم عظماء!» دعوتُ الله أن يساعدني على اللقاء ببعض هؤلاء الأجانب الغربي الأطوار. ربما من الخطأ أن أذهو من أجل الكفار، إلا أن دهائي تكلم بالتجاسع.



بحلول كانون الأول/ ديسمبر 1992، لم يعد العالم قادراً على أن يبقى مكتوف الأيدي وشاهد المجاعة المتفشية في الصومال. كانت المساعدات الإنسانية تصل باستمرار على مدى شهور عدة، إلا أن الجترات كانوا يستولون على الغذاء والدواء ويأخذونه لأنفسهم ولا يعطون الشعب أي قدر منه. أضحي الوضع أسوأ إلى أن قررت «الأمم المتحدة» أخيراً أن تتولى زمام الأمور بنفسها. بقيادة «الأمم المتحدة»، ثمانية وعشرون بلداً نظمت قوة مهمة عسكرية تُدعى «عملية استعادة الأمل». كان هدفها هو الإشراف على توزيع الغذاء والإمدادات.

في الصومال نحن نسمي الأمريكيين Americans: «مريكائز». لما سمعتُ أن هؤلاء الـ «مريكائز» قادمون إلى موقاديشو، سألتُ أمي من يكونون هؤلاء القوم. لم أكن أعرف أن الأشخاص الذين رأيتهم في أفلام «الأكشن» هم «مريكائز». «إنهم أشخاص بيض البشرة، أقوياء، ذوو أجسام ضخمة، أجابت أمي. «إنهم يأكلون لحم الخنزير، يشربون الخمر، ولديهم كلاب في منازلهم».

بدا هذا الوصف شبيهاً بالأشخاص الذين رأيتهم في الأفلام السينمائية. كائناتٌ من يكونون، بدا رجال الميليشيات قلقين بشأن وصولهم إلى بلادنا. ثوار كثيرون شرهوا يذفنون بنادقهم، وبعضهم قرأ من موقاديشو. كانت هنالك فوضى وتوتر في كل الأرجاء. لم يكن بمستطاعي أن أنتظر كي أرى الـ «مريكانز» وهم يحطون على أرض موقاديشو كنتُ أتمنى أن يكونوا أشبه بالممثلين في الأفلام السينمائية وأن يُعطروا الميليشيات كلها بوابل من الرصاص.

وهكذا في منتصف ليلة التاسع من كانون الأول/ ديسمبر، كان الهدير المعاصف للطائرات الهليكوبتر كوبرا وطائرات لوكهيد «AC-130»¹ الحربية قد ملأ الجو. من المحيط جاء طنين الحوامات² التي شرعت تفرغ حمولتها من الذبابات وقوات المارينز على الساحل. كان منزلنا قريباً من المطار والبحر، لذلك هذه الأصوات كلها أيقظتني من النوم حالاً. عبر ثقب الرصاصات في سقف منزلنا كان بمستطاعي رؤية الأضواء الواضحة للطائرات، يرافقها هدِير الذبابات على طول الطرقات. أمي، حسن، وخديجة استيقظوا كلهم من نومهم، بل وحتى نعمة.

كنتُ متلهفاً لرؤية القوات والطائرات العمودية في الصباح. في الفجر أنا وحسن، كل واحد منا ممسكاً بيد الآخر، سرنا نحو المطار عبر شوارع تعودت أن تكون لوكاراً للقتاصيين. كان هنالك عدد غفير من الصوماليين

1- طائرة لوكهيد AC-130: هي طائرة مسلحة ثقيلة موجهة للهجوم الأرضي. كانت شركة لوكهيد مارتن مسؤولة عن بناء هيكل الطائرة بينما كانت شركة بوينغ تتولى تعويدها لطائرة مسلحة وتتولى الدعم أيضاً الطائرة هي تعديل لطائرة النقل سي-130 هيركوليز - م.

2- الحوامات (hovercrafts): الحوامة هي مركبة تطفو في الهواء على وسادة هوائية أسفل جسمها. حيث تقوم محركات قوية بدفع الهواء أسفل الحوامة مما يؤدي إلى ارتفاع المركبة إلى أعلى بسبب ضغط الهواء المضغوط على الأرض أو سطح الماء وكذلك على قاعدتها، إلا أن قوة دفع الهواء ليست كافية لرفع المركبة إلى ارتفاع ضخم وإلا تسرب الهواء المضغوط - م.

في الشارع، كلهم من دون استثناء سائرون في الطريق نفسه، صوب المطار. ولعنا اقترينا أكثر، أصبحت أصوات طائرات الكويبرا العمودية تصم الآذان. انخرطنا مع مجموعة من الصوماليين الفرحين الآخرين، بعضهم واقف على المحيطان، بعضهم الآخر على سطوح السقوف، يشاهدون طائرات الهليكوبتر الـ «شينوك» الضخمة التي تحمل أشياء ثقيلة جداً تقلع وتهبط. كان يوسعنا رؤية السفن الحربية في البعيد في المحيط الأزرق؛ في جميع الأمكنة المحيطة بالمطار، كانت قوات المارينز في عملية تمويه تتخذ مواقعها وتتصب تحصينات للمدافع.

قال أحدهم إن الـ «مريكانز» قد طوّقوا الثوار الذين كانوا يسيطرون على المطار والميناء. أصبح الحشد أكبر فأكبنا كنا نصرخ، تهاجسنا، ونهتف باحتياج. كانت حدود خارجية أمنية قد نُصبت في وقت سابق، سادة المداخل المؤدية إلى المطار. كان العلم الأمريكي، الـ «مريكان» يرفرف، بنجومه وأشرطةته. وهنا قدحت الفكرة في رأسي: «رأيتُ هذا العلم في الأفلام السينمائية!» هؤلاء الـ «مريكانز» هم أشخاص السينما، وهذا فيلم سينمائي حقيقي يُعرض أمام أعيننا!

كوماندر يتبغي أن يكون هنا، فكثرت مع نفسي أهو ذا. هذه هي اللحظة التي كنتُ أنتظرها بفارغ الصبر، كي أقابل كوماندر وأشاهده يبدد الميليشيات كلها! أسقطت الطائرات العمودية وإبلاً من الكرامات المزودة بالصواريخ الفوتوغرافية والمعلومات عن القوات الأمريكية. التقطتُ عدداً منها. «قوات [الأمم المتحدة] جاءت إلى هنا كي تساعد في المضي الدولي للتخفيف من معاناة الشعب الصومالي»، هذه الكلمات ذكرت باللغة الصومالية. «نحن مستعدون لاستخدام القوة كي نحمي عملية تخفيف المعاناة وفي الوقت نفسه كي نحمي جنودنا. لن نسمح بأي تدخل فيما يتعلق بتوزيع الغذاء أو فيما يتعلق بأنشطتنا. نحن هنا من أجل مساعدتكم». لأنه ليس بوسع عدد غفير من الصوماليين القراءة،

كانت الكراسيات تُظهر أيضاً رسماً توضيحياً من مثل كتاب قصص مصورة لجندي أمريكي يصافح رجلاً صومالياً تحت نخلة فيما تمرُّ من هناك طائرة هليكوبتر. لم يكن باستطاعتي الانتظار كي أصافح الـ «كوماندو».

الأشياء كلها كانت تتحرك بسرعة شديدة — الدبابات، الجنود، الطائرات. كنا نندافع بالمناكب كي نحصل على مواضع نشاهد منها الفيلم الذي تجري وقائعه أمام أنظارنا. باستثناء أنه لا يوجد فيه إطلاق نار. ظلمتُ أنتظر المعركة كي تبدأ كنتُ أريد أن تشن طائرات الـ «شيتوك» والـ «كوبر» هجوماً عنيفاً على الثوار وتدمرهم عن بكرة أبيهم، إلا أن كل شيء كان مسالماً. وعقب ذلك تذكرتُ أن هذا الأمر هكنا في الأفلام السينمائية. أولاً أنت تشاهد جميع المعدات الثقيلة والطائرات العمودية تنهياً للقيام بعمل فعال، وعندئذ تأتي المعركة تالياً. كنتُ أريد أن أرى الميليشيات تواجه هذه القوات، إلا أن الثوار الذين عرفتهم منذ عودتنا إلى موقاديشو هم الآن يجوبون المكان من دون أسلحة، يتصرفون كما لو أنهم أناس عاديون. لم يكونوا يجرون على مواجهة كوماندو.

طوال اليوم راقبتُ المارينز وهم يتخذون مواقعهم، كانت أعداد متزايدة منهم تأتي تباعاً. رجلاً بزي رسمي لوحاً كي يسمح لنا بأن نجتاز المطار هاربين نحو الكتبان الرملية، حتى يكون بوسعنا أن نشاهد فيما تجلب الحوامات أعداداً متزايدة من المارينز من البحر. كانت سيارات الـ «هامفي»⁽¹⁾ والدبابات تجوب المكان مُحدثةً ضوضاء إلا أنها لم تطلق النار قط. كنتُ أتحرق شوقاً لأن تبدأ المعركة. كنا نشاهد فيما كانت القوات تسحب الـ «هامفي» العالقة خاصتها من الكتبان الرملية. أنا وحسن أصبحنا أكثر جرأة وكنا نقترب كثيراً من القوات. وقفتُ هناك

1- الـ هامفي Humvee: سيارة عسكرية أمريكية متعددة المهام وعالية الأداء والأمن استعمالاً لدى القوات الأمريكية على الإطلاق فأينما نجد الجنود الأمريكيين نجد الـ هامفي. ولقد صنعت أساساً لحاجة الولايات المتحدة لاستبدال عدد من سياراتها العسكرية القديمة بأخرى حديثة عالية الأداء - م.

فاغراً فمي، أشاهدتهم وهو يشربون من قناني ماء ويتسمون لنا. أوماتُ طالباً الماء، والرجل الأبيض بالزّي الرسمي مضى إلى داخل الـ «همقي» وناولني قنينة بلاستيكية. ومن ثم أومأنا بأننا نريد الطعام بأن حرّكتنا أيدينا نحو أفواهنا، وسلمونا مربي فاكهة للذيذ الطعم، خبزاً وزيداً. الكوماندو بدو متشابهين وحتى إنهم تحدثوا إلينا باللغة الصومالية، إلا أنّ كل ما كانوا قادرين على التفوّه به هو «صومالي سيكو»، أيها الصومالي، تحرّك للوراء! أحد المارينز رمى حلوى الشوكولاتة إليّ. أمسكتها وابتلعتها كلّها. لقد وصلتُ إلى المنزل وأخبرتُ أمي، صفعتني على خدي صفعةً قوية. «يلزمك ألا تأكل لحم الخنزير!» قالت لي.

أخبرتني أنني لا أعتقد أنها لحم الخنزير، كانت حلوة الطعم، إلا أنها لم تصدّقني. كيف يتسنى لها أن تعرف كيف يكون طعم لحم الخنزير؟ حلّ الليل ثانياً، وكانت موقاديشو أكثر ضوضاءً من أيّ وقت مضى. إنما لأول مرة خلال سنتين، لم يكنْ هنالك صوت التفجارات وإطلاق رصاص. دُهنّا كيف أضامتْ قوات المارينز المطار. كانت الأضواء تأتي من جميع الجهات، من الهليكوبترات، الخيام، السيارات. بدأ الوقت نهاراً في منتصف الليل. لم يكنْ مسموحاً لنا أن نقرب كثيراً جداً من المطار ليلاً — «صومالي سيكو!» كان المارينز يصيحون علينا مراراً وتكراراً. إنما لأول مرة أصدقائي، شقيقي، وأنا بات باستطاعتنا الخروج إلى الشوارع الترابية بعد هبوط الظلام وأن نمارس الألعاب، أن نضحك، ونتكلم. أحصينا الطائرات العمودية فيما كانت تحلق في سماء موقاديشو، والطائرات الحربية الضخمة التي كانت تطف وتدور حول المدينة. مسرح قايس المخصص لعرض الأفلام يمكن أن يبقى الآن مفتوحاً أثناء الليل، لكننا لم نذهب إلى هناك. لأول مرة على مدار سنوات عديدة، كان الخارج حتى أكثر إثارة من الأفلام.



ذات صباح أنا وشقيقي استيقظنا كي نرى سيارة هامفي بلون الرمل متوقفة في شوارع منطقتنا السكنية. كانت القوات تتغل من منزل إلى منزل بحثاً عن الأسلحة. كان هنالك مارينز في كل ركن حاملين بنادقهم المصوّبة إلى الأسفل، قاماتهم منتصبة ورؤوسهم مرفوعة. بدوا مستعدين ونظيفين جداً بزياتهم النظامية، التي ليس فيها ثقوب أو أضرار مفقودة. لم يكونوا يعضفون القوات أو يصفقون. لم يكونوا يتناشون أحدهم مع الآخر. وقفتُ هناك ساعياً إلى أن أتخيل أمريكا التي أتى منها هؤلاء الأشخاص؛ لا بد أن يكون المكان بهياً، فاتح الجمال. وبعدها خرجت امرأة جميلة، هيفاء، جندية من البحرية الأمريكية، من منزل قريب منا ومشّت في طريقنا. لاحت على وجهها بسمة عريضة، إلا أن حسن وأنا هرولنا عائدتين إلى منزلنا ومكثنا قريبين من أمنا وخديجة. لم نكن متيقنين من حقيقة ما يجري، ولم نشأ أن نصاب أمنا بالأذى. دلفت السيدة واستخدمت لغة الإشارة كي توصل فكرة مفادها أنها تريد أن تفتش المنزل بحثاً عن الأسلحة. كنتُ أتبعها في كل خطوة نخطوها، أمي تكافح كي تجرني وتبعدني عنها. كان شعرها البني البسيط قد دُكرني بالنسوة البيضاءات في الأفلام. قبل أن تغادر منزلنا، ابتسمت، نفوحت بشيء ما، وأنتت إلي، باسطة إلي يدها. هزرتُ رأسي بالنفي وتراجعت بخجل. كنتُ أروم أن ألمسها، إلا أنني كنتُ خائفاً جداً من الوقوع في مشكلة ما مع أمي والثقافة الصومالية. من طبيعتنا ألا نصافح النساء، بخاصة إذا كنَّ غير مسلمات. لم تكن الجندية غاضبة؛ وقد سلّمتني بعض ألواح الشوكولاتة. أمسكتُ بها أمي بعض، معتقدة أنها لحم الخنزير، لكننا أقمناها أنها مجرد حلوى. وحتى إنها أكلت شيئاً منها.

حين قاد المارينز سياراتهم وغادروا حينما السكني، هرولتُ وراء سياراتهم الد «هامفي» متوسلاً إليهم أن يعطوني مزيداً من الحلوى. أحد رجال البحرية الأمريكية خلع نظاراته الشمسية العاكسة للصور وكشف لي أن عينيه زرقاوان! كان رجلاً أجنبياً. الشيء التالي الذي عرفناه، هو

أَنَّ الحلوى كانت تمطر من سيارات الـ «هامفي». أولاد آخرون وأنا تشاجرنا عليها، وبعدها لاحظت سيارات الـ «هامفي» مسالمةً أخرى. وفي النهاية توقفت إحداها وبسرعة تسلفت السيارة، ساعياً إلى الوصول إلى النظارات الشمسية لرجل البحرية الأمريكية. كنتُ فضولياً وودتُ أن أرى ما إذا كانت لديه هو أيضاً عيان زرقاوان. كان ضخّم البدن على غرار كوماندو. وجهه بتدقّة الـ «M16» إلى الأعلى وبعيداً عني، ومن ثم بسط فزاعيه وأنزلني ثانيةً إلى الطريق. صحتُ، «رامبو! كوماندو! آملاً أن يرد عليّ. فهقه والزح لي قائلاً، «صومالي، سيكون!».



كميات هائلة من الطعام تأتي الآن إلى العيّن بمرافقة القطعات العسكرية، وتُتحت مراكز للتوزيع في موقاديشو. أنا وحسن مضينا إلى أحد مطابخ الأطعمة في مبنى الوزارة القديم — المكان الذي كنا نرحف إليه كلّ ليلة وكلّ صباح كي نتحاشى القناصين عندما نجلب الماء. الآن غاب القناصون عن الأنظار وكانت الأبواب مفتوحة، مئات من الأشخاص يقفون في طابور من أجل التزوّد بالطعام. كنا أنا وحسن نتظر في الطابور يومياً كلّ واحد منا يحمل طاساً في يده كي نحصل على عصيدة مُغلّية لأفراد أسرنا. الشوارع التي كانت مغلقة في زمن «حرب الشهر — الرابع» تُتحت مجدداً الخط الأخضر ألقي. كانت القوافل تأتي حاملة الطعام ترافقها القطعات الأمريكية التي كانت تهدر فيما هي تجتاز الشوارع، بعضها كانت تتوجه إلى «بيدوة». بكل هذا الطعام ومن دون جنرالات، بدأ الناس يتدفقون أفواجاً أفواجاً عائدتين إلى موقاديشو. مدينة النساء والأطفال أصبح لديها رجال الآن. أحد هؤلاء الرجال هو أبي.

مضى أولاً إلى منزلنا القديم، الذي لم يكن يسكنه إلا الذباب، وكان القناب يستمتع بتناول براز رجال الميليشيات. جاب الشوارع مضطرباً، مشوّش الذهن، متفحصاً مراكز التوزيع، باحثاً عن أيّ شخص يعرفه. نظر

إلى كل عائلة تنام في الشوارع، عاقداً الأمل على أن يجدينا ومسانداً في سرّه ما إذا كنا لا نزال أحياء. في المدينة التي كان فيها نجم كرة السلة ذات يوم، لم يتعرّف أحد على «نور الطويل»؛ تجاهله الناس. الرياضي الشهير بات الآن بلا مسكن، جائعاً، عليلأً شأنه شأن الآخرين كلهم. غدّ الخطي متجهأً صوب شاطئ موقاديشو كي يرى ما إذا عادت مهنة صيد السمك إلى سابق عهدها، إلا أن وجوهاً جديدة تعقبته وقد زعموا أنهم الأشخاص الوحيدون الذين يزاولون هذه المهنة حالياً. كلّ الوجوه الأخرى التي شاهدها في الشوارع بدت إما خائفة، غاضبة أو جائعة. كانت قدماء تحترقن. ليس في قدميه فردئين من صندل إصبع منبوذ وجدهما في قارعة الطريق — كانتا بحجمين مختلفين، إلا أنه لم يبال، كان يفضل أن يلبس في قدميه أي شيء يحجب عنهما الأرض المُحرقة. كان أبي على وشك الانهيار لما قابل بالمصادفة فتومة ابنة خديجة. أرشدته إلى منزلنا، حيث كانت أمي وتعمة هناك تنامان قبلولة منتصف النهار كل واحدة منهما بجوار الأخرى ويطناهما مليتان بالعصيدة.

لما رأت أمي زوجها يدخل المنزل بعد مضي ثلاثة أعوام، حسبت أنها ترى شبحاً. هذا الرجل المواقف قبالتها بدا نوعاً ما شبيهاً بنور إثنين، إلا أنه مختلف عنه. كان شديد التحول وبشرته داكنة جداً، عيناه غارتا عميقاً في رأسه. كان الجلد قد تقشّر من يديه. كان لديه طفح جلدي، جروح، وكدمات في جميع أوصال بدنه، الذي كان قد كساه دم صدي. كان شعره قد نما بغزارة وأصبح طويلاً وققد يريقه بسبب الغبار والوحل. كان قميصه ممزقاً من الجهات كلها.

أنا وحسن كنا في المدرسة نحفظ عن ظهر قلب درسنا لذلك اليوم حين أتت فتومة وأخبرتنا، متكالين بسباس، والأولاد الآخرون الذين صدّقوا أننا نحن الاثنين، أنا وحسن يتيمان حالنا حال معظمهم شاهدونا ونحن نهزول بأقصى سرعة مغادرين المدرسة.

كنا قد نسبنا وجهه إبان الأهرام الثلاثة الفائقة من الحرب الأهلية، وعلى غرار أمنا أحسبنا أننا كنا نقسم شعلتنا مع شبح. ما أزال أتذكر الرائحة التي تفوح من جسم أبي. كانت يدياً رائحة الموت، الرائحة العتيقة للدم والتراب. أنا وحسن جلسنا بجواره. أمنا ذهبت كي تملأ دلواً بالماء الدافئ له كي يستحم، إلا أنه كان خائر القوى، لذلك هي التي حتمته بنفسها. كلما تلامس أبي جلده بالماء، يصرخ متألماً. كانت ساقاه الطويلتان، العضليتان قد بدتا أشبه يهودين. أطعمته أبي المصيدة التي كنا أنا وحسن قد أحضرناها من مركز التوزيع. قصص حسن شعر أبي وشذّب لحبته الطويلة. أما أنا فقد غسلت ملابسه، كل ما كان بحوزته هو الـ «معاويس» والقميص المعزق. وضعت أبي حصيد قش في ركن المنزل. غطى أبي نفسه بقطعة قماش ونام نوماً عميقاً، مستيقظاً فقط لأداء الصلاة خمس مرات في اليوم. أنا وحسن مضينا إلى الخارج كي نحضر مزيداً من الماء والغذاء إلى المنزل. على الرغم من أن رجالاً كثيرين رجعوا إلى موقاديشو، حين أصبح الوضع مناسباً لمزاولة العمل من جديد، كانت لا تزال مشينة النساء والأطفال. كان الرجال لا يزالون خائري القوى وليس باستطاعتهم تقديم يد العون.

بعد انقضاء بضعة أيام، حين أحسّ أبي أنه قادر على الوقوف والتكلم، أخذناه أنا وحسن مشياً على الأقدام إلى عيادة طبية محلية تديرها «الأم المتحدة» في داخل المطار. لم تكن تبعد عنا سوى خمس عشرة دقيقة مشياً، إلا أن أبي كان ينبغي أن يتوقف كل دقيقة كي يرتاح. أعطاه رجل أمبوي حقناً، وحبوب بنسلين، ولبتامينات. ولما رجعنا إلى المنزل، أخبرنا أبي أخيراً بكل ما وقع له خلال رحلته الغادرة في عمق البادية. بعد أن تركنا في «بيدوة»، سار على مدى أيام في عمق البادية، الأرض التي اجتازها ذات مرة كبشوي مع جماله. رأى الأمكنة التي كان يواعد فيها أبي والأرض التي تعود الأسد «فاري» أن يتجول فيها. أخبرنا أبي أنه في الحقيقة صلى من أجل الأسود كي تحميه من الميليشيات، لكنه طوال

أشهر عدّة لم يرَ أسداً واحداً. التقى بالمصادفة ضباعاً وحيوانات أخرى نافقة. بدا كما لو أنّ الأسود والضواري الأخرى قد لاذت بالفرار بسبب الجفاف الشديد والقياسي.

كان أبي بعيداً عن مجال القتال الدامي بالينادق، إلا أنه قابل فعلاً أشخاصاً آخرين. قابل مجموعة من رجال «زحانوين» جالسين تحت شجرة أكاسيا. كانوا قد ذبحوا غزالاً وكانوا يتقاسمون لحمة الذي يشوونه على النار. بعد أن اكتشف أنهم جميعاً يتحدثون لكنة «معاي»، تقاسموا اللحم معه. كانوا بدواً لم يسيئ لهم أبداً أن شاهدوا المدينة، أي مدينة، لذلك فإن قصص أبي المتعلقة بمبارياته في كرة السلة، المتعلقة بالنوادي الرياضية، والشاطئ كانت في نظرهم أشبه بحكايات الجان. ظلوا معاً على مدى شهور عدّة، وكانوا يتنقلون باستمرار ويصيدون الحيوانات، يتقاسمون لحومها وفقاً للتقليد البدوي. في بعض الأحيان كانوا بهمهمون، ينددون الأغاني، ويرقصون، وفي الليل كانوا ينامون جميعاً ولا يبقى إلا واحد منهم كي يحرس مخيمهم. ومثل أبي فقدوا كلّهم الاتصال مع عائلاتهم، غير أنهم كانوا يذلون أقصى ما يستطيعون كي يستمتعوا بالأشهر القليلة التي أمضوها معاً باعتبارهم بدواً ثانية.

في يوم من الأيام سمعوا صوت إطلاق نار وتعيّن عليهم أن يفرّقوا ويركضوا من أجل حياتهم من جديد. في خاتمة المطاف لحقّ أبي بأحد الرجال. سارا طوال نهارات وليال عدّة، غير متيقن من الوجهة التي كانا ذاهبين إليها. غالباً ما يلتقيان بالمصادفة بجثث نساء وأطفال مُتخنيين بجراح أحدثتها رصاصات الينادق. كان أبي يعتقد اعتقاداً راسخاً أننا فارقنا الحياة في هذه الآونة. وحتى إذا هربنا من الميليشيات، البيئة القاسية سوف تقتلنا بالتأكيد. فيما كان يسرد لنا قصته كانت عيناه مبللتين بالدمع الحار، إلا أنه لم يكن يبكي فعلاً كان ذلك ناجماً عن نوع من الحساسية. كان الماء ينزل من عينيه طوال شهور عدّة.

في الليلة التي حطت فيها قوات البحرية الأمريكية في موقاديشو، كان أبي يرنو يبصره إلى النجوم، وهو ما يزال مخبئاً في البادية، لا يعرف ماذا يجري في المدينة. بعد مضي بضعة شهور تمكن من العودة إلى «بيدوة» بعد أن سمع أن القوات الأسترالية والأمريكية كانت موجودة هناك، توفر الطعام والأغذية الضرورية. كان يقف في الطابور كي يتزود بالطعام في «بيدوة» وظلّ يسأل الناس عنا، إنما لا أحد رد على سؤاله. إنك لا تسأل عن الناس في «بيدوة»؛ أنت تصلي كي يكونوا قد وصلوا إلى السماء، لأنهم من المحتمل أن يكونوا في جنداء الأموات.

مكث في «بيدوة» كي ينضم إلى صديق له هناك. كان صديقه قد أصيب بطلق ناري في ركبته، من دون أن يكون هناك علاج للمرح الذي ازداد سوءاً وتلوث بالجراثيم. لم يكن بمستطاع الرجل أن يمشي. قطع أبي بعض الأعشاب التقليدية كي يعالج جرحه وجلب طعاماً من مراكز التوزيع. في أيام أخرى، كان أبي يمشي في عمق الأدغال المحيطة بـ «بيدوة»، ساعياً لأن يرى ما إذا كنا موجودين هناك. نعثر بأولاد ونساء موتى، بعضهم من الصعب جداً أن يتعرف على ملامحهم. كان ينبغي له أن يقلب الجثث كي يرى ما إذا كانت وجوهها هي وجوهنا. بعض الجثث كانت مجرد أشلاء ليس إلا، لذا لم يكن باستطاعته أن يتيقن ما إذا كانت تلك الأشلاء هي نحن. في النهاية تغلّى عن هذا الأمر واقترض أننا فارقنا الحياة. لكنه بعد أن سمع أن أناساً كثيرين عادوا من «بيدوة» إلى موقاديشو، عقد العزم على أن يرجع إلى المدينة ويبحث عنا هناك.

بعد أن روى أبي قصته، رويّا نحن بدورنا قصتنا. لم يتدهش من أن أمي عملت كل ما بوسعها كي نضمن لنا أن نقل على قيد الحياة. كان يجلس وظهره مستند إلى جذع الشجرة، إلا أنه كان يميل للأمام وينظر إلى حسن وإلى، وهو يحكي لنا كم هو فخور بالطريقة التي ساعدنا فيها أمنا وشقيقتنا.

لم يسترجع أبي عاقبته إلا بعد مضي وقت طويل. غالباً ما كان يتكلم مع أمي عن الحياة في أزمدة الخير والرخاء قبل اندلاع الحروب — حياتهما في البادية وفي موقاديشو. في بعض الأحيان كان يلوح المكان جيئةً وذهاباً في المنزل وهو يتلو القرآن. لم يكن متأكداً مما يجب عليه القيام به في مدينة تحوّل فيها ملعبه الرياضي المحبوب، «ملعب هورسيد لكرة السلة»، الذي بات يستخدمه الأطفال الآن لممارسة ألعاب الحرب إلى معسكر للأسر المتنازحة. كنا أنا وحسن من اضطلع بالمسؤولية الكاملة عن إطفاء عائلتنا يومياً، بمن فيهم أبي، الرياضي المحلي الذي كان مشهوراً في يوم ما.



تغيّرت السنة وأصبحت سنة 1993، السنة التاسعة من حياتي. القوات الأمريكية والعلم الذي تلمع فيه النجوم رافقتهما الآن نوزة الأمم المتحدة الزرق وأعلام من كلّ بلدان آسيا، أفريقيا، وأوروبا. جاء كذلك أشخاص غير عسكريين إلى المدينة كي يقدّموا المساعدة. كنا نراهم يمشون الهويّنا ويسبحون في المياه الخضراء القريبة من الساحل. إحدى النساء، نوع من عاملة مساعدة، كانت تمشي الهويّنا صباح كلّ يوم بالقرب من منزلنا. كانت يضاء البشرة، شعرها طويل، وابشمت وتذكرت اسمي. حرصت على النهوض صباح كلّ يوم وأن أقول لها «مرحباً» حين تمر بي. رافقتها وهي تنصت إلى الموسيقى في «الهيدفون» خاصتها ونمط ساقها. في بعض الأحيان كانت تجلس وتمارس الألعاب معي، مع شقيقي، ومع نعمة. كانت تحضر لنا على الدوام الوجبات الخفيفة من مثل الفول السوداني، الحلوى، والكمككات الصغيرة المُحلّاة، وجلبت لنا أيضاً سُكّكات للألم، المضادات الحيوية، والأدوية الأخرى. شرح لنا الأهداف التي جاؤوا من أجلها وكيف يلزمنا أن نتعامل معها. اعتقد أنني وقعت في غرام هذه المرأة؛ لم يكن غراماً رومانسياً، لكنني وددتُ فقط أن أبقى قريباً منها. لو

كنتُ أعرف اسمها، فربما كنتُ سأجدها في أمريكا، إلا أنني سميتها فقط بالاسم الذي نطقه على جميع الأشخاص غير المسلمين، «غالفو»، أو «الكافرة». ذات يوم أتتُ إلى المدرسة، لمجرد أن تقوم بزيارة وتسلم علينا. رفض مكالين بَسَاس أن يصافحها. ومن ثم في أحد الأيام لم تعدُ نراها. وفي الحال أدركنا أنه لم يعد هناك أي أحد يتزء على مهل.

أصبح الجنرالات قلقين؛ كانوا يريدون أن ترجع المدينة إلى سابق عهدها. عبيد كانت له محطة إذاعية وكان يُخبر الصوماليين على الهواء أنه يتعين عليهم أن يقاوموا «احتلال» موقاديشو. في الخامس من حزيران/يونيو، قوات «الأمم المتحدة» مضتُ إلى محطة الإذاعة كي تصادر الأسلحة. ظنُّ عبيد أنهم كانوا يسعون إلى غلق الإذاعات، وهاجم القوات من مكمن، وقتل منهم أربعة وعشرين جندياً باكستانياً. هذه الأمور زادت الطين بلة. في الثاني عشر من حزيران/يونيو أرسل الأمريكيون طائرات كوبرا العمودية على منزل في موقاديشو ظنوا أن عبيد مختبئ فيه ودمروه تدميراً كاملاً وسوّء بالأرض. لم يكن عبيد هناك، إلا أن عشرات الأشخاص الآخرين قُتلوا. زعم عبيد أن الأمريكيين قتلوا النساء والأطفال، وبدأ يحرض الصوماليين على «الغزاة» الكفار. قال الأمريكيون إن جنود عبيد فقط هم الذين كانوا في المنزل، إلا أن بذرة الاستياء من الأجانب زُرعت في نفوس الصوماليين. لم يبدد عبيد وقته، زرع عبوات ناسفة في جانب الطريق في آب/أغسطس فقتلت أربعة جنود أمريكيين وجرحت سبعة آخرين. بدأت «معركة موقاديشو».

كنتُ أنتظر منذ زمن طويل هذه اللحظة لأردتُ أن أرى القوات الأمريكية خلال نشاطها الفعال، وكيف تقاتل. أنا وحسن كنا فرحين جداً بالحرب التي كنا نركض إليها مهما كانت زاوية المدينة التي كنا نسمع فيها الانفجارات ورصاص البنادق. وفي الحال شرعت طائرات الـ «كوبرا» والـ «بلاك هاوك» تنفض في جميع الأرجاء، تحوم حول المباني التي كان

يختص فيها رجال الميليشيات. رفعتُ بصري إلى الأعلى وكنتُ أعتف كلما كانت طائرات الهليكوبتر تطلق النار على أحد المياني؛ بدا لي الأمر أشبه بفيلم سينمائي عظيم جداً. وقفت في الشوارع ورحتُ أشاهد رجال الميليشيات يصيحون أحدهم على الآخر، قافزين من منزل إلى منزل ومختبئين في الأزقة الضيقة. كنا نشاهدهم وهم يتخذون مواقع مناسبة لهم فيما كانت طائرات الهليكوبتر تحوم فوقهم.

كنتُ أحسب أن الطائرات والمطارات العمودية سوف تخيف الميليشيات، لكن بدلاً من ذلك فإن الأمريكيين الأقوياء، ذوي الأجسام الضخمة في الأشرطة السينمائية كان الثوار الصوماليون يطاردونهم في الشوارع. لم يكن الأمر كما توقعت. وفي الحال تغير كل شيء. لم يعد المارينز يرحبون بنا حين نقرب منهم؛ لم تعد هنالك حلوى أو كعكات صغيرة مُحلاة. لأول مرة أصبح المارينز يصوبون بنادقهم إلى الصوماليين ويضايقونهم ويهددونهم، وهذا الأمر حصل معنا أيضاً نحن الأطفال. بدوا عصبين.

من الصعب أن نقدر لماذا انقلب صوماليون كثيرون جداً ضد المارينز وباتوا يهتفون للميليشيات. كان الثوار يقتلوننا على مدى أربعة أعوام، يسرقون طعامنا، ويشربون في منازلنا. الأمريكيون كانوا عطفين جداً. من المؤكد أن الأمر يعود جزئياً إلى الهجوم الذي شنه الأمريكيون على المنزل الذي تسبب في مقتل مدنيين كثيرين جداً. وفيما يتعلق بهذه المسألة كنا قد تعودنا على الموت والدمار بحيث أن هذه المعركة الجديدة بدت أشبه بلعبة كرة السلة أو مباراة كرة القدم؛ وحتى إنها لم تكن حياة واقعية. البشر يملأون الشوارع، بناصرون فريق بلادهم. أنا كذلك اصطفتُ مع الحشد. صحتُ على الميليشيات كي ادعهم يعرفون من أي جانب تأتي طائرة الهليكوبتر. رميتُ الأحجار على طائرات الهليكوبتر. ركضتُ مع الحشد، مكرراً هتافتهم: «يعيش عبيد! نسقط أمريكا!».

استمرت المعركة طوال أسابيع. كانت القوات الأجنبية تنسحب ببطء إلى المطار. الميليشيات الموالية لعبيد سيطرت على الأرض إلا أن القوات الأجنبية حكمت السماوات بطائرات الهليكوبتر. في الليل يصعب على الميليشيات الصومالية أن ترى شيئاً، إلا أن طائرات الهليكوبتر بأشعتها الليزرية تحت الحمراء كانت قادرة على أن تطلق النار على أهدافها. من منزلنا في كل ليلة كنتُ أشاهد رجال الميليشيات يبدلون مواضعهم، مطلقين النار على طائرات الهليكوبتر. على مدى دقائق قليلة يحل صمتٌ مطبق، وعقب ذلك تنفخ طائرة الهليكوبتر من جديد وتزد عليهم. كنتُ أعتقد أن صلوات أمي أنقذتنا من قذائف طائرة الهليكوبتر، غير أنني الآن أعتقد أنها دقة تسديد الطيارين.

في يوم الأحد 3 تشرين الأول/أكتوبر، أسقطت قوات عبيد طائرتي هليكوبتر من نوع «بلاك هوك» بالـ (آر. بي. جي.)⁽¹⁾ الروسية. سمعتُ دوي الانفجارات وأعمدة الدخان تصاعد على بعد ميل من منزلنا. بالطبع، أسرعْتُ ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً كي أشاهد هذا العمل الفعال وهو يتكشف للعيان. كل شيء كان مُغيّراً جداً ولم يكنُ بمستطاعني أن أرى كثيراً أو أدنو كثيراً جداً. ثمة حشد يسحب جثث القتلى الأمريكيين، وقال بعض الأشخاص إن آخرين كانوا لا يزالون أحياء، وقعوا في الفخ. استمرت عملية الإنقاذ حتى الأسبوع التالي. قُتل ستة عشر أمريكياً وأكثر من ثلاثمائة صومالي. بعد مرور بضعة أيام كنتُ أعب «الغمضية» في بقايا إحدى طائرتي الهليكوبتر نوع «بلاك هوك».



بعد خمسة أشهر غادر الأمريكيون موقاديشو. كان هذا هو آذار/مارس

1- (آر. بي. جي. (Rocket Propelled Grenade) (RPG): هو قاذف صاروخي عديم الارتداد يرمى من على الكتف الأيمن ويستعمل ضد الأهداف والمدرعات الثقيلة والمحركة كما يمكن استعماله ضد تحصينات العدو ومنشآت - م.

1994، سنتي العاشرة. الثوار شديدو الهزال بأسنانهم البنية البشعة أجبروا المارينز نجوم السينما على العودة إلى بلادهم بعد معارك ضارية. وحل الأمريكيون وقوات «الأمم المتحدة» على جناح السرعة وحتى إنهم لم يأخذوا معدّاتهم وحاجياتهم. خلّفوا وراءهم طائرات هليكوبتر ومركبات شبه عاطلة، كما تركوا الأحذية العسكرية والبدلات النظامية. انضممتُ إلى حشد مضى إلى البقعة ذاتها التي دعانا إليها الـ«مريكانز» أول مرة كي نشاهدهم وهو يهبطون على الساحل بالحوامات. هذه المرة كنا نسرق المعدات والحاجيات التي تركوها وراءهم، حتى علب الأدوية، الأقراص، السررنجات النيّذ. نخسنا السررنجات في أيدينا على سبيل الهزل. أكلنا الأقراص. هل يُعدُّ هذا سرقة إذا كانوا قد تركوا هذه الحاجيات وراءهم؟

الميليشيات نفسها التي شجعناها في قتالها ضد الأجانب سوف تنقلب ضدنا حالاً — نسرُق طعامنا وتطلق علينا النار على سبيل العزاج. أحسستُ بالعار لأنني هتفتُ ضد الأمريكيين، الأشخاص الذين أتوا بغرض تقديم المساعدة لنا هم من بلاد أحلامي. إلا أنني الآن أدرك أنني كنت ضائعاً — أنني غلام في العام التاسع من عمره خلق بين تعليمات نكالين بَسباس، أمي ورويتها المتعلقة بالكفار، القوات الأمريكية وشفتهم والطعام، حبي لأبي الشجاع وفريق كرة السلة الصومالي المتألق، والأفلام السينمائية الأمريكية التي أُخْرِمتُ بها.

وقفتُ على الشاطئ، أنقب في البدلات النظامية المُترَقة العتروكة التي تحمل أسماء أمريكية خيطتُ على الجيوب عليّ أثر على شيء نافع. أرفعتها، آملاً أن تكون إحدى تلك البدلات تناسب جسمي الصغير شديد النحول. أصدقائي محمد، باشي، ويوعاو ضحكوا. نظرتُ إليهم وعيَّست. «لستُ صومالياً»، قلتُ، «أنا مريكان». لقد تركني المارينز. وميأتون إليّ حالاً.

الشخص الذي ينادونه الأمريكي

مدينة النساء والأطفال أصبحت مدينة اللاجئين. اكتظت الشوارع بالرعاة والمزارعين السابقين، أغلبهم من عشيرة «زحانوين» الناطقين بلغة «معاي» من «الخليج»، «هاكول»، ومناطق «الشيل السفلى»، الأمكنة التي جاء منها أبواي. كانوا قد جاءوا إلى موقاديشو من أجل الطعام الذي جلبته قوات «الأمم المتحدة» وكي يبحثوا عن عملي من مثل صيد السمك، أو أن يعملوا بصفة حمالين في سوق «بكارا»، أو يحفروا مراحيض للناس. لقد رحلت القوات الأجنبية، أراضي أسلاف الواصلين الجدد كان الجنرالات قد استحوذوا عليها ولم يكن باستطاعتهم الذهاب إلى ديارهم. وها هم أولاء عالقون في موقاديشو، مدينة تحكمها الميليشيات القليلة التي تتركهم.

أفراد عشيرة الـ «حوايي» الساكنون في موقاديشو لم يكونوا يعرفون أشياء كثيرة جداً عن اللاجئين وتصوروا أن معظمهم مجرمون، بعض من أفقر الـ «زحانوين» كانوا في عشيرة ثانوية¹ تسمى «إيلاي». كانوا يلبسون التعاويذ حول أعناقهم وأذرعهم ومن عاداتهم أن يعيشوا على التسول بدلاً من رعي الحيوانات. بسبب قوم الـ «إيلاي» هؤلاء، كان أفراد الـ «حوايي» يعتقدون أن كل الـ «زحانوين» هم متسولون — وهي مشابهة للطريقة التي

1- عشيرة ثانوية sabelan: تسمى بالعامة العراقية «فخذ عشيرة» - م.

كان الأوروبيون كثيرون يعتقدون أنَّ جميع أفراد شعب الرومن هم «غجر» كسولون. كانوا في نظر كثير من الموقاديشيين مثيِّرين للاشمئزاز بكل معنى الكلمة.

كان من دأب أمي أن تخرج وتقابل لاجئي الـ «زحاثوين» في الشوارع. كانت تساعدكم بأن يجدوا بقاءً كي يتصبروا فيها خيماً بوصفها بدائل مؤقتة. أول موقع كان باستطاعتها أن تفكر فيه هو ما وراء المطار. كان الطريق من المطار إلى منطقة «الشيل السفلى» خالياً ومن دون شجر، وكانت أشعة الشمس قاسية والغبار يهب من تسيم البحر باستمرار. ما من أحد هنا يأبه باللاجئين الفقراء هناك، هذا ما خطر ببالها. في بحر يوم واحد، نصبروا هناك مئة خيمة بوصفها بدائل مؤقتة من العيدان والأكياس البلاستيكية، إلا أنه في اليوم التالي جاءت الميليشيات ودمرتها كلها. بعض اللاجئين كانوا يقضون نهارهم جالسين على الأرض في العراء، من إحدى الناحيتين يواجهون «المحيط الهندي» ومن الناحية الثانية يواجهون كثبان الرمل المترامية الأطراف.

كان بأسهم شيئا بئس أبي. لم يكن لديه أي خطط، ولم يخاف من مجمع خديجة البنة. كانت أسرنا قد أعطتنا غرفة واحدة فقط، وحسن، أمي، نعمة، وأنا كنا محشورين فيها. لم يكن هنالك حيز لأبي، وكان يتعين عليه أن يقضي ليله في الخارج معرضاً للبعوض. لذلك كنا نقوم بالمناوبة: كان بنام خلال ساعات النهار في غرفتنا حين نكون كلنا في الخارج؛ أثناء الليل كان يجلس خارجاً في الفناء، يضرب البعوض ضربات عنيفة ويصلي. مضى إلى غير رجعة ذلك الرجل القوي الذي كان يشب فوق الأسوار، يلاحق الأسود، ويسجل النقاط حين يُدخل الكرة في حلقة كرة السلة. كلما يقف، كان يتكبر على عصاه، جسمه الطويل معني إلى النصف. كنتُ أساعده في الذهاب إلى الحمام، كي يستحم، ويلبس ثيابه. أبي الشجاع الذي حملنا على كتفيه، يلمس كرة السلة الجبرسي خاصته،

كان يحتاج إلى المساعدة في كل شيء. أنا وحسن كنا غالباً نقفز من النافذة متسللين إلى الخارج متهرئين من العمل. كنتُ أذهب لمشاهدة الأشرطة السينمائية، أما حسن فكان يختفي مع أصدقائه. نكون طوال النهار خارج المنزل ولما تعود ثمة أشياء كثيرة يجب علينا أن نتجزها لأبنا. كان ينبغي لنا أن تغسل ملابسنا، نشذب شعرنا، ونجعله يتمشى حول المنزل.

لم يكنْ بوسع أبي أن يفهم لماذا جرى ذلك كله له ولأسرته. عندما كانت لديه نفود وكان يلعب لمصلحة الفريق الوطني، كان يلجأ في أحيان كثيرة إلى الإحسان، يُعطي المال للفقراء، ويساعد الجميع. لماذا استحق أبي هذا الشقاء؟ ألم تفلح صلواته؟ هل كان يعطي مالاً أقل مما يُقرض أن يعطي؟ لم يكنْ يعرف لماذا وضعه الله في هذا البؤس. إلا أن إيمانه كان أقوى من أي وقت مضى، كان يصلي خمس مرات في اليوم، وحتى أنه كان يصلي ساعات إضافية. لم يكنْ بمستطاعه الذهاب إلى الجامع، إلا أنه كان لديه حصير صلاة في المنزل. الصلوات أبقت حياً، إلا أن لديه ذنباً كثيرة جداً. «نعودتُ أن أرتاد دور السينما، أذهب إلى النوادي، وأسافر إلى خارج البلاد»، قال لي مرة. «ربما الله غاضب من هذه الأثام كلها». كان يعتقد أن تلك الأشياء الأثمة يمكن أن تقسر سبب معاناته وفقدانه هاقبه. وكانت تلك بمنزلة رسالة إليّ بالآ أذهب إلى السينما.

ذات ليلة فيما كان أبي في ساحة الدار جاثياً بالقرب من النار، يتحتم بصلاته، كان هنالك قرعٌ مرتفع على بابنا الصفيح.

«مَن أنت؟» قال صوت غاضب من الخارج.

«لماذا لا نعرف مَن تكون أنت؟» هتف صوتٌ آخر. «افتح الباب وإلا سنقتلك!».

هبط أبي واقفاً على قدميه وقرع باب منزل خديجة، ساعياً إلى إيقاظها من نومها. كانت من الـ «هوي» على غرار الرجال الواقفين عند الباب وربما في استطاعتها أن تهدتهم. غير أن رجال الميليشيات كانوا غير

صبورين وركلوا الباب بأقدامهم. نهضت خديجة بسرعة وتمكنت من أن تجعل نفسها بين رجال الميليشيات وأبي. في هذه الأثناء ألقنا كلنا من نومنا. كنت واقفاً هناك أشاهد فيما كان أحد الرجال يصوّب بندقيته إلى وجه أبي فيما حاولت خديجة أن تبقي في الوسط، وضعت نفسها في خط ماسورة البندقية مباشرة. بلكننا الموقاديشية، أنا وحسن وقفنا بجوار رجال الميليشيات وظللنا نصيح، «إنه أبونا، من فضلكم دعوه وشأنه!».

بدا رجال الميليشيات غاضبين جداً. قبل أن يأتوا إلى منزلنا، سمعنا طلقات نارية في منطقتنا السكنية؛ كانوا قد أطلقوا النار على رجل من عشيرة «زحانوين»، وهو متسول كان نائماً في الشوارع لأنه ليس لديه مأوى. سألوا أبي عن عشيرته.

«أنا من عشيرة زحانوين».

إلا أن خديجة أخبرتهم أننا موقاديشيان أولاً. «هذان الصبيان ولدا هنا. إنهما لا يعرفان شيئاً عن العشيرة»، قالت. من حسن الحفظ، انصرفوا، إلا أن مضايقة أفراد عشيرة الـ «زحانوين» استمرت وحتى ازدادت سوءاً. هذا كله كان يُرهق أعصاب أبي. كان هو خائر القوى أصلاً ولم يكن يفادر المنزل بتاتاً، الآن هو قلق من أنه إذا لم تكن تواتيه القوة قط كي يمشي هنا وهناك، لهاجمته عصابات الـ «هوي». لذلك تراجع إلى عالمه الصغير وفكره الممل.



جزء من المشكلة يكمن في مسألة أن عشيرة الـ «زحانوين» لم يكن مسموحاً لها بحمل البنادق ولهذا كنا من دون حماية. في كل منزل من منازل الـ «هوي» بالمدينة كانت هناك بنادق، حتى المنازل التي لا يُقيم فيها رجال ميليشيات. حين سقطت حكومة سياد بري، انقض المواطنون على المخزون الاحتياطي لأسلحة الحكومة. كانت هناك ذخيرة حربية أكثر من الغذاء. أصبحت المسألة الجوهرية أن تمتلك بندقية كي

تتخذ حياتك. السواد الأعظم من الشعب ناموا ويندقية «AK-47» معية بالرصاص جالسة يجتنبهم.

جلست خديجة بندقيتين، واحدة من نوع «AK-47» والثانية بندقية هجوم من نوع «SAR-80» أعطاهما إياهما أحد أقاربها كانت لديه بنادق كثيرة وكان يبغى التخلص من بعضها. خديجة، ابنتها عبد القادر، وابتهاها، فطومة وفردوسة، كلهم، بالتناوب، لجأوا إلى إطلاق النار على دلو مليء بالرمال وضبعوه في زاوية المنزل. أنا وعبد القادر حملنا بندقية الـ AK-47 إلى الخارج، ورحنا نمشي هنا وهناك كي نتباهى بها أمام الملا.

بعض من الشحاذي الـ «زحانوين» يأتون إلى منزل خديجة في ساعة مبكرة من الصباح في نحو الساعة الخامسة كي يستجدوا كوب شاي. أمي من دأبها أن تكون مستيقظة في مثل هذه الساعة تعد الشاي لأبي وحين يأتي الشحاذون ويتكلمون بلكتهم، لكنة معاي، كانت ترد عليهم بلكنة معاي، «سي هيتنغ؟» كيف الحال؟ «هادهاواو قادهيو». أدخل، تفضل اجلس.

أمي والشحاذون يخرطون في نقاش عميق فيما هم يرثقون شايهم الحار في المنزل. خديجة لم تكن تفهم لكنة معاي، لذلك كان من السهل على أمي وعلى الشحاذين أن يتحدثوا عن شطف العيش في ظل ميليشيات الـ «هومي». كانوا يتحدثون عن الحياة في قرى «الخليج» وباكول، عن الحيوانات، الحياة البدوية. كثير من أولئك الشحاذين في موقاديشو كانوا من أغنى الناس في قراهم كانوا يملكون مئات الجمال، الأبقار، والماعز — أشياء ثمينة كانوا يحسبون أنها لن تختفي أبداً. إلا أنهم على غرار أبوي لم يتبق لديهم دجاجة واحدة اليوم، ولا مأوى. كانوا يتفخرون بحياتهم الماضية. كانوا يتكلمون عن مقاتلة الضباع، الأسود، والفهود التي تصطاد الحيوانات. كانوا محاربين يقاتلون بالسكاكين، الرماح، والأقواس. لم تكن لديهم فكرة عن مسألة لماذا تخلق الله عنهم وتركهم يستجدون في الشوارع. كان حوارهم ينتهي حين كانوا يتذكرون أنه يلزمهم أن يكونوا في

الطريق ثانية كي يجدوا طعاماً لأطفالهم، الذين كانوا ينامون في الشوارع. إلا أنهم كانوا يأتون صباح كل يوم كي يتحدثوا من غير كلفة مع أمنا، عادة يكون أبي نائماً في مثل هذا الوقت، إلا أنه أحياناً يفيق من نومه كي يُسهم في النقاش.

وبعدئذ في يوم ما لم يظهر أي من الشحاذين للعيان. خرجتُ أمي من المنزل كي ترى ماذا حصل. في عمق الشارع، حول الناصية، قتل قناص أصدقاءها الشحاذين كافة؛ كدس القاتل جثثهم، جثة فوق جثة وكان يهتف قاتلاً، «إنهم لصوص يسطون على المنزل ليلاً، أطلقت النار عليهم!» من المؤكد أنهم لم يكونوا لصوصاً. رجعتُ أمي إلى المنزل وصلت لهم كي يدخلوا الجنة.

أغلب رجال عشيرة «زحاثوين» عادوا إلى الحياة القاسية في قرابهم، التي كانت تسيطر عليها الميليشيات أيضاً. النسوة بقين في موقاديشو وصرن يقمن بالأعمال القذرة بكل صوفها؛ كن يحفرن المراحيض ويرفعن البراز، يحملن دلاء مملوءة بالغايط على أكتافهن ويُسقطنها في البحر. كنّ يستجدين أو يتادين على بضائعهن متجولات في الشوارع. سمعتُ تالياً أن واحداً من كل أربعة من أطفالهن عاش حتى وصل إلى سن البلوغ، إلا أنهمُ لهدين قوة ودأباً.

أنا وحسن كان بمستطاعنا أن نعيّر أولئك الشحاذين لأننا كنا سنكون على شاكلتهم لو لم نُولد في موقاديشو ونلقى الوداد من جارتنا خديجة. على الرغم من ذلك، ما من أحدٍ آخر كان يستقبل الشحاذين في منزله، وأنا وحسن كنا نشعر بقليل من الحرج بسبب ذلك. لكننا الآن بدأنا ننأى بأنفسنا عن أبويتنا. لم تكن لدينا قصص خاصة بنا كي تروىها عن القرى، أو عن الحياة البدوية. جلُّ ما كنا نعرفه هو موقاديشو. لكننا لكنة موقاديشو، المنطقة السكنية هي ديارنا، وجميع أصدقائنا هم من موقاديشو. أصبحنا مختلفين تماماً عن أمنا إلا أننا مختلفون بشكل خاص عن أبينا، الذي لم

يكنُ باستطاعته أن يندمج على الإطلاق. كان يتوق توقاً شديداً إلى قريته، وكانت أمي تأمل الشيء نفسه. كاتا يتظران شيئاً واحداً: أن تهطل الأمطار كسابق عهدها وأن تسحب ميليشيات عبيد من «يدوة» كي يكون باستطاعتها العودة إلى ديارهما. أنا وحسن موطننا هو موقاديشو، وكنا نتمنى ألا نتقل إلى قرية في البادية.

يوماً أُخرج ماشياً إلى المطار، متمنياً أن أرى الحاريز الأمريكيين وقد عادوا كي يغدونا. إلا أن كل ما شاهدته هو آثار وطء دباباتهم الضخمة على الأسفلت الحار، اللين للمدرج. الأحذية العسكرية المتروكة العائدة للقوات الأمريكية كانت لا تزال مبعثرة عبر الكثبان الرملية، وقد جففتها شمس موقاديشو القاسية. كان المطار قد أُغلق منذ انسحاب القوات الأجنبية، وسرعان ما حوّلت الميليشيات المحطات النهائية لخطوط المواصلات إلى موقع للذبح الأشخاص الذين لا يحبونهم — يسحبون ضحاياهم إلى الداخل ويطلقون عليهم النار أو يضرّبونهم ضربات متتالية حتى الموت. كانت سياراتهم الـ«جيب»، التي نُتت عليها الرشاشات الأوتوماتيكية، متوقفة في وسط المدرج فيما كان رجال الميليشيات يطوفون حول المطار من دون هدف، غير متيقنين ماذا يفعلون. لم يكن هنالك قائد يُتصتون إليه، ما من جدول أعمال كي يتبعوها أو يغدوها. كانت أيامهم هي نفسها على الدوام: يستيقظون صباح كل يوم، يحصلون على القات، يجلسون، ويمضغونه. كنا نجتمع من حولهم في أوقات ما بعد الظهر حين تبرد الشمس قليلاً وكانوا مشغولين جداً بمضغ دواتهم بحيث لم يكونوا يغيروننا أدنى اهتمام. عادة ما تكون لديهم كميات كبيرة من القات يمكن أن تملأ حدودهم طوال اليوم، إنما في اليوم التالي يلزمهم أن يركبوا سياراتهم ويقطعوا مسافة خمسين كيلومتراً خارج المدينة، إلى مطار كان بمنزلة بديل مؤقت حيث كان القات يُنقل بالطائرات من كينيا وأثيوبيا، كي يرافقوا عمليات شحته إلى موقاديشو. كانت سياراتهم «التفنية»، المحتملة بأوراق القات المعبأة باليراميل، تنطلق بسرعة فائقة

إلى موقاديشو بمحركات تزعق، مثل مراقبين يسحبون دراجات سباق ساعين إلى أن يترك أحدهم انطباعاً لدى الآخر. كان العرض الصبياني للفتوة يذكّرنا يوماً بأن هؤلاء الغوغاء هم الذين طردوا المارينز الأمريكيين إلى خارج المدينة. كانوا غير منظمين إلى درجة كبيرة بحيث أنهم لم يكتشفوا قط كيف يستخدمون المطار الرئيس، لأن عبيد ومهدي، قائدَي العشيرتين المتنافستين، لم يكن باستطاعتهما أن يتفقا على كيفية إدارته.

ناهيك عن شيوخ الجوامع، كان القدوات الآخرون بالنسبة للشبان في موقاديشو هم هؤلاء الجنود الثوار ينادقهم، بخدودهم المملوءة بالقات، بشجارهم وسبابهم اللذين لا نهاية لهما. لم أكن أمضغ القات، لكنني أسبب أصدقائي يوماً في سبيل المزاج، وكانوا يردون على سبابي. كانت أوصافنا الفاحشة جداً تتعلق بالخنازير والكلاب، وهذه الحيوانات كانت مكروهة جداً في موقاديشو. «ابن الكلب!» «ابن الخنزير!» «أبوك كلب وأنت كلب!» كل امرئ يستشيط غضباً حين يُشَبَّه بهذه الحيوانات القذرة، الشيطانية التي لا يُمكن لمسها. لمّا شاهدتُ الأمريكيين يقبلون الكلاب في الأفلام السينمائية، كان الأسياء يلوح على وجهي بحيث بدوتُ كأنني أمتص ليمونة. «كيف يمكنهم أن يتقوا بالكلب؟» سألت نفسي. «ماذا لو عضهم الكلب؟»



ذات يوم استدعانا أبونا إلى الفناء. «سوف أقوم بجولة هنا وهناك كي أرى ما إذا كان أخي حسن لا يزال في منزله»، قال. لم يغادر أبي المنزل منذ رحيل الأمريكيين و«الأمم المتحدة». كانت هذه إذاً خطوة كبيرة، إلا أنها خطوة زائفة بالخطر. في موقاديشو تحت حكم الجنرالات كان شيئاً خطيراً جداً أن تفرع أبواب الناس، وبالأخص باب شخص من عشيرة رحانوين. لم يسبق لأحد منا أن زدنا منزل عمنا منذ عودتنا إلى موقاديشو، لم نكن نعرف من كان يُقيم هناك.

غير أن أبي وجد في نفسه الجرأة كي يذهب مشياً إلى المنزل. مستنداً إلى عكازه، بشيابه البالية، شعره مضطرب لأننا قصصناه في منزلنا، هذا أشبه بواحد من شحاذي الـ «زحاثون». كان الناس يتحاشونه في الشارع. ومن دون قلق، كان يهز رأسه ويتخذ خطوات صغيرة صوب ساحة الـ «KM4». كان يتوقف مدة وجيزة كل بضع خطوات كي يلتقط أنفاسه ومن ثم يتابع حركته، ناظراً من حوله. كل شيء تغير، لم تعد هنالك نوافذ ولا مطاعم، لا يوجد معجبون مُشجعون يرتدون بقوة على ظهوره.

كان منزل العم حسن لا يزال موجوداً هناك، لا يزال منتصباً مع ضرر طفيف في سقفه وجدراته. كانت مؤخرة المنزل قد اختفت من الوجود. الباب الصغير الأخضر الذي نذكره أبي لم يكن هناك؛ بدلاً منه كان هنالك باب من الأغصان الشائكة تُغطي المدخل. وقف هناك متردداً، مفكراً ما إذا كان يلزمه أن يحرك الباب الشائك ويدخل؛ منازل كثيرة نهبها واجتاحها رجال الميليشيات وهائلاتهم. من يسكن هنا الآن؟ وقف أبي هناك ينتظر أي حركة، أو أي فرد كي يخرج إليه. كان الجو هادئاً جداً في الداخل. لم يسمع جلبة واحدة باستثناء الجلبة الصادرة من خفق السقف الصغير، الذي كان قد أصبح رغواً بسبب العوارض الخشبية.

بعد طول انتظار تنأى إلى سمعه ضجيج في الداخل، أصوات تنظيف المطبخ وصوت درشة بعيدة. لم يكن يعرف ما إذا كانت تلك هي أسرة العم حسن. دنا من البوابة ونظر من خلالها، إلا أنه لم يستطع أن يرى شيئاً في الفناء.

«السلام عليكم!» قال أخيراً. لا جواب.

«هل حسن هنا؟» صاح.

عندئذ خرجت ابنة العم حسن كي تريا من هذا الذي يسأل عن أبيهما. لم تعرفا إلى أبي.

«لا»، أجابتا فيما هما تحدّقان فيه، وفي الوقت نفسه تتحصّانه.

إلا أن أبي تعرّف إليهما وناداهما باسميهما. «سالادا! أناب! كيف هو حالكما؟ هذا أنا، نورا».

وفي هذه اللحظة ضحى، زوجة حسن، خرجت وانضمت إلى الفتاتين. رحبن ثلاثهن بأبي وسمحن له بالدخول. بكوا جميعاً تعانقوا. أخبروا والذي أن حسن قُتل برصاصة واحدة، أو ربما برصاصتين أو ثلاث أو ست في رأسه. ما من أحد يعرف كم عدد الطلقات النارية، إلا أن ثمة فرداً ما كان يعرف أنه لقي مصرعه في مدينة «بيلدوين». لم يعد لدى أبي دموع كي يبكي. كان أبواه قد جاعا حتى الموت أو ربما أكلتهما الحيوانات الضارية، فمن يعرف؟ أشقاؤه الآخرون وشقيقاته الأخريات ضاعت أخبارهم ومن المفترض أنهم ماتوا. ذُكر أبي الأسيرة الباعثة على الحزن بأن أخاه حسن الآن في السماء وأنا كلنا سوف نموت ونذهب إلى حيث يذهب الأموات.

«نحن سعداء أنك أتيت إلى هنا من أجلنا، قلت ضحى. في الثقافة الصومالية الرجل يجب أن يتولى المسؤولية حين تضرب المأساة أسرة أحد أشقاؤه أو إحدى شقيقاته. من الناحية المثالية، من المفترض به أن يتزوج زوجة أعميه الراحل، اتحاد الرأفة يُسمى قُدمال».

إلا أن أبي ليس في وضع كي يكون ربّ أسرته؛ حتى إنه لا يستطيع أن يكون ربّ أسرته. وحتى إذا كان أبي قادراً على الاهتمام بأسرة حسن، الأمر خطير جداً بسبب كونه رجلاً من عشيرة «زحانوين». ومع استمرار الحروب والرجال الذين يُقتلون يومياً، ربما يكون أبي هو الرجل الذي سوف يُقتل لاحقاً. ذكر ضحى في ما يتعلق بهذه المسألة، قائلاً إنه لا يريد أن يسبب مزيداً من الحزن لأسرتها.

قالت ضحى إنها فهمت، بعدها دعنا للمجيء والمكوث في منزل الطين المؤلف من حجريين الذي بُني في عقار عمي حسن. هذا الأمر كان مبعث ارتياح بالنسبة لنا، لأنني أنا وحسن الآن سوف نكون لنا

حجرتنا الخاصة، أمي، أمي ونعمة سوف يقيمون في الحجرة الأخرى. نعمة بلغت عامها السابع، إلا أنها بدت، نوعاً ما، أصغر وأكبر من سنها — صغيرة وضعيفة الصحة بسبب سنوات نقص التغذية، وكانت قد فقدت أصلاً بعض أسنانها اللبنية. وكانت لا تزال تكافح كي تتكلم بنحو حسن. الآن صرنا نغيب من النوم صباح كل يوم جنباً إلى جنب كأفراد أسرة واحدة، ووالدي في جعبته كثير من القصص كي يرويها لنا يومياً، الأمر الذي يجعله يشعر بالتحسن. كان هو وضحي يجلسان ويتحدثان فيما تكون أمي وابنتا ضحى مشغولات بإنجاز الأعمال الروتينية. (كانت ضحى أكبر سناً من أمي ولديها ابنتان بالفتان، لذلك كانت مُعفاة من العمل المتري.) غالباً ما كنا نتقاسم الشاي المحلو مع قصص الثوم، الهيل، وحليب الناقة. كانت تُعدّ غلاية مملوءة واحدة في كل مرة؛ كل شيء محسوب بدقة، من الشاي إلى الماء. قيل لنا إن باستطاعتنا أن نستحم مرة واحدة في الأسبوع بوعاء سوائل سعة ثلاثة لترات، وكان يُسمح لكل واحد باستخدام الحمام مدة خمس دقائق فقط. القاعدة الأصعب هي أنه ينبغي على كل واحد أن يكون في المنزل قبل الساعة السابعة مساءً. كانت موقاديشو غير خاضعة للقانون بكل معنى الكلمة، وكانت نسبة الجريمة في المدينة عالية أثناء الليل؛ وحتى الأشخاص الذين ينادق كانوا يستخدمون السكاكين كي يحزروا بها الحناجر، وكان هنالك لصوص يسطون على المنازل ليلاً. طلبت ضحى من أبينا أن يحرر المنزل ليلاً. كانت تلك طريقة ما ليكون هو بشكلي من الأشكال رب الأسرة.

كانت غرفتنا الجديدة أفضل بكثير من كوخ حديقة المشيد بالصفيح والورق المقوّى. كانت المحيطان الطينية في منزل ضحى تمتص الحرارة نهائياً وتُطلق شيئاً من الهواء البارد ليلاً. الغرفة المخصصة لحسن ولي فيها حصير قش واحد، من دون أثاث، من دون أسرة. إلا أنها ذات نافذة بإطار خشبي، وكان بمقدورنا أن نتسلل إلى الخارج من تلك النافذة وأن

نعود من دون أن ينتبه إلينا أحد. يلزمنا أن نكون هادئين جداً لأن الجدار القائم بين حجرتنا وحجرة أبونا فيه شقوق وثقوب جزاء العيارات النارية والصواريخ، وبالمستطاع أن نسمعنا حين ندخل ثانية أو حين نتكلم. كان من عادتنا أن نستلقي على الحصير وتكلم، وكانت أماً تصبح علينا كي تستسلم للنوم.

كانت حجرتنا تغدو سوداء كالقار أثناء الليل، ولم يكن لدينا تيار كهربائي أو فتيل ولم تكن قادرين على رؤية أجدنا الآخر، إلا أنه كان يوسعنا أن نرى النجوم الوامضة عبر النافذة الصغيرة. لقّا كنا نستلقي على الحصير المفروش على الأرضية الترابية، كان حسن يتكلم عن كينيا، اليمن، أوروبا، وأمريكا. «أرنولد شوارزنجر وسيلقستر متالون يزوران كينيا في إجازتهما»، قال. هذا الأمر، بقينا، غير صحيح إلا أنه لفت انتباهي. «نيروبي تشبه نيويورك»، قال. «لديهم طرق سريعة، حياة ليلية، نواد، موسيقى، صالات سينما، وعدد غفير من البيض». بعد أعوام طويلة نالياً أرى نيويورك وأدرك كم هي شديدة الاختلاف عن نيروبي، إنما في ذلك الحين كنتُ أنصّر أن أياً من المدينتين ليست أقرب من النجوم التي كنا نراها عبر الثقوب في سقف حجرتنا.



«أرغب بمغادرة الصومال»، قال حسن.

كنا نتكلم ليلاً لقّا نستلقي على حصيرنا، كما جرت العادة.

«أنت تحلم»، قلت له. بالنسبة لي، بدت مغادرة الصومال شيئاً مستحيلًا. في المقام الأول، لم يكن باستطاعتي أن أتخيل الذهاب إلى أي مكان فيما حسن لا يزال بجاني. كيف يعني أن أهاجر من دونه؟

فضلاً عن ذلك، فيما يتعلق بهذه المسألة لم أكن تعيشاً في حياتي. الحياة في الصومال قاسية، غير أنها الشيء الوحيد الذي كنتُ أعرفه. أنت تستيقظ صباحاً من دون خطط ومن دون مستقبل. كل يوم يشبه اليوم الذي

يسبقه والذي يليه. الأيام تأتي وتمضي؛ الشهور تأتي وتمضي. لا توجد احتفالات بحلول السنة الميلادية الجديدة، لا توجد عطلات، وما من حفلات عيد الميلاد. حتى «العيد» لم نكنْ نتطلع إلى قدومه في موقاديشو التي مزقتها الحرب. «العيد» هو الاحتفال الأكبر لدى المسلمين، بعد اليوم الأخير من رمضان، على غرار الكريسماس في «الغرب». في أزمرة الخير، كان بمستطاع الأطفال أن يلبسوا الثياب الجديدة وأن يشتروا اللعب والحلوى. إنما منذ العام 1991 بات «العيد» في الصومال مثله مثل أي يوم آخر. ما من ثياب، ولا لعب، ولا حلوى. أما نحن فلم نكنْ نملك سوى أمنا التي تسرد لنا القصص عن ليل عطلات «العيد» قبل اندلاع الحرب.

فيما كان أناس كثيرون على غرار شقيقي يحلمون بالسفر إلى خارج البلاد، وجدتُ السلام في كوخ الفيديو العائد لفاليس وأنا جالس هناك أشاهد الأفلام. الأشياء التي رأيتها في الأفلام بدت لي صعبة المنال، إنما على الأقل يمكنني أن أتعلّم اللغة التي يتكلمون بها. كنت أنتبه انتباهاً شديداً إلى ما كان يقوله الممثلون الأمريكيون. لم يكن يعير أحد سواي الأهمية لهذا الأمر. إن اللغة «العربية» الوحيدة التي يعرفها الناس في الصومال هي الإيطالية، وعددهم ليس كبيراً. فاليس وكلّ الأشخاص الآخرين في كوخ السينما كانوا يرغبون أن تكون الأفلام بالإيطالية، أو ربما بالعربية. الإنكليزية هي أيضاً ربما كانت اللغة الصينية. غير أنني كنتُ أريد أن أفهمها. أتمشى إلى فاليس فيما هي متهمكة في جمع المال وأطلب منها: «فاليس، من فضلك هل يوسعك أن ترفعي حجم الصوت اليوم؟». تتطلع إليّ وتضحك. «لماذا تريد أن تسمع هذا الهراء؟ أنت حتى لا تفهم كلمة واحدة».

إلا أنني كنتُ أفهم. كنتُ أجلس قريباً من مكبرة الصوت. كنتُ أحقق تقدماً في فهم بعض الكلمات. أحياناً حتى حين يكون الحوار بالإنكليزية يكون للفيلم عناوين ثانوية «مبتاهلات» إنكليزية، وهذا ما سهّل كيفية كتابة

الكلمات. كما تعلّمتُ شيئاً عن الثقافة. كانت الأفلام عادةً تُظهر حجرات الأطفال المزينة بملصقات نجوم الروك والسينما، التي ألهمتني كي أزين غرفتي الخاصة. جمعتُ ملصقات قديمة، متهرة وجدتُها في أطلال «سينما إكواتوري» والمباني الأخرى — ملصقات لمايكل جاكسون، مادونا، سيلفيستر ستالون، أرنولد شوارزنجر، بروس ويليس. أعطتني فاليس بعض الملصقات كانت تُريد أن ترميها لأنها كانت ممزقة. ألصقُ أجزاءها الممزقة مستخدماً نسخ نقاحة نبتة «سدوم»، ومن ثم استخدمنا ذلك النسخ كي نلصق البوسترات على جدران غرفتنا الطينية. مستخدماً قطعة من الفحم النباتي من المدرسة، أكتب على الحيطان الكلمات الإنكليزية التي تعلّمتها من الأشرطة السينمائية، إضافةً إلى عناوين الأفلام، أسماء النجوم الذين أحببتهم، وبعض العبارات اليومية التي تعلّمتها بنفسِي، معظمها كلمات سياب. كنتُ أحب الشتائم التي يتبادلها الممثلون في الفيلم.

تَبَاكَكَ.

هراء.

أخرج الملعنة من هنا.

أولاد الزناتيات اسمي عبدي الأُمريكي، أنا رجل قوي. كنْ حذراً.

رامبو، تيرميناتور.

سأعود.

كما كتبتُ بالفاطة على بابنا الخشبي: «قف. الدخول ممنوع». كنتُ أعني ألا يدخل الأشخاص إلى غرفتنا، غير أنه لا أحدَ بالطبع كان قادراً على أن يقرأ هذه الفافطة. لذا رأَتْ أُمي الجدران موشومة باللغة الإنكليزية، لهتَتْ. ومن ثم رأَتْ ملصق مادونا لابسة مايوه البكيني معلّقاً بجوار المكان الذي أنام فيه. كانت هذه هي القشة الأخيرة. صفعتني بشدة على وجهي وهضتُ قاتلة، «لا إله إلا الله! نور، تعال وانظر ماذا فعلاً! سأقتل هذين الغلامين!».

في الإسلام إنه شيء مَدَنَس للمقدسات أن تكون هنالك أي صورة للشكل البشري، فما بالك بصورة لمادونا وهي بماريو البكني. بالنسبة لأبوي، كنا ندهو الشيطان إلى مترلها كي يشول على الملائكة الذين نظل ملازمة لنا حتى الموت. «رقيب» و«عبيد» هما الملاكان اللذان يجلسان على كتفي كل واحد منا، من الجلي أنهما يدونان جميع أفعالنا، أفكارنا، وأحاسيسنا كل يوم. في «يوم الحساب» سوف تُواجه بكل أفعالنا التي دَوَّنها هذان الملاكان، و«رقيب» و«عبيد» سيكونان حاضرين أمام الله بوصفهما شاهدين.

غادرت أمي الحجرة بسرعة، وهي تصيح قائلة إنها حفرة غطيتة وإنها إذا ما مكثت لحظة أخرى هي أيضاً سوف تحلّ عليها لعنة الله. تكلمت مع أبي في الحجرة الأخرى، وبعدها رجعا كلاهما ودخلا حجرنا. كان أبي يتعيرُ غيظاً.

«لم أكن أتوقع هذا!» قال، وهو يشير بإصبعه إلى بوستر مادونا. «ما هذا؟ ألهذا السبب أرسلناكما إلى المدرسة؟ هل فقدتما صوابكما؟» كلاهما ظلا يصيحان علينا لأننا شريران وجعلنا الكفار يمشون بمنزلنا. وفي المصنام مزقتُ أمي الهوسترات كلها ومسحت الكلمات كلها ما استطاعتُ إلى ذلك سبيلاً. ولما أخبرتُ مكالين بـ«سياس»، ضربنا بالسوط أنا وشقيقي حسن. وحتى بعد ذلك، كانت أمي غاضبة لأنها لا تزال ترى الكلمات التي كتبناها لأن الفحم النياتي من الصعب أن تمسحه نهائياً. لذلك كنتُ مجبراً على دحك الحيطان بالماء والتخلص من البافطة التي كتبتها على الباب. منذ هذا الوقت فصاعداً، كلما حدث شيء سيء، كانوا يُلقون اللوم عليّ لأنني جلبت الشر إلى المنزل. وذات مرة ضرب طلق ناري تائه السقف؛ الخطأ هو عطاوي. في مرة أخرى كانت نعمة تسعل وتتنفس بصعوبة ومن جديد وقع عليّ اللوم. الأشياء التي كتبتها والهوسترات أضحّت مشكلة كبيرة بالنسبة لي في منزلنا.

حتى وأنا أدعك الكلمات الإنكليزية وأمسحها من على حيطان حجرة نومي، كنتُ أكتب كلمات جديدة على حيطان منازل مهجورة فهناك لا يستطيع أحد أن يوبخني. كنتُ أحب بنحو خاص جدران «ملعب هورسيد الرياضي» لأنه توجد هناك خرسانة صفيحة — مثالية للفحم النباتي. خرجت الكلمات باللون الأسود القاتم. كتبتُ، «لستُ ضائعاً»، وهي جملة تعلّمتها من فيلم «يموت بقوة». وبعدها رسمت العلم الأمريكي، رسمتُ علماً ضخماً، على الجدار مع النجوم والأشرطة. نظر الصبيان إلى الكلمات وتساءلوا ما معناها، ولهذا ترجمتها لهم. في اليوم التالي رجعتُ وشاهدتُ أنهم مسحوها كلها بأن صفعوها بصنادلهم، الأمر الذي جعل غبار الفحم النباتي يتطاير. جنُّ جنوني بحيثُ أتى كتبتُ «تياً» و«اللعنة» على الحائط. سألتوني ما معنى ذلك. لا أعرف، هاتان الكلمتان يرددهما الأشخاص في الأفلام حين يكونون غاضبين.

لم يصدّقني أحد أنني تعلّمت هذه الكلمات بنفسى، ولا حتى أبواي. إن تعلّم العربية أو قراءة القرآن هو الشيء الوحيد الذي كانا يُريدان أن أتعلّمه. إلا أن شقيقي كان هو ظهيري، هو نفسه كانت قد ألهمته الأفلام. كنا نجد سعادةً في التحدّث عن الأفلام، عن الإنكليزية، الممثلين، المغنيين. كنا نتلرب على الإنكليزية أكثر مما نتلرب على العربية. لم يكن لدينا مفردات كافية كي نتكلّم كثيراً، علم النحو والصرف خاصتنا لم يكن مثالياً، إلا أننا كنا نحسن يوماً بعد يوم. جمعنا الكلمات الإنكليزية من مجلات قديمة نالقة ربما انتهى بها الحال في شوارع موغاديشو بعد أن نُهبَت المكتبات والمدارس في العام 1991. كان والدائي يستخدمان هذه المجلات كي يبدأ بإشغال نيران الطهي، أو كانا يستعملانها كمناديل مائدة، إلا أنني استعملتها ككتب منهجية، أضع خطوطاً تحت العبارات والكلمات التي كنتُ أحسب أنها جيدة. لاحظتُ أنهم كانوا يستعملون حروف جر كثيرة من مثل «up» و«down» وكانت تختلط علينا متى نستعمل كل حرف منها. لذا ندرّبنا أنا وحسن، كوّنّا جملتنا الخاصة.

«get over to Mom, over your head, Down here» كانت تأتي لمعاينة حجرتنا يومياً كي ترى ما إذا هزبتنا إليها المصصقات مجدداً. في المدرسة كانوا يفتشون جيوبى كل صباح. كان ذلك شيئاً مُحرجاً؛ إذ لم يكن الطلاب الآخرون يخضعون للفتيش. كان نكالاين بَساس يقول دوماً إن إبليس سكن في داخلي، إلا أنني لم أكن لأبالي.

كل ليلة بعد أن يُصغي أبي للخدمة الصومالية لإذاعة الـ «BBC»، كنا أنا وحسن نعدّل المذياع كي نستمع إلى برنامج تعلّم الإنكليزية الذي يُبث الساعة السادسة من «صوت أمريكا» المسمى «New Dynamic English». كان البرنامج يُعرض شخصيتين، ماكس وكاثي، اللّتين يتكلّمان عن الثقافة الأمريكية، مدن الولايات المتحدة، وكيف يتكلّم المرء الإنكليزية الأمريكية. كانت إذاعة الموجة القصيرة لديها توفقات كثيرة، وفي بعض الأحيان الدروس من الصعب أن يفهمها المستمع، إلا أننا كنا ننصت بانتباه وحرص شديدتين على أي حال. ولَمّا كانت أمنا أو أبونا يكتشفان ذلك، يخطفان الراديو منا قائلين لنا: «اذهبا وأدّيا صلاة المغرب. اذهبا إلى الجامع».

وبدلاً من الجامع كنا نذهب إلى السينما. أنا وحسن كنا نشبك يدينا معاً حين نمشي في الظلام خلال ذهابنا إلى السينما أو إيابنا منها. كنا نعود إلى المنزل بعد الساعة التاسعة؛ أي الشخص الوحيد الذي ما يزال مستيقظاً في هذا الحين، مرتلاً صلاته الاعتيادية، أو جالساً في أحد أركان المنزل حيث يسود الظلام مُسنداً رأسه إلى يده، ناظراً إلى الأعلى بيأس وملل. أمي ونعمة غارفتان في نوم عميق بعد يوم طويل من غسل الأطباق والملابس، الطهي، والتنظيف. كنا نمشي على أطراف أصابعنا متجهين إلى حجرتنا من الشباك ويهدوء تمد حصر النوم خاصتنا. في أوقات أخرى يكون أبي مع أسرة ضحى في منزلهم الخاص أمام الفناء، في هذه الآونة أنا وحسن يكون بوسعنا أن نمر من الباب الخشبي المغلق

بالمزلاج، الذي تعلّمتا كيف نفتحها بأن نمد أصابعنا عبر شقوق الباب ونسحب المزلاج.

يوم الجمعة هو نهاية الأسبوع في الصومال، يوم العطلة الوحيد فيما يتعلق بالذهاب إلى المدرسة. في حرارة صباح المدينة أنا وزملائي في المدرسة كنا نجتمع تحت ظلال أشجار النيم. كان من دأبنا أن نلعب «منقلة»، وهي نوع من لعبة زرع نستعمل فيها الأحجار والثقوب الصغيرة في التراب، هذه اللعبة تم ممارستها في «الغرب» بوصفها لعبة طاولة. يلزمنا أن نتوقف عن مزاوله اللعبة ظهراً، حين يرتفع الأذان من جميع جوامع موقاديشو داعية الناس لأداء صلاة الجمعة المهمة التي تتخللها الـ «خطبة». قبل الذهاب إلى الجامع، أنا وحسن يلزمنا أن نقسل أذرعنا، أرجلتنا، وأسياننا وأذاننا. جموع غفيرة من مرتادي الجوامع يملأون الشوارع، باستثناء رجال الميليشيات، الذين كانوا يجلسون في أسرّتهم في سياراتهم «التفنية» متجاهلين دعوة الصلاة. أما نحن البقية فينبغي لنا أن نظل جالسين للاستماع إلى محاضرة مدتها ساعة يُعطيها الإمام قبل أن نقوم للصلاة. في المحاضرة، كان الإمام يتحدث عن كم هو شيء «أثم أن يشاهد المرء الأفلام السينمائية، وكيف أن البلدان غير المسلمة تخطط لمحو الإسلام من خلال السعي إلى نشر لغاتها بما فيها الإنكليزية، وكذلك نشر ثقافتها من خلال الأشرطة السينمائية والأغاني، ولعبة كرة القدم. مئات من الرجال الحاضرين في الجامع يومئذ كلهم برؤوسهم، وأنا وشقيقي نحذو حذوهم.

كان من عادة مكاليين بَسباس أن يجلس دوماً في الصف الأمامي قريباً جداً من الإمام، وهو موقع رفيع. لم يقرّت جمعة واحدة. وحتى أنه كان يصل إلى الجامع خمس ساعات قبل موعد الصلاة وخطبة الجمعة. وفي أحد الأيام أخذ الميكروفون وذكر أسماء كثيرين من طلابه ممّن كانوا يشاهدون الأفلام السينمائية، وطلب من مئات الرجال أن يصلّوا كي يعود الطلاب الأثمنون إلى الثقافة الإسلامية وأن يمتنعوا عن ارتياد دار السينما.

اسمي، بالطبع، كان من بين الأسماء المذكورة. حين انتهت الصلاة وشرع الرجال يتدفقون خارجين من الجامع، أخذ الإمام الميكروفون وطلب من أولئك الطلاب الذين ذُكرت أسماءهم أن يمشوا قليلاً وألا يقادروا الجامع. ليبتُ الطلب، حالي حال صديقين آخرين وعدد من الطلاب لم أكنُ أعرفهم من أحياء سكنية أخرى. كان الوقت الساعة الثالثة عصراً، وهو وقتٌ تشع فيه حرارة النهار عبر جدران الجامع وتحوله إلى فرن. جلسنا على الأرضية، صبيانٌ آثمون ينضحون عرقاً. ستة رجال، قاماتهم قصيرة وأجسامهم نحيلة، لحاهم تكاد تلامس صدورهم وعيونهم مقترنة، كانوا يُحيطون بنا ويدوروا محاضرتهم المُسَهَّية والنعيفة.

«إنه الشيطان، الشيطان هو الذي استغل ضعفكم!» جأر أحدهم، بصوت مرتفع جداً بحيث أن لعبه المتطاير حطَّ تقريباً على وجهي «أنتم كلَّكم ضعفاء! هذا هو ما يهتف به الشيطان! أنتم الآن تخدمون الشيطان ضد الله! أنتم ترنادون دار السينما، الشياطين يتسمون والله بعُش. عليكم أن تكفوا عن مشاهدة الأفلام من الآن! عليكم أن تباثروا بالمجيء إلى الجامع لأداء الصلوات الخمس اليومية. سوف نوفر أيضاً محاضرات في كيفية دحر الشيطان. تعالوا إلى الجامع!» عيناها كانتا كما لو أن النار قد شئتَ فيهما، كان يرمي يديه إلى الأعلى كما لو أنه يخاطب الشيطان نفسه. كان يهددنا ويتوعدنا بحيث لم يكنُ باستطاعتنا أن نقول «لا». وافقنا كلنا. في اليوم التالي لم أظهروا في الجامع قط. خارج الجامع، أئمة الجوامع لا سلطة لهم. لا سلطة لهم، حتى الآن.

على كلِّ حال، كنتُ خائفاً من أمي ومن مُكاليين بَسباس أكثر من أئمة الجوامع، إلا أنني تابعتُ مشاهدة الأفلام. كنا نلعب كذلك بثقاتنا الخطيرة، نرمي الأحجار على الطيور، القمط، الكلاب، أي كائن حي غير بشري. وكنا نلعب كرة القدم. لم يكنُ بمستطاعتنا أن نوفر ثمن كرة قدم حقيقية، لذلك صنعنا كرتنا من الملابس العتيقة، سقط المتاع، وقطع بلاستيك صغيرة، كلُّها مربوطة معاً كي تبدو أشبه بكرة. أصعب الهدف خاصتنا مصنوعة من العصي.

لم يكن لدينا حافظات نعل⁽¹⁾ بالطبع؛ كنا نلعب حذاء الأقدام، كل واحد منا يمسك بخصمه الذي يقبض على كرة القدم ويوقفه مسددين أهدافاً عاصفة بمصاحبة هتافات زملائنا في الفريق الرياضي وأصوات استهجان خصوصنا. كانت هنالك أمكنة كثيرة في موقاديشو يمكننا أن نلعب فيها كرة القدم، إنما يتعين علينا أن نتخفى عن آبائنا ومعلمي مدرستنا، وهكذا كنا نلعب قرب الشاطئ عند المطار، بعيداً عن عيونهم، وبعيداً عن العيليشيات. عندما كانت أمي تسألني أين كنتُ، كنتُ أقول لها دوماً إنني كنتُ في الجامع أقرأ القرآن. كنتُ أحرص على تنظيف التراب من على قدمي لكنني أترك بقعة من التراب على جيني، الأمر الذي يُشير إلى أنني كنتُ أسجد وأصلي. كانت تتطلع إلى جيني، تنهد، وتبسم.

كانت الليالي جيدة دوماً لأسباب شتى. فكانلين بسباس لم يكن يخرج من منزله ليلاً، والشيوخ المتجولون يمشون في الجوامع. كان ذلك وقتاً مناسباً لممارستي الإنكليزية في السينما، متحرراً على مدى ساعات قلائل من المراقبة الإسلامية، كنتُ أجلس على التراب أمام شاشة التلفزيون، مستمتعاً بالحرية. يأتي أصدقاؤني ويجدونني هناك، وأصبحوا الآن يمشون مهاراتي الإنكليزية الرئيسة. كانوا يجلسون قريبين مني لأن مهنتي هي أن أخبرهم ماذا كان يقول الممثلون والممثلات. كانت ترجمتي قد أصبحت دقيقة إلى حد ما؛ كان الناس يعرفون هذا لأن الأحداث في الفيلم تجري بالطريقة التي كنتُ أتوقعها، استناداً إلى الحوار الدائر. «إنهم يخططون لخطف الفتاة الصغيرة!» أصبح. والفتاة تُخطف فعلاً. يصفق أصدقاؤني، لا لأن الخطف وقع حقيقة بل لأنني قلتُ كذلك. أصبحتُ معروفاً في كورخ الأفلام بوصفي «الترجم». لم أكن أعرف وقتئذ أنني في يوم من الأيام سأعمل مترجماً في ولاية ميين الأمريكية مقابل أجر معين.



1 - حافظة النعل: قطعة معدنية تثبت في نعل الحذاء لوقيته من الانزلاق - م.

خارج كوخ الأقلام، استمرت الحياة في المدرسة كسابق عهدها. كان الأولاد يتخرجون حالما يحفظون القرآن كله عن ظهر قلب لأن هذه هي القضية الوحيدة للتعليم، لذلك حفزوني كي أدرس بجد ومثابرة. كان يلزمنا أن نحفظ تماماً ما يزيد على ستة آلاف آية قرآنية، وكان ينبغي لنا أن نعرف تسلسل السور من دون أن ننظر في الكتاب. كنتُ ألدعش حين أجد نفسي قادراً على الحفظ بسهولة، مثلما كنتُ أحفظ الكلمات والجمل الإنكليزية، وأن أقوم بالتلاوة مع متكاليين بَسَاس. كان أبوأي فخورين جداً فيما يتصل بهذا الأمر، وكانا ينتظران بلهفة اليوم الذي أنهي فيه المدرسة، لأن لديهما خططاً لي. كانا يريدان أن أسير على خطى متكاليين بَسَاس وكل أصحاب المحي الطويلة المسارين للموضة في المدينة الذين كانوا يحملون المصاحف، وليس البنادق، وكانوا يحتشدون حول الجوامع يومياً. في المدينة، أي مدينة، حيث يموت الناس كل يوم جراء رصاص البنادق أو الأمراض، سأكون متأهباً للموت بأن أكون بلا إثم. هذا يعني عدم مشاهدة الأقلام، لا نساء بمايوهات البكيتي، لا شيء سوى القرآن المجيد.

إلا أن لي خططاً أخرى. بدأت فأبلس تسمح لي بالدخول إلى كوخ الأقلام مجاناً — من دون أن أكنس الأرضية الترابية — لأنه يستطيع أن يجذب حشداً من الجمهور المتحمسين لسماع ترجماتي. شجعوني على تعلّم المزيد وعلى الاستماع. إنه شيء ممتع أن يكون من حولك حشداً كلهم يميلون رؤوسهم نحوك حين كنتُ أصبح باللغة الصومالية ما يقوله الممثلون. على خلاف ما يحصل لي الجامع أو المدرسة، في كوخ الفيديو يمكننا أن نتحدث، نصيح، نلعب، أو حتى نتحرك هنا وهناك فقط. إنما حالما ينتهي الفيلم السينمائي، نهرح إلى المنزل لأنه ينبغي لنا أن نستيقظ في الساعة السادسة صباحاً كي نذهب إلى المدرسة، وأولاً يتعين علينا أن نحفظ عن ظهر قلب درس اليوم التالي، الذي لم نقم به فيما نحن نشاهد الفيلم.

تعلّم اللغة الإنكليزية والثقافة الأمريكية بدأ كشيء في سبيل اللهو

والنسلية، بوصفه قراباً من بؤس ورقابة حياتنا العقيمة. إنما سرعان ما تحول الأمر إلى ما هو أكثر من النسلية. كنتُ أكتشف العالم الكائن وراء الصومال وأتعلّم أنه باستطاعتي أن أتخذ قراراتي الخاصة فيما يتصل بحياتي. اكتشفتُ أن اللكنة الأمريكية لا تشبه اللكنة البريطانية، وبوسعي أن أذكر الاختلاف من الطريقة التي كان يتكلّم بها الأمريكيون في الأفلام وطريقة المذيعين البريطانيين في إذاعة الـ «BBC». عرفتُ من الأفلام بأنه ما من أحد يعلو على سلطة القانون؛ حتى الزعماء والقادة. الناس يبقون دوماً هم المسؤولين عن أفعالهم. في الأفلام البوليس يطاردون قطاع الطرق ويعتقلونهم، وهو شيء لا يحدث في الصومال. عرفتُ حرية النساء اللاتي يقمن بالأشياء التي يوسع الرجال أن يقوموا بها. في بعض الأفلام كان باستطاعتي أن أرى الأولاد وهم يذهبون إلى المدرسة بالحافلات التي بلون كركم ماكياج فاليس؛ كنتُ أريد الذهاب إلى مدرسة حقيقية في باصي بلون الكركم وأتعلّم أشياء أخرى بالإضافة إلى القرآن. عرفتُ أنه ليس كل الأمريكيين بيض البشرة، إذ يوجد أناس سود هناك يبقون كنعاناً إلى كنعان مع البيض. في الصومال لا يوجد سود وبيض، بل سود فقط. وحتى إننا لا نبدو كالعرب الذين يزعم صوماليون كثيرون أنهم منهم. لا توجد قوانين، وحتى إذا كانت هناك قوانين، فالميليشيات فوق القوانين. أدركتُ أننا نأثي في درجة أدنى بالمقارنة مع بقية دول العالم، إنما لم تكن لدي فكرة متى نستطيع الصومال أن تلحق بطريقة الحياة التي شاهدها في الأفلام.

حين كنتُ أسأل أبوي لماذا الصومال متخلفة وتسودها فوضى عارمة، كانا يردان عليّ دوماً أنها مشيئة الله. هو الذي وضعنا في هذه الفوضى، إنه وحده القادر على أن يُخرجنا من هذه الحال. كيف يسعك أن تناقشهما وهما يذهبان إلى هذا الاعتقاد؟ إنما في موضع ما في رأسي قلتُ لنفسي، «الله هو المسؤول عن هذه الفوضى، لماذا يفعل جلالته هذا؟» الميليشيات الصومالية هي التي قصفتُ منزلنا بالقنابل، قتلتُ عمنا، وأطلقت النار علينا فيما كنا ذاهبين لجلب الماء. لم يكن الله هو المسؤول.

التعلّم استمر بالنسبة لي. عرفتُ أن البيض ليسوا سواسية، إنهم لا يتكلّمون اللغة ذاتها، إنهم لا يستخدمون النقرود نفسها، إنهم لا يلعبون في بلوك واحد، وحتى إنهم لا يعتقدون الدين نفسه. وبعضهم حتى لا يأكلون لحم الخنزير.

«ماما، بعض البيض لا يأكلون لحم الخنزير»، قلت لها ذات يوم.

«اخبرني!» قالت لي.

«و، ماما، أمرىكا غير متاحة للصومال».

«قلتُ لك اخبرني!».

ذات ليلة بينما كنا مضطجعين على ظهورنا على حصى نطلّع إلى النجوم، خاطبتُ أمي قائلاً، «النجوم المتحركة ليست كواكب محظوظة» بعضها أقمار صناعية».

«ما هو [القمر الصناعي]؟» سألتني.

«إنها مكائن أو سفن متحركة تعرج في السماوات».

«لقد أعطوك معلومات خاطئة، عيدي، اخبرني!».

«ماما، توجد تسعة كواكب سيارة بين النجوم أيضاً».

«القرآن يُخبرنا أنه توجد سبعة»، قالت. «اخبرني ولا نحاول أن نقول أي شيء يتصل بذلك». لزمّت الصمت وبقيتُ أنصت إلى قصص أمي حول مسألة كيف أن النجوم الواضحة هم أجسادنا يسعون إلى التواصل معنا. إلا أنني هذه المرة لم أصدقها.

اليوم أنا أتواصل مع أمي على الهاتف الخليوي المرتبط بقمر صناعي. أرسل إليها النقرود تليفزيونياً كل شهر بفضل تكنولوجيا أخرى. أملاً، ألا تنظر إلى النجوم بالطريقة نفسها الآن.

أنا لا أُلقي اللوم على والدي؛ كانا يسميان إلى أن يجعلاني رجلاً صالحاً، مع أنه أن تكون صالحاً يمكن أن يتخذ أشكالاً كثيرة. كلما كنتُ أناقشُ أمي بخصوص أشياء من مثل الأقمار الصناعية، كانت تُلقي اللوم

على الأفلام السينمائية. «تلك الأفلام الشريرة التي تمضي لمشاهدتها تجعلك غيياً جداً» تقول لي. «لقد سمحت للشيطان بأن يتغلب عليك!» كانت غاضبة بشكل خاص لأن الأفلام صرقتني عن أن أأخذ الابن الذي كانت تحلم به، أن أأخذ شيخ جامع.

مع أن أمي كانت تحضر عادتي المتعلقة بمشاهدة الأفلام، نلتُ امتيازاً جديداً: لأنني كنتُ على وشك التخرج في المدرسة، باتوا يسمحون لي الآن أن أحضر أصدقائي إلى منزلنا. في غرفتي كنا نتحدث بنحو لا حد له عن القصص في الأفلام. كانوا يُقصّون فيما أنا أتكلّم الإنكليزية وأصيح إلى أن أعلمهم. «كيف حالك، كيف هي أمورك، كيف تسير الأمور... هذه كلها سواء»، أقول لهم. «هذه كلها معناها واحد». في بعض الأحيان تلج أمي الحجرة وتخبرنا بغضب بأن نتحدث عن القرآن أو أن نذهب إلى الجامع. تغادر المنزل، تسير صوب الجامع إلى أن نصبح بعيدين عن الأنظار، وبعدها تفعل شيئاً آخر.

غالباً ما كنا نمضي إلى الجامع «الصوفي»، حيث لا يهتمون هناك بمسألة تحدّثنا بالإنكليزية. الصوفيون ليسوا مترمّنين أو صارمين جداً؛ إنهم فقط مهتمون بتراجمهم واحتفالاتهم من دون أن يقولوا للاملا ماذا يتعين عليهم أن يفعلوا. مكالين سياسي لم يكن يقصد ذلك الجامع قط، كان يشتم الصوفيين كما لو أنه يشتم إبليس، إلا أننا أنا وحسن كنا نرغب بالذهاب جلسة إلى ذلك الجامع والاستماع إلى تراجمهم. يسود هناك جو من الهدوء والسكينة والغموض. أفرمتُ بأولئك الأشخاص الوديعين. في وقت لاحق دمر الإسلاميون المتشدّدون أضرحتهم وطمسوا ثقافتهم من أغلب مناطق جنوب الصومال.



بحلول العام 1996، لم يعد كوخ الفيديو هو مكان التسلية الوحيد في موقاديشو. كان الجنرالات لا يزالون يقاتلون ويطلقون الرصاص من

بنادقهم باستمرار، إلا أن موقاديشو استعادت شيئاً من الثقافة والحياة الطبيعية. طراً تبدل كبير في النقل العام. بعض الرجال متنّ عادوا إلى المدينة حوّلوا شاحنات الـ «بيك آب تويوتا» إلى حافلات صغيرة بأن وضعوا مقاعد في مؤخرة السيارة، وكانوا يأخذون قطعاً نقدية قليلة ثمناً للركوب. هذه الحافلات الصغيرة، المدعوة «حاجير خمسين»، كانت تعني أننا نستطيع أن نستكشف أجزاء من المدينة وراء منطقتنا السكنية. كان السائقون يخاطرون بحياتهم كل يوم، يتفاوضون عبر مئارس الطرق المزودة بالميليشيات الخطيرة.. بعض تلك الحافلات كانت تعضي شوطاً بعيداً جداً من مثل حدود كينيا.

في أول الأمر كان موقعي الأثير هو الأرض المخصصة لـ «القصر الرئاسي» السابق، التي باتت الآن ساحة لعب للأطفال. كنتُ أمشي من القصر إلى مبنى «البرلمان»، الذي أصبح معسكراً للنازحين لأنه لا وجود لـ «البرلمان»، ومن ثم أمضي إلى «الكاتدرائية الكاثوليكية» الجميلة. كان مطران موقاديشو، وهو إيطالي الجنسية، قد قتلته الميليشيات فيما كان يتلو «القداس» في العام 1989؛ الكنيسة نفسها دُفِرها تالياً الإسلاميون المتشددون في العام 2008. إنما في تسعينيات القرن العشرين كان بمستطاعتك الدخول إليها وتمشي فيها هنا وهناك مرفعاً السمع إلى صدى خطواتك في الردهة الكبيرة.

خارج الكاتدرائية كانت هنالك «قايا روما»، وقد مُنِيت هكذا لأن فيها بنايات جميلة ذات أقواس وشرفات وأشجار باسقة ولوحة الظلال. في أحد الجانبين، أمام هيكل «البنك المركزي» السابق في الصومال، هنالك أشجار جوز الهند عالية تتمايل في النسيم الأثني من «المحيط الهندي». صعدتُ في الطرق نحو الساحل، ماراً بطريق للراحة تنفتح في بنايات مُحدثة. كان أصحابها يقفون عند أبوابها يصيحون على المارة. على المحيطان كانوا قد رسموا صوراً لوجبات خفيفة شعبية من مثل «بور»

(كعكة مُحلاة مقلية بالدهن)، «هيباس» (كعكات مُحلاة مقلية بالدهن) لذينة العذاق مصنوعة من البازلا المطحونة والمفتشرة وذات العيون السود والبصل، الثوم، والطماطم) وبخاصة السمبوسات، المعجنات المحشوة باللحم التي منعها منظمة «الشباب»⁽¹⁾ لاحقاً لأن شكلها المثلث يُعد مسيحياً، أضمن أنهم كانوا يعنون مثل «الثالث الأقدس».

كان يُطلب لي أن أذهب إلى مخزن للحلوى في «فايا روما» يُدعى «خلو شكتا». وفي أحد الأيام، بعد أن تناولت الحلوى حتى التخمّة، تناهت إلى سمعي موسيقى غريبة من مدخل العيني المجاور. يا فطمة خشية صغيرة، مكتوبة بالطباشير، تقول، «ستوديو وستيريو الفاغي». على الحائط كانت هنالك صور فوتوغرافية لمايكل جاكسون وستيفي ووندر⁽²⁾، وشخص ما كتب اسميهما بالصومالية — الإنكليزية: «مايكل جاكسون»، «ستيف ونظر». كان الباب الخشبي يرتج بنوع معين من الموسيقى المرتفعة؛ حشدٌ من الناس كانوا يهتفون على حركات راقصة جامحة أمام العيني. بعض الناس كانوا يمرون من هناك مغطين أذانهم بأيديهم. لم تكن الموسيقى «موتاون»⁽³⁾ أو موسيقى «الصول»⁽⁴⁾.

- 1- حركة الشباب الإسلامية أو حزب الشباب أو حركة الشباب المجاهدين أو الشباب الجهادي أو الشباب الإسلامي: هي حركة إسلام سياسي قتالية صومالية نشط في الصومال، تتبع فكرياً تنظيم «القاعدة» الذي يترجمه أبمن الظواهري. ولتهم من أطراف عدة بالإرهاب بينا الولايات المتحدة الأمريكية، النرويج والسويد - م.
- 2- ستيفي ووندر Stevie Wonder (وُلد العام 1950): ملحن وكاتب أغان وموسيقي ومنتج تسجيلات أمريكي، وهو شخصية بارزة في الموسيقى الشعبية وواحد من الموسيقيين الناجحين جداً في القرن العشرين - م.
- 3- موتاون Motown: شركة تسجيلات أمريكية، تملكها Universal Music Group، تأسست في العام 1960. لعبت هذه الشركة دوراً جوهرياً في الدمج العرقي للموسيقى الشعبية بوصفها موسيقى ذات طابع أفريقي — أمريكي بحيث حققت نجاحاً عابراً مهماً - م.
- 4- موسيقى الصول Soul: موسيقى شعبية نشأت في وسط المجتمع الأفريقي - الأمريكي في الولايات المتحدة الأمريكية في خمسينيات ومطلع ستينيات القرن العشرين، لعبت دوراً في «حركة الحقوق المدنية». معنى كلمة soul: الروح - م.

التي سمعتها قبلاً في الأفلام وعلى الشرطة الكاسيت. فقط وقلت هناك مرعوباً. حاولت الدخول، إلا أن الـ «دي جي»¹ لم يسمح لي؛ أظن أنه ليس للأطفال. إلا أنني كنت قادراً على سماع الموسيقى في الخارج وأن ألوي جسمي كالأشخاص الآخرين على الرصيف. كان قد تجمع حشد كبير، جميعهم يرقصون ويقهقهون، وأخبرني شخص ما أن الموسيقى هي موسيقى أمريكية وتسمى «هيب – هوب»² و«راپ»³ وكذلك بعض الموسيقى من جامايكا تسمى «ريغيه»⁴.

كانت هذه بداية حياة جديدة. أصبح «الفاغي» هو مكاني المفضل الذي أمضي إليه يومياً، حيث أنتدب كيف أرقص مع الحشد على الرصيف.

1- الـ دي. جي. D.J.: منسق الموسيقى، وهي اختصار لـ Disc Jockey بالإنكليزية التي تعني حرفياً: فارس الأسطوانات، أي منسق الأغاني المسجلة - م.

2- هيب هوب hip-hop: هو أحد أنواع الموسيقى والثقافة في الولايات المتحدة الأمريكية. يعتبر حركة ثقافية للسود أو الأمريكيين الأفارقة. نشأ الـ هيب هوب منذ العام 1970 كرد فعل على ما تعرضوا له من عنصرية وكثرة من التعبير عن النفس ضد المشاكل المجتمعية مثل الفقر والبطالة والعنصرية والتظلم ليصبح ثقافة وفنا مستقلين فيما بعد - م.

3- الراب rap هو نوع من أنواع الغناء وأحد فروع ثقافة الهيب هوب الرئيسة. الراب هو المتحدث وترديد الأغنية بلقافة معينة، وهو أيضا تسليم القوافي والتلاعب بالألفاظ حتى تتماشى مع الثقافة من دون الالتزام بلحن معين - م.

4- الريغيه reggae: نوع من الموسيقى نشأ في جامايكا أواخر ستينيات القرن العشرين. كما يشير هذا الاسم أيضاً إلى الموسيقى الشعبية الحديثة لجامايكا ولشائها. يميز الريغيه الإيقاع الثقيل. هذا الإيقاع يتميز عن جميع الأنواع الموسيقية ومن بينها الأفريقية، ولا يمكن إيجادها في الموسيقى الأوروبية أو الآسيوية التقليدية. وقد ارتبطت موسيقى الريغيه بالديانة الراسفارية الشائعة بين الجامايكيين ذي الأصول الأفريقية. كان بوب مارلي السفير الأشهر للريغيه دولياً. منذ أيامه الأولى مع إحدى فرق الروكسبدي حتى سنواته اللاحقة عند دخوله الراسفارية ونشاطه سياسياً، زرع بوب مارلي نفسه بعمق في قلوب أنصار الريغيه في جميع أنحاء العالم. يعتبر بعض الناس مارلي أنه المسؤول بشكل خاص عن شعبية الريغيه حول العالم، ولكن الفنانين الآخرين، مثل جيمي كليف وبيتر توشي، ساعدوا على ازدياد شعبيته - م.

ولمّا كنتُ أصل إلى المنزل، كنتُ أتمرّن وحدي. نوباك شاكور¹ وبوب مارلي² أصبحا فنائيّ المفضلين بعد مايكل جاكسون. قررتُ أنه إذا تسنى لي أن أتكلّم كالأمريكي، فبمعين عليّ أيضاً أن أرقص كالأمريكي.

اشتريتُ للنفس راديو - مسجلاً متنقلاً³ رخيصاً وبعض الأشرطة الصوتية. وفي الحال شعرتُ بأنّي قادر على أن أعرض مهاراتي في الرقص في حيّنا السكني. كانت أمي تجذني في الشوارع أرقص مع الراديو - المسجل المتنقل وتعبس. «غلام أحمرّ» تقول. كان ينبغي لي أن أدخل المسجل خلصة إلى غرفتنا عبر النافذة وأغنيه تحت التراب وأدفته تحت الحصى بحيث أن أمي حين تدخل لن تراه.

كانت ثقافة الـ «هيب - هوب» قد انتشرت بسرعة في أرجاء موقاديشو. كلّ الشبان الذين لم يسعوا لأن يُصحبوا شيوخ جوامع بدؤوا يرتدون زي الـ «هيب - هوب» الذي رأته على التلفزيون واليوسترات. الأشخاص الذين كانوا يُديرون «القاغي» هم شبان عادوا نواً من اليمن وجاءوا مع شيء من النقود كي يؤمّسوا محلاً للموسيقى. ونحو معاتل، سوق الـ «بكارا» بدأ يزدهر مع مهنة الملابس الصغيرة. الملابس يتم شراؤها من كينيا، اليمن، وأثيوبيا، ملابس بالية وعتيقة إلا أنها غير ممزقة. بشلات قليلة كنتُ قادراً على شراء قبعة كرة بيسبول سوداء كُتِب عليها «تايتانك» وسروال جيتز فضفاض من الدنيم. وجدتُ أساور بلاستيكية قليلة كي ألبسها في يديّ ومتديلاً مزداناً بالرسوم باختياره وشاح رأس «دوراغ».

1- نوباك شاكور Tupac Shakur؛ مغني هيب هوب، شاعر، وممثل أمريكي، ولد في هارلم في مدينة نيويورك شرقي مانهاتن - م.

2- بوب مارلي Bob Marley؛ يعتبر أشهر مغني ريغي في العالم، ولد في قرية شمال جامايكا، كان يملك موهبة كبيرة، فهو يكتب الكلمات بنفسه ويلحنها ثم يغنيها مع فرقة الويلوز. ويكمن سر نجاحه الساحق حول العالم في بساطة كلماته وأهمية الرسالة التي ينشرها: التمرد على الظلم، والعدالة، والحرية، والسلام، ومحاربة الفقر، والمحب بكل أنواعه - م.

3- الراديو - المسجل المتنقل: بالإنكليزية الأمريكية العامة boom box - م.

بقبعتي المملوكة إلى الجانب وسروالي المرتخي تحت عاصرتي، تدربت على المشي بعرج وكسل كما لو آتني مُصاب؛ صديقاي باشي وبوكاو فعلا الشيء نفسه، وسَمِينَا أَنْفُسَنَا «جماعة». هذا كله توقيت جيد بكل معنى الكلمة، لأنني بدأتُ أصبح شغوقاً بالفتيات، وفي هذا الوقت في موقاديشو كانت الفتيات يقمن فقط في غرام الفتيان الذين باستطاعتهم أن يرقصوا وأولئك الذين يلبسون سراويل الجينز.

ثقافة الـ «هيب — هوب» الجديدة أثارت استعزاز كبار السن الصوماليين، الذين بدؤوا يسموننا «ساكجان» — بلهاء — إلا أننا لم نسع لأن نترك فيهم انطباعاً. كانت مهاراتي في الرقص وقدرتي على التحدث بالإنكليزية جعلتني ذا شعبية في أوساط الشبية بمنطقة السكنية. وفي الحال شرع الناس يأتون إلى منزلي سائلين أمي، «هل عبيد الأمريكي هنا؟» غضبت غضباً شديداً حين عرفتُ أنني الفرد الوحيد الذي يسمونه «الأمريكي». في رأيها كلمة «الأمريكي» تعني «المسيحي». كانت تريدني يقيناً أن أسمى «عبيد العربي السعودي». أصدقائي يوعاوا، باشي ومحمد ندموا الآن لأنهم لم يتبهاوا كثيراً حين كنا جميعاً نجلس في الكوخ نشاهد الأفلام السينمائية. كانوا لا يزالون صوماليين اعتياديين في الشارع، فيما أصبحتُ أنا نجم المنطقة السكنية.



في مثل هذا الوقت تقريباً أنا وحسن بدأنا نفصل. لسبب واحد هو أنه لم يكنُ بم استطاعه أن يلعب كرة القدم: حين كان صغيراً جداً، كانت قد لسعتُ قدمه أفعى سامية، هذه الأفعى قتلها أبي تالياً. كانت الأفعى قد عضتُ بعض أصابع قدمه، وكان السم قد تسبب بحدوث ورم سيئ وتلوث جرثومي. منذ ذلك اليوم كان يمشي على الدوام بعرج خفيف. كما لم يكنُ يشاهد الأفلام بقدر ما أشاهد أنا، إلا أنه كان له أصدقاء وحده، محمد، داود، وحسين، وكانوا مولعين بتربية الحمام.

أمسك حسن بحمامة ذكر وأخرى أنثى وتزع كمية كافية من ريشهما بحيث لن يكون يوسعهما الطيران. وضعت الأنثى البيض وكان لديها كتاكيت وجلبت حمامات أخرى إلى المنزل. وسرعان ما أصبح لدينا مئات الحمامات في المنزل ونعين علينا أن نهتم بها. كان حسن وأصدقائه يجعلونها تنساق — يحملونها بعيداً عن المنزل، يدعونها وشأنها، ويرون من تلك التي تطير أولاً إلى المنزل. حمامتنا الذكر «غاربيكا» كانت على الدوام سريعة جداً وذكية وكانت تُبهر الجميع، وكانت تفوز المرة تلو المرة. حسن كان من المفترض أن يتفوق عليّ في المدرسة، إلا أنه لم يعد لديه شغف بحفظ آيات وسور القرآن. في خاتمة المطاف أمسى الضغط كبيراً جداً عليه؛ تحذى أبونا وتكالين بـسياس وغاب عن المدرسة قبل تخرجه بمدة وجيزة. حين ينقطع طالب عن المدرسة، يتبرأ منه أبواه. أمي قالت لحسن ألا يرجع إلى المنزل ثانية. وهكذا، صار أخي يُقيم في الشوارع.

بوهيس

في أواخر نيسان/ أبريل من العام 2000، أُنقِصَ من النوم بوجو باسم ومضيتُ إلى المدرسة في السادسة صباحاً. هناك كتبتُ الدرس الأخير على لوحى — نهاية «سورة البقرة»، السورة الثانية في القرآن، لكنها الفصل الأخير من دراستنا. كنتُ أشعر بسعادة غامرة! هذا الأمر يعني أن بإمكانى أن أتخرج في المدرسة وأمضي إلى أي مكان في المدينة، أن أرقص، أشاهد الأشرطة السينمائية، من دون أن يساورني القلق فيما يتعلق بمكاليين بَسباس وخرباته المُوجعة. كنتُ قد حفظتُ كلَّ السور الـ 114 من القرآن — أمراً بطلاقة ستة آلاف وميتين وست وستين آية بلغة عربية سليمة. في اليوم الذي رجعتُ فيه إلى البيت قلداً من درسي الأخير، لاحظتُ بسمَةً مشرقة على محيا أمي. وكهدية على تخرجي اشترتُ لي «كنزرو»، الحِجَّة التي يلبسها شيوخ الجوامع، و«سيح»، قلادة الصلاة الإسلامية المصنوعة من الخرز. لم ألبسهما قط.

بعد مضي بضعة أيام تجمعتنا من أجل حفلة موزعة في المدرسة، عشرة طلاب. كنا تخرجنا في ذلك اليوم، متطلعين إلى عالم خالٍ من «ملاك العقاب». تحدثتُ مكاليين بَسباس حديثاً مُسَهَّباً جداً، وهو ما يزال يحمل حفنة العصي المربوطة معاً في يديه، مستعداً لأن يورثنا ألم الدفينة الأخيرة.

«هذه هي اللحظة التي كان ينتظرها أبائكم»، قال لنا. «إنما لم ينتظروها بقدر ما انتظرونا نحن»، فكرت.

«هذه هي بداية مستقبلكم. كل ما تحتاجونه هو أن تخرجوا وتُشيعوا الكلمة». كان مكالين بَسَاس يقصد أنه يُريدنا أن يفتح كل واحد منا مدرسة خاصة به أو أن يكون في الجامع بشكل دائم يومياً. وبالنسبة لبعض الخريجين، كان هذا بمنزلة حلم. كانوا يحلمون بالذهاب إلى المملكة العربية السعودية أو مصر. أما أنا فكانت تجول في ذهني أحلام أخرى. «إذا كان يوسع أولئك الذين يرغبون بأن يصبحوا شيوخ جوامع أن يحلموا ببلد أجنبي كي ينتظموا في الدراسات الإسلامية، فلم لا يمكنني أن أحلم بأمرىكا؟» تساءلتُ في سري. «إذا كانت أحاديث شيوخ الجوامع قد ألهمتهم، فلماذا لا تُلهمني الكلمات الإنكليزية في الأفلام السينمائية؟».

تابع مكالين بَسَاس حديثه بنبرة رتيبة، إلا أن ذهني كان شارداً في مكان آخر. في ساعة مبكرة من وقت ما بعد الظهر نحن الطلاب الخريجين كنا نركض كلنا في الشوارع، كانت سعادتنا قد ضاعفتها السماء التي كانت ترعد استعداداً لإعطاء مطر كنا يأمل الحاجة إليه. أحسستُ بأنني كُتِس جداً عشتُ سبعة أعوام من الضرب مع مكالين بَسَاس. هل يُمكن تعلّم القرآن من دون الضرب؟ شعرتُ بأنني متيقن من أنه ما كان يوسعي أن أتجح من دون تهديد الضرب بتلك العصي. إلا أنني لما رأيتُ الندوب الظاهرة على جسمي وشعرتُ بهاء أدركتُ أنه لا يلزمني أن أضرب الأطفال بهذه الطريقة. لا يمكنني أن أصبح معلم مدرسة.

كي نحفل بتخرجنا، قصصنا كوخ الفيديو الذي تملكه فاليس من دون قلق فيما تعلّق باستيقاظنا من النوم في السادسة صباحاً أو تلاوة درس اليوم. كان الفيلم السينمائي جديداً بالنسبة لنا، ويحمل اسم «المحبي» إلى أمريكا، من تمثيل النجم إندي مورفي بوصفه أميراً أفريقياً يذهب إلى أمريكا كي يجد عروساً له. وقد ترجمتُ كما جرت العادة.

لم أكن أعرف إلا القليل، فيما كنتُ في كوخ السينما أحفل بتخرجي، كانت أمي تتكلم من دون كلفة مع ضحى وبعض النسوة الأخريات في حينها السكني. وكالعادة تفاخرتُ ضحى بأبنائها الثلاثة، الذين كانوا أكبر مني سنّاً وأصبحوا شيوخ جوامع. كانوا يرتدون الجلابيب، يقصدون الجوامع يومياً، ويقرؤون القرآن. أما النسوة الأخريات فقد تحدثن عن أبنائهن الذين يفتحون مدارس جديدة ويعلمون القرآن لجيل جديد من الموقاديشيين.

بلغتُ المنزل مساءً كي أرى أمي وضحى جالستين بسعادة. قدح من حليب الناقة مع مكعبين من الثلج ذائبين فيما كان على ستول جلد قصير بجانب أمي. كان أبي قد ذبح دجاجة، وكان يتف ريشها. كانت تلك الدجاجة هي هدية تخرجي. جلستُ، وبسعادة بدأتُ أشرب قدح الحليب خاصتي، توّاقاً للحم الدجاجة. لم يخبروني كيف تمكنوا من الحصول على تلك الدجاجة. كانت أمي تدلك رأسي فيما هي تواصل حديثها مع ضحى. دلفتُ إلى حجرتي ورأيتُ قطعة فماش جديدة على حصيري، هدية من ضحى. وعقب ذلك دخلتُ أمي حجرتي بصحبة ضحى.

«عندي»، قالت، «غداً يلزمك أن تعود إلى المدرسة كي تُصبح مساعداً لمكاليين سياسي».

أحسستُ كما لو أنّ فرداً ما أطلق عليّ النار من بندقيته.

«وتبنا الأمور كلها مع مكاليين سياسي»، استطرذت. «سيكون في انتظارك غداً».

«لكنني أحتاج إلى استراحة من المدرسة» أجبتُ معترضاً.

«استراحة؟» هدرت. «لست بحاجة إلى الاستراحة على الإطلاق» عليك أن تذهب إلى مكاليين سياسي غداً! أنتَ لم تعد طالباً إنما يمكنك أن تفتح مدرستك الخاصة في يوم ما، وكما تتمكن من ذلك، نحتاج إلى أن تبقى لصيفاً به. سوف يُريك الطريقة كي تُصبح شيخ جامع».

«أمي، لا أريد أن أبقي لصيفاً بمكالمين بـ«باسا»! خرجتُ مسرعاً من المنزل، وقد استبدني غضب شديد.

ظننتُ أمي تضغط عليّ بفرع الرجوع إلى المدرسة وأن أكتسب مزيداً من التدريب، كي تكون متيقنة من أنني لن أنسى ما تعلمته أكانت تلح عليّ كذلك أن أذهب إلى الجامع بالنظام. كبحثُ غضبي، إلا أن القشة الأخيرة أثبت بعد تخرّجي ببضعة أسابيع، حينما طرق الـ«تبليغ» باب منزلنا.

الـ«تبليغ» هم أشخاص يجمعون الانتصار في العالم الإسلامي — مؤمنون سنة يأتون إلى المنازل بثياب طويلة وعمائم. يظفرون باب أي منزل يُقيم فيه رجال في مستقبل العمر، يطلبون من الشبان أن يسافروا معهم في أرجاء المدينة كي يشجعوهم على الذهاب إلى الجامع يومياً. لما أتوا إلى منزلنا كي يأخذوني، رفضتُ الذهاب معهم. في رأي أمي أنا الآن «قضية خامسة». ضاع حلمها إلى الأبد، الحلم المتعلق بأن أصبح شيخاً محترماً برأس حليق يغطي الموسيقى ويقرأ المصحف طوال ساعات اليوم. أبواي طرداني من المنزل. كنتُ في الرابعة عشرة، ورحتُ أبحث عن شقيقي.

خلال ساعات النهار كان حسن يتسكع حول «ساحة زوي»، التي كانت مكتظة بالمسنين ورجال الميليشيات الذين اجتمعوا كي يتحدثوا في السياسة والعناقبات العشائرية. كانوا يشتمون أحدهم الآخر وبعدها يشتمون أمريكا وإسرائيل بسبب غزوها فلسطين. كان حسن يندد وقته هنا وهناك من دون عمل وبعضية، ويتصرف بحيلة وحذر دوماً مع المتطوعين الجُدد لدى الميليشيات. كان عمره خمسة عشر عاماً وطويلاً جداً بالنسبة لسنة. الآن أصبح كبير السن بما يكفي كي يحمل بندقية ويضع القات، وخياراته أصبحت حتى أقل.

والآن أنا في الخارج معه، كنا تنفادي الميليشيات ونختبئ حين نسمع رصاص البنادق. سافرنا في أنحاء المدينة إلا أننا كنا نعرف أنه يتعين علينا أن نتحاشى المناطق التي تشيع فيها الجريمة. كانت المنطقة الشمالية

المسماة «المدينة»، حيث يقع المستشفى، قد سيطرت عليها عصابة إجرامية تُدعى «عيال لعالي». هؤلاء الشبان خرجوا من رماد الحرب الأهلية، من دون بوليس أو قواتين كي يوضعوا عند حذعهم. هم لا ينهبون الناس فقط بل كانوا يرتكبون الأعمال الوحشية التي لم يُر لها مثيل في الأجزاء الجنوبية من المدينة. كانوا يرفعون أيديهم ويقولون للمرأة أن يختر إصبعاً واحداً من الأصابع الخمسة. ومهما كان الإصبع الذي يختاره، يسمون شيئاً ما عليك أن تفعله، من مثل أن تشرب الوحل لو أن تتلع بطارية أو حتى رصاصة.

كي يتجنبوا عصابات الشوارع، اكتظ الملافي الجزء الجنوبي الأكثر أمناً من المدينة، حيث كنا نُقيم، والذي أسمى يعج بالناس والمحال التجارية. دُشنت صالتان لعرض الأفلام السينمائية، «مينما موقاديشو» و«مينما دو عالي». محال أفلام الفيديو برزت في الأحياء السكنية الأخرى، وكانت تبيع أجهزة الكاسيت والأجهزة الصوتية وحتى تقوم بالتسجيلات. مضيتُ أنا وأصدقائي إلى واحد من هذه المحال كي نسجل أغانِي الراب الخاصةنا على شريط صوتي. كنا نشد الراب باللغتين الصومالية والإنكليزية، واصفين فتاة ذات شعر أشبه بريش النعامة ومشيها مثل البعير. كنا نغني الكلمات التي ترددها الجوقة من مثل «إنها أفضل الفتيات قاطبة!» «نعالي إليّ، حبيبتي!» «لوقصي معي، حبيبتي!» كنتُ أشعر كما لو أنني جزء من هذه الثورة الموسيقية وأنا نخلق شيئاً باهراً.

كان أبواي ما يزالان غاضبين مني، لذلك لم أدخل إلى منزلي. كنتُ أنام في الشوارع ليلاً، مغطياً رأسي بالقميص الذي كنتُ ألبسه. بحلول الفجر كانت صلاة الفجر التي يُعلن عنها بواسطة مكبرات صوت في المآذن توقظني من النوم. كان صديقي بوكاو وباشي قد طُردا هما أيضاً من منزليهما، وكانا يمكنان معي في الشوارع.

مع أن عدداً صغيراً من الناس قد رجعوا إلى موقاديشو، كانت ما تزال

هنالك منازل خالية، معظمها كانت تملأ بحشرات فضيحة، وتبعثر فيها القمامة والبراز، وتكون ذات حرارة خانقة أثناء الليل. كنا نتسكع في تلك المنازل أحياناً وكى نأكل ونشكلم، إلا أنه من الأفضل بكثير أن ننام خارجاً في الهواء الطلق. كنتُ أنسللُ إلى مؤخرة منزلنا عندما أجوع، أحتلس النظر عبر الثقوب كي أتأكد من أن مكالين سياسي غير موجود هناك. كنتُ غالباً أسمع صوته وأهرب فور سماعي ذلك الصوت. لذا كانت أمي ننام القبلولة وأبي يستمع إلى الخدمة الصومالية التابعة لإذاعة الـ «BBC»، كنتُ أقتز بهدوء من الشباك. أفتش عن الطعام، غالباً ما تكون هنالك ذرة متبقية من وجبة الطعام. أغرف العصيدة وأدسها في جيبي ومن جديد أقتز عائداً إلى الخارج، إلى الشارع، كي أنقاسها مع أصدقائي في المنازل الخالية. كانوا يفعلون الشيء نفسه معي، يتسللون إلى بيوتهم كي يسرقوا الطعام. كنا نسير إلى الشاطئ كي نغسل ملابسنا بماء المحيط.

لم أطلب منهم أن يرموني خارج منزلي، غير أنني الآن سعيد لأنني أحقق أحلامي، وأن أعيش حياتي من دون أن أجلب الماء والطعام لأفراد أسرني، من دون مكالين سياسي. ما زلتُ أصلي، وكنتُ أحترم التعاليم الإسلامية المتعلقة بالإحسان والعندة. أنا أعد نفسي مسلماً صالحاً حتى يومنا هذا. إلا أنني رأيتُ من خلال الأفلام ماذا يوجد هناك في العالم، ولن أقيم في أي جامع من الجوامع.



بدءاً من العام 1998، كان لدى الصومال بعض المواسم الممطرة الجيدة التي بللت البلاد. أتذكر أن أمي كانت تقول إن السماء أمطرت لأن الجنرال عيديد قُتل قبل عام مضى، خلال تبادل لإطلاق النيران بين أبناء عشيرته. بالمطر سوف تبرز حياة جديدة على جناح السرعة. كانت هنالك فرائشات وبعاسيب نعوم في الأرجاء كلها؛ سحالي صغيرة خرجت كي تتغذى على الحشرات الجديدة. كما جعل المطر الأزهار تنفتح من جديد

وعاد عيبرها الزكي، روائح لم أجد مثيلاً لها في مكان آخر في العالم منذ ذلك الحين.

إلا أن الأمطار كذلك أتت مع البعوض الذي يحمل الملاريا. بات من الصعب علي أن أنام في الخارج، مع طين البعوض في أذني الذي يعقبه لساعاتها المؤلمة. قررتُ الرجوع إلى المنزل. رأيتُ أمي الخدوش في جسمي، اللسعات، المقرحات، والكدمات في كل وجهي ويدي. شقيقي، حسن، أتى إلى البيت مدة قصيرة، وقد اقترسته الحشرات وبدأ مريضاً بالملاريا. النوم في غرفتنا القديمة، حيث كان المطر يقرع سقف الحجيرة، بدأ أشبه بالعموم في عيادة. أنا وحسن كنا نقف في قناء منزلنا خلال هطول المطر الغزير، ورحنا نملأ كل حاوية يمكننا العثور عليها، حتى الأقداح والظامسات، كي نجمع ماء الشرب. حين توقف المطر، تعين علينا أن نغرف الماء من حجرات المنزل؛ كان الماء في جميع الأنحاء لأن ثمة ثقوباً كثيرة جداً في السقف أحدثها الرصاص.

بدأ كأن الجميع نسوا ما يتصل بالحرب. يبدو من مثل أمي كانوا سعداء لأن المطر بالنسبة لهم علامة من علامات الازدهار. بدأتُ تدندن بأغاني بدوية كانت تنشدها لمامزها وتنادي بها على قطعها، مع أنها قد اختفتُ إلى الأبد. كانت تركض هنا وهناك في المطر المنهمر، وهي تضحك. لم يكنُ بمستطاعني أن أتذكر آخر مرة رأيتُ فيها أمي مسرورة هكذا. كانت أمي تجلس معي في بعض الأحيان كي ترى ما إذا تغيرتُ وأبي فيما يتعلق بالعودة إلى المدرسة، إلا أنها كلما كانت تذكر تلك المدرسة، أغضب بشدة.

من دون دروس القرآن، يمكنني أن أقضي وقتاً أطول في تعلم الإنكليزية. سجلتُ الصوت من الأفلام السينمائية على شريط مسجل، وكنتُ أعيد تشغيل الشريط باستمرار، مصغياً إلى الكلمات. تدرّبتُ على التحدّث بالإنكليزية بحرية في الشوارع، محدثاً إما نفسي أو شقيقي أو أصدقائي. أخبرت الناس أنه في أمريكا أنت تشعر بالحرية، بوسعك أن

تكون مغنياً أو ممثلاً سينمائية، أو أي شيء تريده. كنتُ ما أزال أمزح مع أصدقائي بأن الحارثي غادروا وتركوني هنا، وكان أصحابي يضحكون عليّ. إلا أنهم توقفوا عن الضحك لما بدأتُ أعلم مجموعة من الفتيان والفتيات في حين السكتي الإنكليزية.

جمعتُ الدروس معاً بنفسى، ساعياً إلى أن أفكر بوسائل سهلة يستطيع أن يتعلمها الأطفال. كان الدرس الأول يتعلّق بالتعارف:

الفتى: السلام عليك.

الفتاة: السلام عليك أنت أيضاً.

الفتى: كيف حالك اليوم؟

الفتاة: تمام، وأنت؟

الفتى: تمام، شكرًا لك.

الدرس الثاني، اليوم الثاني:

الفتى: أين وُلدت؟

الفتاة: وُلدتُ في وِبري. وأنت؟

الفتى: وُلدتُ في وادجر. متى وُلدت؟

الفتاة: وُلدتُ في العام 1989. وأنت؟

الفتى: وُلدتُ في العام 1988.

لا بد أنني كنتُ في الخامسة عشرة حين بدأتُ أعلم الإنكليزية، مقابل بضع قطع نقدية كان بم استطاع طلبتي أن يدفعوها. ذلك شيء كان أشخاص كثيرين يحسبون أنني أحجز عن القيام به، إلا أنَّ الطلبة الثلاثة الذين وجدتهم في اليوم الأول سرعان ما أصبحوا عشرة. كانت الدروس تتكرر

أسبوعياً إلى أن يحفظ الطالب أو الطالبة العبارات من ظهر قلب — مثلما تعلمت القرآن. وهكذا لم يضع تدريب مدرستي سدى. إلا أنني على خلاف متكاليين بسياس لم أكن أضرب طلبة، في حقيقة الأمر شجعتهم على أن يتسللوا. أطلب من طالبين أن يقرأ ويواجه أحدهما الآخر ويترنبا على الدرس من خلال إجراء حوار ما. أثناء الدروس أرثدي سروالي الجينز الأزرق، قميصي القطني الطويل الجديد، وحذائي الخفيف¹. وفيما كنت أعلم الصف، كنت أتجسس وأتحرك هنا وهناك كمغني الراب. يبدو أن الطلبة كانوا يحسبون أنني هادئ جداً، هذا الشاب الصومالي الذي يتكلم الإنكليزية ويرقص مثل سنوب دوغ². أعتقد أنني كنت هادئاً إلى حد ما أيضاً.



في منعطف القرن الجديد انقسمت موقاديشو إلى طبقتين اجتماعيتين: أولئك الذين لديهم أقارب خارج البلاد، وأولئك الذين ليس لديهم. أسرتنا من المجموعة الثانية. الأشخاص المحظوظون كانوا يكتظون يومياً عند «حاولاذا بركات»، مكتب إرسال النقود بالبرق في سوق «بكارا». ثمة رجلٌ بلحية طويلة كان يجلس خلف باب مغلق ويتكلم مع الناس عبر نافذة زجاجية، وإلى جانبيه ثلاثة رجال مسلحين ببنادق الـ (AK-47). كان الرجل يسألهم عن أسمائهم واسم المرسِل. ومن ثم يسألهم من أي بلد تأتي النقود، وهي على الدوام أمكنة قصة كنا أنا وحسن نحلم برفقتها تُسمى مينيسوتا، ميناتل، لندن، نورثو.

- 1- الحذاء الخفيف sneakers: هذا النوع من الأحذية يكون من فئتي غليظ وتعل مطاطي - م.
- 2- سنوب دوغ Snoop Dogg: هو كالفن كوردوزار Calvin Cordozar، يشتهر باسمه الفني «سنوب دوغ»، الذي يعني «الكلب المطلق». وهو راقص راب، مغن، مؤلف أغاني، منتج، شخصية إعلامية، مغنول، وممثل أمريكي. ولد سنوب دوغ في العام 1971، وكان يعيش في المنفردات ويتاجر بها في طور مراهقته وما يزال كذلك حتى وقتنا الحاضر، ما جعل الشرطة تلقي القبض عليه مراراً بمدينة لونج بيتش Long Beach في مقاطعة لوس أنجلوس، ولاية كاليفورنيا، الولايات المتحدة - م.

الصوماليون الذين تمكنوا من الذهاب إلى تلك الأماكن كانوا محظوظين في الإفلات من البلاد. وفي نهاية الأمر، أعيد توطينهم في «أمريكا الشمالية» وأوروبا من معسكرات اللجوء في كينيا واليمن. وجدوا وظائف لهم في «الغرب» من مثل تنظيف الفتادق، تكديس السلع على الرفوف في «بوتلمارت»، وقيادة سيارات الأجرة. وكانوا يرسلون بفخر مئات الدولارات إلى أقاربهم في موقاديشو. كنا نعرف جميعاً أنهم حتماً أصبحوا أغنياء جداً. الحرب الأهلية ما تزال مستمرة منذ عشرة أعوام، وليس هنالك حكومة أو وزارة مالية بحيث أن الشلن الصومالي أصبح عملة نقدية عديمة القيمة. الدولار الأمريكي الآن هو العملة النقدية للصومال، وكان يتدفق إلى داخل البلد من خلال المال المحوّل برقيةً الذي يُسمى «حوالة». كان الناس يغادرون تلك النافذة بخمسين دولاراً، مئة دولار، مئتي دولار، ثلاثمائة دولار.

لم يكن لي أحد في أمريكا، حتى ولو من أقاربنا البعيدين. شعرت أنه من المُجحف بالنسبة لي ألا أكون قادراً على جمع الدولارات، في حين أن الأشخاص الذين لم يكونوا حتى يحترمون أمريكا أو يتكلمون الإنكليزية بوسعهم أن يذهبوا إلى هناك وأن يحصلوا على الدولارات الأمريكية. ها أنا ذا، عبدي الأمريكي، ولم يسبق لي أن رأيت دولاراً في حياتي باستثناء تلك التي شاهدها في الأفلام. كنت أرغب برؤية دولار واحد في الحياة الواقعية، لكن فيما كان الناس يغادرون النافذة، كانوا يقبضون على دولاراتهم بقوة ويسيروا مسرعين إلى منازلهم. لم يكن باستطاعتي أن أراها.

بحوار نافذة تحويل النقود كان هناك مركز هاتف حيث كان بوسع الملا أن يتصلوا هاتفياً بأفراد أسرهم في «أمريكا الشمالية» أو أوروبا. «شكراً لك، استلمت النقود. ليباركك الله!» كان الناس يقولون. كنت أود أن أسمع أصوات الأشخاص في الناحية الأخرى في حالة أن يكون

بإستطاعتك سماع الأمريكيين وهم يتكلمون في الخلفية، يرددون بالإنكليزية. ربما بإستطاعتي أن أسمع أرنولد شوارزنجر! في المقام الأول كنت أود أن أتكلّم بالإنكليزية مع شخصٍ منهم في أمريكا. كنتُ أجلس هناك أحلم أحلام البقطة، متخيلاً ما أقوله: «مرحباً كيف هي نيويورك؟ أنا مُغرم بأمريكا. أَرْضُ بالمعني».

الأشخاص الذين حصلوا على المال من أمريكا أو أوروبا كانوا ياكلون الفاصوليا المطبوخة حديثاً، الرز، اللحم، والبيض. في منزلنا كنا نكافح من أجل أن نحصل على الذرة لا غير. كانت أمي تخرج يومياً كي تعمل، تمشي أميالاً عدة إلى أن تصل سوق «بكارا» كي تعمل حاملة للأشخاص الذين كانوا يشترون أكياس الرز بالدولارات التي استلموها من الخارج. أمي التي كانت تضع كيساً كاملاً على ظهرها، تمشي مُجهدةً أميالاً إلى أن تصل منزل الرجل الثري. بالتقد الذي تكسبه، تشتري طعاماً لنا.



استعاد أمي قدرأ كبيراً من قوته البدنية، إلا أن ذهنه كان على الدوام في مكانٍ آخر. كان بإستطاعته أن يوقظنا من النوم في الخامسة صباح كل يوم كي تؤدي صلاة الفجر معه ومن ثم تقرأ القرآن. إلا أنه ذات صباح في أيلول/ سبتمبر العام 2000، لم ينادنا أبونا. ولما استيقظنا أخيراً، اكتشفنا أنه غادر المنزل. قالت أمي إنه غادر أثناء الليل، إلى سوق «بكارا» كي يأخذ حافلة متجهة إلى «بيدوة». أخبر أمي أن مطراً غزيراً هطل في «بيدوة» وكان يأمل أن يبدأ بزراعة الأرض هناك. كذلك، كان قد سمع في إذاعة الـ «BBC» أنه بعد وفاة عديد انسحبت العليشيات العائدة له من المدينة؛ تعلّم أفراد عشيرة الـ «زحانوين» كيف يحملون البنادق واستعادوا «بيدوة». كانت أمي تصلي من أجل مرور الأمن، حينها على الأرض، فيما كانت تعمة تعد الشاي.

اعتقد أن أمي غادر بشكل رئيس لأنه كان ضائعاً وضجراً في موقاديشو.

كان عاطلاً عن العمل، أحس أنه عديم النفع. وكان قد تخلى عن مطالبتي أنا وحسن أن نصيح شيخين. ربما باستطاعته أن يكون شيئاً ما في «يدوة». لم يكن رحيله نفس الرحيل حينما كان يجتاز البادية تلك الليلة في «يدوة» قبل ما يناهز عشرة أعوام. في ذلك الحين كنا جميعاً نتوجس خيفةً من أن نفقده؛ لم تكن نعرف كيف سنظل أحياء بعد الحرب. الآن الأشياء باتت مختلفة؛ أنا وحسن أصبحنا مسؤولين عن الأسرة. لحادو أبي حتى من دون أن يقول «مع السلامة»، ربما لأنه كان يشعر بالذل والهوان.

في الحقيقة كنتُ مسروراً نوعاً ما برحيله — في المقام الأول لأنني تميتُ أن يكون حاله أفضل في «يدوة»، إنما أيضاً لأنني سأحصل على استراحة من توبيخه القاسي فيما يتعلق بأسلوب حياتي الجديدة ومن الصلاة معه ومن تحميمه وتشذيب شعر رأسه. بدا ذلك أشبه بحرية أخرى لي. ومن الغريبة أن أبي أصبح شيئاً آخر بالنسبة لي. لا أحد من أصدقائي في موقاديشو كان له أب، كانوا قد فقدوا آباءهم في الحروب. أما أبي فلا يزال حياً يرزق، وكنتُ أعرف أنني يجب أن أكون محتناً لهذه النعمة. بدلاً من ذلك، كنتُ محتناً لمزيد من الحرية.

كانت أمي تتندن بأفاتها البدوية وتصلي لأبي فيما هي تكشط اللدرة من الجدر. لم تعترض على رحيله، في حقيقة الأمر شجعت على الرحيل. سيكون هنالك عبء أقل على كاهلها؛ لم تكن تقلق عليه من احتمال أن يُصاب بطلق ناري في موقاديشو. «حين يستقر أبوكم في يدوة، سوف نتقل كلنا إلى هناك ونبدأ برعي الحيوانات»، قالت باسمعة. مشيتُ إلى الخارج وفكرتُ في نفسي، «إنها مجنونة». لم أكن مؤكداً من أننا سنرى «نور الطويل» ثانية.

في هذه الأثناء، كنتُ أكره أن أصبح أكبر سناً — لا لأنني خائف من أن أقدمو كبير السن، بل لأن كل سنة كانت تُزيد في إمكانياتي في أن أنتهي بمشكلة. شاهدتُ غلماناً تحولوا إلى مقاتلي ميليشيات مُخيفين لما

أصبحوا مُراهقين، وراحوا يقتلون الناس ويمضفون القات. ما إن تدشن تلك الحياة، ما من تراجع. الخيارات قليلة جداً. يمكنك أن تصبح شيخ جامع وتُسمى الجامع «متزلك»، أو يمكنك أن تحمل بندقية. بالنسبة لي، كلاهما هو اتحدار إلى دربٍ مظلم نحو عالم لا أُرغب بالعيش فيه. أمي فعلت كل ما بوسعها. كانت تستيقظ في ساعة مبكرة صباح كل يوم وتُجبرني على النهوض من النوم وأداء الصلاة. كانت صلاتي تستغرق دقيقتين؛ صلاتها تستغرق ساعتين. مع أنها لا تستطيع قراءة القرآن، كانت تصلي باللغة الصومالية. تصلي باستمرار ومن دون انقطاع. كانت تصلي من أجل الأسرة، من أجل أن يكون ثمة طعام على مائدتنا، من أجل أن تكون هنالك مزارع وماشية في «بيشو». لم يُستجب لأي من هذه الأشياء. «الله يخطئ لنا»، كانت تقول ذلك دوماً. في هذه الأثناء كان حسن يرسم خططه الخاصة.



عاد شقيقي حسن إلى الشوارع بعد نوبة العاريا التي أصيب بها، إلا أنه كان يتسكع وقتاً أطول في أغلب الأحيان في «ساحة زوي» مع الرجال. أقطع «شارع زوي» وأراه هو وصديقه حسين جالسين بإزاء جدار، محتمين من الشمس المُحرقة. أجلس بجوارهما وتحدث عن الحياة. «أُرغب بمغادرة الصومال»، قال لي حسن ذات يوم.

«كنت تقول هذا منذ بضعة أعوام»، قلت له. «أنت ما زلت تحلم». «الآن هذه الرغبة واقعية»، قال لي. «الآن سأفعلها. بحوزتي الـ [بوليس]».

بوليس. هذه الكلمة تعني «هواية الرحيل»، وكان يستخدمها الشبان الصوماليون الذين رأوا كل المال الداخل من البلدان الأجنبية وكانوا يرغبون بأن تكون لهم حياتهم الخاصة بعيداً عن موقاديشو. حسن ما يزال يحلم، إلا أن حلمه أصبح أكبر.

«إلى أين ستمضي؟» سأله.

«لا أعرف، ربما كينيا، جيبوتي، إلا أنني أريد مغادرة الصومال». كان الشبان ممن في سته يغادرون متجهين إلى اليمن، كينيا، ديب، «المملكة العربية السعودية». هذه الأمكنة باتت الآن تتعامل مع أعداد كبيرة جداً من اللاجئين الصوماليين بحيث أصبحت هنالك أزمة، وكانوا يدفعون الناس في معسكرات لجوء. أخبرني حسن أنه إذا غادر الصومال، سوف يكسب المال ويبحث إلينا شيئاً منه، خمسين أو مئة دولار شهرياً؟ هذا المبلغ سوف يساعد أسرنا على أن تبقى متماسكة. هذه الأشياء التي أخبرني بها حسن بدت جيدة، إلا أنني لا أريده أن يرحل عنا؛ سوف نفتقده، لكننا أيضاً سوف نقلق عليه، لأنه في موقاديشو لا يوجد نظام اتصالات. إذا ما غادر، كيف سنعلم أن نتابع أخباره؟

في مكان قريب، نمة حشد من الرجال المستنين كانوا متخطفين في نقاش «فانسي كوديرير» المؤلف، وهو طقس صومالي حيث يتجمع الرجال (لا النساء) حول الشاي ويتحدثون عن العشائر، السياسة، الحيوانات، وموضوعات جوهرية أخرى. كانوا يتحدثون عن الحجم الكبير لمعسكرات اللاجئين في كينيا واليمن. قالوا إن المعسكرات هي بوابة الخروج إلى أمريكا. بعضهم لديهم أبناء وبنات وصلوا إلى «الولايات المتحدة»، أوروبا، أو كندا. أحدهم تفاخر بأن ابنه يعمل سائق سيارة أجرة في سياتل، يرسل إليهم مئات الدولارات، وبعدها وصف رجل ثمن آخر ابنه الذي يعمل سائق شاحنة في ميسسوتا وكانوا يدفعون له مبلغاً قدره آلاف الدولارات يومياً. كثيرون منهم كانوا متيقنين من أنهم سوف يذهبون في وقت قريب جداً إلى أمريكا عبر شيء كانوا يسمونه «النتام شمل الأسرة». إنما في المقام الأول عليك أن تمر بمعسكرات اللاجئين.

«كلّ امرئ يبحث المال من أمريكا أقصى مدّة زمنية في تلك المعسكرات»، قال حسن. «ما إن تكون في المعسكرات حتى يسهل عليك الذهاب إلى

أمريكا. المسألة لا تستغرق سوى مدة تقارب ثلاثة أشهر، وفيما أنت تنتظر تحصل على الغذاء من [الأمم المتحدة]، إنها الجنة».

إنما من دون مالٍ للتنقل، سوف يظل حسن عالقاً في موقاديشو. كان ينتظر إلى ما وراء «المحيط الهندي» يطلب من الله أجنحة كي يهلق بها فوق المحيط حتى وصوله إلى أمريكا. أخبرته أنه ما وراء المياه الزرق لـ «المحيط الهندي» توجد السماء، هناك ينتهي الأموات. المحيط يفصل الأموات عن الأحياء. ضحك علي. «لا، عبدي»، قال لي. «ثمة حياة وراء المحيط».

أخبرت حسن كم الفقدته في المنزل، كيف ظلت أسرتنا حية عبر سنوات الحرب والمجاعة، وكم كنا نادراً ما نرى أحداً الآخر خلال ساعات النهار. كيف كان كل واحد منا يسلك نهجاً مختلفاً ومن بيتنا أبونا. لم يفل حسن المزيد، إنما يمكنك أن أجزم أنه بدوره كان حزناً أيضاً.

ذات صباح مضيتُ لأراء عند الجدار. كان حسن يُنصت إلى المسنين المنحرفين في نقاشي محتدم عن الحرب الأمريكية الجديدة في أفغانستان. كان الرجال يشتمون «الولايات المتحدة» ويمتدحون أسامة بن لادن. كانوا قد نظموا احتجاجات ضد الحرب، ضد أمريكا. هذه الحرب تدور رحاها بين المسلمين وغير المسلمين»، قال أحد الرجال المسنين - وهو يرمي بدأ في الهواء كما لو أنه يرغب بالذهاب والقتال في الحرب الدائرة هناك فيما هو يحمل كوب القهوة بيده الأخرى. أوما الحشد برؤوسهم وقالوا بصوت واحد «نعم!».

وضعتُ بدأ واحدة على كتف حسن. «تعال إلى المنزل، يا شقيقي»، قلت له.

لم يعترض. مشينا صوب المنزل معاً. حين مددتُ يدي إلى يده، أمسك بها بقوة.

ولمّا أصبحنا في البيت، لم يتكلم حسن كثيراً إلا أنني أستطيع أن

أجزم أنه كان يفكر في طريقة أفضل نستطيع أن نعيش بها كلنا. «هناك حياة خارج الصومال»، قال أخيراً. «يمكننا أن نفعل شيئاً ما، الأشخاص الذين يرسلون الدولارات من البلدان الأجنبية هم مثلكم على وجه الضبط. غادروا الصومال والآن لديهم مهن».

حدّثت فيه أمي وخاطبته قائلة، «كنتُ أتمنى أن تكون في الخارج». «عاشا، سأرحل»، قال. «أحتاج فقط إلى بركاتك. نحن الآن بالغان، أنا وهدي. باستطاعتنا إما أن نحمل البنادق ونقتل الناس أو نرحل ونرسل النفود إلى أمنا وشقيقتنا».

كان على حق. إن لم أكنُ أستمع بالأفلام السينمائية ولعبة كرة القدم والرقص في حفلات الزفاف، لكنتُ ضحيراً مثل حسن وتطوّعتُ أيضاً في المبلشيات. في تلك الأونة أدركتُ كم كان أبوي ومكّلين بـسباس مخطئين وهم يسمعون إلى متعي من الذهاب إلى السينما، تعلّم الإنكليزية، أو الرقص. كنتُ أعرف أن الأفلام والموسيقى قد أنقذت حياتي.

طلب حسن أن تدعو له أمي في صلاتها. أتذكر أنها نظرتُ مباشرة في عينيه وانبرتُ قائلة، «أود أن أراك وأنت تغادر البلاد. عسى أن يكون الله معك».

هذا هو كلّ ما يحتاجه حسن، أدعية أمي. يحتاج ذلك، ويحتاج كذلك إلى النفود كي يستطيع أن يركب سيارة تأخذه إلى الحدود. وهكذا بدأنا نبيع الحمائم. جلستُ في جانب الشارع ومعني صندوق مليء بالحمائم، أبيع كلّ واحدة منها مقابل سنتات قليلة. بعد مضي أسبوعين بيعتُ تقريباً جميع حمائمنا. جمعنا عشرة دولارات كمبلغ إجمالي عن ثمن الطيور ودولارين عن بعض دراجات الأرجل التي كنا صنعناها بأنفسنا.

فجر يوم أحد في أيلول/سبتمبر 2004، خرج حسن من الباب ومعه اثنا عشر دولاراً وكيس بلاستيكي يحتوي على بطانية كي ينام عليها. «كن قوياً»، قالت أمي. «سوف تنجح وتصل إلى الخارج».

سرتُ معه ومع صديقه حسين إلى سوق «بكارا»، كي أراه وهو ير حل هنا. وثانيةً أنا وحسن أمسك كل واحد منا يد الآخر بالطريقة ذاتها التي كنا نفعلها في صبانا، كنا نصعد إلى التل حيث يقع «مستشفى المدينة»، متفادين رصاصات القناصين ومُدحرجين «الجلبكانات» المليئة بالماء عائدين إلى منزلنا. اليوم كانت مسكننا أقوى بكثير؛ أحسستُ أنني لا أرغب بأن أدع شقيقي يمضي في حال سيئه، إلا أنني كنتُ أعرف أنني لا أستطيع أن أدعه يبقَى. كان يادلني الشعور نفسه. رأيتُ الدموع في عينه أول مرة منذ أعوام طويلة. كان حسن قنْياً بما يكفي كي ينام في شوارع موقاديشو، يقضي يوماً كاملاً من دون أن يأكل شيئاً، إنما كان يصعب عليه أن يتخيل نفسه يعيش بعيداً عني، وعن أمي ونعمة. هو لن يحلّق عائداً إلى المنزل عند حلول الليل كما تفعل الحمامم. كان في طريقه إلى الخارج بعيداً عن أسرنا، وربما إلى الأبد، وكنا جميعاً نعرف هذا الأمر.

توغلنا ماشيين في السوق الترابي. ومن ثم، من خلال صياح الباعة المتجولين، سمعنا صوت أمنا يأتينا من وراء.

«حسن، انتظر!».

لم يكن بمستطاعها البقاء في المنزل؛ قررتُ المجيء كي تؤدع ابنها. لقد شاهد حسن أمي، بللتُ الدموع وجهه. شرعتُ أنظر فيما كانت أمي الشجاعة وشقيقي الشجاع يتعانقان ويبكيان.

«أتريد أن تغير رأيك؟» قالت.

على مدى دقيقة حسبتُ أن حسن سوف يقرر البقاء، إلا أنه أخيراً تحرر من أمي وخاطبها قائلاً: «دعينا نواصل مسيرنا».

وفي الحال حددنا السيارة التي سوف تأخذ حسن إلى حدود كينيا. كانت مرسيديس خضراء، مركونة في زقاق ضيق، إنما كان من العسير أن تميّزها عن أكشاك السوق المحيطة بها؛ كان يتكدس على سقفها القش، أكياس الذرة، والحفاشب، وهذه كلها مربوطة معاً. كان المقعد الأمامي

محملاً بسلام الفاكهة. وثمة معزاة حية تنفخ تحت الهاتشباك⁽¹⁾ كانت أرجلها مربوطة معاً. باب السائق مفقود وغطاء المحرك قد اختفى؛ بدت أشبه بسيارة في مشهد حادثة تصادم في فيلم هوليوودي. لم يعني أن أصدق أن يوسمها أن تتحرك فعلاً، فما بالك بأن تقطع مئات الأميال في الطرقات المليئة بالحفر. وهكذا بدا الأمر أشبه بمغامرة: إنه أرخص ركوب يمكن أن يحصل عليه حسن، لكن إذا تعطلت السيارة في البادية، لن يكون بمستطاعه أن يستعيد المال، وربما يموت من العطش في الصحراء.

امرأتان جالستان في المقعد الخلفي تطلعتا بغضب إلى حسن. «لا نريد هنا، ضعه في الخلف!» إحدى المرأتين صاحت على السائق، الذي كان واقفاً عند كشك قريب، يأكل الخبز ويشرب الشاي. كان قد فقد إحدى فراغيه، ربما بسبب رصاصة بتدقية، ولما كانت هنالك أسنان في فمه. أشعل سيجارة مستخدماً يده الوحيدة وقهقه عبر لسانه المصبوغ بالقات وشفية المشققتين. لم يكثرَ بمن جلس هنا ومن جلس هناك طالما أنه قبض نقوده.

فتح السائق «الهاتشباك» وأشار إلى أن حسن يجب أن يصعد مع المعزاة. ابتسمت المرأتان الجالستان في المقعد الخلفي. لن يتعين عليهما أن يتفاسما قضاءهما مع رجل، فهذا شيء أثم. وهكذا انحسر حسن في الهاتشباك وتكوز مع المعزاة. روث المعزاة يتوزع هنا وهناك. وبطبيعة الحال هذه السيارة لم يكن فيها تكييف هواء، لذلك سيكون المكان أشبه بفرن تحت نافذة «الهاتشباك» فيما هي تجتاز البادية. إلا أن حسن لم يعبأ بذلك كله. هو ذا أخيراً يهرب من الصومال، المكان الذي يُسميه «السجن

١- الهاتشباك hatchback: السيارة التي تندمج بين الركاب والبضائع الموجودة في مؤخرة السيارة وهو أحد الأنماط الشائعة في السيارات والمفضلة بين كثير من الفئات، من أهم مميزات هذا النمط هو سهولة الوصول للبضائع الموجودة في مؤخرة السيارة عن طريق الباب الخلفي - م.

عديم السقف»، تحت نافذة «الهاتشباك» نوع مرسيدس — بينز تالفة،
عديمة الهواء، برفقة معزاة.

حين بدأت سيدة السوق التي تدبر كشك الشاي تضايق السائق كي
يسدد فاتورته، ناهيك عن فاتورة فطوره طوال الأيام الثلاثة المتصرمة،
سحق عقب سيجارته والتبري قائلاً، «دعونا نذهب». إلا أن محرك السيارة
لم يشتغل، كانت البطارية ميتة تماماً. تطلب الأمر أن يدفع السيارة خمسة
رجال كي يعود المحرك إلى الحياة، نافثاً سحابة من الدخان الأسود عبر
أنبوب العادم. سيدة المقطور ركضت بمحاذاة السيارة وطالت السائق
بالتقود، أما هو فتجادل معها «المرّة القادمة!»، قال لها بصوت عال.

هانقتُ أمي فيما كنا نراقب السيارة تتدحرج عبر حشد الحمالين
والمسوقين، مارة بأهرامات الطعام والقليل، السائق يطلق أصوات تغير
شبيهة بصوت الإوز من دون انقطاع. انعطفت السيارة من زقاق السوق إلى
الطريق الرئيسي المزدهم. تحت الهاتشباك، مدّ حسن يده إلى الخارج من
تحت المعزاة كي يحيينا بكفه. وبعدها غاب شقيقي عن الأنظار.

تعهدات الزفاف

يوم شديد الحرارة في آذار/ مارس 2004، أنا وصديقاى بوعلو وباشي تسلقنا شجرة نيم ومكثنا بين أغصانها العالية. كنا نحدّق خارجاً عبر المدينة بحثاً عن الدخان. حيثما يكون هناك دخان، يكون طعام، وكنا نتصور جوعاً. وبعدها رأينا ناراً هائلة، جموعاً غفيرة من البشر. لعله زفاف مُنظم. نزلنا، قبضنا على الراديو - المسجل المتنقل خاصتنا، ودمرنا ذلك الحفل. آن أو ان الطعام والرقص!

مع وفرة النقود وازدياد الرجال في المدينة، كانت حفلات الزفاف تجري كل أسبوع تقريباً في موقاديشو. بأقل من ثلاث مئة دولار يُمكنك أن تُقيم حفل زفاف لطيفاً، وأن توفر كميات كبيرة من لحم البقر، حليب الناقة، الفواكه، والموسيقى الراقصة. باستثناء المسلمين المتشددين جداً (الذين لم يسيطروا على المدينة بعد)، أيّ حفل زفاف من دون رقص يُعدّ زفافاً ناقصاً في نظر الصوماليين — مثل تناول الذرة من دون حليب الناقة. إلا أنّ معظم الموسيقيين التقليديين الصوماليين قُتلوا أو فروا إبان الاقتتال، لذلك لم نكنْ هنالك موسيقى حيّة؛ عليك أن تستخدم الراديو - المسجل المتنقل، ومن المفضل أن يكون مع بطاريات جديدة بحيث يمكنك أن تشغله بصوت مرتفع فعلاً. لم يكنْ هنالك شيء على الإذاعة، أشرطة كاسيت ليس إلا، والأشخاص الذين لديهم كمية كبيرة من أشرطة

كأصابت هم بحاجة إلى حفلات زفاف، بخاطرة إذا كانوا هم أيضاً يعرفون كيف يرقصون وأن يجعلوا الحفل يستمر.

في هذه الأثناء كان لديّ رايدو - مسجل متنقل وبعض الأشرطة الصوتية، وحيثما أمضي كنتُ ألوي جسمي، أنزحلق وأمشي مشية القمر¹ على أنغام الموسيقى. مرة واحدة تقريباً في الأسبوع كانوا يرحبون بي في الشارع كي أرقص في حفل زفاف. كان الملا يسمونني باسمي الجديد «عبدي الأمريكي» في كلّ أركان منطقتي السكنية حين أمرّ على مقربة منهم. أظهر مع مجموعة الراقصين خاصتي وأشغل الموسيقى للمحشد.

ذات يوم تلقيتُ طلباً بالرقص في حفل زفاف كبير في حيّنا السكني. كان العريس يُقيم في «الولايات المتحدة». دعا أسرة الفتاة وأخبرهم أنه سوف يضمن مجيئها إلى «الولايات المتحدة» بعد الزفاف. كانت الأسرة مسرورة جداً بأن ينظموا حفل زفاف مُذهلاً — خمس فقرات، كيسان من الرز. كان هنالك قضاء لي ولصديقي بوغاو وباشي كي نرقص على الأرض مساء ذلك اليوم. أحسستُ بالارتياح إذ جرى الحفل ليلاً لأنه في هذه الأونة تكون المدرسة مغلقة ومكالمين بسباس قد رجع إلى منزله. دلفتُ ومعني رايدو - المسجل المتنقل خاصتي، شريطان في يدي. وما إن بدأتُ الموسيقى وياشرنا أنا وصديقاَي بالرقص، حتى خرج بعض الأشخاص من الحجرة مشمزين من حركاتنا الأثمة، إلا أن أشخاصاً آخرين كانوا يهتفون ويصفقون. كانت العروس جالسة في إحدى الزوايا؛ وعلى وجهها ابتسامة. من المؤكد أنها أحببت الموسيقى.

1 - مشية القمر Moonwalk: حركة رقص تعتمد على إيهام الناظر بأن الشخص الذي ينفلحها يحاول المشي لكنه يرجع إلى الخلف. هذه الحركة اشتهرت عندما أدّاعها المغني الشهير مايكل جاكسون في أغنية «Billie Jean» في الخامس والعشرين من آذار / مارس 1983. وبعدها أصبحت الحركة التي تميز مايكل جاكسون، وتُعد الآن أشهر حركات الرقص في العالم - م.

والرقص، إلا أنني متيقن من أنها ستكون سعيدة جداً بأن تنتقل للسكن مع زوجها الجديد في مينيسوتا. «إنها سعيدة الحظ»، فكرتُ في نفسي. بعد ذلك الزفاف أعطاني والد العروس بضع دولارات أمريكية، أول مرة في حياتي أمسك بالدولارات بيدي. كانت تكفي لشراء الذرة وحليب الناقة لأسرتنا. ليس بمستطاع الجميع أن يدفعوا لي مقابل الرقص، وعادةً ما أفعل ذلك مجاناً. الشيء الأهم، أنني اكتسبتُ شهرة. تأتي الفتيات إلى منزلي، يمررن بمحاذاة أُمِّي وطمحي ويدخلن لغرفتي لمجرد أن يتحدثن معي من دون كلفة وأن يتوددن إليّ. ولما أكون في الخارج، تقول لي أُمِّي إن فتيات حتى لا تعرفهن أتبن إلى منزلنا يسألن عني. إحدى الفتيات تركتُ رسالة بالعربية عند بابنا، مكتوبة بالفهم الثاني على إطار خشبي. كانت تقول فيها «أحبك». وحيثما مضيتُ كي أرقص، كانت الفتيات يجثن، ينظرن، ويصفقن. وحين أُمشي في الشوارع، كانت الفتيات يهتفن «هبي الأمريكي!» وكنتُ فقط ألوح لهنّ وأتابع مسيري.



بالطبع كانت الفتيات يظهرن بأبهى صورهن في حفلات الزفاف، لابسات فساتين الـ«ديراك» المطبوعة التقليدية الصومالية ولابسات كذلك ملابس غربية حديثة زاهية الألوان. كن يجدن شعرهنّ، يصبغن وشم الحناء في أيديهنّ، يضعن مساحيق التجميل ويتعطرن، ويتأخرن بأساورهنّ وحليهنّ الأخرى. معظمهنّ عجولات ولم يسبق لهنّ أن رقصن على الإطلاق، فما بالك بالرقص مع الرجال، الأمر الذي كان عادة ما يمنعه آبائهن. كنّ في الأغلب يجلسن ويراقبننا ونحن نرقص، يزغردن ويصفقن. في عصر يوم ما دخلنا إلى حفل زفاف مرتدين ملابسنا الاعتيادية، ملابس زمرة شارع في كاليفورنيا المؤلفة من أعطية الرأس، الأساور البلاستيكية، سراويل الجينز الفضفاضة والقبعات. نصبتُ الراديو - المسجل المتنقل خاصتي وشغلتُ آخر شريط صوتي اشتريته، وهو شريط

جديد على موقاديشو: «إن دا كُلب»¹ غناء فيفتي سنت، كانت زغاريد وصيحات النساء مرتفعة جداً، وقد أحيين هذه الأغنية الجديدة. وبعدها مشّت شابة جميلة على بلاط الرقص. كانت تلوح على وجهها بسمّة عريضة، وكان شعرها المجدول البني الداكن يتسدل على عنقها من تحت وشاح رأسها. كانت ترندي فستان «ديراك» برتقالي اللون ينمط «هلقبل» من أزهار لامعة. كان الفستان مناسباً تماماً لكل منحنيات جسدها. كانت تزرج جسمها جانباً بخجل، مُغطيّة وجهها يديها المصبوغتين بألوان زاهية. من الجلي أن الفتاة لم تكن تعرف كيف ترقص، إلا أنني أعتقد أنها كانت جريئة جداً كونها أول فتاة تحاول ذلك. بعض ضيوف حفل الزفاف هتفوا لها، إلا أن أشخاصاً آخرين أطلقوا صيحات استهجان. فتاة أخرى في الحشد صاحت قائلة، «أيتها الفتاة الحمقاء، اجلسي!».

دنوت منها كي أشجعها. كانت الموسيقى عالية. مالّت على أذني كي تقول شيئاً ما.

«لا أستطيع الرقص»، قالت.

«يُمكنني أن أعلمكِ»، أجبتها. «ما اسمك؟».

«فائزة».

بالطبع لم يكن بوسعي أن ألمس جسم فائزة، لأن الملائ كانوا يراقبوننا. هذه هي الصومال وليست الأفلام التي شاهدتها حيث الرجال والنساء يرقصون فيما يضم أحدهم الآخر بقوة. إلا أنه كان باستطاعتي أن أشمّ عطرها من المكان الذي كانت تقف فيه. لا يزال باستطاعتي أن أشمّ ذلك العطر. ومن ثم الفتاة التي وبختها قفزت على بلاط الرقص، أمسكت بفائزة من يدها، وجرتها إلى خارج المبنى، وراحت تصيح عليها. «سأخبر أبي، سأخبر أبي!» كانت تزحف.

1 - إن دا كُلب In da club أغنية لمغني الراب الأمريكي 50 سنت، من ألبوم الأسفديو غامبت المعنون «Get rich or die trying»، الذي أُنشِج في العام 2003 - م.

كانت هنالك إذاً شقيقة صالحة وشقيقة سيئة. كان أبوهما الشيخ عمر، وهو رجل دين مهم في منطقة «زيري». بوسعك أن تراه في كل حذب وصوب، كانت لديه لحية طويلة صبيغها بالحناء وأمسّت بلون برتقالي براق. كان يتزعم خمس صلوات يومياً في الجامع، وكذلك صلوات الجمعة المهمة. كان الشيخ عمر كذلك قاضياً يتوسط في قضايا الطلاق، الزواج، وحالات دعم الأطفال وفقاً لتعاليم القرآن¹، التي كان يعرفها لا بالعربية فحسب بل بالصومالية أيضاً. كان لديه عشرة أولاد من أربع زوجات. كان أشقاء فائزة من أبيها فقط يديرون جوامع ومدارس، وثمة شقيق آخر كان مقيماً في «الولايات المتحدة» وكان يرسل النقود إلى أسرته. الشيخ عمر أيضاً كان يُنسّق الحج السنوي إلى مكة. لحسن الحظ، كان مشغولاً جداً بحيث أنه لم يكن يعبأ ببناته، وهكذا كان يوسع فائزة وشقيقتها أن تلبسا أحلى الفساتين وأن تذهبا إلى حفلات الزفاف حيث تُعزف هناك الموسيقى الراقصة. إلا أن الاستماع للموسيقى شيء. أما الرقص فشيء آخر.

راقبت الباب برهة من الزمن. عندما لم ترجع فائزة، خرجت كي أبحث عنها. ألفتيتها جالسة بمفردها، تهوي وجهها بإزاء حرارة الصيف. «السلام عليكم»، ألقى عليها التحية. «وعليكم السلام»، ردت عليّ.

هبت واقفة، ابتسمت، وقالت إنها سعيدة برؤيتي. كان العرق يسيل من رأسي إلى ظهري، جزئياً من جراء الرقص إنما أيضاً لأنني كنت عصيباً جداً. أخبرتني أن عليها الذهاب إلى المنزل قبل أقول الشمس، وكان الوقت قد أصبح أصلاً الساعة الخامسة. «أرغب برؤيتك ثانية»، قلت لها.

1 - المقصود هنا «تلقاة الأطفال» التي يجب أن يسدها الزوج بعد أن يطلق زوجته عندما تنزلي الأخيرة حضنة الأطفال، وفقاً للشريعة الإسلامية - م.

«حسنًا»، ردت عليّ، وعرضت عليّ أن نلتقي في اليوم التالي وأضافت قائلة إنها تأمل أن يكون باستطاعتي أن أعلمها الرقص.

«أيمكنك المجيء إلى [قوس أرغادا] في الساعة الرابعة؟» سألتها.

كنتُ أعرف أنني غير قادر على أن أعلمها الرقص، لأنه ليس لدينا مكان خاص كي نتسكع فيه معاً. لن يكون بمستطاعها أن تأتي إلى منزلنا، لأن أياها لن يسمح بذلك أبداً، وعمر من المؤكد لن يدعوني إلى منزلهم. وفي موقاديشو، وحتى ما يحصل في الداخل ليس خصوصياً، كل شيء يُمكن سماعه وراء الجدران الصفيح أو الطين. الفتي والفتاة لا يمكنهما أن يتواعدا؛ الزواج وحده هو المسموح به. لذا ما أردنا أن نقوم به أنا وفاترة شيء غريب. ومع ذلك يمكننا أن نحاول.

في اليوم التالي عند الساعة الرابعة كنتُ واقفاً تحت «قوس أرغادا» بسروالي الجينز من قماش الدنيم، قميصي القطني ذي العلم الأمريكي، وتسريحة شعر جديدة تُسمى تير — فيد استوحيتها من مارينز «الولايات المتحدة» في موقاديشو سابقاً في العام 1993. كان القوس، الواقع عند ساحة الـ «KMH»، قد بناه الإيطاليون خلال احتلالهم الاستعماري للصومال. كانت تحيط بالساحة معالم من زمنٍ مضى من مثل «سينما إكواتوري»، سفارة مصر السابقة، وفندق «نعاسا قبلود». الآن معظم هذه المعالم دُمّرت، إلا أن القوس ظلّ. ظهرت فاترة وهي تقطع «شارع مكة المكرمة» باسمّة، تبدو مسرورة بزيّتي.

سرنا معاً مستمتعين بالنسيم البارد الآنّي من البحر. بطبيعة الحال لم يكنْ بمستطاعنا أن نمسك أحدهما بيد الآخر، سرنا فقط جنباً إلى جنب. لم يكنْ باستطاعتي أن أخذها إلى محلّ للمشاي أو إلى مطعم؛ كلّ ما أستطيع أن أفعله هو أن أخذها إلى «حماماتي» كي تمشي عبر الشطر القديم من موقاديشو، وأن نجسّز الشوارع التي تحفها أشجار جوز الهند من الجهتين و«المحيط الهندي» في البعيد. تحدّثتُ معها عن ألعاب كرة السلة التي

كان يزاولها أي، كيف كانت حياتنا كريمة قبل الحرب. تحدثت عن كيف ظلوا على قيد الحياة خلال النزوح الواسع في العام 1991 بأن هربوا إلى «جيفجيفا» في ألبانيا، ومن ثم رجعوا بعد مضي ستة أعوام. هي الآن لديها فضول لمعرفة ما يتعلق بموسيقى المغني فيفتي سنت التي شغلتها في حفل الزفاف. «كيف خلقوا مثل هذا الإحساس اللذيذ؟» سألتني. «أين يقيم أولئك القوم؟».

أخبرتني أنهم يسكنون في أمريكا، المكان نفسه الذي ألق به. بدأت تناديني بـ «عبدي الأمريكي». تحدثنا عن كيف يمكنها أن تلتحق بنادي الرقص خاصتي، إلا أن حولنا قد انقطع حين عرفت فائزة أن الوقت هو الخامسة والنصف ثانية وعليها أن تكون في المنزل قبل أنقول الشمس.

لقاؤنا التالي جرى في اليوم الذي سبق شهر رمضان. كانت قد جهزت «باجيات» ومحبوسات خصيصاً لي. تمسحنا ثانية في الشارع، وكنت أخذ عضيات من الـ «باجية» فيما كانت فائزة تتكلم عن أمرتها. فائزة لم تأكل شيئاً حين كنا نتمشى؛ الفتيات الصوماليات شديداً الخجل بحيث أنهن لا يأكلن في الشوارع. كانت قصتها قد قاطعتها مجموعة من أطفال الشوارع الجوع الذين تعقبوا رائحة الوجبات السريعة الجديدة وتوسلوا من أجل أن تعطيتهم شيئاً منها. أعطيتهم كل شيء.

حدقت فائزة في عيني مباشرة وقالت، «أنت سخي جداً».

قلت لها إن الأطفال ذكروني بطفولتي، لما كان الجوع عصماً باستطاعته أن يجعلك تاكلين كل شيء. لا سبيل لأن أمتنع عن إعطائهم الوجبات الخفيفة.

تكلمتنا عن أشياء مسلية يمكننا أن نحاول القيام بها. لم يكره لدينا خيارات كثيرة. الرجال بمستطاعهم أن يرتادوا المطاعم أو أن يجلسوا في محال الشاي. فائزة لا يسعها أن تقوم بأي واحد من هذه الأشياء، إلا أننا عقدنا العزم على أن نتمشى على شاطئ «أوروبية». مئات الشبان كانوا

يأتون إلى ذلك الشاطئ كي يسبحوا يومياً، إنما لا توجد هناك فتيات البتة. على خلاف المطاعم لم يكن محفوظاً تماماً على النساء أن يذهبن إلى الشاطئ؛ في الأغلب كنّ يتعذرن عنه لأنه من المحتمل أن يكون الأمر خطيراً بالنسبة للمرأة حول كل أولئك الصبيان عشي الطباع.

شعرتُ أنه يتعين عليّ أن آخذ فائزة إلى الشاطئ. في السينما شاهدتُ مكاناً يُدعى «شاطئ فينيسيا» في لوس أنجلوس، حيث يكون بمسقط العشاق أن يمشوا هناك ويسبحوا في اليم ويستمتعون بأوقاتهم. موقاديشو ليست لوس أنجلوس، ونحن لم نكن نستمتع بالحياة الخالية من الهموم لأولئك الممثلين، إلا أن الحرب ما تزال تدور رحاها منذ ثلاثة عشر عاماً، وقد أصابني السأم بسببها. أريد الحياة. كنتُ قد رقصتُ أصلاً في الشوارع وتحديثُ الإنكليزية فلم لا أذهب إلى الشاطئ مع فتاتي؟ أنا أعرف المخاطر التي يمكن أن تنجم من إحضار فتاة وسط حشد من الفتيان ترعرعوا خلال أعوام الحرب ويعتقدون أن الانقراض على الفتيات واغتصابهن ضرب من المزاح. لذلك رتبْتُ لثلاثة الأصدقاء خاصتي كي يكونوا بمنزلة حرس لنا نحن الاثنين. كانوا يتبعوننا ومعهم السكاكين الفضية، الأحجار، والعصي. بهذه الطريقة وجدتُ نفسي في الجنة، أمشي على الشاطئ، من دون قميص، جنباً إلى جنب مع فائزة. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً كي تتكون الحشود الذين راوحوا ينظرون إلينا بفضول وغيرة.

كانت فائزة تثق بي وطيبة قريبة جداً مني فيما هي تخوض في ماء المحيط بملابسها. في كل مرة أرى فيها شاباً يقتربون منها في اليم، ألقز وأستخدم لهجة العصابات الصومالية خاصتي كي أصبح، «ابتعدوا عنها، أولاد الزانيات!» كنتُ قد أقتنتُ لكنة موقاديشية جيدة، لذلك كان الجميع يحسبون أنني من عشيرة «هوي» وربما لديّ صلات وثيقة بالميليشيا. كانت تلك أول مرة تأتي فيها فائزة إلى المحيط، وكلّما كانت الأمواج تندحرج نحونا، تسرع عائدة إلى الساحل قزعة، كما لو أن كاننا

حيًا بطاردها. إلا أنَّ صدمتها تحولت إلى اعتياج. إن الذهاب إلى الساحل سوف يغدو شيئاً أثيراً بالنسبة لنا وكان يُطيب لنا دوماً أن نقوم به. أكتب اسمها على ذراعمي بقطعة قلم نياتي، كالوشم، وكانت تكتب اسمي على ذراعها هي أيضاً، إلا أنها كانت تحرص دوماً على أن يكون ماء المحيط قد مسح قبل عودتها إلى المنزل.

لم تكن فائزة شغوفة بالسينما مثلي، إلا أنها غالباً خلال النهار (وليس بعد حلول الظلام) كانت تأتي لمشاهدة الأفلام السينمائية معي على أي حال، تجلس بقربي فيما أنا أترجم. في بعض الأحيان اعتقد أنها كانت تشعر بالملل. الفتيات يحبين أفلاماً مختلفة عن تلك التي يحبها الفتيان، هذا ما تعلمته.

مرات كثيرة لم يكن يُسمح لفائزة بالخروج من منزلها، بخاصة حين يكون والدها هناك. حاولت أن أذهب حتى أراه، إلا أنَّ ذلك كان مستحيلاً؛ كان والدها يجلس بجوار الباب ويراقب من يدخل المنزل ومن يخرج منه. أحياناً كنت أتجراً فأنسلل حول جانب منزلها وأدنو من شباك غرفة فائزة. كانت تقف هناك تهمس لي بأن أغادر، كان ذلك شيئاً خطيراً جداً بالنسبة لها إذا ما وجدها أنني شخص أنها تتكلم معي من الشباك. أصردتُ أنني أرغب بالتحدث معها، وأني اقتطعتُ حضورها.

في أحد الأيام عرفتُ شقيقتها أنني أطارد فائزة خلصة عند نافذتها. ولما أخبرتُ أباها بذلك، قامت القيامة ولم تقعد. سار الشيخ عمر إلى منزلنا ووجد أمي هناك.

«أهلك فاسق!» قال لها. «وسوف يكون مآله جهنم!».

ومضى يقول لها إنه لا يحبُّ طريقة تلبسي، طريقة كلامي ورقصي. في نظره، كل ما يتعلّق بحياتي هو عملٌ شرير.

«أين والد هذا الفتى اللقيط؟».

شعرتُ أمي بالخروج لأنه ليس لديها زوج في منزلها.

«إن لم يكن باستطاعتك أن تمنعي هذا الفتى من مطاردة فتاتنا خلسة، سوف نتخذ التدابير اللازمة لهذه» ومن ثم غادر المنزل مغضباً.

لما رجعتُ إلى المنزل مساء ذلك اليوم، كانت أمي تنتظرنني لدى الباب. ضربتني بمكنسة، وبعدها ضربتني بصنغليها. كانت شديدة الغضب بحيث أنها شرعتُ تقرصني وتعصني. «ابتعد عن فتاة!» قالت لي. «جاء أبوها إلى هنا وهددني!».

وفي الحال أصبحتُ علاقتي مع فتاة معروفة في كل زوايا حينا السكتي. وجدتُ نفسي في الموقف نفسه الذي وجدته ليوناردو ديكاپريو في «تاتيانك». لم أكن أعرف إلى أين سيتهي هذا الأمر، غير أنني كنتُ أعرف أنه يلزمني أن أقاتل من أجل فتاة. كانت تحت المراقبة من قبل أسرتها، لذلك لم تتمكن من اللقاء مجدداً. مرّت أسابيع ولم أرها قط إلى أن سُمح لها ذات يوم بالخروج حين سافر أبوها لزيارة إحدى العائلات. كانت في السوق تشتري الموز والطماطم حين قابلتها بمحض المصادفة.

«اشتقتُ إليك كثيراً جداً»، قالت لي.

«أنا أيضاً اشتقتُ إليك».

مع أن ذلك بدا مستحيلاً، اتفقتا على أن نلتقي عند «قوس أرغادا» قبل أن يرجع أبوها إلى المدينة. أخبرتُ شقيقاتها أنها ذاهبة كي تسوّق. هذه المرة لم تجلب لي أيّ وجبات طعام خفيفة. قالت لي إن لديها عشرين دقيقة كي تتكلم معي من دون كلفة وبعدها يتحتم عليها أن ترجع. إلا أنها لم يكن لديها فكرة. أبوها سوف يعودان إلى مولاديشو خلال يومين، وقد قالت لها شقيقاتها أن تذهب وتشتري الفاكهة في «أفغوي»، حيث كنتُ شاهدتُ القروء المزرق المخيفة حينما كنتُ غلاماً صغيراً فر من أهوال الحرب. كانوا يحتاجون للترحيب بأيهم وأهمهم لدى عودتهما بالطعام الجديد. لذا اتفقتا على اللقاء في «أفغوي».

أخذتُ حافلةً بمفردي. كانت تلك أول مرة أسلك فيها ذلك الطريق

منذ هربنا إلى «بيدوق» بعد نشوب الحرب بأيام قلائل في العام 1991، وأعادت لي هذه الرحلة ذكر بات موجهة. هذه المرة بدائي الطريق مختلفاً أشد الاختلاف. كانت هنالك متاريس يناهز عددها الستين حيث كانت الميليشيات تسرق المسافرين، بمن فيهم سائقو الحافلات وركابهم، إلا أنهم لم يكونوا غاضبين كما في المرة السابقة. بات الثوار الآن خبراء في كيفية استخدام البنادق وإطلاق النار على المواطنين، لذلك لم يكونوا يحتاجون إلى التمرن عشوائياً على المسافرين الأبرياء.

لم أهتم بالأمر؛ كل ما كان باستطاعتي أن أفكر فيه هو فائزة. شاهدت ما يكفي من الأشرطة السينمائية؛ كنت أعرف ما سأفعل حين نلتقي. سوف أقتلها، وهذه القبلة ستكون أول قبلة أطيعها على شفتي فتاة في حياتي.

بالطبع لن تكون قبلي كقبلة هوليوود، طويلة ومصحوبة بالعناق. إن قبلة من هذا النوع سوف تفضحها أفاترة لم تكن تؤمن بالتقبل في الشفتين، لأنها لم تر الناس يفعلون ذلك. أخبرتها أن الأشخاص في الأفلام يفعلون هذا. «توقف، عيدي الأمريكي، أولئك الأشخاص ليسوا مسلمين»، ربما تقول لي ذلك.

كنت واقفاً تحت شجرة أكاسيا قريبة من النهر حين ترجلت فائزة من حافلتها. لما رأته، فتحت عينيها واتسعت بسمتها، رأيت أنها وضعت خطوطاً حول محيط عينيها. تبادلنا التحية وترهنا بمحاذاة الضفة النهر. قرود زرق كانت تدرش في الأشجار التي تعلو رأسنا.

«فائزة، أريد أن أقبلك»، قلت لها. كان قلبي يخفق بسرعة شديدة فيما أنا أنتظر جواباً منها. فقهقهت بخجل، غطت بسمتها يدها، وبعدها أدارت رأسها بخجل ومشت نحو النهر. كنت أعرف أن ذلك يعني «لا بأس»، وهكذا أخذت يدها، لكنها قاومت.

كنت أسير خلفها، متوسلاً إليها «مرة واحدة فقط»، حين استدلت

فجأة وأسرعَتْ راجضةً إليّ، زلت قدميها ورمت نفسها بين ذراعيّ. كنتُ متيقناً من أنها غيّرت رأيها، إلا أنها في حقيقة الأمر كانت قد شاهدتُ تمساحاً في النهر.

«كنتُ أحسب أن التمساح قادم نحوي!» قالت، وهي تنسحب مني حين أدركت أن ليس ثمة خطر.

أخمن أنه ليس جميع القروء والتماسيح قُتلَتْ في الأيام الأولى من الحرب الأهلية، إذ هذا هو جيل جديد من الحيوانات البرية «غير الأليفة». واصلنا المسير، كنتُ أنا أطرد القروء وأرمي الأحجار على التماسيح فيما هي تجمع البايابا، المنجاء، والموز المتدلي من الأشجار. كانت أشجار الفاكهة بمحاذاة النهر مثل «التقط ما تريد» في كشك بمزرعة أمريكية. أتت تجمع الفواكه في سلة، ومن ثم تدفع ثمنها حين تغادر. كانت تلك بقعة جميلة بدتْ أشبه بعالم يسوده السلام لا توجد فيه حرب أهلية. أفضل الأشياء كلها هو مكانٌ سرّي بعيد عن أنظار الناس، بخاصة عن أنظار أفراد أسرته. الأصوات الوحيدة التي كنا نسمعها هي رذاذ التماسيح وزعيق القروء وهي تفلز من شجرة إلى شجرة أخرى. يوم مثالي للفوز بقبلة. فائزة كانت واقفة هناك، وهي ما تزال معترضة، لكنني أحسستُ أنها أظهرت ما يكفي من الخجل كي نوحى بأنه «لا بأس». دنوتُ منها ومنحتها نقرة سريعة على خدها. كانت بشرتها ناعمة وتعبق بشدا القردوس.

إن تقبيل فائزة في خدها لحظة في حياتي لن أنساها أبداً. أول قبلة، أول مرة. أعرف أنها أحببتُ قبلي تلك، لكنها قالت لي إن عليّ أن أنتظر القبلة التالية في يوم زواجنا.

«متى سيكون ذلك؟» سألتها.

«لا أعرف»، قالت. «الله وحده يعرف».

ربما الله وحده هو الذي يعرف، إلا أن لدي شعوراً جيداً إلى حد ما بأن الزواج من فائزة سوف يغيّر حياتي. أبوها ربما يتغلب على كراهيته لي

إذا خرجتُ عليه بمهر كاتب، إلا أن المشكلة الأكبر هي أننا لسنا من قبيلة واحدة. لم يكن مستحيلاً بالنسبة لفتاة من عشيرة «هوي» كي تتزوج فتى من عشيرة «وَحَاتوين»، إلا أن الأمر سيكون شديد الصعوبة. في الواقع سيمر وقتٌ طويل قبل أن أرى فائزة ثانية.



رجع شخصٌ ما من كينيا كان قد رأى حسن في «معسكرات اللاجئين» في «وَجِير»، الذي وصلته عمتي أمينة أيضاً. هذا الشخص حمل رسالةً إليّ من حسن. كانت مكتوبة بخط يده بالإنكليزية:

عبدي أنا حسن، أنا على ما يرام. أنا في وَجِير كينيا. تعطلت سيارتنا في مكانٍ ما بالقرب من الحدود مع كينيا وتعين عليّ أن أسير ثلاثة أيام كي أصل إلى الحدود. قابلتُ أسوداً وضياعاً في الشوارع، خفتُ وتذكرتُ قصص أمي. على كل حال، كل شيء جيد بالنسبة إليّ. أسمى للوصول إلى نيروبي. «معسكر اللاجئين» هنا في وَجِير شديد الصعوبة، إنه قاسي جداً وعلى غرار الشعب الصومالي إنهم يموتون من الجوع. سمعتُ أن نيروبي مكانٌ جيد بحيث يمكنكني أن أعمل هناك على الأقل. عبدي ثمة شيء يُسمى «هوتميل». يمكنك أن تعمل حساباً على شيء يُسمى «هوتميل». يمكنك أن تعمل حساباً على الإنترنت، اصعمل لك حساباً ودعنا نتكلم هناك وعنوان الـ «هوتميل» العائد لي هو haasifin@hotmail.com. بلغ تحياتي إلى أمي ونعمة.

هناك في المنزل، الحياة أصبحت مختلفة تماماً بعد أن رحل أبي وحسن. حين عدتُ إلى المنزل ليلاً بعد أن شاهدتُ قيلمًا سيئاً، كان المنزل هادئاً تماماً لأن نعمة وأمي تأويان عادةً إلى الفراش في الساعة تقريباً. حين كان حسن لي المنزل، كان يمشي هناك وكنا ندرسه

بالإنكليزية. أنا الآن في حجرتنا بمفردي ولا أحد سواي، وحيداً وضجراً. نعمة الآن في عامها الرابع عشر وكانت تتدرب على أعمالها المنزلية الاعتيادية المنتظمة التي تبدأ فجراً، من إعداد الشاي إلى غسل الملابس. لم يكن لها صديقات مثلي؛ كانت رفيقتها الوحيدة هي أمي. كانت نعمة طويلة القامة حالها حال جميع أولاد أبونا الطويلين، وشأنها شأن كل فتاة أخرى في المدينة كانت تضع خطوطاً حول محيط عينيها، تصبغ أظفارها، وتضع وشم الحناء في يديها. بعد رحيل حسن، توطدت العلاقة بيننا أكثر؛ كنا نسلّي أحدهنا الآخر في المنزل ونحن نلعب «غارير» والحجلة¹.

في عصر يوم من الأيام جاء بعض الضيوف الغرباء لزيارتنا. كانوا خمسة رجال جميعهم يرتدون جلابيب بيضاء، لحاهم تصل إلى تقاطعاتهم الأدمية. كانوا نظيفين ولا تشوبهم شائبة باستثناء التراب الجديد على جباههم، الأمر الذي يُشير إلى أنهم قد أدوا تَوّاً صلاة الظهر في أقرب جامع. في أول الأمر حسبت أنهم ربما «تبليغ»، عادوا كي يسجلوني لأبشر بكلام الله، وتهيأت للفرار. إلا أنهم حين وصلوا، هرعَت أمي رাকضةً إلى غرفتها، لبست حجابها، وخرجت باسمعة. عرضت عليهم أن يجلسوا على الحصير.

«نعمة، جهزي الشاي لضيوفنا»، قالت أمي.

«حسناً، أمامي».

كنتُ قد ارتديت ملابس متاهباً للخروج كي أرى أيّ فيلم سينمائي يُعرض في الكورخ، إلا أن الرجال دعوني للجلوس بجانبهم. «سمعْتُ أنك تخرجت في المدرسة»، قال أحدهم. كان اسمه عمر، وكان قصير القامة وربما بلغ من الثلاثين. «تهانينا!» قال لي. «إنها فقرة كبيرة. نحن فخورون بك. ماذا تفعل الآن؟».

1- الحجلة hopscotch: لعبة قوامها أن يقفز الصبي على قدم واحدة فوق مربعات مرسومة على الأرض من غير أن لمس قدمه الفصلاخ المربعات. تُسمى هذه اللعبة في العراق: لعبة التوكي - م.

«لا شيء»، قلت له. من المؤكد أنهم لا يريدون أن يعرفوا عن شيء معين. أشار إلى شعري وخاطبني قائلاً إنه ينبغي لي أن أشفيه، كنتُ بدوتُ كالكاافر. وكان سرويالي الجيترو ونميصي عديم الباقة والكُمين - ليساً ملبساً ملائماً، قال لي.

«هذا صحيح!» قالت أمي. بعد رحيل أبي، وجدتُ هي أخيراً رجلاً آخر كي يوبخني. «اليوم سوف تذهب معهم إلى الجامع»، أضافت قائلة. إلا أنهم بينما كانوا يتحدثون، تسلفتُ خارجاً من البيت متجهاً نحو السينما. ولما رجعتُ ذلك المساء، كان الضيوف ما يزالون هناك، يأكلون اللحم والذرة. عيس عمر بوجهي، إلا أنه وقتل مدّ يده في جيبي، نحى جانبا مشط لحيته ومرآته، واستل غمسمائة دولار أمريكي. بعد أن تيقن من أن بوسعنا جميعاً أن نرى نقوده، أعطاني ورقة مالية واحدة من ورقاته الخمس وخاطبني قائلاً، «هذه لك». تبين أن عمر لديه ابن عم في أمريكا كان يُرسل إليه خمسين دولار شهرياً.

كنتُ ما أزال مشوش الذهن لماذا أتوا إلى هنا ولماذا يعطوني المال. إلا أنه في الثقافة الصومالية ليس من المناسب أن تسأل الضيوف أسئلة من هذا النوع. مضيتُ إلى نعمة التي كانت تعد الشاي خلف ستارة كنا نستخدمها كي نفصل منزلنا عن المطبخ. «من هم هؤلاء الأشخاص؟» همست. «كنتُ أهتم بأن أطرح عليك هذا السؤال»، قالت لي.

من المطبخ كنا نسرق السمع وهم يتحدثون عن الزواج، هدايا الماعز، حفل إسلامي عصامت من دون رفص. كان عمر يشرح خططه فيما يخص الزفاف، قائلاً إنه سوف يتم يوم الخميس.

«نعمة، تعالي إلى هنا»، قالت أمي. أتت نعمة راكضة من المطبخ. «انظروا كم هي فاتقة الجمال!» قالت أمي للرجال. «نعمة، أنتِ سعيدة الحظ، جاء عمر كي يتزوج منك. ونحن وافقنا».

نعمة لم تنبس بيت شقة؛ اعتقد أنها كادت تُصاب بنوبة قلبية.

بالطبع كانت تعرف أنها سوف تتزوج في يوم من الأيام، إلا أنها لم تتوقع أن تتزوج من رجل ستزيد على ضعف سنّها وهو رجل لم تلتق به أبداً. أنا أيضاً كنتُ مصدوماً بالقدر نفسه، وشعرتُ أنني مخدوع جداً بأن تفعل أمنا هذا الأمر من دون نقاش، بمجرد حصولها على شيء من المال والماعز.

أخبرتنا أمنا أن عمر جاء نواً من «بيدوة» وهو ينتمي إلى عشيرة «زحانوين» ومن أقاربنا، كونه ابن عم أبينا. الزواج الصومالي يُعدُّ في الأغلب قرابة بين العشائر والعائلات. حالات الزواج بين العائلات تُعدُّ دوماً محترمة أكثر، ولهذا السبب كل أم تريد لابنتها أن يكون لها زواج مُرتب في نطاق الأسرة. غير أن أمي قالت إن أبانا في الحقيقة، عبر رسول بعثه إلى ضحي، هو الذي قرر أن يزوّج نعمة من عمر. كانت الثقافة لا تسمح لأمي بالرفض أو عدم الموافقة. سوف يجري الزفاف الخميس المقبل، وسوف تُلبّح معزتان. الضيوف بمن فيهم فُكّالين بَسباس وُجهت إليهم الدعوات لحضور حفل الزفاف سوف يحضر الشيوخ، الأمر الذي يعني أنه لن تكون هنالك موسيقى أو تسلية على الإطلاق. بل مجرد تناول اللحم وأداء الصلاة.

تكلّمت أمي عن مسألة كم محظوظة هي نعمة كونها ستتزوج من رجل حفظ القرآن عن ظهر قلب، وهو يوم الجامع بانتظام، ولا يفوته أن يؤدي الصلاة خمس مرات في اليوم، وكان يتلقى المال من الخارج. «نعمة، انظري إلى نفسك! أنت سعيدة الحظ!» قالت أمي.

كانت نعمة لا تزال مقطوعة الأنفاس ولم يكن بمسْتَطاعها أن تقول كلمة.

كلّ ما فكرتُ بأن أقوله هو «ماما، ليس هناك موسيقى؟».

«احرسي!» قالت لي. «عار عليك!».

حلَّ يوم الزفاف، في وقت عاجل جداً سيكون هذا اليوم هو يوم نعمة الأخير في منزلنا، سوف تتركني في المنزل وحيداً تماماً مع أمي. إلا أنني لم أكن أشعر بالشفقة على نفسي، بل بالشفقة على نعمة. على خلاف أمنا، يزواجها البدوي البهيح، نعمة ليس لديها نساء أخريات من حولها باستطاعتهن أن يعلمنها ما يتعلق بتقنيات الزفاف أو كيف تتم زواجيد الفرح. كانت أمي وحدها التي تهمس في أذنها كل مرة تبكي فيها نعمة لأنها كانت خائفة من دخول منزل رجل لم تكن تعرفه.

صباح ذلك اليوم ربطتُ المعزتين من أرجلهما وقطعتُ حنجرتهما فيما أنا أردد «بسم الله». إذا ما نسيتُ أن أقول، فإن أشخاصاً كثيرين لن يأكلوا اللحم، لأنه عندئذ لن يكون حلالاً. وبعدها سلختُ جلديهما وبقرت أحشاءهما بسكينتي الحاد. قطعنا اللحم إلى مكعبات صغيرة ووضعنا قدرأ كبيراً من الذرة على نار الحطب. في ساعة مبكرة من صباح الخميس، الجيران والزعماء الدينيون، بمن فيهم متكاليين سياسي، كانوا يجلسون بسلام تحت ظل إحدى الأشجار، يسمعون بالقرآن ويستمتعون بتناول اللحم، الحليب، والذرة. قدمت لهم الماء كي يغسلوا أيديهم. كان هذا أحد اللقاءات النادرة مع متكاليين سياسي منذ تخرجي في المدرسة. لم يكن باستطاعتي أن أتجاهله، لأنه كان معلمي السابق، لكنني لم أقل سوى التحيات الإسلامية الأساسية جداً. لم يكن يابه بأن يرد على تحياتي، إلا أنه بعد أن التهم حصته من اللحم والحليب، خاطبني قائلاً، «أحضر المزيد».

خارجاً في الشارع، كان شحاذو الـ «زحانوين» قد شقوا رائحة الطعام. كانوا جالسين في حرارة الشمس، منتظرين فئات الطعام. لم يكن باستطاعتنا أن ندع جميع الـ «زحانوين» يدخلون إلى المنزل؛ فقد كان مكتظاً أصلاً بالشيوخ، ولم يكن هناك سوى معزتين. وهكذا خرجت أمي وقالت لهم أن يصبروا. إلا أنهم كانوا يعرفون أننا «زحانوين» زملائهم وأنا لن نطلق عليهم النار، وهكذا شقوا طريقهم إلى داخل المنزل وبدؤوا

يفتشون عن الطعام. وسرعان ما عثت الفوضى. أضرت أمي على أن أتخلص منهم، لذلك قبضتُ على عصا وبدأتُ أضرب بعض الشحاذين، بالطريقة نفسها التي كان يضربني بها متكالين بـسياس. عاد النظام بسرعة، وغادر المسؤولون. عاد الشيوخ كي يرتلوا القرآن ويلتهموا الطعام.

أداء الصلوات برتبة وتناول الطعام استمرا على مدى ساعات. والأسوأ من ذلك، لأنه زفاف ورج متزمت، كانت نعمة مُجبرة على أن ترتدي حجاباً داكناً تقليدياً سبكاً. جلستُ هناك تنحصر في الشمس، متنفسة بصعوبة. قررتُ أن أقدم للجمهور ثورة. كيف يسمع عبدي الأمريكي، راقص حفلات الزفاف الكبير، لشقيقته أن تشعر بالحزن والفضح في زفافها؟ ركضتُ في الشارع ودهوتُ ثلثاً من أصدقائي. وما هي إلا دقائق حتى ظهروا مع الراديو — المسجل المتنقل، مستعدين للرقص.

أستقبل أصدقائي بتعطيب النسوة اللاتي يرتدين الحجاب والبرقع والرجال ذوي اللحية الطويلة الذين يلبسون ثياب الـ«كنزرو»، إلا أننا لم نأبه بذلك. أدخلنا كاسيت مغني الراب في نيويورك جا رول¹ الذي أعاد دمج أغنية جيلفر لوبز الشهيرة «It's Real» ورفعنا صوت الراديو — المسجل المتنقل. وبعدها بدأنا نرقص.

لم تترك انطباعاً جيداً لدى أمي. تدلى فكها، ووضعتُ كلتا يديها على خديها في مظهر يدل على شعورها بالاشمئزاز. متكالين بـسياس وأتباعه انتعلوا صنادلهم بسرعة وغادروا، متذمرين من أن الشيطان ظهر في هذا الزفاف. نعمة المسكينة لم تكنُ تعرف كيف ترقص؛ كانت تراقب من مقعدها في الشمس الحارة. بيد أنها كانت فخورة لأنني رقصتُ في زفافها؛ لم تكثرُ فيما يتعلق بالشيوخ. أسعدتها على مدى دقائق قليلة. كان زوجها قد السَلَّ خارجاً، وعاجلاً بتعين عليها أن تغادر هي أيضاً. أنا

1 - جا رول (Ja Rule) موسيقي راب، مُغن، كاتب أغنيات، وممثل من كوبنس، نيويورك. اسمه الحقيقي جيلفري بروس أنكليس. وهو من مواليد 1976 - م.

وأمي وافقنا نعمة سيراً على الأقدام صوب منزلها الجديد، الذي يعد
عنا ستة بلوكات. عانقناها عنق الوداع. بكت. أعطتها أمي نصيحة زواج
أخيرة: «كوني مطبعة. افعلي كل ما يقوله».

همستُ في أذنها نصيحة أخرى مختلفة تماماً: «لا تدعيه يفيدك. تعالي
إلى منزلنا قدر استطاعتك».



بعد أن تزوجت نعمة، أصبحت أمي وحيدة وقررت القيام برحلة إلى
«بيدوة» والبحث عن أبي، الذي كان قد غادر منذ عام. انطلقت في طريق
«أفغوي» بواسطة حافلة ووصلت إلى «بيدوة» بعد مضي يومين.

كانت بيدوة مختلفة تماماً عن آخر مرة شاهدها فيها، خلال هربنا
من موقاديشو. كان الناس يتدقون خارجين من الأزقة الضيقة للمدينة،
يشتررون ويبيعون السلع. مرّت بكشك بعد كشك في السوق. شرائح
ضخمة من اللحم الأحمر كانت تتمايل في أشعة الشمس. في أكشاك
أخرى كان الناس يبيعون أشرطة طويلة من اللحم المجفف يُسمى
«كالتكال»، الذي كان يُقطعاً قطعاً صغيرة ومقلياً في الزبد. في سوق
الحبوب، كانت النساء يبعن كل أنواع الذرة والحبوب من أكياس جذبت
النحل، الزنابير، والذباب. الخضار، البطيخ الأحمر، الهالبا، والموز،
كلها مزروعة في حقول قريبة، كانت موجودة في كل مكان. الرجال الذين
يدفعون عجلات اليد هرعوا إلى أمي عارضين عليها خدماتهم. الشوارع
والفضاءات المفتوحة كانت تعج بالدجاج، بالأفرشة، الأحذية، والأقمشة
الساطعة الألوان. والناس جميعاً يتكلمون لغتها، لغة «معاي».

جلستُ أمي على صخرة بجوار كشك كان يبيع فواكه معصورة
وطازجة وطلبت قدحاً من عصير المنجا كي تبرّد نفسها بعد أن مشّت في
الشمس الحارة. ألقت نظرة عامة على الحشد كي ترى ما إذا كان أبونا في
موضع ما هناك. سألت الناس ما إذا كانوا يعرفون «نور ضيري». لم يكن

يعرفه أحد. لكنها تذكرت أنها يجب أن تقول «نور غيري» بلغة «معاي»، الذي يكون «نوري». أقامت في موقاديشو مدة طويلة جداً بحيث أنها نسيت لغتها المحلية.

«أتعرفين نوري، الرجل الطويل؟» سألت امرأة ما.

قالت المرأة نعم. قالت إن أباها يُمكن أن تجده وهو يعمل في سوق الفحم النباتي. مشّت أمي نحو سوق الفحم النباتي، وهو مكان قذر حيث يكون الهواء أسود بسبب حبار الفحم.

«نوري!» صرخت.

في غضون لحظات ظهر من القبار كالشيخ، مكسواً من رأسه إلى أخمص قدمه بالسخام. سارا عائدتين إلى كشك الصفيح البالي، المحاط بأكياس الفحم. غلام صغير، اسمه ديك، كان يجلس في السخام يشرب حليب الناقة. شرح أبي أن ديك هو أحد طفليه الاثنين من زوجته الجديدة. كانت ذاكنة البشرة ونحيفة الجسم، تصفره عشرة أهوام، وكانت تبيع الشاي بجانب محل الفحم خاصته.

في الثقافة الصومالية بوسع الرجل أن يتزوج حتى أربع زوجات. كانت أمي تحترمه وأخبرته أنها التفتت حضوره. لعن موقاديشو باعتيارها مكان الشيطان. وبعدها ودعته.

الإثم والعقاب

في صباح 3 تشرين الأول/ أكتوبر، 2005، استيقظتُ على جلبة مرتفعة الصوت في الشارع. كان جميع سكان حينا السكني يركضون في اتجاه واحد، في طريقنا النرابي صوب البحر. لم أكن أعرف ماذا كان يجري، إلا أنني انضممتُ إلى الحشد. بلوكاً بعد بلوك، كان الحشد يغدو أكبر عدداً. هل رجع المارينز؟ هل أحضر أحدهم الطعام؟ لا أحد يعرف، إلا أننا ما نزال نركض. كانت السماء ناعمة؛ الناس يشيرون بأصابعهم إلى الشمس. كان كسوفاً تاماً.

«مهدي! مهدي!»

علت الصرخة عبر الحشد. كان ذلك وصول الـ «مهدي»! الـ «مهدي» هو مخلص الإسلام، المنقذ الذي يأتي قبل «يوم الحساب» ويهزم الشرور قبل نهاية العالم ونحن كلنا نؤخذ إلى الجنة. يقول «الحديث»¹ إن كسوفاً شمسياً سوف يعلن قدوم الـ «مهدي».

في الحال كان الجميع يهتفون، «مهدي! مهدي!» وانضممتُ إليهم. كانت الأمهات يفتشن عن أولادهن بنحو مسعور، لا يرغبن بأن يفقدنهم في الدرب المؤدي إلى الجنة. وجدتُ أمي وركضنا معاً. في الختام

1- الحديث (Hadith): المقصود هنا: الحديث النبوي - م.

ووصلنا إلى الرمال البيض لساحل موقاديشو، حين كان القمر في منتصف طريقه بالضبط عبر الشمس. نظرنا من حولنا بحثاً عن الـ «مهدي»، إلا أنَّ ما رأيناه، على كتب رمليّ، هو كوم من جثث بشرية. كانت هذه الجثث قد أُخرجت من مقبرة. كانت تلك جماجم منفصلة عن الأجسام. إحدى تلك الجماجم كانت ما تزال تملك شعراً أبيض طويلاً، مبطاً طار مع نسيم المحيط — لا تعود لشخص أفريقي. كان ثمة رجل يقف على كوم من العظام، يهتف.

«ابصقوا عليهم!» قال. «الغورهم. هذه هي جثث المسيحيين المدفونين في موقاديشو!».



جثث المسيحيين المدفونين في موقاديشو؟ كانت هذه بالنسبة لي هي نهاية العالم بكلّ تأكيد. فكرتُ أن هذا الرجل لا بد أن يكون هو الـ «مهدي»، وقد أتى وكان يقتل المسيحيين كما علّمنا متكاليين يسّاس أنه سيحدث. عرفتُ تالياً أنَّ هذه هي جثث الجنود الإيطاليين الذين قضوا في الحرب العالمية الثانية في الصومال. مجموعة من الإسلاميين كانوا قد نهشوا الأرض وأخرجوا تلك الجثث، دنسوا القبور، وبعدها شيدوا جامعاً يسقف من صفح في البقعة ذاتها. حلت الظهيرة الآن، واختطف الشمس تماماً وراء القمر. كان الحشد قد هبطوا على العظام، وراحوا يركلون بفرح الهياكل العظمية ويحوّلونها إلى قطع. أمسكتُ بواحدة من تلك الجماجم ورميتها على الأرض.

إلا أنَّ الشمس عادت من جديدة وثانية تحمص الرمل تحت أقدامنا. لم يصل الـ «مهدي» بعد والعالم لم يتو. مضيتُ إلى المنزل. هذه ليست هي أول مرة كاد العالم أن ينتهي في الصومال. يوماً فيما كنتُ أكبر، كان العالم ينتهي في اليوم الذي يلي، اليوم الذي ربما يطلقون فيه النار عليك. لم يكن هنالك أيّ مستقبل على الإطلاق. لا مهدي يمكن أن

يأتي الانتقاد، لا ماريتر يمكن أن يأتوا كي يتفقدوا. إنما توجد علامة تنبئية واحدة في ذلك اليوم: الإسلاميون الذين حفرُوا بجثث تلك القبور سوف يغيرون العالم كما عرفته.



بحلول مطلع العام 2003، كان للصومال حكومة انتقالية لأول مرة منذ نشوب «الحرب الأهلية». إلا أن هذه الحكومة كانت قاعدتها في الخارج، في كينيا، لأن الجنرالات بالآلاف المؤلفة من رجال الميليشيات التابعين لهم كانوا لا يزالون يحكمون السيطرة على موقاديشو. كانت الحكومة الجديدة قد منحت الجنرالات مواقع وزارية على أمل أن يتنازلوا عن مطالبهم، إلا أن الجنرالات لم تكن لديهم نية في التخلي عن نفوذهم. كانوا يكسبون ملايين الدولارات كغنية من خلال القيام بأعمال الفرصة على السفن التجارية في الساحل. ومن ثم كوّنوا مصدراً لكسب المزيد من المال: دافع الضريبة الأمريكي.

كانت حكومة «الولايات المتحدة» تعتقد أن الإرهابيين الذين فجروا بالقنابل «السفارة الأمريكية» في نيروبي العام 1998 كانوا مختبئين في الصومال. وكانت تعرف أن الجنرالات لديهم السلطة في أن يجدوا الإرهابيين ويقبضوا عليهم. وفي الحال الجنرالات — المجموعات نفسها التي أسقطت طائرتي «هيليكوبتر» «هالك هاوك» وسحبت جثث أفراد القوات الأمريكية عبر شوارع موقاديشو — كانت تساعد حكومة «الولايات المتحدة» في القبض على الإسلاميين الأصوليين والأجانب.

بطبيعة الحال الأمريكيون لم يجاهرُوا بهذه الشراكة الجديدة، إلا أن الجنرالات كانوا مسرورين في إعلانها على الملأ، وفي الحقيقة كان بمستطاع الجميع أن يروا أن الأموال أُهدفت عليهم فيما هم يقومون بمداومة الجوامع والقبض على الشيوخ الأصوليين. بدأ هذا الأمر كحملة تطهير واسعة ليس فقط للمخلايا الإرهابية الثالمة بل للعلماء الإسلاميين

ومعلمي المدارس، الذين حُطِفُوا أبعادوا من البلاد، و«اعتُصروا». أصبح الجنرالات أقوى يوماً بعد يوم، وحولوا القبض على الإرهابيين إلى عهد من الرعب — متوجين الأمر بالاغتيال الصادم لرئيس «محكمة أفكا هالاني الإسلامية».

في ذلك الحين كانت هنالك خمس محاكم إسلامية في موقاديشو، كل واحدة منها تتسق مع عشيرة معينة. في غياب أي حكومة هذه المحاكم كانت تحسم القضايا الروتينية والخلافات، كل شيء من حالات الطلاق إلى الجرائم الصغيرة. في الأغلب كانوا يأمرؤن بدفع غرامة بهيئة حيوانات أو نقد: لا توجد عقوبات جسدية، كما أنه ليس لديهم منفذون مسلحون. كان رئيس «محكمة أفكا هالاني الإسلامية» رجلاً ذا شعبية ومن عشيرة «هوي»، العشيرة نفسها التي ينتمي إليها الجنرالات ومعظم العقيمين في موقاديشو، الأمر الذي جعل من عملية قتله صدمة هائلة. في الجوامع حول موقاديشو، كان الاغتيال قد ألهم خطباً عنيفة مُسَهبة ضد الجنرالات ومساندتهم الأمريكيين. كان الرأي العام قد تحول سريعاً ضد الجنرالات، وهذا التحول المياخت أُمسَى فرصة مناسبة للمحاكم كي تتوحد، على الرغم من اختلافاتها العشائرية، ضد عدو مشترك. وسرعان ما نالوا دعم أناس «هوي»، الأمر الذي جعل الوضع أصعب على جنرالات عشيرة «هوي» أن يطالبوا بالقيادة. كان السكان في موقاديشو قد سئموا من غياب القانون، سئموا من الجنرالات، سئموا من الهجمات على عقيدتهم. كانت الحرب العالمية على الإرهاب منذ التاسع من أيلول/سبتمبر قد أصبحت مفهومة في موقاديشو باعتبارها حرباً على الإسلام. هذا الأمر بدوره عزز الدعم الشعبي للمحاكم الإسلامية وضد الجنرالات المدعومين من الغرب. حين توحدت المحاكم، مسمية نفسها «اتحاد المحاكم الإسلامية» (ICU)، كان المسرح قد نهياً لتولي الإسلام الأصولي السلطة.

كان أول رئيس لـ «اتحاد المحاكم الإسلامية» هو الشيخ شريف أحمد، وهم معلم مدرسة كان قادراً على حسم مجموعة من طلابه وشبان آخرين كي يتدربوا على القتال ضد الجنرالات. على الرغم من أنه هو نفسه من عشيرة «هوي»، كان قد مَدَّ يده إلى القبائل الأخرى بمن فيها عشيرتي، الـ «زحانوين». كل ما يقوله كان مستنداً إلى القرآن والشرعة، وفي كل مرة يتحدث فيها، كان يشتم «الولايات المتحدة» وحلفاءها من مثل أثيوبيا. السكان في موقاديشو الذين كانوا غاضبين من الحرب الأمريكية على الإسلام وجدوا رجلاً يمكنهم أن يُنصتوا إليه.

وفي الحال أسس «اتحاد المحاكم الإسلامية» نظاماً قانونياً موحداً مستنداً إلى الشريعة في جميع أنحاء موقاديشو، كونه معارضاً للمحاكم الأ بكر، التي كانت مستقلة وغير منظمة. دبرت قضائها المتضيقين جداً، وهم شبان برؤوس حلقة ولحي طويلة، كي يحسموا قضايا من مثل السرقة، التزوير، الاختصاب، والطلاق، كل أحكامهم استندت إلى القرآن. كما كانوا أيضاً شباناً تدربوا سرّاً بوصفهم جنوداً إسلاميين، تمرنوا على الأسلحة خارج المدينة ليلاً. من هذه التدريبات ظهر جيش ووع كان باستطاعته أن ينتقم من الجنرالات. لكنهم أولاً يدوروا يقتلون أي فرد يقاوم تطبيق القانون الإسلامي.

في هذه الأثناء كان الأشخاص الأكثر غنى من الـ «هوي» يتبرعون بأموالهم لـ «ICU»، الأمر الذي مكّن الإسلاميين من أن يشتروا مزيداً من الأسلحة ويجذبوا مزيداً من الجنود اليافعين. وسرعان ما أحكموا السيطرة على ميناء «المعن» المهم، الواقع مباشرة شمال موقاديشو. وعقب هذه السيطرة، جرت سلسلة من المناوشات بين ميليشيات الـ «ICU» وميليشيات الجنرالات انتهت بالسيطرة الإسلامية على مناطق سكنية عديدة في موقاديشو تحديداً. ناهيك عن الشريعة، الـ «ICU» استعاد الأمان ووفر خدمات اجتماعية وأعمالاً خيرية. كان السكان

سعداء بأن يجدوا ماء عذباً متوافراً وشرطة في الشوارع. كان الدعم الشعبي للـ «ICU» قد حثّ الميليشيات الدينية كي تواجه الجنرالات في مناطق أخرى من موقاديشو. بهذه المواجهات بدأت شهرة من المعارك الطاحنة والمريعة عبر المدينة.

تلك المعارك كانت تتطلب مزيداً من الجنود الإسلاميين كي يقاتلوا الجنرالات، الذين كانت لديهم قوات تعددها بالآلاف، وهكذا بدأ الـ «ICU» بجهد تجديداً واسع النطاق. أقام تظاهرات في جميع أنحاء المدينة، حيث بشر متحدثون أذكيا بالرسالة المقدسة وجزاء الآخرة بالنسبة للشهداء الإسلاميين. الشبان في موقاديشو الذين بلا مهنة، بلا مستقبل، الذين لا شيء لديهم كي يقوموا به تدافعوا بالمناكب كي يكونوا أول الموقعين. وعلى غرار الأمريكيين الشبان الذين تطوعوا في الجيش بعد التاسع من أيلول/ سبتمبر، كانوا متلهفين لأن يفعلوا شيئاً مهماً ويكونوا أبطال بلادهم. وفر الـ «ICU» الفطور والغداء لجنوده. لحم المعاز الطازج، الخبز، والشاي الساخن كان يُعطى لهم يومياً، وكذلك نساء يُمكن أن يتزوجوا منهم — المهر يدفعه الـ «ICU»، وما من مشكلة إذا ما قطعت علاقتك بالاتحاد. غير أن الفائدة الرئيسة هي وعد دخول الجنة إذا ما مُتَّ باسم الله. في تلك الجنة سوف تقابل الـ «حور العين»، وهن مجموعة من اثنتين وسبعين عذراء لك وحدك لم يسبق أن رأتهن عين.

أرتال طويلة من الشبان اصطفوا في طوابير من أجل التوقيع على طلبات التطوع. بعد تدريب مدة يوم واحد فقط، المتطوعون الجدد تم رميهم في الخطوط الأمامية من المعركة مع ميليشيات الجنرالات، التي كانت تقاتل بمهنية على مدى سنوات عديدة. الجنود الإسلاميون كانوا مدفوعين بأخوتهم في الفردوس ولم يكونوا يهابون الموت؛ كانوا يلاحقون الميليشيات المجهزة بأسلحة ثقيلة التابعة للجنرالات في الشوارع، متخللين المواقع ومتقدمين. حين بدأ الجنرالات يهربون،

استحوذ الـ «ICU» على أسلحتهم الثقيلة وأحكموا سيطرتهم على الأحياء السكنية الإستراتيجية وحتى المطار. بحلول نيسان/ أبريل 2006، أصبحت موقاديشو تحت سيطرة الـ «ICU» وتفرق الجنرالات.

شرع الناس يتطوّعون لأداء الواجبات المدنية من مثل إزالة القمامة من الشوارع، إعادة بناء المنازل، وإعادة فتح المطار الذي كان قد أُغلق على مدى ستة عشر عاماً. لأول مرة، منذ أن غادر الأمريكيون موقاديشو العام 1994، عدتْ إلى المطار. هذه المرة كان يُديره رجال ذوو لحى طويلة ونياب الـ «كنترول»، وليس القوات البحرية التابعة للولايات المتحدة في البزات المُرَقطة¹ النظامية خاصتهم. كنتُ أراقب حين هبطتْ أول طائرة، وهي تجلب مجموعة من الصوماليين المشتتين الذين كانوا متلهفين للعودة إلى المدينة وترميم منازلهم المدمّرة أو التي صادفها الجنرالات. بمحاذاة الطريق المسفلت جلس رجال ميليشيات الـ «ICU» في أسرة شاحنتهم، مطوّلين وجوههم بالعمائم بحيث لم تكنْ تظهر سوى عيونهم الغاضبة. على خلاف المارينز، الذين كانوا يُظهرون وجوههم وحتى يحملون أسماءهم على ستراتهم، هؤلاء الجنود لا يريدونك أن تعرف من يكونون. لوحدتُ لهم مثلما لوحدتُ للمارينز في الماضي، إلا أنهم لم يردوا على تلوّحي. رفعوا قبضاتهم إلى الأعلى فقط وصاحوا «الله أكبر!» أدركتُ أن التلوّيح بات الآن خطيئة، وكلّ ما يلزمنا أن نفعله هو أن نقول «الله أكبر!».

أزيلتْ الأحياء التي كان جنرالات العشائر يتقاسمون السيطرة عليها. لم تعد العشائر مهمة بعد الآن، بل الله وحده. كنتُ أسير في أمكنة كنتُ أتحاشى فيها في يوم ما رصاص البنادق، أمكنة فرضتْ عليها العصابات والميليشيات سيطرتها، أمشي فيها الآن من دون خوف. المدينة أصبحتْ

1- البزات المرقطة camouflage uniforms بزات عسكرية مرقطة ترتديها الفرقة العسكرية كي نسعي المراءعة من أن تنتبه إليهم قوات العدو أثناء المعارك، أي أن القصد من لبسها هو التمويه - م.

مختلفة. علم واحد، اللون أسود مع كتابة تقول «لا إله إلا الله» يرفرف في الأمكنة كلها. المنزل ما تزال محض أطلال، إلا أن موقاديشو تبدو كأنها تولد من جديد. بدلاً من رصاص البنادق المستمر، كنا نسمع الهتافات الإسلامية تدوي من مكبرات الصوت الضخمة في شاحنات مقاتلي الـ «ICU». كانت الهتافات كلها «جهادية»: «أذهبوا إلى الحرب! أذهبوا إلى الحرب!» الجوامع كانت تعج بالناس الذين باتوا يشعرون ثابة بالحرية في العبادة من دون الخوف من أن يخطفهم الجنرالات. بعد الصلاة كان الشيوخ يسيرون أمريكا ويمتدحون أسامة بن لادن. «أمريكا عذبوا الله، ليبارك الله أسامة إن شاء الله».



كانت أمي من بين الناس السعداء بالتغيير، إذ فتحت كشكاً في سوق «بنكار» حيث كانت تباع هناك الذرة، السرخوم، والرز، وكي تزيد من مبيعاتها، كنت أركض جئةً وذهاباً في الأزقة، متملقاً المتبضعين كي يأتوا ويتفحصوا طعامنا. إلا أن الجميع كانوا يفعلون الشيء نفسه، لذلك الصوت الأعلى هو الذي يسترعي الانتباه أكثر. كما كان الضجيج شديداً هناك لأن السوق المتاخم هو سوق المسدسات الذي يُسمى «ير توفتي»¹ [مسدسات السماء]²، حيث كان الزبائن يخفرون المسدسات في المكان نفسه، طوال ساعات النهار. مرات عدة كانت أغلفة طلقات المسدسات تسقط على أمي وعلى ذرتها. أنا وأمي كنا نرفع أصواتنا عالياً جداً طوال النهار، محاولين أن نكسب المال، حتى وقت الغروب وعندئذ يكون صوتي مبحوحاً، ولما كنتُ أجلس بجانب أصدقائي في السينما كانوا يتذمرون من أنهم لم يقدروا يسمعون ترجمتي بسبب صوتي الواحز.

1- ير توفتي Cir Tootie: حرف C باللغة الصومالية يُلفظ «ع»، وحرف X باللغة الصومالية يُلفظ «خ»، و«th» يُلفظ «هي» - م.

2- مسدسات السماء Sky Shooter. استخدم الكاتب صيغة المفرد Shooter وليس صيغة الجمع Shooters. كلمة Shooter تعني سلاح ناري صغير - م.

كان الـ «ICU» قد أعلن حظراً للتجول من الفسق حتى الفجر. كل شخص يُرى في الشارع يُعتقد أنه يخرق القانون ومن الجائز أن يُحتجز أو يُطلق عليه النار. هذا يعني أنه ليس ثمة فرصة للسرق في سوق «بنكارا» أثناء الليل، وهكذا كان بمستطاع أمي أن تترك أكياس الذرة، الفاصوليا، المحبوب في كشكها من دون أن تحزمها ذهباً وإياباً من منزلنا كل يوم. كان عبثها يخف، إلا أن ثياب أمي أصبحت عبثاً جديداً. مثلها مثل أي امرأة في موقاديشو في ظل الحكم الجديد، يتعين عليها أن ترتدي ثياباً سميكة وغطاء وجه تحت الشمس الحارة. الجميع إما كانوا ملتجئين بالثياب أو ملتحين وكانوا ينهضون إلى الهتافات الإسلامية، لذلك من الصعب أن تجزم من هو العضو المنتمي لمقاتلي «المحكمة الإسلامية» ومن هو الذي ينفذ الأمر فقط؛ يجب عليك أن تكون محترساً في ما تقوله لأي فرد. لكن من دون خوف من الجريمة، كان السوق مكتظاً. رجال ملتحمون يتمشون في الأزقة ذهباً وإياباً، يحولون الأوراق المالية الأمريكية الكبيرة إلى عملات أصغر. هذه التجارة كلها أصبحت مصدر الدخل الرئيس بالنسبة للإسلاميين؛ كانوا يأتون ويجمعون النقود التي يسمونها إحساناً، وهي في الحقيقة ضريبة، من أصحاب المهن الصغيرة بمن فيهم أمي. إلا أنها كانت سعيدة. «الحمد لله!» كانت أمي تقول ذلك كلما كنتُ أتلمز.

«من كان يفكر بهذا السلم؟» تقول أمي. «الحمد لله!».

كنتُ أعرف ما تعنيه. الإسلاميون كانوا يفعلون غيراً من خلال عدم السماح بالتشعر أو بأن تشعر عشيرة ما بالتفوق على سواها من العشائر ومن خلال طردهم الميليشيات التي تنسب إلى عشائر معينة. إذا ما تشمر أي فرد على أي فرد آخر تحت حكمهم، يمكنك فقط أن تطلب المنجدة وفي الحال سوف يظهر للعيان مُنْجِدٌ¹، مثل نداء الحادي عشر من أيلول/

1 - منقذ: enforcer: أي الشخص الذي ينفذ قانون الشريعة الإسلامية، أي عملاً يبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - م.

سبتمبر في أمريكا. لكن بالنسبة لي، لم يكن الإسلاميون في موقاديشو
كمن يخدموا السكان ويحموهم، كانوا هناك حتى يحرموني من حرياتي.
لم أكن متيقناً لماذا ينبغي لي أن أفعل مع التفجيرات الجديدة التي طرأت
على المدينة. ارتداء قبعتي التي كُتِب عليها «تايتانك» كاد يتسبب بقتلي
في أحد الأيام لما ظنَّ شابٌ إسلامي أن «تايتانك» اسم مدينة أمريكية. لو
كان يعرف أنه اسم فيلم هوليوودي، فمن المؤكد أنه سوف يقتلني. الصور
والأسماء التي لها صلة بما بالأمريكا كانت بالنسبة للإسلاميين جرائم، ذلك
من الصور والأسماء على الأوراق المالية بالدولار الأمريكي التي كانت
محفوظة في جيوبهم.

كانت أمي تمضي بانتظام إلى ورشة مدتها ثلاث ساعات. زعيم
إسلامي، مقاتل سابق في صفوف «طالبان»، وزوجته كانا يقفان تحت ظل
شجرة. في اليوم الأول كان الموضوع هو «كيف تُجبر أطفالك على أن
يُصلُّوا بانتظام». موضوع اليوم الثاني هو «فوائد الانتحار باسم الله من
خلال قتل المسيحيين واليهود». كانت الورشة تستمر من دون انقطاع،
لا شيء سوى الموت، القتل، وقانون الشريعة. حصلتُ أمي على علم
إسلامي وجعلته يرفرف فوق منزلنا. لم يكن باستطاعتي أن أزيله، لأن
المنازل الخالية من الأعلام تكون مُستهدفة.

ذات يوم أتت إلي أمي واقترحت أن انضم إلى الإسلاميين. «سيكونون
أحراراً»، قالت لي. «ما من عقيدة إلا الإسلام؛ سوف يهزمون العالم كله!
إنهم يعملون وفقاً للشريعة!».

«ماما، أنا أريد أن أكون ما أنا عليه. لا يعني أن أحمل البنادق وأطلق
النار على الناس».

وبعدما تكلمتُ من كل الأشياء الجيدة التي فعلها الإسلاميون، كانت
عيناها تسعان كي تُظهر لي كم أنا شغيط. «إن كنت تُريد الزواج من فائزة،
وأن تنجب أطفالاً، وتملك نفوداً، هذه هي فرصتك»، قالت لي.

ربما كانت على حق. لو أنني انخرطتُ في صفوف المقاتلين الإسلاميين، لكان من الأسهل عليّ أن أזור منزل فائزة وأنا بلحية طويلة؛ سيكون أبوها في منتهى السعادة فيما إذا تزوجتُ منها. إلا أنه كان من المحتمل أن أقتل في إحدى المعارك بعد الزواج مباشرة. أثناء الليل، حين يبرد الهواء، يكون الجميع مُرغمين على الذهاب إلى ملاعب كرة القدم السابقة ومشاهدة الإسلاميين الشبان وهم يتدربون على القتال. كان ذلك أشبه بمعسكر تدريب مُجندي الأسطول البحري الأمريكي «الماينرز» — تدريبات اللياقة الشاقة، المشي التكتيكي على الأقدام، تمارين التدريب الموضوعية، واستخدام الأسلحة — عدا أن هؤلاء الجنود كانوا جميعاً يرتدون ثياب الـ«كترو» السود والرمادية. كنتُ أشعر بالفخر وأرغب بالرحيل، إلا أن الحضور إجباري. ولما انتهى كل شيء، أخيراً، لم يصل الجنود من أجل السلام بل من أجل الحرب مع أمريكا وأوروبا: «اللهم اجعلنا نلتقي القوات الأمريكية، اجعلنا نقضي عليهم تماماً، هبنا اليه العليا. نحن جنودك».

هذه الوقائع أغرت ألقاً آخرين من الشبان كي يوقعوا على ما سمعته دوماً «تذكّرة الرحلة الواحدة» أو «رحلة اللا عودة». إلا أنهم تأخروا كثيراً كي يؤثروا عليّ. لم أكن أرغب بالموت من أجلهم؛ كنتُ أريد أن أعيش في مدينة أمريكية جميلة ذات طرقات مُمهدة، نساء فائقات الجمال، مال، سيارات، وأعمال. في كلّ يوم كنتُ أَسْأَلُ ما إذا كان العالم يعرف ما يجري في موقاديشو. في بعض الأحيان كنتُ أغضب غضباً شديداً من أمريكا لأنها تركتنا في العام 1994. حين أُخبرتُ أصدقائي أن أمريكا سوف ترجع وتقلدنا من هذا الكابوس، أو حين أُخبرتُ فائزة أن أمريكا سوف تكون هي وطني المستقبلي، كانوا جميعاً يدورون عيونهم، إلا أنني لم أكن أهتم؛ كنتُ أعرف أن هذا صحيح. الآن، في ظل حكم الإسلاميين، لم أكن متيقناً جداً.



بومياً كان قلبي يخفق بالخوف من احتمال أن يجندوني قسراً للإسلاميين. كنتُ أعرف أنك حين تتخبط في صفوفهم، فلا يمكنك أن تتراجع. لا يمكنك أن تقرر التخلي عن بتدقيتك وتكون فرداً طليعياً من جديد. الموت هو الطريق الوحيد للخروج من هذه الورطة، وكان الموت يدهو كل الأفراد الذين في سني.

أصدقائي الذين كانوا يلعبون كرة القدم تخلّوا عن الملعب والتحقوا بالإسلاميين. الشبان الذين ضحكْتُ معهم على أفلام إيدي مورفي وقموا الآن طلبات الانخراط في الحرب المقدسة. كانت الأرض المخصصة للتدريب في موقاديشو قد اكتظت بهؤلاء الشبان والنساء، كانوا جميعاً يقاتلون من أجل لقب «جهادي» أو «شهيد». الفتيان الذين كنتُ أعرفهم في شوارع موقاديشو عادوا بأسماء جديدة، بزوجات جديدة، وثياب جديدة بعد التدريب. كانوا قد لبوا أنفسهم على أسماء جهاديين عالميين من مثل أبو أيمن، حمزة، أسامة، مللا عمر. كانوا قد تلقوا تعليمات بأن يقاتلوا الشر. والشر لم يكن فقط قوات العدو، بل يضم أيضاً الألعاب الرياضية، الأفلام السينمائية، الموسيقى، الملابس الغربية، وحتى طريقة مشينا وتحدثنا.

أحد المتطوعين الجدد وهو فتى كنتُ قد ذهبتُ معه إلى المدرسة. كان اسمه مختار وتخرج بعدي، وبعدها أصبح معاوناً لسمكاليين سياسياً، كان بالطبع سعيداً بالإسلاميين. أنا وهو لعبنا كرة القدم معاً قبل مجيء الإسلاميين، إلا أنه تغير الآن. الآن أصبح اسمه «أبو جهاد»، ولم يعد يهتم بلعبة كرة القدم. وذات يوم ظهر في منزلي مرتدياً سروالاً وقميصاً¹، كلاهما بلون أسود، القميص الذي يصل حتى الركبتين والسروال الفضفاض، الزي الذي يرتديه رجال «القاعدة»، مع عمامة تطلّوq وجهه

1- سروالاً وقميصاً: في النص الإنكليزي الأصل sarwar - kammez: أحد أكثر الأزياء شيوعاً بين رجال ونساء باكستان، ويتكون من سروال واسع فضفاض وقميص خارجي فضفاض، وهو منتشر في مناطق أخرى في شبه القارة الهندية، مثل الهند وبنغلاديش وسريلانكا ونيبال، يُلبس في الريف الباكستاني في الأفراح والعائلات - م.

مُظهرةً عينيه فقط. على كتفيه تتدلى بندقيّة نوع «AK-47». «أبو جهاد» تلقى أمراً من أميره بأن يمضي ويزيل الشر، لذلك من الطبيعي أنه فكر في. أتى إلى غرفتي مع مراهق آخر، كان هذا بدوره يحمل بندقيّة. لا بد أن أبا جهاد سمع أن بحوزتي بومستر للمادونا مرئدية ماثو، البكيني في حجرتي، إلا أنه حين أتى، كان قد رُفِع منذ أمدٍ طويل، كان أبواي قد رمياه. كان هنالك فقط حائط خالي من الصور أو الملصقات. شعر بخيبة أمل شديدة، كانت تلك أول تهمة يُعهد إليه بها بأن يمحو الشر لكنه لم يجد أي شيء. سألتني ما إذا كان لدي حصار صلاة في حجرتي.

«لا. لكنه في حجرة أُمي»، قلت له.

قال لي إنه يلزمني أن أصلي بانتظام وإلا سأواجه مشكلة. «لست أمزح!» قال لي.

كان خوفي الأعظم هو أن تدخل أُمي الغرفة وتخبره أنني معارض ولست مولعاً بالجهاد. وبعدها يأخذني إلى أميره في الأرض المخصصة للتدريب ويرغمني على الانضمام إلى «ICU». أجال البصر فيما حوله بحثاً عن أي شيء «شرير»، رأي سروالي الجيئز وقبعتي، معلقين على وند. نزعتهما من على الجدار وشرّحتهما طويلاً بسكينته. فتش في أنحاء الغرفة ووجد الراديو — المسجل المتثقل خلاصتي. كان يعرف أنني استخدمته كي أشغل الأشرطة الصوتية وأرقص في حفلات الأعراس؛ كان يعرف كلّ ما فعلته. التفت إلى صديقه «الجهادي» وانبرى قائلاً، «انظر إلى هذه الخطيئة!» مستخدِمين عقبيّ بندقيتيهما، هُشما الراديو — المسجل إلى قطع صغيرة أمام عيني.

«سوف نأتي إلى منزلك في أحيان كثيرة»، قال أبو جهاد. «سوف نقتل نوابك!» وعقب ذلك قاد المزل. في تلك الليلة ذاتها، قلقاً من التهديدات كلّها في المدينة، رفعتُ فاليس جميع ملصقات الأفلام السينمائية من كوخ الفيديو. أحضرت التلفزيون الصغير جداً في حجرة نومها.



خلال هذا الاضطراب الكبير تعيّن على الحياة أن تستمرّ، وفي الحال تلقيتُ خبراً أن شقيقتي، نعمة، حامل بطفلها الأول. لم أرَ نعمة منذ بضعة أشهر، إلا أنّ أمي وأنا سمعنا أنها تعاني من آلام مبرّحة. عقدتُ العزم على الذهاب إلى منزلها ومعالجة حالتها الصحية والنفسية، إلا أنني أولاً كنتُ بحاجة إلى إذن زوجها، عمر.

كان عمر يقضي نهاره في «شارع الصيدلية» في سوق «بَكَارَا». هناك كانوا يبيعون شتى أنواع العقاقير والأدوية في صف من الأكشاك تبيع بالعلاجات المزوّرة ومنتهية الصلاحية في علب وقنّان مستوردة من الخارج، مكتوبة بالإنكليزية والعربية. نساء متخفيات تحت ثيابٍ سميكّة كنّ يتسوّقن هذه العلاجات الرخيصة مستخدمات دولارات أمريكية. كلّ كشك له اسم أحد رفاق النبي محمد أو أحد العلماء المسلمين. مشيتُ بمحاذاة هذا الصف من الأكشاك كي أرى ما إذا كان باستطاعتي أن أجد عمر. كان يجزّي أوراقاً مالية كبيرة عند كشك تصريف العملات النقدية، حيث جلس على صندوق صفّيح ذي بافظات دولار في جوانبه كلّها.

تبادلنا السلام مستخدمين التحية الإسلامية الرسمية. أخبرني أنّ نعمة ما تزال تعاني من الوجع إلا أنّ لديه مجموعة من الشيوخ يقرؤون القرآن على طاسي من الماء المقدس من أجل نعمة كي يُدعك به جسمها وتشربه أيضاً. «سوف تتحسن»، قال وهو يهز كتفيه. قلتُ له إنني سأأتي يوم الجمعة إلى منزله كي أراها.

كان المنزل الذي يتفاسمه الاثنان، نعمة وعمر، غرفة واحدة ليس إلا ومساحتها نحو ثمانين أقدام مربعة في منزل ذي عائلات أخرى في الغرف الأخرى. كانت نعمة تستلقي على سرير خشبي بجوار رف تحفه علاجات شتى. نظرتُ إلى الحاويات: زجاجات شراب هيموتون، علب الأسبرين، علب منقطة تحوي كبسولات ملوّنة — بدتُ أشبه بصيدلية. قبل أن تسمح لي بالدخول، ليست نعمة حجابها، لأن هذا ما يجب أن

تفعله المرأة المسلمة حين يدخل رجلٌ إلى منزلها. شعرتُ بخيبة الأمل لأن شقيقتي، التي كنتُ أهتم بها طوال حياتي كلها، تعاملني الآن مثلما تعامل أيَّ رجلٍ آخر في المدينة. إلا أنَّ هذه هي القواعد الجديدة.

أخبرتني أنها كانت في هذا السرير، حبلً، على مدى بضعة أسابيع. كان جسمها مكسواً بالطفح الجلدي والبثور. بشرتها أصبحت أكثر دكنةً. تحدّثتُ من عدد المرات في اليوم التي تأخذ فيها العلاجات وفقاً لتعليمات الصيدلي في سوق «بكتارا» الذي لم يقصد المدرسة قط. قرأتُ على إحدى علب الشراب الذي كانت تأخذ: أن صلاحيته انتهت قبل شهرين. نعمة لم يكن باستطاعتها أن تقرأ ولم تكن تعرف. أخبرتني إلا أنها لم تحرّر جواباً. ماذا يوسعها أن تفعل؟

حتى حين كانت مريضة، وهي حامل بطفل، تعيّن على نعمة أن تطبخ الطعام لزوجها كي يتغلّى حين يعود إلى منزله عند الغروب. كان ذلك شيئاً صعباً عليها مع الألم الشديد الذي تعانيه. عدتُ إليها مراراً كي أساعدها في الطبخ، التنظيف، والغسل، وفي كلّ مرة يلزمني أن أحصل على رخصة صمر أولاً. نعمة أنجبت طفلتها، فتاة معافاة، إلا أن شقيقتي لم تبرا تعافاً.



في الأقل كانت لدي أنباء سارة من شقيقتي: حسن تمكن من الوصول إلى نيروبي. تبين أن «معسكرات اللاجئين» ليست جنة الله على الأرض — فهي أمكنة قاسية جداً، قذرة، ميتوس منها حيث كانت ميليشيات وعصابات موقاديشو نفسها تُرهب الناس. دفع حسن لسائق حافلة ستمائة شلن كيني، ما يقارب ستة دولارات، كي يركب إلى نيروبي وما كان يشمتاء هو أن يحظى بحياة أفضل.

عبر رسائلنا الإلكترونية المتبادلة حسن هو الشخص الوحيد الباقي في عالمي الذي شجعني على الاحتفاظ بحلمي الأمريكي. لم يفلت

الإسلاميون «مقهى الإنترنت» في سوق «هيكارا»، لأنهم كانوا يستخدمونه أيضاً، بخاصة أن «الجهاديين» العالميين كانوا في تواصل مع عائلاتهم. جاء إلى داخل ذلك المحل مقاتلون أجانب بوجوههم المثقفة، متحدثين بالأوردية، العربية، واللغات الأخرى. أرسل إليّ رسالة إلكترونية بالإنكليزية كي لا اقرأ الإسلاميون كلماته. بالطبع هذا الأمر كان خطيراً أيضاً، لأنه إذا ما رأي شخص ما أقرأ الإنكليزية، فسوف يجد بالتأكيد وسيلة ما كي يترجم ومن ثم يعدمني لأنني أمدح أمريكا. لذلك اخترت الحاسوب الواقع في زاوية الغرفة حيث لا يقف هناك شخص ورائي. قرأت إيميلات شقيقي بسرعة وأجبت عليها على جناح السرعة، ومن ثم خرجت من حسابي وخرجت من ذلك المكان.

وفي «أبو جهاد» بكلامه، وكان يأتي لمعايشتي يومياً. حين كنت أراه يقترب من باب منزلنا، أنسل من مؤخرة المنزل، متحاشياً إياد. أقضي وقتاً معيناً مع أمي في السوق، ومن ثم بعد غروب الشمس أنسل عائداً إلى منزلنا. كانت الليالي مخيفة جداً. يمكنني أن أسمع ثعتمات وحوارات الجنود الإسلاميين خارج جدران غرفتي الطينية، وبامتطاعتي أن أسمع صرخات الأشخاص الذين كانوا يضربونهم على أخطاء بسيطة جداً.

ذات ليلة انفجرت قبلتان في كوخ فيديو فاليس. القنبلة الأولى خرقت السقف؛ الثانية حطمت التلفزيون في حجرة النوم غاصتها والكاسيتات. حين استيقظنا كلنا صباحاً، عرفنا أن فاليس أخذتها مجموعة من الإسلاميين إلى السجن. هرعنا إلى الكوخ. كان الـ «ICU» قد جلب بلدوزر كي يزيل أنقاض الانفجار. احتشدت مجموعة من المقاتلين الشبان. قالوا إن الأرض وجدت أئمة ولها صامرها الإسلاميون وسوف يحولونها إلى مكان للوعظ حيث سوف يتلقى الناس دروساً إسلامية.

تجمع حشد فيما كنت واقفاً هناك أراقب كوخ الفيديو المحبوب خاصتي وهو يتراى أمام ناظري. هذا المكان، وليس المدرسة المخيفة،

هو مدرستي الحقيقية. سار أحد العقائتين إلى الحشد حاملاً القرآن بيده اليمنى، متحدثاً عن كم هو شيء شرير أن يشاهد المرء أفلاماً سينمائية. «أنتم تشاهدون أشخاصاً عراة في الأفلام، نساة لا يرتدين الملابس!» صاح. «إنها ثقافة غريبة يُريدون أن يفرضوها على المسلمين. إنها حرام. حيثما ترون الشر، عليكم أن تدمروه بأيديكم!» هذا كما لو أنه يُدريهم على كيفية التحدث بوضوح عن الإسلام. كان قد أجاد في إرسال الرسالة. هتف الحشد، «الله أكبر!».

كانوا قد حكموا على فاليس بأن تدفع غرامة قدرها خمسمئة دولار، بالإضافة إلى فقدانها عقارها. نصب الـ «ICU» مكبرات صوت ضخمة على الجدران المتبقية من الكوخ، راحت تلعب الهتافات الإسلامية يومياً وتبحث على الجهاد. بالطريقة نفسها وفي الوقت نفسه تقريباً، كان ملعب كرة القدم في منطقتنا السكنية قد تحول إلى بقعة يُعاقب فيها الأشخاص الذين يُقبض عليهم وهم يلعبون كرة القدم، وعادةً ما يُجلدون عشرين أو أربعين جلدة.

لعبة كرة القدم، السينما، الموسيقى، الرقص... هذه هي كل الأشياء التي وهبتي الطاقة والتحمل وجعلتني أواصل العيش في موقاديشو. الآن بعد أن أصبح كل شيء محظوراً، سقط مستقبلي في حضرة عميقة مظلمة. بدأت أكتب لحسن مرة واحدة فقط كل أسبوعين، ودوماً باللغة الصومالية. ذات يوم أرسلتُ إليه إيميل، «لا أعرف ما إذا باستطاعتي أن أرسل إليك إيميل آخر ثانية، لكن، حسن، في حالة عدم سماعك عبر مني، فربما أكون بين أيدي الـ «Terminators». هذه هي كلمة السر التي كنا نستخدمها في الإشارة إلى الإسلاميين.

«أعتقد أن عالمي سوف ينتهي في القريب العاجل»، كتبتُ له. «أمي تُريدني أن ألتحق بصوف الـ [ICU]. أنا أخاف من حمل بندقية. أريد أن أغادر البلاد».

كتب لي حسن جوياء، «عبدى، هؤلاء الإسلاميون سوف يكونون على
غرار طاليان. أعتقد أن أمريكا سوف تشن غارات جوية عليهم، أنا خائف
عليك أنت أيضاً، دعنا نفكر في طريقة ما لك كي تغادر البلاد».

وَقَعَ فِي الضَّحَى

في صباح يوم خميس في حزيران/يونيو 2006، حين كان عمري يقارب واحداً وعشرين عاماً، كنتُ مستلقياً على الفراش في حجرتي، متطلعاً إلى السقف ومفكراً في حياتي، حين دخل فتى الجيران.

«ثمة فتاة في الخارج تُريد أن تراك»، قال لي.

انطلقتُ بسرعة إلى الخارج، متسائلاً مَنْ تكون هذه الفتاة. كانت ترتدي حجاباً سميكاً وغطاء وجه، وثمة قفازان في يديها وجوربان في قدميها. حتى في حرارة ذلك اليوم، لم يكنْ هناك جزء صغير جداً من جسمها مرئياً. لكن كائناتُ مَنْ تكون هذه الفتاة، لَوَحَتْ يديها ذات القفاز لي من زاوية الشارع. وقفتُ هناك حائرأً، متردداً.

«عبيدي، هذه أنا!!».

كانت هذه فتاة. لم أرها منذ شهور عدة، كانت تسكن دوماً في حجر بمنزلها، وكنتُ أخشى من الاقتراب منه. لم يُرحبوا بي هناك، لكنني الآن من المجائز أن يطلقوا عليّ النار. كان المنزل يبيع دوماً بالسيان الذين كانوا يأتون كي يدرسوا القرآن على يد أبيها، أملين أن يحصلوا على مهن كبيرة في الحكومة الإسلامية، أو ربما حتى أن يتزوجوا من فتاة أو شقيقتها. غالباً في الجامع أرى أباهما جالساً في الصف الأمامي، وكنتُ أحاول أن أخشى منه.

لكن اليوم أخذتُ فائزاً استراحة من منزلهم. كانت واقفة في زاوية منزلنا في الشمس الحارة، العرق يسيل عبر حجابها، تتوجس خيفة من الدخول.

كانت الشوارع خالية. لم يكن المتقعدون يقومون بدورية في ذلك اليوم، ربما كانوا في الخارج يُعطون تعليمات أساسية. كانت أعلامهم السود ما تزال ترفرف في كل الأرجاء. كانت حصران الصلاة خاصتهم، «الجليكانات» مليئة بالماء، صنادل الإصبع، وبدلات نظامية وُثِيت حول مناريس أكياس الرمل خاصتهم. إلا أنهم غابوا جميعاً عن الأنظار.

تحت حجاب فائزاً كان بمستطاعي أن أرى فستان الـ «ديرك» والشار البرتقاليين اليراقين خاصتها. نظرتُ في عيني مباشرة وخاطبته قائلة، «اشتقتُ إليك. خذنا إلى مكان ما».

لم أكن أعرف إلى أين آخذها، المدينة طرأ عليها تغيير كبير منذ أن اعتدنا أنا وهي أن تمشي معاً. كانت هنالك نقاط تفتيش إسلامية كثيرة جداً في المدينة، ولا يمكن أن تكون كلها في إجازة اليوم. كلانا كان يعرف أن سير الرجال والنساء معاً هو جريمة، هذا ما قاله الإسلاميون في الرافيو ومن مكبرات الصوت الضخمة. إلا أنني لا أعرف ما هو نوع العقاب. أخذتُ دقيقة في التفكير بهذا الأمر. كان قلبي يخفق بقوة فيما كنتُ أنظر إلى الشارع تحسباً لعودة الإسلاميين.

المكان الوحيد الذي يمكنني أن أفكر به هو الساحل.

ساحل أوروبية، مكان لقائنا القديم، لا يبعد سوى ميلين. إن المسير إلى ذلك المكان البعيد مع امرأة لا تمت إليك بصلة سيكون شيئاً خطيراً جداً بشكلي من الأشكال، لكنني قررتُ أنْ بمستطاعتنا أن نأخذ حافلة صغيرة. حين انطلقت الحافلة أبلغ السائق فائزاً في الحال بأن تذهب إلى المقعد الخلفي. في ظل القواعد الأخلاقية الجديدة، يتعين على النساء أن يجلسن في المقعد الخلفي للمحافلة بينما يجلس الرجال في الصفوف

الأمامية. ليس بوسع رجل وامرأة أن يجلسا جنباً إلى جنب. كنت أعرف سائق الحافلة ذلك عندما كان الجنرالات في المدينة، تعود أن يشغل الموسيقى الصومالية التقليدية من دون انقطاع في حافلتها، تلك الموسيقى كان يستمتع بها الناس، إلا أنه اليوم كان يشغل تلاوات القرآن من دون انقطاع. لو شغل الموسيقى فربما يفقد بده أو رجله. ما من أحد يتكلم مع الآخر في الحافلة لأنه من الجائز أن يكون ثمة إسلامي يتجسس على الركاب. جلسنا كلنا هناك بهدوء تام وكنا نستمع بالقرآن.

إن السفر عبر المدينة آمن بالطبع، لا يوجد رصاص بنادق أو عبوات ناسفة في جانب الطريق، إلا أنني متوتر الأعصاب دوماً. متى يكشفون أننا نحن الاثنين، أنا وفاتنة، نواعد؟ كان معدل نهضات قلبي قد ازداد بشكل عنيف.

ترجلنا من الحافلة في «تقاطع خمروني» أمام الكاتدرائية الكاثوليكية. كان سقف الكنيسة قد اختفى تماماً، سُف وأُحرق، وذُمر يرجا الجرمين باستثناء زاوية متহার كانت تُشير إلى السماء مثل إصبع معقوف لرجل عجوز. في الداخل، أعلى الأقواس القوطية، كان تحت الحجر الضخم ليسوع المسيح على الصليب يستحم الآن بأشعة الشمس ومجذراً¹ بمئات الطلقات النارية: تعرين الاستهداف. عشرات الأطفال كانوا يتسلقون على الأنقاض كي يقدفوا الأحجار على يسوع المسيح. تابعنا المشي نحو الساحل، فائز تمشي ورائي بثلاث خطوات. لم نتحدث مع بعضنا، إلا أنني كنت أنتظر للوراء باستمرار كي أضمن أنها على ما يرام. صعدنا إلى «شارع الضفة»، الذي كان يشرف على الماء الأخضر لـ «المحيط الهندي»، واستنشقنا هواء البحر العليل. تساءلت ما إذا كان «ساحل قينيسيا» في كاليفورنيا يعبق بهذه الرائحة الطيبة نفسها.

1 - مُجذَر (pockmarked): أي تملوه ندوب آتية بندوب أو تقوب مرض الجدري - smallpox - م.

من الأفلام السينمائية عرفت أنه يبدو مختلفاً تمام الاختلاف: ما من أحد في «ساحل أوروية» يركب الأمواج المتكسرة، والقنادق الواقعة بمحاذاة الساحل قد قُجرت بالقتل بالفتل وأُلت إلى أطلال.

كان الناس قد احتشدوا في الساحل إنما ليس للتسلية أو الاسترخاء. كثيرون منهم كانوا يغسلون ثيابهم بماء البحر، يضربون ملابسهم بالصخور. أشخاص آخرون كانوا يصطادون السمك في قوارب صغيرة، ويرجعون بشباك مليئة بسمك النهاش، وسمك المزلين، والثونة. من القوارب كان هنالك رجال يحملون تلك الأسماك الضخمة على أكتافهم كما اعتاد أبي أن يفعل في الأعوام الخوالي. كانوا يقطعون السمك على الساحل تحديداً ويبيعون اللحم بهيئة مكعبات، كل مكعب بدولارين أمريكيين. النسوة اللاتي لم يكن يغسلن الثياب كن يراقبن لا غير. جميعهن يلبسن ثياباً سميكة وأغطية وجوه. ما من واحدة منهن كانت تجرؤ على الدخول إلى الماء. باستثناء فائزة.

وقفت في الرمل ورفعت غطاء وجهها، ونزعت قفازيها، صندليها، ومن ثم جوربها وحجابها السميك. «أنا أكاد أختنق حتى الموت بهذه الملابس!» قالت. كان الـ «ديراك» البرتقالي الناعم يرقص أمام النسيم العليل، كاشفاً جسدها ذا المنحنيات. هذا هو أقرب مكان إلى «ساحل فينيسيا» في موقاديشو.

«أليس هذا هو ما حلمت به؟» سألتني فائزة. «سلام وحياة سعيدة؟». ابتسمت ورويت لها كيف أن السكان في ميامي وكاليفورنيا يذهبون إلى الشواطئ لمجرد اللهو، لاسين السراويل القصيرة ومايوهات اليكيني. حكيت لها أننا لو كنا في ميامي، لرأينا مراكب شراعية بيضاء هناك عبر الماء، أناساً أكثر يستمتعون بأوقاتهم في تلك المراكب، بالسراويل القصيرة ومايوهات اليكيني أيضاً.

«اليكيني ضرب من الجنون»، قالت. «لن أفعل ذلك البتة». بدأت

تتكلم عن كيف أن الأمور جيدة في ظل حكم الـ «ICU» مع أنها يتعين أن تتعرق تحت تلك الملابس كلها، كانت سعيدة لأن بمستطاعها أن تمشي هنا وهناك من دون خوف من الجريمة. كنتُ أريد أن أناقشها، إلا أنه في موقاديشو لا يمكنك أن تتق بأي شخص، حتى بحبيبتك. كنتُ أريد أن يكون موعدنا الغرامي خالياً من النقاشات حول الـ «ICU» أو الشريعة، إلا أنني حين حاولتُ أن أتكلّم عن الأفلام السينمائية أو الأغاني، غيّرتُ فائزة الموضوع إلى الإسلام.

أشرتُ إلى بعض صيادي السمك. «أوه، انظري إلى تلك السمكة الضخمة التي أمسكوا بها!».

«هذا بفضل [المحاكم الإسلامية]»، أجابت.

النهار شديد الحرارة والماء بدا جيداً جداً. فائزة كانت ما تزال مبتللة بالعرق بسبب ثيابها الحارة. خلعتُ ملابسِي وبقيتُ بسرّوالي القصير وأغريتُ فائزة بأن تدخل اليم معي، إلا أنها ترددت بعصبية. نظرنا من حولنا ولم يكن باستطاعتنا أن نرى أيّ إسلامي في مكان قريب. وفي النهاية سارتُ إلى الأمواج المتكسرة على الساحل وهي تمسك بيدي، ورويداً رويداً سمحتُ للماء أن يصعد على جسمها. كلما أحسّتُ أن قدميها تمسان شيئاً ما، ترمي نفسها عليّ. كنا نعلب أحداً الآخر بإثارة الرغبة من دون نية بإشباعها كما كانوا يفعلون في أفلام هوليوود.

إلا أنّ هذه موقاديشو. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً بالنسبة للحشد كي يحدد موقعنا ويبدأ بالتذمر. صاحبت النسوة على فائزة، «هي، عارٌ عليك! ثدياكِ مرتبان!».

شعرت فائزة بإذلال شديد. خرجنا من اليم بسرعة، إلا أنّ شخصاً ما مشى مسرعاً في الطريق ودعا الإسلاميين. وقبل أن نجف ثيابنا، طوّقتنا أربعة صبيان مراهمين غاضبين بوجوه مغطاة، ينادفهم على أكتافهم، والسياط بأيديهم. من دون أن يقولوا شيئاً، بدؤوا يجلدوننا بسياطهم.

أحدهم ضرب فائزاً بالسوط، اثنان آخران ركلاني وأسقطاني على الرمل وضغطا بصنادلهما المطاطية على وجهي، في حين ضربني صبي ثالث بالسوط بقسوة. كانت فائزاً تصرخ مولولة، «لن أفعلها ثانية! سألجأ إلى الله من الشيطان، الشيطان الملعون!».

أشار أحد المنفذين إلى جسدها المبلل، الذي قلما يختفي تحت فستان الـ «فيراك» خاصتها الرطب الملتصق، وهتف مراراً، «ما هذا؟ ما هذا؟ هل هذه أوروبا أم أمريكا؟ ما هذا الذي تلبسينه؟».

وبعدما التفت إليّ، «من سمح لك أن تمشي مع فتاة وكل واحد منكما يمسك بيد الآخر؟».

تجميع حشد من حولنا كي يراقبوا الواقعة وهي تتجلى للعيان. كان يوسعي أن أسمع الناس يغمغمون، «إنه الشاب الأمريكي». قهقهوا وقالوا إليّ أحمق. ومن ثم أنا وفائز، جروحا نازفة، سرنا نحو البلوك التالي ودلفنا إلى مبنى قديم يتأخم «البنك الوطني في الصومالية السابق». كان هذا محجاً ومحكمة كل واحد منهما بمنزلة بديل مؤقت حيث يؤخذ إليهما الأشخاص الذين يُقبض عليهم وهم متلبسون بأنشطة إجرامية مختلفة. كانت تهمة فائزاً أنها خرقت قانون الشريعة. اقتادها رجلان إلى داخل غرفة وأغلقا الباب.

وفي النهاية جاء دوري. جعلوني أجلس على ركبتيّ أمام مُحقق، هذا المحقق سأُني عن اسمي، موقع سكني، وما هو مصدر رزقي. «اسمي عهدي، أنا أسكن في الـ [KM4]، لا أعمل شيئاً».

دَوّن بياناتي بالعربية على ورقة، سار مبتعداً، ورجع مع القاضي الذي لاح العبوس على محياه. فتح القرآن وقرأ، «قُلْ للمؤمنين يَغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم... وقُلْ للمؤمنات يَغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن».

بالطبع كنتُ أعرف هذه الآية، كنتُ أعرف القرآن كله عن ظهر قلب،

لكنني اليوم ولأول مرة أراء وهو يُستخدم ضدي مباشرة. كانت عقوبتي عشرين جلدة بالسوط و«التشاور». لم أكن متيقناً ماذا كانت تعني كلمة «التشاور». عرفتُ ما معنى العشرين جلدة بالسوط.

رجلٌ كانت لحيته الكثة قد طمسَتْ ملامح وجهه، جبينه ذاكن اللون بسبب التراب من جراء الصلاة المستمرة، جاء ووقف قبالي ومعه سوط جلدي ضخيم. شرع يحلطني بالسوط فيما هو يحصي الجلدات: «عشرين... تسعة عشر... ثمانية عشر...» حين كان السوط يضرب جلدي، كنتُ أشعر كما لو أن عشرة إبر تطعنني.

بعد الضرب بالسوط، بدأ التشاور معي. الشاب نفسه، كان قد أنزل سوطه توأً وبدأ يمشحني امتحاناً قصيراً جداً بالقرآن. «ما هي أسماء الأنبياء؟ أذكر أسماء الله التسعة والتسعين!» واستمرت الأسئلة، واحداً إثر الآخر.

أجبتُ عن جميع أسئلته من دون أي مشكلة. خلال هذا الوقت كان الناس يتدفقون إلى داخل المبنى، كلهم متهمون بارتكاب جرائم منافية لقانون الشريعة من مثل تدخين السجائر، عدم أداء الصلاة في وقتها المحدد، السرقة، أو عدم ارتداء ملابس ذات طول معين وسمك معين. انتهى تشاورنا حين نوذي لصلاة المغرب حيث رُفع الأذان من «جامع مرواز» القريب. لم أشعرُ بمثل هذه السعادة البالغة وأنا أسمع النداء لأداء الصلاة.

بطبيعة الحال يلزمني الذهاب إلى الجامع. كنتُ أجلس في الخلف، بعيداً عن الوجه المخيف للقاضي الذي حكم عليّ. إلا أنه لما انتهت الصلاة، اقترب مني القاضي، قادني إلى الخارج وبدأ يوجه إليّ أسئلة تتعلق بحياتي.

«هل سبق لك أن استمعت للموسيقى؟»

«لا».

«هل تطيع والدك؟»

«والدي ذهب بعيداً».

«أين هو والدك؟».

«في بيدوة مع زوجته الثانية».

سمح لي بالذهاب إلى منزلنا إنما قال لي أن أحضر صباحاً من أجل مزيد من التشاور. أتيت اليوم التالي، شبان آخرون كانوا هناك، كنا كلنا محشورين في حافلة صغيرة واحدة. أخذونا بالسيارة إلى ملعب رياضي لممارسة لعبة كرة القدم كانوا يستخدمونه كي ينفذوا عقوبات الشريعة. كانت هناك طاولة معدن في وسط أرض الملعب. حين وقفنا هناك بعصية، ظهر أربعة رجال من الطرف الآخر لأرض الملعب، وهم يجرون رجلاً معصوب العينين. وضعت يد السجين على الطاولة المعدنية فيما كان هناك رجلان يُسكان به بقوة وإحكام. سحب رجل آخر سكيناً ضخمة وأثرها بقوة على معصم الرجل؛ لا بد أن سكينه كانت غير حادة بكل معنى الكلمة لأنه تطلب الأمر أربع ضربات كي يقطع يد الرجل. وفيما كان السجين يصرخ من الألم، أغمسوا الجزء المتبقي من معصمه بالماء كي يزيلوا عنه الدم، ومن ثم لغوه بضمادة. وقف أمير قبائلنا، «انظروا جميعاً! أخذوا هذا نموذجاً» وبعدها أطلقوا سراحنا، محذرين إيانا من أننا سوف نتلقى مزيداً من التشاور في الجامع.

فائزة من جانبها هُزيت بالسوط أيضاً، وبعدها أرسلت إلى منزلها مع تحذير مفاده أنهم إذا ما رأوها تذهب إلى الساحل ثانية، سوف تندم طوال ما تبقى من حياتها. لم أظهر في الجامع مجدداً. صلاة الجمعة هي وقت التجنيد الواسع من أجل الحرب المقدسة، وكما تنبأت كان التشاور معي هو فسخ من أجل أن يُجندوني. في تلك الجمعة وحدها جئدوا ما يزيد على ثلاثمئة رجل.

كنت أعرف أنه إذا ما تعين عليّ أن أتفادي المطوّعين، فعليّ أن أدمج معهم. كان بطلوني الحيزز وقيعتي قد تُرِطاً أصلاً من قبل صديقي القديم في لعبة كرة القدم، مختار. الآن توقفت عن التحدث بالإنكليزية، وعن

الرقص، ومزاولة لعبة كرة القدم. كوخ قيديو فاليس غاب إلى الأبد
الأفلام السينمائية اختفت تماماً. كل الأشياء المسلية انتهت. حتى مصدر
دخلي الهزيل ضاع، لأنه لم يعد الوضع آمناً كي أعلم الإنكليزية. ألغيت
الدروس.



شبان صوماليون كثيرون كانوا يعبرون «خليج عدن» في قوارب
كسيحة متجهين نحو اليمن، وبعدها يسجلون أنفسهم كلاجئين. مئات
من الرجال، النساء، وعائلات كاملة كانوا يفعلون هذا، وكان بعضهم
محفوظين في أن يُعاد توطينهم في أوروبا أو أمريكا. فيما غير آخرون
الخليج نحو المملكة العربية السعودية ووجدوا أعمالاً لهم في تنظيف
المنازل، يعملون في العناية النهارية أو يرعون الماعز. قررتُ أن أحاول.
كنتُ أعرف أنني قد أموت أثناء محاولتي هذه، لكنني بالتأكيد سأموت
أيضاً لو أنني بقيتُ في البلد.

إلا أن مغادرة الصومال ليست بالأمر السهل. أولاً أحتاج إلى المال
من أجل النقل البري إلى بوساسو، الميناء الشمالي للصومال الواقع
على «خليج عدن»، الذي يبعد نحو تسعمئة ميل عن موقاديشو. وما إن
أصل إلى هناك سيكون لزاماً عليّ أن أدفع للمُهرّبين لقاء المرور الخطير
ليلاً إلى اليمن. الأشخاص الآخرون الذين غادروا أعطاهم النقود أفرادُ
الأسرة الذين في الخارج، لكن بالطبع لم يكن لديّ أحد كي يساعدني في
ما وراء البحار. حسن بالكاد يستطيع أن يغذي نفسه في نيروبي، فما بالك
أن يعطيني النقود، لأن اللاجئين غير الشرعيين لا يمكنهم أن يعملوا.

مضيتُ لأرى أمي في سوق «بنكارا». لما أخبرتها بشأن خطتي في
مغادرة البلاد، سخرتُ مني. «حسن يتعذب في كينيا»، قالت. «إنه لا
يستطيع أن يعمل، لا يعرف إلى أين يمضي، وليس لديه عمل يقوم به».
«ليس لديّ عمل هنا».

«على الأقل يمكنك الانضمام إلى صفوف الإسلاميين؟ سوف تحصل على الأشياء مجاناً. وربما يكون باستطاعتك أن تجد مهنة جيدة في الحكومة الإسلامية في المستقبل».

هذا ما تقوله على الدوام. سألتها إذا ما كان يوسعها أن تساعدني بشيء من النقود، على الأقل كي أصل إلى مدينة بوساسو.

«أنا أدفع الزكاة»، قالت، مشيرة إلى الضريبة التي تفرضها الدين. «وبعدها لا يبقى لدي سوى النقود الكافية للطعام».

كانت زكاتها تذهب لدعم الجيش الإسلامي؛ وهذا بالضبط ما أحاول أن أهرب منه. بدا ذلك كله ميتوساً منه تماماً، وهو شيء مُرتب ضدي. يأس مضيتُ إلى «قسم النقل الإقليمي» في تكتارا وضللتُ طريقي إلى رتل الحافلات الصغيرة ذات الديكورات الساطعة المغادرة إلى شمال الصومال. لم يكن لدي نقود في جيبوي، وما من سائق سيارة يأخذني إلى هناك. رأيتُ شيئاً آخرين في المحطة يعملون بصفة «جباة» — هم بالأساس كانوا مشجعين يجمعون المسافرين للحافلات ويحاولون أن يجمعوا بقايش من السائقين، وكذلك من المسافرين عن حمل أمتعتهم. بدأتُ أذهب إلى المحطة يومياً، من الصباح الباكر حتى غروب الشمس، أعمل مقابل بقايش قليلة. لم تكن تلك مهنة سهلة، عليّ أن أمشي في الأزقة أسك بالأشخاص من أيديهم وأقودهم إلى الحافلات. غالباً يختاط الأشخاص ويرشقوني بالأحجار. كان العمل مليئاً بالضجيج — نداءات مرتفعة الصوت، تدافع بالمناكب هنا وهناك. في بعض الأحيان كان السائقون يتجاهلونني ولا يعطونني قطعة نقد واحدة، حتى حين أساعدهم في أن تملأ حافلاتهم، إنما في أوقات أخرى يهبونني بعض النقود. ساعدتُ الركاب في حمل أشياء ثقيلة من مثل الأفرشة والأثاث من السوق إلى محطة الباص، وفي أحيان أخرى يرمون إليّ بعض القطع النقدية. بهذه الطريقة وفرتُ خمسين دولاراً.

في صباح يوم من أيام تموز/ يوليو 2006، انطلقت في الطريق المؤدي إلى بوماسو. كانت الحافلة مكتظة بالمسافرين، النساء في الخلف، الرجال في مقدمة الباص. كنا نحتاج إلى أن نجتاز نقاط التفتيش المزودة بجنود إسلاميين، لذا من الضروري الحفاظ على قانون الشريعة. جلست في المقعد الأوسط، بجانب كيس مليء بالجزر، الألبال، والبطاطس. كانت رائحة الباص تبدو أشبه بسوق للعلقة، إنما على الأقل لم أكن أركب مع معزاة مثل شقيقي حسن. بعد أن غادرنا موقاديشو بساعات قلائل وصلنا إلى أول نقطة تفتيش. قفز غلام إلى داخل الباص، كانت عيناه الغاضبتان تلقيان نظرة عامة على المسافرين. كان رأسه ملفوفاً بورشاح كُتب عليه «لا إله إلا الله». لحسن الحظ، كان يدين فقط في مسألة جلوس النساء في مقاعد منفصلة عن مقاعد الرجال، ولوح لنا بأن نطلق في رحلتنا. في نقطة التفتيش الثانية، متفقدون مسلحون أجبروا أربعة رجال على الترحل من الباص، كان هؤلاء شعرهم يُعدُّ طويلاً جداً. كنتُ واحداً منهم. أمرنا شاب بأن نجتو على ركبنا. واحداً واحداً قصوا شعرنا بفتفاطة بواسطة مقص. عدتُ إلى الباص مع أسوأ تسريحة شعر في حياتي كلها — خصلات كاملة من الشعر مفقودة في قمة رأسي. كان ذلك شيئاً مُخرجاً، إلا أنني على الأقل ما زلتُ أملك رأسي.

بعد خمسمئة ميل، عميقاً في وسط الصومال، وصلنا إلى مدينة غالكايو، وهو مكان إستراتيجي تلقي فيه طرق عديدة والمحاكم الإسلامية كانت ما تزال تتقاتل مع ميليشيات العشائر. سمعنا طلقات بنادق، صواريخ، ولقدائف مدافع تسقط في البعيد. لم أكن خائفاً من صوت المعركة؛ في الحقيقة بدا الأمر جيداً أن نعرف أننا دخلنا منطقة لم يكن يسيطر عليها الإسلاميون سيطرة تامة. رجال ونساء في الحافلة بدؤوا يتكلمون بعضهم مع بعض، وفي الحال شرع الجميع ينتقلون هنا وهناك ويجلسون معاً مثل أشخاص بالعين أسوياء. شرع الناس يروون القصص عن حياتهم في ظل الحكم الإسلامي. كل امرئ لديه قصة. تقاسمتُ قصتي عن اليوم الرهيب على الشاطئ مع فائزة.

كانت حافلةنا تذهب فقط إلى محطة شمال خالكابو مباشرة، حيث وجدتُ هناك حافلةً أخرى ذاهبة إلى بوساسو. جلستُ فيها بجوار رجلين اسمهما أحمد وعباس، كلاهما من موقاديشو، كانا مثلي على وجه الضبط هاريين من الحكم الإسلامي. ثلاثتنا أصبحنا أصدقاء في غضون دقائق قليلة، وشرعنا نقفهقه على القصص التي رويتها عن موقاديشو وعن أحيائها السكنية القديمة.

في الساعة الرابعة صباحاً انطلقت حافلةنا إلى ميناء بوساسو الصحراوي. كنا متلهفين لأن نجد المكان الذي يستطيع فيه الناس أن يأخذوا الزوارق الذاهبة إلى اليمن، إلا أن الظلام كان لا يزال سائداً. جلسنا عند جانب الطريق، منتظرين شمس الصباح. بعد برهة سرنا حول المدينة على مدى ساعة. حين انبجح الفجر، مشينا في اتجاه الماء، الذي كان باستطاعتنا أن نشمه. طوال الطريق قابلنا رجال ميليشيات كانوا يتأهبون لأن يخوضوا حرباً مع الإسلاميين، الذين يقولون إنهم في طريقهم إلى بوساسو. من الجائر أنهم كانوا يريدون أن يفرضوا سيطرتهم على الميناء، وهو مصدر للمال. في نهاية المطاف رأينا الماء. بدا أشبه بالبحر الواسع القريب من موقاديشو، إلا أن هذا كان «خليج عدن». وكانت دولتان هما اليمن والمملكة العربية السعودية لا تبعدان كثيراً عن ذلك الأفق.

لما دنونا من المرفأ، سمعنا ضجيج رجال، نساء وأطفال. كانوا جميعهم قد غادروا الصومال كي يكونوا لاجئين في اليمن. كان الميناء محمياً بحاجز طويل من البلوكات الخرسانية وكسر الحجارة، صفوف من الزوارق الخشبية كانت مربوطة بمحاذاة الجزء الداخلي من رصيف الميناء. رجال ميليشيات مزودون ببنادق يذرعون رصيف الميناء ذهاباً وإياباً، وكان المتهربون يجمعون أجرة الزورق. وبعدها سمعتُ كم هو الثمن: ثمانون دولاراً.

لم يبقَ لدي سوى أربعين دولاراً بعد أن أخذتُ الباقي. علي أن

أقرر ما يتعين عليّ أن أفعله. صديقاي الجديهان، أحمد وعباس، كان يحوزتهما المال؛ دفع كلّ واحد منهما ثمانين دولاراً وصعدا في الزورق. ملأ المُهَرَّبون هذا الزورق الصغير، الذي ربما يسع خمسة وعشرين فرداً، بما يزيد على مئة، ضغطوا الأجسام البشرية وحشروها في كلّ قضاء مثل سفينة مخصصة للعبيد. الآن بمكنتي أن أفهم لماذا كان يقلب عددٌ كبير جداً من هذه القوارب، مع أنني سمعتُ أن ركاباً كثيرين ماتوا من الاختناق، الجفاف، أو بسبب ضربات المُهَرِّبين. كان ينبغي للطواقم أن يمنعوا الناس من الحركة وإلا انقلب الزورق، غير أن المسافرين كانوا محشورين جداً إلى درجة أنهم سوف يعانون من الوجع لأنهم لا يقدرّون أن يمدّوا ذراعاً أو رجلاً. وما إن كانوا يحاولون ذلك حتى يجلدّهم المُهَرَّبون أو يضربوهم. وغالباً ما تُغتصب النساء. بعض الطواقم تسرق الركاب ومن ثم ترميهم من على الزورق إلى أسماك القرش. في اليمن يتعين عليهم أن يسبحوا من الماء العميق إلى الشاطئ لأن المُهَرِّبين كانوا يتحاشون زوارق الدوريات اليمنية. كثيرون ماتوا في أمكنة قريبة جداً من اليمن لأنه لم يكن باستطاعتهم أن يسبحوا أو لأن أسماك القرش أكلتهم. قال شخصٌ ما إنه على شواطئ اليمن كانت هنالك مقابر جماعية للصوماليين.

كان هنالك تدافع بالمناكب، وكانت الميليشيات تطلق النار في الهواء كي تسيطر على الحشد. في النهاية كان الزورق جاهزاً للمغادرة، وكان المسافرون مُخَبَّئين تحت قماش مشمع سميك. انطلقوا في رحلتهم البحرية صوب اليمن. كنتُ أود أن أكون في ذلك الزورق مع صديقي. لم أكنُ أبالي بخطورة الرحلة الشديدة، لم أشأ العودة إلى موقاديشو. انحسرتُ في طابور الزورق التالي. ولما جاء دوري كي أدفع الأجرة، سلّمتُ المهزّب أربعين دولاراً أمريكياً.

«أين هي الأربعون دولاراً الأخرى؟» هتف. «أجرة الزورق ثمانون دولاراً».

بدأت أخبره أنني لا أملك البقية، إلا أنه لم يرغب بسماع قصتي. رمى المال في وجهي وغاطبني قائلاً، «تألك!» وتحرك نحو الشخص التالي. في غضون دقائق قليلة انطلق ذلك الزورق في رحلته البحرية، أما أنا فبقيت على الرصيف الممتد في البحر، تعيساً إلى أبعد حد.

كان الغروب قد حلّ في يوساسو، وأصبح الحشد الذي ينتظر دوره في الصعود على متن الزوارق أكبر عدداً. كنتُ أحتاج إلى أربعين دولاراً أخرى. لم أكن أعرف ماذا أفعل، لذلك رجعتُ إلى المدينة كي أرى ما إذا كان هناك أي مهنة من المهن. لم أجد شيئاً. لا يوجد هنالك سوق كبير مثل سوق «بكارا» حيث يكون يوسبك أن تجد عملاً كمشجع للزبائن على ركوب الحافلات أو أن تعمل حمالاً. وكنتُ أعرف أنه كلما أمضيتُ وقتاً أطول في يوساسو، سيكون لديّ مبلغ أقل، لأنه عاجلاً أم آجلاً أحتاج إلى تناول الطعام. حرمتُ نفسي من العشاء، إلا أنه يتعين عليّ أن أتناول الفطور. كان السكان المحليون يحسبون أن المهاجرين أتوا ومعهم مبالغ طائلة، لذلك كانوا يبتزون المتسوقين بأن يزيدوا الأسعار على كل شيء. الخبز والشاي الذي يكلف عشرين سنتاً في موقاديشو كان سعره هنا دولاراً واحداً.

في تلك الليلة استلقيتُ على الشاطئ، بجوار حشد من المهاجرين كانوا ينتظرون شروق الشمس، على بعد مئات قليلة من الأقدام عن الرصيف الممتد في البحر. وفي الصباح رجعتُ إلى الرصيف الممتد في البحر ورأيتُ وجهاً مألوفاً. كان ذاك عبد الله مَدوي، وهو رجلٌ من منطقتي السكنية في موقاديشو. كانت زوجته وطفلاه معه، كلهم يسعون للوصول إلى اليمن. لَمَّا رآني، هرع إليّ. دردشنا قليلاً، أخبرته أن لدي قضايا مالية وأنا أيضاً أتمنى الذهاب إلى اليمن. تمنى لي حظاً سعيداً. راقبته فيما كان هو وأفراد أسرته يركبون زورقاً وببطء تواروا وراء الأفق.

بحلول ما بعد الظهر سمعنا أن الزورق الذي ركبته عباس وأحمد وصل إلى اليمن بسلام. سررتُ لهما، إلا أن كل ما كان يحول في ذهني هو وضعي الحزين. رحْتُ أذرع الساحل جبهةً وذهاباً على مدى ساعات. في الأغلب لم أكنُ أرغب بأن أعترف لنفسي ما هو جلي: سأعود إلى موقاديشو. وبعدها تلقينا أنباءً رهيبة: زورق عبد الله مدوي انقلب في عرض البحر بعد مضي ساعات قلائل على مغادرته الساحل الصومالي. أكثر من سبعين فرداً غرقوا. عبد الله وعائلته لم يعودوا. لو كنتُ ركبْتُ زورقهم، فربما كنتُ متَّ معهم؛ ولو كنتُ ركبْتُ زورق أحمد وعباس، لقيتُ حياً. وعندما مشيتُ مُجهّداً عائداً إلى محطة الباص، أحسستُ أن حياتي كلها كانت هكذا؛ كل يوم يمكنكني أن أتذكره هو مسألة حياة أو موت.

من دون رقم

كان حسن علي حق. بحلول تموز/ يوليو 2006، فيما كنتُ أسعى إلى الهرب، الجيش الأنثوي، المدعوم من «الولايات المتحدة»، كان يربط على طول الحدود ويستعد لطرده الإسلاميين. في الختام عبروا الحدود وتقدّموا ببطء نحو موقاديشو — عشرات الآلاف من الجنود المدربين تدريباً جيداً، بإسناد من الدبابات والطائرات.

كان أبو جهاد في منتهى السعادة. صديقي القديم في لعبة كرة القدم لم يكنُ بوسعهِ أن يتوقف عن التحدّث عن «الاستشهاد». «إذا قُتلنا المسيحيون، سوف نذهب مباشرة إلى الجنة!» ظل يهتف. في 20 كانون الأول/ ديسمبر 2006، اندلعت حربٌ طاحنة. كان أبو جهاد في الخطوط الأمامية ووسط أوائل المقاتلين المعرضين للموت. بعد اندلاع الحرب بأسبوع واحد، شقت القوات الأنثوية طريقها صوب موقاديشو. الآن جاء دوري كي أكون سعيداً. مشيتُ عبر الشوارع طوال ساعات من دون أيّ يافطة تدل على حركة أو جهة إسلامية. كل ما بقي هو أعلامهم السود، تخفّق في النسيم العليل.



في عيد السنة الميلادية الجديدة 2007، أشرقت الشمس على علم أزرق للصومال، مرفقاً لأول مرة منذ سنوات عدّة. أفتتُ من النوم كي

أجد جنديين يبدلات نظامية والفين في وسط فئاتنا. كان أحدهما أثيوياً والأخر صومالياً. كانا قد جاءا للبحث عن أسلحة لأن المدينة بأسرها كان يجري نزع أسلحتها. كان الجندي الصومالي من عشيرة «زحانوين»، لذلك كانت أمي وضحي سعيدتين وهما تشرحان له بلغة «معاي» بأننا لا نملك أسلحة. مقتنعاً، أسند بندقيته إلى شجرة النيم وطلب قدحاً من الشاي. كان الأثيوبي مشغولاً في تفتيش الغرف؛ وحين جاء إلى الخارج ورأى شريكه الصومالي يرتشف الشاي، بندقيته متكئة على شجرة، استبد به الغضب وبدأ يجار بالغة الأمهرية¹. بطبيعة الحال لا أحد منا كان بمستطاعه أن يفهمه، ولا حتى الجندي الصومالي، لكن من خلال لغة الجسد خاصته كان من الواضح أنه يعتقد أن هذا ليس هو وقت احتساء الشاي. لم يكن الأثيوبي يفهم أن أسر الـ «زحانوين» في موقاديشو لم يكن مسموحاً لها أن تمتلك البنادق. كان الجندي الصومالي يعرف أن أمي تقول الحقيقة.

حفلة شاي صغيرة، خطبة مُسببة عنيفة من جندي أجنبي — لا حاجة لأن نتكلم عنها كثيراً، إلا أنها رمزت إلى مشكلة أكبر وتنبأت بكارثة سوف تحصل لاحقاً. «قوات حفظ السلام» الأجنبية التي تدفقت على موقاديشو قادمة من أثيوبيا و«الاتحاد الأفريقي» لم تفهم التاريخ المعقد للمناخات العشائرية في الصومال. لم يدركوا كيف أن أغلبية أفراد عشيرة «هوي» المقيمين في المدينة يستأثرون من رئيس عشيرة دارود الجديد ويخافون من كل الجنود الـ «دارود» الذين كانوا يتدفعون الآن بأعداد كبيرة إلى داخل موقاديشو. لذا بدأت الحرب الأهلية في العام 1991 قتلت ميليشيات الـ «هوي» آلافاً من الـ «دارود» ومن ثم غزت أرض الـ «زحانوين». هل سيثار الآن جنود الـ «دارود» والـ «زحانوين» هؤلاء

1- اللغة الأمهرية Amharic: الأمهرية لغة أثيوبيا الرسمية، وهي لغة سامية تتبع المجموعة الجنوبية الغربية وتتحدث بها سكان أثيوبيا. هي ثاني أكثر اللغات السامية انتشاراً بعد العربية، وهي لغة حوالي 2.7 مليون مهاجر خارج أثيوبيا - م.

من المدنيين الـ «هوي»؟ حين صدر الأمر بأن يتم نزع أسلحة المدينة، شعر الـ «هوي» أنهم مهددون ومعرضون للهجوم.

لم يستغرق الأمر زمناً طويلاً بالنسبة للزعماء عشيرة الـ «هوي» حتى أعلنوا أن أثيوپيا «جيش احتلال». «لقد طردنا أمريكا» قالوا. «لن نستغرق زمناً طويلاً حتى نوقع بكم الهزيمة».

كان النداء الصادر من الزعماء قد أصبح فرصة للإسلاميين كي يعيدوا تنظيم صفوفهم ويشنوا حرباً مقدسة. هذه المرة، العذر في داخل بلادهم، أصبحت حرب عصابات. استهدف الانتحاريون المزودون بالأحزمة الناسفة المباني الحكومية. سفاحون متخفون كانوا يقتلون أي شخص يشكون بأنه يساعد الأثيوبيين والحكومة الجديدة. نساء السوق اللاتي حدث أنهن كنَّ يبعن شيئاً من الشاي أو القات لجنود الحكومة قُتلن في بيوتهن. هؤلاء الإسلاميون الأصوليون الجدد تجمعوا في معسكرات محروسة بكثافة في ضواحي المدينة؛ أثناء الليل كانوا يتقدمون بنحْد في مهمات عسيرة جداً. كانوا يسمون أنفسهم «الشباب».

بالمناوشات مع الجيوش الدولية والتضخيمات الانتحارية، أصبحت الصومال تحبط أنظار العالم ثانية. إلا أن قلة قليلة من الصحفيين العالميين غامطروا بالمجيء إلى بلادنا. الصحفي الذي فعل هذه هو بول سالويك، الحائز على جائزة پوليتزر للمراسلين الصحفيين الذي كان يعمل في ذلك الحين لمصلحة «شيكاغو تريبيون».

ذات يوم كنتُ أمشي عبر المدينة، ألقز على الأنقاض التي كان يتصاعد منها الدخان إثر قصف مدفعي حدث توأ، حين سمعتُ طقطقة وأزيز كاميرا مزودة بمو طور من مبنى في الناحية الثانية من الشارع. لم تكن أصوات الكاميرات أصواتاً طبيعية في موقاديشو. عالياً في شرفة دار ضيافة كان هنالك مصور فوتوغرافي آسيوي ورجل أبيض. اختفيا وراء جدران دار الضيافة، لكنني وقفتُ هناك، أراقب وأنتظر. في النهاية عاودا الظهور. لوح

لي الرجل الأبيض. رددتُ على تلويحتي. وبعدها حراسه، بعض رجال الميليشيات الصوماليين المستأجرين في باب المبنى السكني، حسبوا أنني أخلق لهم مشكلة. صوّبوا بنادقهم الـ «AK-47» إلى رأسي.

«انصرف!» قال أحدهم. «غادر الآن». كان الرجل الأبيض يراقب المشهد من الأعلى.

كنتُ خائفاً جداً من أن يطلقوا علي النار من بنادقهم، لكنني استجمعتُ شجاعتي كلها وصحّتُ موجهاً كلامي إلى الرجل الأبيض في الأعلى. «أريد أن أتحدث معك!» قلتُ ذلك بأفضل إنكليزية أملكها.

غاب الرجل في الداخل ثانية. أصبح رجال الميليشيات أكثر غضباً، وراحوا يهزّون بنادقهم. «لا يسمك أن تتواصل مع الرجل الأبيض!» قال أحدهم.

«أنت أيها الرجل الأحمر!» قال آخر. «انصرف!».

«إنه رجل لا بأس به. دعه يأتني». كان الصوت القادم من الفناء بالإنكليزية. كان ذلك هو صوت الرجل الأبيض عند الباب. حراسه لم يفهموا كلماته، إلا أنني بالطبع كنتُ مترجم الأفلام السينمائية في موقاديشو.

«إنه يقول دعني أدخل كي أقابله»، أنشربتُ الحراس باللغة الصومالية. كانوا يظنون أنني أحتال عليهم؟ كيف يستطيع رجل صومالي عمره اثنان وعشرون عاماً أن يتكلّم الإنكليزية؟ وعلى كلّ حال، كانوا كلّهم يتلقون أجوراً حتى يحموا هذا الرجل. إلا أن الرجل الأبيض استخدم الإيماءات بالأيدي كي يجعلهم يعرفون أنه موافق على مقابلي. فتشوني تفتيشاً كاملاً قبل أن أدخل إلى المبنى. وفي النهاية تصافحتنا أنا وبول سالويك.

«مرحباً»، قلتُ له. «إنه شيء حسن أن أقابلك، سيدي. أنا مسرور جداً!».

حين سمعني أتكلّم الإنكليزية، ارتفع حاجباه. «يا للهول! تعال واصعد معي، يا رجل!».

«ماذا تشرب، شرباً حاراً أم بارداً؟» سألتني پول.

كنا في شرفته. كانت لديه علبة «بيبي» في إحدى يديه، وثمة غلاية شاي على المنضدة. لم يسبق لي أن شربت علبة «بيبي» في حياتي، وأيتها فقط في الأفلام.

«تلك العلبة»، أجبته، مشيراً إلى الـ «بيبي».

«ما اسمك؟»

«اسمي عبدي».

«عبدي. هل أنت من هذه المنطقة؟»

«أجل، أنا أقوم في وسط ذلك الطريق، باتجاه تلك الشجرة الكثيفة هناك». أشرتُ إلى الأسفل في اتجاه منزلنا. أخذت رشفة من الـ «بيبي». لم يسبق لي أن تذوقت شيئاً للهدأ إلى هذا الحد في حياتي. «يا سلام، أحب هذا!» أخبرت پول. أحضر عليّين آخرين من الـ «بيبي» لي كي آخذهما معي إلى المنزل، لكنني شربتهما فوراً في المكان.

سألتني پول أسئلة كثيرة عن الحياة في موقاديشو، وحكيْتُ له قصتي هناك في تلك الشرفة العالية فيما كنا نحدّق إلى الأسفل ناظرين إلى المدينة المُدمرة. دُهِش هو ومصوره الفوتوغرافي كوني تاكاهاشي المولود في اليابان، حين أخبرتهما أنني تعلّمتُ الإنكليزية من خلال مشاهدة الأشرطة السينمائية. أخبرته أنه لم تعد هنالك أفلام سينمائية في موقاديشو. قلت له إن معظم الشبان ممن هم في سني جندهم الإسلاميون، وأشعر أن حظي لم يعد بحالطني. «البقاء هنا شيء سيئ، يا رجل»، قلت له، مستخدماً أفضل لهجة هوليوودية لدي.

وبعدما بدأتُ أمطر پول بوابل من الأسئلة عن أمريكا، سأله عن نيويورك، كاليفورنيا، عن السيارات، الطعام، كيف يبدو الثلج. لم يكن باستطاعته أن يثبتي عن طرح أسئلتي. أدرك پول على الفور مدى حيي لأمريكا، وقال شيئاً ما وهبني الأمل.

«عدي، أنا متيقن أنك في يوم ما سوف تقيم في أمريكا». تحدثنا طوال ثلاث ساعات. ولما غادرت أعطاني پول سالوبيك بطاقة العمل العائدة له. ومن ثم مَدَّ يده في جيبه وسحب خمسين دولاراً.

«هي ذبي، اشتر هاتفاً خلويّاً كي يكون باستطاعتي أن أتصل بك. الباقي، أعطه لأسرتك». في هذه الأثناء الهواتف الخلوية الرخيصة أصبحت متوافرة على نطاق واسع في الصومال، ومقابل دولارات قليلة يمكنك شراء بطاقات الرصيد التي تُحك بالنظر من أحد الأكشاك، وهذه البطاقات تعطيك دقائق كافية كي تتحدث مع عائلتك في خارج البلاد. وبمأل أقل بمسطاعتك أن تبعث رسائل نصية، إن كنت تعرف كيف تكتب. كلّ بضعة أيام يلزمك أن تدفع مبلغاً ما الرجل لديه مولدة كهرباء، مثل مقهى الإنترنت، كي يشحن ثانية هاتفك النقال لأنه لا أحد لديه تيار كهربائي.

تعانقنا ولمّح كلّ واحد منا للأخر مودعاً.

«عدي» - قال پول من الباب. «احرص على أن ترسل إليّ بالإيميل رقم هاتفك النقال».



كان الخروج من ذلك المبنى هو عودة إلى نهاية العالم. لا توجد إنكليزية بعد الآن، لا يوجد بيبي بعد الآن. ربما سيقتلونني لأنني قابلت رجلاً أبيض، ربما كنتُ سأفقد رأسي لمجرد أنني عانقته. لحسن الحظ لم يرونا أحد، لذلك دمستُ الخمسين دولاراً تحت حزامي وتوجهتُ مباشرة إلى مخزن الهواتف النقالة.

قبل وصولي إلى المخزن ببرهة قصيرة، انفجرت قنبلة أمامه. ولما التحيتُ كي أحتمي، انفجرت قنبلة أخرى في موضع قريب. كان الانتحاريون المزودون بالمتفجرات يضربون القوات الأنثيوبية في ذلك الطريق تحديداً. جثث الجنود القتلى تُسجدة في الشوارع. كانت طلقات البنادق تنبجس في كلّ الأنحاء، وكنتُ أركض. جنّ الليل، وكانت نار

جهنم تمطر على المدينة كلها. لم أر سماء موقاديشو تتحول حمراء هكذا من قبل. كان الأثيوبيون يستخدمون منصات إطلاق الصواريخ المثبتة على الشاحنات «BM-21» روسية الصنع ضد «الشباب». الاسم الروسي لهذا السلاح هو «المراد»، وهذا الاسم يعني «الوابل»، وكان وابلًا من الموت قادمًا من السماء. كان يوسعهم أن يطلقوها من زاوية واحدة في المدينة، ويمر الصاروخ فوق رؤوسنا بصوت صغير حاد في الوقت الذي يضرب فيه الهدف، يبدو كما لو أن الأرض كلها قد انشطرت نصفين. كنا نسمي هذا الشيء «المخيف» «موريامي»، أي بمعنى، «الصارف».

لما توقف القصف بالطائرات في اليوم التالي، عادت الحياة إلى الشوارع. دخلت في مقهى إنترنت قريب وبعثت إيميل إلى پول: «عزيزي پول، أتمنى أن تكون على ما يرام. خرجتُ تَوًّا من الاختباء بسبب قصف الطائرات والقصف المدفعي. أنا في أمان وسوف أشتري هاتفًا نقالاً في وقت قريب جداً كي يكون بم استطاعنا أن نتواصل أحياناً مع الآخر. أطيب التمنيات. عهدي.»

رد پول على إيميلي بعد دقيقة: «مرحباً، عهدي. صديقي، أنت رجل في منتهى الشجاعة. أنا سعيد بلقائك. دعنا نواصل حوارنا. في غضون ذلك، دُمّ سالماً. ب.»

أصبح الحال أصعب فأصعب. في هذه الأثناء وقع مواطنو موقاديشو بين فتح «الشباب» والقوات الحكومية. لما كانت أُمِّي تسير نحو كشك السوق، متحاشية طلقات البنادق طوال الطريق المؤدي إلى هناك، مارة عبر نقطة تفتيش حكومية حيث مرّق الجنود حجابها وأجبروها على أن تُظهر وجهها. وبعدها، في داخل السوق، هذّدها «الشباب» لأنها تجرأت وكشفت وجهها، مطالبين إياها بأن تغطيه وكانت تُعطهم أيضاً النقود بوصفها «ضرائب». وبعدها تسرق القوات الحكومية طعامها.

أنا وأُمِّي مضينا إلى كشكها في الصباح الذي أعقب الهجوم الكبير

كي نكتشف أن محل عملها الصغير قد أُختزل إلى كدس مُدّخين من أكياس الحبوب التي احترقت وتحولت رماداً. ربما ضربه أحد الصواريخ الأثيوبية خلال الليل. قبل أن يكون باستطاعتنا أن نغادر، اندلعت المعركة من جديد، كانت نار القناصين «الشباب» تعقبها هاونات الدبابات التي تصم الآذان ومن ثم صواريخ الـ «BM-21» المروّعة. كان صغيرها يجعلنا نبطح على الأرض المرتجة.

أشارت أمي إلى الجامع القريب وصاحت بأنه يتعين علينا أن ندخله. لم تكنُ تعتقد أنه لن يكون أكثر أمناً، باستثناء أننا إذا ما متنا هناك فسوف نكون بحوزتنا تذكرة الجنة. ما يقرب من مئة شخص كانوا قد انحشروا في داخل الحرم المشيد من الحجر، يقرؤون القرآن، يكون ويرددون أسماء أفراد عائلاتهم المفقودين. بعض الأشخاص كان لديهم هواتف نقالة وكانوا يتصلون بأقاربهم. بالطبع الجوامع لها مآذن، وهي مواقع جيدة للقناصين، وفي الحال شرع جنود «الشباب» يتسلقون الأبراج ويطلقون النار من التوافذ العالية على الأثيوبيين المتقدمين. عندما وجدت الدبابات الأجنبية طريقها إلى الجامع - الضربة الأولى دمرت إحدى المآذن، وجعلت الحجر وكسر الحجارة تنهمر إلى الأسفل. قبل مجيء الجولة الثانية، أنا وأمي قررنا ألا نموت في الجامع ونخرجنا منه مسرعين، كل واحد منا يمسك بيد الآخر. ركضنا وركضنا، غير متيقنين من الجهة التي كنا نمضي إليها، إلا أننا تبعنا حشداً يتجه جنوباً نحو «الشارع الثلاثين».

كانت الصواريخ التي تطلقها الدبابات تسقط حولنا من جميع الجهات. صفرت رصاصات البنادق. في إحدى المرات نظرتُ خلفي، فرأيتُ أن المبنى الذي مررنا به توأ قد سوي بالأرض. الدبابات، على غرار ملاك الموت، كانت تحاول اللحاق بنا، لذلك ركضنا أسرع. إنما أمامنا كان هنالك مقاتلو «الشباب» الذين كانوا مستعدين تماماً لأن يفجروا أنفسهم من أجل موتهم المجيد لألبن حول أجسامهم القنابل الانتحارية، شاقين

طريقهم بطريقة قتالية صوب الدبابات. مع الأثيوبيين المتقدمين الذين كان يوقفهم المقاتلون الانتحاريون، كان لدينا نافذة ضيقة للهروب. في الختام وصلنا إلى «شارع ثلاثين»، الذي يبعد أميالاً عن سوق «بكارا». والآن ماذا؟ لم يكن بمستطاعنا الذهاب إلى المنزل. كل الطرق المؤدية إلى هناك كانت مغلقة بسبب القصف المدفعي.

«هذا الطريق»، قلت، مُشيراً إلى طريق من دون انفجارات. إنما قبل أن نخطو خطوات قلائل، طائرة هليكوبتر مقاتلة أثيوبية انقضت مثل زائر غريب من الفضاء الخارجي وفتحت النار. إلا أنه فيما كانت الهليكوبتر تعمل جانبياً كي تقوم بجولة ثانية من إطلاق النار، أطلق صاروخ من يلزوكا عائداً لـ «الشباب» وأسقطها في كرة من النار. كان الناس الهاربون كلهم يهتفون قائلين، «الله أكبر!» «الشباب» أسقطوا طائرة هليكوبتر! كما لو أن طائرة «بلاك هاونك» كانت تسقط من جديد.

اجترينا بسرعة زقاقاً ضيقاً يؤدي خارجاً إلى شارع ما ومن هناك إلى فضاء مفتوح من التلال الصغيرة وكثبان رملية. كنا نبعد خمسة أميال عن المدينة. ورامنا كانت القذائف ما تزال تسقط؛ أمامنا كانت هنالك فقط بادية واسعة تتخللها أشجار شائكة. انضم إلينا أشخاص آخرون، مصدومون وخائفون، وكنا جميعاً نمشي فقط بعيداً عن المدينة والقتال. بعد ميل واحد وصلنا إلى مبنى في وسط الأجمة بدا مشغولاً. ولما دنونا منه، أصبح بوسعي أن أرى ما بداخله، حيث كان هناك مقاتلو «الشباب» يصبون «البوليبيرات» في أنابيب؛ فيما كان آخرون يربطون فتائل التفجير بالأسلاك. كان ذلك معملاً لصنع القنابل في الصحراء. لحسن الحظ، كان المقاتلون مشغولين جداً في عملهم ولهذا لم يبالوا بنا أثناءنا مسيرنا. رحنا نتوغل الآن في أرض «الشباب». أنا وأمي انضمنا إلى مئات من النازحين الآخرين ممن كانوا يبنون الأكواخ من العبدان والورق المقوى. لا بد أنها كانت مقبرة قديمة لأنني صادفتُ هناك عظاماً وجمجمة فيما كنتُ أبدأ

عملي في بناء كوخ. كنتُ أستخدم ما أستطيع أن أجده من النفايات والعبدان كي أصنع ملاذاً قلماً يكون كبيراً بنحو كافٍ كي يحمي أمي من التراب المتطاير. نامت أمي هناك في تلك الليلة، أما أنا فنمتُ خارج الكوخ مباشرة. بحلول اليوم التالي هذا المعسكر ازدحم بالأكواخ التي كانت بمنزلة بدائل مؤقتة. وكشف شروق الشمس وجوه مئات الأفراد ممن كانوا يسرون طوال ساعات الليل، وجوه مُتعبة وأفواه جائعة. وجدتُ أمي طفلةً تبكي، ما من أبوين بجوارها، عمرها عام واحد تقريباً وكانت هزيلة تماماً بسبب الجوع. أخذت أمي هذه الطفلة وصرخت مطالبةً بحضور أمها. في النهاية ظهرت أمها للعيان، بنحو لا يُصدّق تقريباً، كانت أمها هي شقيقتي نعمة. الطفلة هي ابنة شقيقتي، اسمها منيرة. آخر مرة رأيتُ فيها منيرة كانت قبل بضعة أسابيع وكان لديها وجه باسم اليوم هي لم تعد سوى طفلة تذكرنا بشقيقتنا سعدية، التي توفيت بسبب نقص التغذية. خلال الليل بنتُ نعمة كوخها بقرب كوخ أمي، ببعض المصادفة. وهكذا كان هذا اجتماع شمل أسرتنا. زوج نعمة، عمر، لا يُعرف أين هو الآن. كان قد اختفى في المدينة، قد يكون ميتاً أو حياً، لم نكنُ نعرف على وجه الدقة. في غضون يوم آخر سُفِلتُ كلُّ بوصة من القضاء المفتوح في المخيم.

كان المخيم الجديد يُسمى «إيلاشا»، وهذه الكلمة تعني «الماء». خلال أيام الحكومة الصومالية هذا المكان كانت فيه أباب تمدّ موقاديشو كلها بالماء. إبان الحرب الأهلية سُرق كلُّ شيء وطُمرت الأباب. الآن لم يعد هنالك سوى الاسم كي يعذب الناس العطشانيين.

في غضون أسبوع تفجرت الأنشطة في المعسكر. كل ما كان موجوداً في سوق «بَكْلا» انتقل إلى «إيلاشا». وكالات تحويل النقود، شركات الهاتف، الجوامع، كلُّ شيء. شُيّد مَكَالين سياسي كوخاً لمدرسته الجديدة. ضحى وأولادها هم أيضاً انتقلوا للإقامة في هذا المكان. هذا المكان أمسى مدينتها. أصدقاء جُدد، جيران جُدد، معلمو قرآن جُدد، إدارة

جديدة، «حركة الشباب المجاهدين». كانت هنالك زيجات تجري وفق الشريعة، حيث تمضي فتيات ذوات جمال باهر إلى مقاتلي «الشباب». النساء ينبغي لهن أن يلبسن الحجاب ويسرن وجوههن، الرجال يتعين عليهم أن يُغطّلوا لحاهم. كان مقاتلو «الشباب» يدعون الرجال كافة كي يجتمعوا في الجامع خمس مرات باليوم. ذات يوم، أحضرتُ جثث القوات الحكومية إلى «إيلاشا». قيل لنا أن نبصق عليها وتركلها بأقدامنا. أما شهداء «الشباب» فلم نرهم أبداً. كانوا يُدفنون على جناح السرعة.

قيل لنا إن «المجاهدين» يحتاجون إلى مزيد من الرجال كي يقاتلوا في صفوفهم. كان قلبي في حنجرتي. مرات عدّة كنتُ قادراً على تجنب التطوّع من خلال الهرب خلسةً وعلى أن أضيق نفسي في شوارع موقاديشو. هنا خارجاً في المعسكر لم يكنْ هناك مكان كي أختبئ فيه، وسرعان ما أمروني بأن أحضر من أجل التدريب.



تجمعنا تحت شجرة، نحن المتطوعون الجُدد. قيل لنا أن نسمي الحكومة «المرتدين». «رئيس الجمهورية، رئيس الوزراء، الوزراء، وكل الأفراد المنحرفين فيها كلّهم غير مسلمين، أعداء الله»، قال مراقق صغير السن كان لا يزال يمتلك صوت ووجه غلام. «هؤلاء يجب قتلهم بالطريقة نفسها التي يجب علينا أن نقتل فيها الأمريكيين والأوروبيين».

رجل يرتدي صدرة عسكرية مع ثوب «كُنزرو» طويل وذو لحية بدأ بتدريبنا — كيف ترتدي صدرة ناسفة، كيف تقترب من العدو، وبعدها كيف تُطلق النار على الناس. «اطلقوا النار على القلب، اطلقوا النار على الرأس»، قال لنا. رجلٌ آخر وقف منتصب القامة ونحّدت عن كيفية اغتياله موظفاً حكومياً قبل بضعة أيام خلت. «دنوتُ منه؛ لم أشعر بالخوف، لأنهم كفار في بلادنا. نحن لا نخشى قتلهم»، قال لنا. «فقط افتحوا النار عليهم! تأكدوا من أنهم ماتوا فعلاً!» شعرتُ بالغثيان.

في تلك الليلة همستُ في أذن أمي. «ماما، يلزمني العودة إلى موقاديشو. سأغادر الآن». في الأكواخ الورقية في «إيلاشا»، كان يوسع مقائلي «الشباب» أن يسمعوا حتى الهمسات، ولهذا لم تقلُ أمي شيئاً بل اكتفتُ بأن مررتُ يديها برفق فوق يديّ. مشيتُ تحت جناح الظلام إلى أن وصلتُ تلال «كاحدا» وقبالة البادية المفتوحة، ساعياً إلى تحاشي الممرات¹ التي زرع فيها «الشباب» الألغام الأرضية تحسباً لهجوم مُحتمل. في الساحة الثالثة فجراً رجعتُ إلى منطقتنا السكنية. لم يكنْ هنالك أحد في الجوار، الأصوات الوحيدة هي أصوات القناصين الذين كانوا يطلقون النار بشكل عشوائي. دلفتُ ببطء إلى داخل ما تبقى من منزلنا.

بدا منزلنا جيداً على الرغم من الغياب التام للسقف، الأبواب، النوافذ. كلُّ شيء آخر شرق. وجدتُ مجرقة، دخلتُ غرفة نومي القديمة، وحفرتُ حفرة بعمق ست أقدام بحيث يمكنني القفز فيها ليلاً حين يبدأ القصف المدفعي. هناك وفي كلِّ ليلة، كالقبر، كنتُ أدندن بالأغاني وأغمض عيني كي أجعل نفسي أنسى ما يتصل بالصواريخ المصفّرة والانفجارات ذات الأصوات المكتومة. كنتُ أندعش دوماً لِمَا أيقن صياحاً واكتشف أني لا أزال حياً. في الخارج، صباح كلِّ يوم، كان هنالك مزيد من الدمار ومن الجثث، الدماء وأخلفة الطلقات النارية. إلا أن الأشخاص الذين على غراري مَن مكنوا في منازلهم خرجوا أيضاً، وباتوا يتحدثون من غير كلفة، وراحوا يصلّون معاً. سرّتُ حول الحيّ السكني وبحثتُ أعين الناس. كلُّ الوجوه التي عرفتها توارت عن الأنظار. فاليس اختفت، فائزة وعائلتها غادروا إلى أثيوبيا، لم يودّع أحداً الآخر. كنتُ أتساءل ما إذا كنتُ سأتمكن من رؤيتها ثانية.

أصدر «الشباب» أمراً جديداً: «السكان المقيمون في المناطق

1 - الممرات: وردت في النص الإنكليزي الأصل كلمة trails التي تعني: «ممرات في طرق وعرة أو بقعة غير مأهولة» - م.

الحكومية يتعين عليهم أن يغادروها فوراً، وإلا سوف يُعدّون أعداء ويُقتلون». أصدرت الحكومة أمراً متافضاً بعد مضي ساعات: «أنتِ مدني ينتقل إلى مناطق [الشباب] يُعدّ عضواً في [الشباب]».

وقعتُ في الفخ بكل ما في هذه الكلمة من معنى. مرّت أيام من دون أن أرى أمي، لكنني سمعتُ أن الناس في «إيليشا» كانوا يموتون من الجوع والعطش. وبعدها حلّت أيام قلائل من الهدوء. لا بد أن المقاتلين هذهم الإعياء أو تغدّت ذخيرتهم، من يعرف؟ خرجتُ إلى ساحة الـ «KM4» ورأيتُ أن محال تجارية قليلة قد فُتحت من جديد. بجوار «مطعم فتحي» كان هنالك مخزن للهواتف يُسمى «العُمرَة للإلكترونيات». دخلتُ وطلبتُ هاتفاً نقالاً رخيصاً مزوداً برفاقة ذاكرة. اقترح عليّ الرجل أن أشتري جهاز موبايل «نوكيا 3110 كلاسيك» مستعملاً، بسعر خمسة وثلاثين دولاراً. كان الموبايل مزوداً بخدمة «سيم كارد»¹ تجعلني قادراً على أن أبعث رسائل إلكترونية. بعثت رسالتي الأولى في تلك الليلة إلى بول، وأعطيته رقم هاتفي الجوال. كان قد مرّ شهر على لقائنا. اتصل بي هاتفياً بعد ساعة. تحدّثنا إلى أن بدأ القصف المدفعي وتعين عليّ أن أقفّر إلى داخل حفرتي. «عليّ أن أذهب، بول. وداعاً».

وبعدها فكرتُ كيف يمكنني تحميل الأغاني وحتى صور النساء الحسناوات في جهاز الموبايل الصغير خاصتي. وما كاد يمر وقتٌ طويل حتى صرتُ أصغي إلى جينيفر لوبيز، جا رول، مايكل جاكسون، وفيفتي سنت فيما كنتُ مختبئاً في الحفرة. جعلتني الموسيقى أنسى ما يتعلق بالقصف المدفعي وساعدتني على الاستسلام للنوم. صباحاً تركتُ رفاقة الذاكرة مع الأغاني والصور كلّها في الحفرة، مدفونة تحت التراب. إذا ما قبض عليّ «الشباب» وبخوزتي تلك الذاكرة، فسوف يقتلونني حتماً.

1 - سيم كارد SIM card: وحدة تعريف المشترك، بالإنكليزية Subscriber Identity Module - م.

قلة من «منظمات المجتمع المدني»، الـ «NGOs»، بدأت تعمل في القواعد الحكومية في موقاديشو، هذه المنظمات حصلت على تبرعات من وكالات «الأمم المتحدة» التي مقرها كينيا. ولهذا السبب أصبح عدد أكبر من الصوماليين مهتمين بتعلّم الإنكليزية كي يكون باستطاعتهم العمل مع الكوادر المساعدة. وفي أحد الأيام دُعيتُ كي أُعلّم الإنكليزية في منزل بالحيّ السكتي، أُعلّم امرأة صومالية وأولادها. علّمتهم الدروس الأساسية في كيفية التواصل مع الأجانب. على لوح أسود وبطباشير بيض كتبتُ الدروس:

عائشة: مرحباً بك في موقاديشو!

بول: شكراً. المكان هنا جميل، سماء زرقاء، الجو مشمس، ودافئ.

عائشة: نعم، إنه كذلك فعلاً. ولدينا أيضاً «محيط هندي» دافئ.

بول: جيد، فهمت.

عائشة: حسناً، بول، سأحدث معك ثانية.

بول: سأحدث معك ثانية، عائشة.

وكتبتُ درساً آخر:

عائشة: من أيّ بلد أنت، بول؟

بول: عائشة، أنا من كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأمريكية.

عائشة: كيف هي كاليفورنيا؟

بول: دافئة، مشمس، حلوة مثل موقاديشو. إلا أنها ذات بنايات عالية

وطرقات سريعة.

عائشة: حسناً، بول، أراك لاحقاً.

بول: أراك لاحقاً، عائشة.

وما إن كسبتُ مالاً من التعليم، حتى قررتُ أنه ربما سيكون من الأمان بما يكفي كي أجدد دروسي الإنكليزية القديمة — هذه المرة بامتداد شارع الـ «K4»، الذي يعج الآن بالمهن الأخرى. وجدتُ فضاءً خالياً وانتقلتُ إليه. في مكانٍ ما بحثت عن لوح خشبي خفيف صيفه شخص ما باللون الأسود، وعن قطعة طباشير. كتبتُ أول درس على اللوح الأسود، آملاً بأن يظهر بعض الطلاب. وكى أبقي في أمان، قررتُ أن تكون الدروس عن القرآن بالإنكليزية.

أ: هل يمكنكُ أن تخبرني بالأركان الخمسة للإسلام؟

ب: نعم. الأركان هي، إقامة الصلاة، الصوم، الحج، الإيمان بالله ورسوله، إيتاء الزكاة.

أ: هل سبق لك أن ذهبتُ إلى الحج؟

ب: لا. لكنني آمل أن أذهب في يوم ما إن شاء الله.

وبعدها انتظرت. بعد انقضاء أيام قليلة، ظهر للعيان بعض الطلاب. والطالب المثالي منهم هو أبشير، وهو غلام مراحم مقيم في «فوري» بالقرب من منزل فاترة القديم. كان يظهر كل يوم مع قلم رصاص صغير ودفتر ملاحظات، وكان يدون فيه كل ما هو مكتوب على اللوح الأسود. عند الدرس الثاني حفظ عن ظهر قلب الحوار كله. لم أكنُ أعرف شيئاً عنه أو عن أسرته، الشيء الوحيد الذي عرفته هو أنه كان يؤمن بمستقبل الصومال، وكان يعتقد أن الإنكليزية سوف تساعد في يوم ما على أن يحصل على مهنة ما. وعلى النقيض مني، هو والطلاب الآخرون لم يكن لهم ولع بالثقافة الأمريكية، ولا ولع بمغادرة البلاد. لم أشاطرهم تفاؤلهم بمستقبل الصومال، إلا أنني كنتُ ما أزال سعيداً لأنني أعلمهم الإنكليزية. أحبوا الدروس المتعلقة بالإسلام، إلا أنني وضعتُ درساً آخر:

أ: مَنْ خلقتك.

ب: الله خلقني.

أ: لماذا خلقتك الله؟

ب: الله خلقني كي «warship him».

كنتُ أعني «أعبده worship»، إلا أنَّ الكلمتين متقاربتان.

في اليوم التالي فيما كنتُ أهيئُ الدرس التالي، انفجرت قنبلة في وسط الشارع تماماً. كان أبشير في طريقه إلى الصف؛ قتله الانفجار فوراً. قررتُ أنه شيء خطير جداً أن أقيم مدرسة في مكان عام، ومنذ ذلك اليوم لم أهدُ إلى التعليم هناك. بدلاً من ذلك، كنتُ أمضي من منزل إلى منزل، أعلمُ الناس المقيمين في المنطقة الحكومية والذين يستطيعهم أن يدفعوا لي الأجور. كنتُ أدر بعض المال.

إلا أنه في موقاديشو حضورك لن يمر من دون ملاحظة. ذات صباح رنَّ هاتفي الجوال. عرضت شاشة الهاتف هوية المتصل، «من دون رقم»، أجبت، «مرحباً؟».

«هل هذا هو الشخص الذي يسمونه [عبدي الأمريكي]؟» قال صوت رجل.

«نعم»، قلت، وأنا أفكر بأنه لا بد أن يكون شخصاً ما أعرفه. «مَنْ المتصل؟».

«يلزمك أن تتخلَّى عن هذا اللقب الشرير. نحن نعرف مَنْ نكون؟ نحن نعرف المكان الذي تسكن فيه».

«معتذرة. حسناً، لكن هذا لم يعد لقي عليّ كلَّ حال. إنه اسم قديم». «أنت سعيد الحظ لأنني اتصلتُ بك. لقد حذرتُك». وبعد ما أغلق خط الاتصال.

رسائل من موقاديشو

بحلول العام 2008، يكون قد مضى على حرب الصومال سبعة عشر عاماً، إلا أن تسمية هذا الجحيم الحي «حرباً»، هذه التسمية مؤذية جداً. إنها في الواقع محض إرهاب مُلَطَّخ بالدم لا نهاية له على المدنيين الجياع الذين لم يأبهوا بمسألة أيّ طرف هو المتصر. قُتل مليون إنسان، وأُجبر مليون ونصف المليون على مغادرة منازلهم. نصف مليون أُخلوا المدينة الآن متجهين صوب المعسكر الواقع في «إيلاشا»، حيث كانت تقيم هناك أمي وشقيقتي. إلا أنّ بعض السكان مكثوا، مثلي، ونوعٌ من حياة كان لا يزال مستمراً في الجزء الداخلي من المدينة على الرغم من المذبحة المستمرة من دون انقطاع. كانت هنالك مقاهي إنترنت، مخازن، مطاعم، وحتى كليات. دفعتُ خمسة دولارات وانتظمتُ في «المعهد الصومالي للإدارة والتدبير»، الذي يعد بتعليم الرياضيات، اللغة الإنكليزية، برامج الحاسبات، اللغة العربية، قانون الشريعة، التربية الإسلامية، الإدارة، والتدبير. طلبوا مني أن أخضع لاختبار تقييم في الإنكليزية والإجابة عن الأسئلة كلّها، وكان هذا شيئاً سهلاً بالنسبة لي، على خلاف الطلاب الآخرين الذين إما فشلوا أو بالكاد اجتازوا الاختبار. بدأتُ بصف مع خمسة وعشرين طالباً، يتعلّمون الإنكليزية والحاسوب. كان معلّمنا، السيد ويوي، قد دُهل من الجودة التي أجبتُ بها عن الأسئلة الإنكليزية.

وفي الحال أسند إليّ مسؤولية درس الإنكليزية في الأيام التي يتأخر فيها بسبب إغلاق الشوارع بالمتاريس. كنتُ أقف أمام الصف وأكرر الدروس بلكتي الأمريكية. كان الطلاب الآخرون يسألونني كيف تعلّمتُ هذه الإنكليزية. لم يكنْ بوسعي أن أقول لهم إنني تعلمتها من السينما، لأنه من المحتمل أن يكون أحد الطلاب متنبهاً لحركة «الشباب»، لذلك أجبتهم بأنني تعلمتها من الكتب المنتهجة.

كانت الدروس محض تسلية على الدوام، إلا أن الوصول إلى الكلية لم يكن كذلك. ذات يوم كنتُ في حافلة خلف حافلة أخرى مرّت فوق قبلة على الرصيف، لقي معظم ركبائها مصرعهم، بعضهم طلاب جامعة كنت أعرفهم جيداً جداً. وفي يوم آخر ضرب صاروخ الكلية نفسها، وتسبب في مصرع الطلاب والمدرسين. ما من حادثة من هذه الحوادث أغلق الكلية أو منعنا من الذهاب إليها. عندما كان القصف المدفعي يؤدي إلى إلغاء خدمة الحافلات كلّها، كان يتعين عليّ أن أمشي ستة أميال بغية الوصول إلى المدرسة. كان هنالك على الدوام جنديان أو ثلاثة ينتمون إلى حركة «الشباب» عند مدخل الكلية، يتحصنون كتبنا، شعرنا، وملابسنا. وفي إحدى المرات ضربوا بالسوط فتاة لأنها لبست تنورة. كانت الشبايك محطمة والأبواب مفقودة، مع أن ذلك كان مصادفة سعيدة يوماً ما حين دخلت القوات الأنثوية الكلية بعد أن طردوا «الشباب» من المنطقة. كان باستطاعتنا جميعاً الهرب من التوالد المفتوحة.

في ما بعد ظهر أحد الأيام مضيتُ إلى مقهى الإنترنت ورأيت رسالة إلكترونية من پول:

أبي رأسك مخفياً، عيدي. [الصومال] تحصل على قدر كبير من الأنباء العالمية. بالمناسبة، كم يبلغ عمرك الآن؟ أريد بأن أكتب قطعة صغيرة عن كيفية تمكنتك أنت وآخرين من إرسال إيميلات أبناء — لن أستخدم اسمك الكامل، إذا

كانت هذه قضية أمنية، إلا أنني أريد أن يعرف القراء عمرك.
هل ما زلت تُعَلِّم؟

لم يمضِ وقتٌ طویل على ذلك، حتى كتب لي بول ثانية مع رابط للقصّة التي نشرها في جريدة «فه أثلنتك». كانت تحت عنوان «الحرب مرمية وبغيضة»، وهذا العنوان هو اقتباس من إحدى الرسائل الإلكترونية التي بعثتها له. بعد مضي أسبوع أو نحو ذلك، في الساعة الخامسة تقريباً، قيل غروب الشمس، كنتُ ذاهباً إلى المنزل لمارن هانفي مع رقم غريب. أجبت على الاتصال الهاتفي مع أنني كنتُ أرعد خوفاً، معتقداً أن المتصل هو أحد أعضاء «الشباب» ثانية. لعلهم اكتشفوا ما يتعلق باتصالني بيول! ربما يكون هذا اتصال الموت. كان فؤادي يخفق بسرعة شديدة ولهذا لم أقل شيئاً. انتظرتُ الشخص في الطرف الثاني أن يقول إنه سوف يقتلني الآن.
«مرحباً، هل أنت عيدي؟».

كان صوت أنثوي، يانكليزية أمريكية. بدتُ كأنها ممثلة أمريكية.
كان فؤادي ما يزال يخفق، إنما الآن من الفرح. ربما استخدم بول ارتباطاته مع الآخرين! ربما هذه المرأة تتكلم من حكومة «الولايات المتحدة» التي تريد أن تُخرجني من الصومال!

«نعم، هذا عيدي». التحدّث بالإنكليزية في هاتف خلوي جهازاً يمكن أن يعني الموت، ولذلك كنتُ أنظر من حولي تحسباً لوجود شخص ما يراقبني. قالت المرأة في الطرف الآخر من الخط إنها كوري برينسل، وهي مخرجة برنامج إذاعي أمريكي يُدعى «The Story»، كان فيه دك غوردون المضيف^(١). كانوا يستأجرون أفراداً محليين من مواقع الأحداث المهمة في أمكنة حول العالم ويطلبون منهم أن يتحدثوا عن حياتهم للمستمعين

١ - المقصود هنا أن دك غوردون، مستضيف أشخاصاً آخرين ويحاورهم في مسائل أو قضايا معينة - م.

الأمريكيين. كانت كوري قد قرأت مقالة بول في «ذه أنتلستك» وتريد أن تناقش معي مشروع تسجيل يوميات.

«هل يسعدك أن تتصل بي ثانية في غضون خمس عشرة دقيقة؟» قلت لها. «أنا أمشي في الشارع الآن. لا يسعني أن أتكلّم».

أسرعتُ إلى أن المنزل قبل أن تتصل بي كوري من جديد. تحدثنا طوال عشرين دقيقة إلى أن انتهت بطارية الهاتف النقال. حكيتُ لها عن خيبة أمني في المدينة، كيف كنتُ أرغب بأن أعيش حياة مثل حياة أيّ إنسان آخر في العالم. كيف كنتُ أسعى لأن أنجز شيئاً ما من خلال الالتحاق بالكلية. «لا مستقبل لي هنا»، قلت لها. «من الجائز أن أموت في أيّ وقت؟ يمكن أن يكون هذا غداً أو هذا المساء، من يعرف؟ كلّ الأشياء التي كنتُ أستمع بها أخفوها مني. أنا أعيش في عالم معزول عن بقية العالم. أحلم بالذهاب إلى أمريكا. أعرف أنني أنتمي إلى ذلك البلد».

قبل انتهاء بطاريتي، قالت لي، «نحن نحب أن نشاطر صوتك مع مستمعينا. من فضلك دعني أعرفه، وابقِ آمناً».

بطبيعة الحال فيما كانت كوري على الهاتف النقال، كان جميع الأشخاص في الاستوديو محاصتها يُنصتون. قبل لي تالياً إنهم كانوا مندهشين تماماً من الطريقة التي كنتُ أتكلّم بها — ليس إتكلّمتي فحسب، بل تقني بنفسي. أعرف أنه ليس ثمة أناس كثيرون في موقاديشو خاطروا بأنفسهم من خلال اللقاء ببول أو تلقوا اتصالاً هاتفياً من أمريكا فيما هم سائرون في الشارع. إلا أنني فعلتُ كلّ هذا لسببين. أولاً، لا شيء لدي كي أفقده في الصومال؛ وسوف أقتل بأيّ حال من الأحوال. ثانياً، كنتُ أريد أن أكسر الحاجز وأن أربط نفسي مع العالم. كنتُ أريد أن أروي قصتي.

إلا أن جزءاً مني قال لا. ماذا لو حدث أن أنصت «الشباب» إلى الإذاعة الأمريكية أو طالعوا الموقع الإلكتروني؟ إنهم يعرفونني: أنا الشخص الوحيد الذي يسمونه «الأمريكي». من السهل أن يجدوني ويقطعوا رأسي.

الجزء الآخر مني قال سأكون مجنوناً إن لم أحاول. هذه في نهاية الأمر
فرصتي كي أكون ما أريد أن أكون! سيكون صوني معروفاً في أمريكا،
مثلني مثل نجوم ونجمات هوليوود!
كتبْتُ رسالة إلكترونية إلى حسن. ردَّ علي رسالتي قائلاً:

افعلها. افعلها. هذه فرصة. لا تضيّعها. «الشباب لا
يفرّون الموقع الإلكتروني لـ «The Story». جمهورك
سيكون في أمريكا وليس في الصومال. هذه ليست إذاعة
الـ «BBC». لذلك قل نعم.

وهكذا قلت نعم. لم أخبر أُمِّي، فربما تُصاب بنوبة قلبية. أمريكا
في هذه الآونة هي أكثر بلد مكروه في الصومال. أمريكا رعت القوات
الاثيوبية في الصومال وتزعمت الغارات الجوية التي حصدتُ أرواح
أناس كثيرين. أمريكا تحارب الإسلام في جميع أرجاء الشرق الأوسط.
في السكون الأسود لليلة من ليالي تشرين الثاني/نوفمبر 2009،
مشيتُ ببطء ست أقدام تحت الأرض في حجرة نومي في حفرة الاختباء،
ضغطتُ زر المسجل في هاتفي الجوال، وبدأتُ أتكلّم مع أمريكا:

الوقت الآن منتصف الليل. المكان مظلم كالقار.
بمستطاعي أن أسمع طلقات نارية وهي تنثر. نصف مدفعي
كثيف والقنابل تسقط على الأرض. قد تكون هذه آخر ليلة
لي على الأرض. أو ربما أظلّ حياً.

تحدثتُ عن أُمِّي، شقيقتي، فائزَة، والأفلام السينمائية — عن كلِّ
الأشياء الجيدة التي وقعتْ لي قبلاً.

أنا معلم مدرسة في المدينة الخطيرة جداً، موقاديشو. قبل
أن تصبح الأشياء سيئة جداً مثلما هي عليه الآن، كان لدينا

على الأقل شيء ما يُسلينا. كل ليلة كنا نذهب إلى السينما ونعود للمنزل في ساعة متأخرة من الليل. تعودتُ أن أشاهد أفلام هوليوود الأمريكية. لم يكن باستطاعتي أن أفوت فيلماً واحداً. كنتُ مدعماً على السينما. معظم أصدقائي وحببتي يسموني «الأمريكي». إنه اسم أعطوني إياه بعد أن شاهدوني كيف أتكلّم الإنكليزية الأمريكية. كنتُ أحب دوماً أن أبقي شعري طويلاً ومسايراً للموضة، وكنتُ أحب دوماً أن ارتدي ثياباً أثيقة. وقد علّمتُ نفسي أن أمشي، أن أحمل الأشياء الثقيلة كنوع من التمرين، وأن أتحدّث بالإنكليزية على غرار النجوم الخالين من الهموم الذين شاهدتهم في أفلام هوليوود.

كل ليلة أسجل يوميّاتي. في مفهّي الإنترنت زرتُ موقع «The Story» على الشبكة العنكبوتية وسمعتُ تقاريري؛ كانت لديهم صورة لي، أخذها لي صديقي حسين بهاتفه الجوال، من الخلف؛ كنا اتفقنا ألا يُظهروا وجهي. كانت قصصي تحمل عنوان «رسائل من موقاديشو» وقد وُضع لها وك غوردون، مُضيف البرنامج، مقدمة. كان يسميني «مُراسلتنا»، و«رجلنا في موقاديشو».

كان المخرجون قد أحبوا قصصي، إلا أن نوع البث الإذاعي كان سيئاً بسبب هاتفي النقال الرخيص، وقد استغرق الأمر وقتاً طويلاً كي يحصلوا التسجيلات. لذلك ربطني المخرجون بمراسل إذاعة الـ «BBC» في موقاديشو الذي كان صومالياً هو الآخر، وكان قد عرض نفسه هو أيضاً إلى خطر شديد من خلال بثه الأخبار والتقارير إلى العالم الخارجي. كان لديه حاسوب، وكان جهازه أفضل بكثير فيما يتعلق بالتسجيل. وهكذا كل أسبوع أجمع في ذهني جميع الوقائع التي جرت من حولي، أسير صوب مترلي، وأروي قصتي.



بعد أن أرسلت تقريراً سمعته «أن تبقى حياً في موغاديشو»، فاضت الرسائل الإلكترونية على موقع «The Story» على الإنترنت. إحدى هذه الرسائل جاءت من طبيب في «كلية دارموث» اسمه شارون مكدونيل. شارون الوحيد الذي أعرفه هو أرييل شارون من إسرائيل، لذلك افترضت أنه رجل. حملت الرسالة الإلكترونية سطر الموضوع «رائع، متفن ومؤلم». كتب شارون.

عملتُ في أفغانستان وأجزاء أخرى من الشرق الأوسط. كل عنصر من عناصر القصة أعاده بك غوردون إلى الحياة والطريقة التي يروي بها عهدي قصته بنحو أقل مما تقتضيه الحقيقة.

كتبتُ له رسالة جوابية:

مرحباً شارون،

أنا عهدي من الصومال. أرسلتُ إليّ من جديد رسالتك الإلكترونية التي أرسلتها إلى موقع «The Story» مع بك غوردون. أود أن أشكرك على شعورك الرقيق وتقديرك. هكذا كانت موغاديشو وأسوأ من ذلك على مدى عشرين عاماً، من دون حكومة مركزية. لم أرَ السلام في حياتي. خيبتُ أسوأ الظروف خلال سنوات حياتي. «الشباب» والحكومة يتقاتلون منذ ثلاثة أيام، وإطلاق النار والقصف المدفعي متواصلان من دون انقطاع. لم أذهب لتعليم طلابي أثناء هذه الأيام الثلاثة. أنا أكسب رزقي من خلال تعليم الإنكليزية. أود أن أهرب لكن ما من سبيل لفعل ذلك من دون تقود. أمي تقيم في المعسكرات.

وبعدها تلقيت رسالة إلكترونية من شارون استغرقت أسبوعاً كاملاً

كي أستوعبها. الأعجوبة الأولى هي الكلمات «بوصفي والدة الابن المدعو...» إذاً شارون هذا امرأة! الأعجوبة الثانية حين كتبت لي، «هل توجد طريقة ما كي أساعدك؟».

أحسستُ أن حلمي الأمريكي بدأ ينشق ويتفتح ببطء. كل إيميل من إيميلاش شارون بعد ذلك كان حافلاً بالأمل. عرّفتني على الشتاء، صور مؤثرة لمنزلها في ولاية ميين حيث الثلج يغطي الأرض. بعثت بطاقة عيد الميلاد «الكريسماس» إلى أسرتي بوصفها ملفاً مرفقاً برسالتها الإلكترونية، مع صورة فوتوغرافية لأفراد أسرتها. ومن ثم بدأنا نتكلم في الهاتف الخلوي. كانت شارون تسألني عن الوسائل التي أستطيع من خلالها مغادرة البلاد. لكن إلى أين أذهب؟ لمناسبة الكريسماس كانت تريد أن ترسل إليّ بعض النقود، لذلك أخبرتها كيف يمكنها أن ترسل بأمان عبر حسن في كينيا، ومن ثم يستطيع حسن أن يرسلها إليّ بهيئة حوالة عبر الإرسال البرقي. بهذه الطريقة لن يعرف أحد أنها مُرسلة من امرأة أمريكية. كما بعث لي برنامج «The Story» أجور تقاريري، بين «The Story» وشارون، أنا وحسن كنا نستلم المال من أشخاص لا يمتون إلينا بصلة وحتى لم يكتوتوا بشبهونا. خمسة دولار من «The Story»، 300 دولار من شارون، 200 دولار ومن ثم 100 دولار. وذات يوم سلّمتُ أمي 150 دولاراً. فغرت فمها ولم تصدق ذلك.

«كيف استطعت أن تحصل على هذا المبلغ الكبير؟» سألتني.

أن أوان كشف السر لها. حكيتُ لها عن عمل الإذاعة، اللقاء بشارون، وعن كل شيء. رويتُ لها أن بعض البشر الطيبين، وهم أمريكيون، غير مسلمين، بعثوا هذا المال كلّه ليس لي فقط بل لأسرتي.

«ماما، كُلّي جيداً. هذه النقود كلّها لك».

قلّتُ لها إنه من خلال سخاء الأمريكيين هذا، حسن كذلك بحوزته مبلغ كافٍ من المال كي يعيش ويدفع إيجار مسكنه. كانت أمي قادرة

على استئجار ثلاثة رجال كي يبتوا لها كوخاً جميلاً إلا أنه في الوقت ذاته بوسعه أن يكون مناسباً لها، ولنعمة، ولاهنة شقيقتي. كوخاً سميكاً بما يكفي كي يحميها من أشعة الشمس والتراب وأن تطبخ الطعام بمنزل عن الرياح. بوسعهم أن يشتروا الغذاء والعماء. وبين ليلة وضحاها انضمت أسرتي إلى «الطبقة العليا» في معسكر «إيلاشا»، إلا أن قبول تلك الظروف كان شيئاً صعباً بالنسبة لأمي. كانت هي ونعمة تحتاجان الطعام والملاذ الأمن، إلا أنها كانت قلقة من أنها إذا فارقت الحياة، فربما يُلقبها الله في نار جهنم لأنها أخذت دولارات الكفار.



لقد رجعتُ إلى المدينة تابعت الذهاب إلى الكلية، مخبئاً الدولارات في ملابسي. كنتُ أتواصل مع شارون يومياً. عندما يكون خط الإنترنت لدينا عاطلاً، يبعث إليها حسن رسالة إلكترونية تباة عني. استمرت النقاشات التي تتمحور حول مغادرة الصومال؛ يبدو أن كينيا هي الخيار الأفضل. إلا أن مسألة أن أترك أمي وأرحل هي قلقي الأعظم. إذا ما جرى أي شيء لها، إذا ما جُرحت، أود أن أكون بقربها كي أقدم لها المساعدة. وعقب ذلك فكرت، «إذا ما مكثتُ هنا، فيقينا سأموت وعندهذا لن نحصل على أي مساعدة في كل الأحوال».

نظمتُ شارون مجموعة سقنّها «فريق عيدي». هذه المجموعة ضمتُ «بين بيللوز»، وهو طالب جامعي أمريكي سابق، يعمل بصفة طبيب في كينيا، كوري برينسيل وديك غوردون من برنامج «The Story»، بول سالويك، حسن، وأسرة شارون. كانت مهمتهم هي أن يجعلوني أghادر الصومال. الخطوة (أ) هي أن يحصلوا على تأشيرة دخول لي إلى كينيا. إلا أن موظف الهجرة في نيروبي ضحك فقط حين طلب منه «بين» ذلك. قال إنهم لا يمنحون تأشيرات الدخول للصوماليين، على الإطلاق. الصوماليون في كينيا يُستفنون باعتبارهم «لاجئين» ولا يُسمح لهم

بالعمل. من المفترض أن يُحتجزوا في تلك المعسكرات الباعثة على اليأس بالقرب من الحدود، حيث (نظرياً) تُطعمهم الوكالات الدولية وتوفر لهم الملاذ الآمن. اللاجئون الصوماليون في نيروبي¹، من مثل حسن، كانوا يعيشون في سجن — لا يُسمح لهم بالعمل إنما ليس هناك منفذ إلى خدمات اللاجئين. كانوا مرغمين على أن يكسبوا رزقهم بأساليب بارعة إنما ليست دائماً شريفة وعلى تفادي أفراد الشرطة. وعلى الرغم من ذلك مئات من الصوماليين كانوا يقيمون في نيروبي؛ كانوا يملكون مخازن، مطاعم، ويحصلون على خدمات. كان الصوماليون يشترون الأطعمة والثياب ويدفعون بدلات الإيجار. كانوا مسؤولين عن ثلث النشاط الاقتصادي تقريباً في المدينة، ومع ذلك كانت السلطات الكينية تتظاهر بأن الصوماليين غير موجودين، ربما انطلاقاً من خوفهم بأنهم إذا ما اعترفوا بهم فإن هذا من شأنه أن يشجع مزيداً من الصوماليين على الهجرة إليهم. هذا يكفي فيما يتصل بالخطة (أ).

أما الخطة (ب) فهي رحلة برية باستخدام المُهَرَّبِينَ، مثلما فعلت قبل بضعة أعوام خلت. إلا أن هذا بات خطيراً ومستحيلاً في ظل حركة «الشباب». فربما تُقتل عند أول متراس.

مضى أكثر من عام منذ أن واصلت إرسال التقارير إلى «The Story». تابعنا مناقشة السبل الآمنة بغرض خروجي من البلد. ومن ثم، في مساء يوم السبت في آذار/ مارس 2011، انفجاران دعرا منزلنا تدميراً شاملاً. لحسن الحظ، كنتُ في طريقي إلى المنزل، قبل وصولي إليه بدقائق قليلة، حين

1- نيروبي Nairobi: عاصمة كينيا، وأكبر المدن فيها. ونيروبي وما حولها من الضواحي والمساكن تشكل «محافظة نيروبي». واشتق اسم «نيروبي» من لغة قبائل الماساي وجاءت من كلمة «إنكارا نيروبي» وتعني «الماء البارد»، في إشارة إلى «نهر نيروبي» الذي يجري عبر المدينة. وتشتهر المدينة باسم «المدينة الخضراء تحت الشمس»، ويحيط بالمدينة ضواحي حديثة راقية بُنيت فيها مساكن وفيلات جديدة. يبلغ عدد سكانها ما يزيد على ستة ملايين وستمئة ألف نسمة - م.

حصل الانفجاران. لا أعرف ما إذا كنتُ مستهدفاً أم أنه مجرد انفجار عشوائي، إنما في كلتا الحالتين كنتُ سأموت حتماً لو أنني كنت في المنزل. حفرة الاختباء خاصتي ما كانت لتقذني، كانت قد دُفنت تحت كسر الحجارة وقطع السقف الصغير. مقطوع الأنفاس من الخوف، اتصلت بشقيقي حسن بالهاتف النقال فيما كنتُ واقفاً هناك في الغيار المتصاعد.

«سقطت قتيلة على منزلنا»، أخبرت شقيقي. «لا أزال قادراً على أن أشم البارود. دُمر كل شيء. لا مأوى لي كي أنام فيه. قل لـ [فريق عيدي] إنها ليلة مُروّعة».

في تلك الليلة نمتُ عند ناحية الشارع، في فضاء ترابي وراء شجرة نيم. حين استيقظت من النوم صباحاً، عرفت أن «فريق عيدي» قد جمعوا خمسة دولار كي يشتروا لي تذكرة طائرة تأخذني من الصومال. لم أكن أعرف إلى أين ستملّق بي الطائرة، إلا أنني أحتاج إلى أن أحصل على جواز سفر.

ذهبت إلى «دائرة الهجرة» التابعة للحكومة في مركز المدينة. الحارس في بوابة الدائرة سخر مني.

«جواز السفر يكلف ثمانين دولاراً»، قال لي.

التقطت ورقة نقدية فئة مئة دولار من بنطلوني وبسطتها أمامه. تبدلت نظرة الاحتقار التي رمقني بها قبل لحظات إلى احترام فيما هو يفتح البوابة. أخذ الموظف الكاتب في الداخل صورتي الفوتوغرافية. ملأت بعض الاستمارات. وفي بحر ساعة كنتُ أمسك بجواز سفري الصومالي الجديد. كان هذا هو الدور السهل من المسألة. إلى أين أنا ذاهب؟ أي بلد هذا الذي يُعطيني تأشيرة دخول؟

فيما كنتُ أحصل على جواز السفر العائد لي، عرف «فريق عيدي» أن باستطاعتي أن أطير مباشرة من موقاديشو إلى كيمبالا¹ كي أحصل هناك

1 - كيمبالا Kampala: عاصمة أوغندا وأكبر مدنها حيث يصل عدد سكانها إلى 1,659,600 - م.

على فيزا مدة يوم واحد لدى هبوط الطائرة. هذا سوف يمنحني أربعاً وعشرين ساعة كي أجد طريقاً ما إلى كينيا المجاورة. ذهبت إلى وكالة للمخطوط الجوية في الـ «KMA»، أظهرت لهم جواز سفري، واشترت تذكرة طائرة إلى كينيا. لم يكن يتعين على الموظف الكاتب أن يسألني ما إذا كانت التذكرة في اتجاه واحد.

حلقت بي الطائرة في غضون ثلاثة أيام. كان الشيء الآمن هو أن أخبر نفسي في موقاديشو حتى ذلك الحين، إلا أنني لم أستطع الرحيل من دون أن أودع أمي. لذلك في اليوم الذي سبق تحليقي بالطائرة، غيأت تذكرة الطائرة وهاتفي الجوال تحت أنقاض منزلنا وقمت برحلة الحافلة الصغيرة الخطيرة لأخر مرة إلى معسكر «إيليشيا» البائس.

كان أول متراس يحصنه جنود حكوميون وكان سهلاً بما يكفي، وكانوا يسألون الناس فقط إلى أين هم ذاهبون ويفتشون كي يروا أنه لا يوجد بينهم رجل له لحية طويلة. بعد ذلك دخلنا أرض «الشباب»، وكان الطريق مغلفاً بما يقارب عشر نقاط تفتيش. في كل نقطة تفتيش كان المقاتلون الملتحون يصعدون إلى متن الحافلة ويتأكدون من أن جميع النسوة جالسات في الخلف ولن في تماس مع الرجال. وبعدها كانوا ينظرون إلى الرجال بانتباه وعناية، يدققون في تسريحات شعرهم وأستانهم واحتمال وجود لطخات اللات البنية، الأمر الذي يدل على شخص غير إسلامي وربما جاسوس يعمل لمصلحة الحكومة. كل شخص يبدو مشكوكاً فيه يُجر من الحافلة. الشخص الذي يشبهون بأنه يعمل لمصلحة الحكومة ربما يقطعون رأسه فوراً. الرجال ذوو الشعر الطويل جداً ربما يكونون مجبرين فقط على تحمل قصة شعر غير مستوية. سمعتُ لأنني لا أحمل معي تذكرة الطائرة العائدة لي، فهذا الأمر سوف يعني الموت بكل تأكيد. أجبرت نفسي بالآأ أظهر علامات الخوف على وجهي. كنتُ أنصرف فقط كأني رجل اعتيادي يقيم في المعسكرات، أحب «الشباب» وذهبت لإنجاز

بعض المهمات في المدينة. إنما في داخلي كنتُ أرثع خشية أن يتعرف عليَّ شخص ما كوني المطرُوع الذي تخلّى عنهم بعد يوم واحد فقط.

كانت أُمِّي تطبخ على نار خارج كوخها الجديد حين وصلت إلى هناك. همستُ في أذنها أنني مغادر في اليوم التالي في إحدى الطائرات، فتوقفت عن تحريك الطعام في قدرها. لم يكن بمستطاعها أن تفكر بما يمكن أن تقوله. وفي الختام أخبرتني أنها سعيدة وهذا شيء حسن. ودعت نعمة وأخبرتني كليهما بالأخير أنني فرد في ما يتصل بخططي.

«أينما ينتهي بنا المطاف، أراكما حين أراكما»^{١١}، قلت لهما. وبعدها صافحت أُمِّي في ظل حكم «الشباب» كان العناق ممنوعاً حتى بين الأم وابنها البالغ ولا جدوى من الاهتمام الذي يعرّضك للخطر.

كانت الحافلة التي أعاذتني إلى موغاديشو مروعة لأن المقاتلين لم يكونوا يرغبون بأن يروا أناساً يغادرون المعسكرات. جزوني من الحافلة واستجوبوني ثلاث مرات. لففت قصصاً كثيرة جداً — أنا ذاهب إلى حماية منزلنا من اللصوص الذين يسطون على المنازل ليلاً، أنا ذاهب لأجلب ثياباً لأُمِّي، وكلّ ما يخطر في بالي. في كلّ مرة كانوا يُخلون سبيلي. في تلك الليلة نمتُ آخر مرة في حفرة - الاختباء خاصتي؛ كنتُ أزلتُ منها ما يكفي من كسر الحجارة كي أزحف في داخلها.

في صباح اليوم التالي ظهرت أُمِّي. كانت قد أخذت حافلة من المعسكر.

«ماما، لماذا أتيت هنا؟» كنتُ قلقاً من أن يلفت وجودها الانتباه.

«وددتُ أن أقول لك وداعاً»، قالت.

١ - سألت المؤلف عن معنى جملة «أراكما حين أراكما»، فأجابني في رسالة إلكترونية موزعة في يوم الاثنين 29 حزيران/يونيو 2019: أنه غير متأكد من الزمن أو اليوم الذي سيكون فيه قادراً على رؤية أفراد أسرته ثانية، وأن كلامه هذا نابع من يأسه الشديد من إمكانية تحقق ذلك - م.

مشينا معاً إلى المطار. لم تكن لدي حقيبة، ليس بحوزتي ملابس إضافية، لا شيء يدل على أنني ذاهب في رحلة — مجرد رجل يتمشى. حياتي في ثيابي، بعناية فائقة، تذكرة الطائرة، جواز سفري، وهاتفي النقال الذي شحنته منذ وقت قصير، وسبعين دولاراً.

كان مدخل نهاية الخط في المطار «التيرمينال» تحرسه قوات أوغندية من مفوضية «الاتحاد الأفريقي». جاز علينا أحد الجنود: «لا يُسمح إلا بدخول المسافرين!».

آخر جئت تذكرني بسرعة. تفحصها بحذر.

«يمكنك الدخول»، قال. «أما هي فلا».

التفت إلى أمي. «هذا هو إذاً الوداع الأخير»، قلت لها.

«مع السلامة، ولدي. أنا سعيدة جداً بك، وسوف أدعو لك في صلاتي».

كل ما استطعت القيام به هو ألا أبكي أمام ذلك الجندي. أحسست بحزن عميق، إلا أن بركة أمي جعلتني أشعر بأني على ما يرام.

كان المطار أشبه بقاعدة عسكرية. كانت حركة «الشباب» تستهدف المطار يومياً بالقصف المدفعي، وكان يوسعي أن أشعر بارتجاج المبنى من انفجارات قريبة. قهقه جندي صومالي لما جطلت. «هذا أكثر الأمكنة أماناً في موقاديشو» قال. فتش مزيداً من الجنود الأوغنديين المسافرين كافة قبل صعودنا إلى الطائرة، وبعدها جعلونا نسير في موكب غير نهاية الخط «التيرمينال».

كانت محركات الطائرة تعمل، كانت متهيئة للإقلاع. لم يكن هنالك مسافرون كثيرون في الرحلة. أخذت مقعداً بجوار إحدى النوافذ، هاتفي يرن باتصالات هاتفية من بول، كوري، وشارون. «أنا في الطائرة»، قلت لهم. «سوف أذكركم على مكاتي حين نهبط على اليابسة». فيما كانت الطائرة تبعد عن نهاية خط الرحلة، حدثت إلى الخارج ورأيت أمي واقفة

هناك في الشمس، تنتظرننا ريثما نفلح. مرّت من أمام ناظري، ولم يعد بمستطاعي أن أحبس دموعي. بكيت بصمت زمناً طويلاً. ومن ثم رأيت المسافرين الآخرين ييكون أيضاً.

لما ارتفعت الطائرة في الجو، دعا جميع المسافرين الله من أجل تحليق آمن. كي تتحاشى صواريخ «الشباب» مالت الطائرة جانباً بسرعة وانعطفت فوق «المحيط الهندي». كانت سفن حربية تابعة لـ «الاتحاد الأفريقي» تسير بسرعة عبر الماء، تاركة وراءها أثراً أبيضاً مُزينة. صعدت الطائرة بسرعة شديدة وتساءلت مع نفسي كيف أصبحنا بهذه السرعة فوق المدينة. كانت الشمس الحارة تومض بشدة من على سفوف الصفيح العائدة لمباني موقاديشو. كنتُ شاهدتُ قبلاً «الهروب من ألكاتراز»¹، وأحسستُ كما لو أنني خرجتُ من السجن. مستقبلي لغز، إلا أنني على الأقل أغادر الجحيم إلى الأبد.

ذهلتُ لما عرفت أن الطائرة سوف تتوقف أولاً مدة وجيزة في نيروبي، الأمر الذي جعلني أشعر بالفرح والقلق. فرحاً لأن شقيقي بقيم هناك، وبعما قريب أمل أن أكون هناك أنا نفسي، مع أنني أعرف أنه ليس بمستطاعي مغادرة المطار في ذلك اليوم. قلقاً لأن بعض المسافرين الآخرين كانوا يسردون قصص الصوماليين الذين كانوا قد أُلقيوا بطائراتهم إلى نيروبي وتم استجوابهم في داخل المطار. بعضهم اختفوا إلى الأبد. أن تكون شاباً ومن الصومال أشبه بأن تكون تاجر مخدرات يُراقبه باستمرار مُنفذو القانون.

1 - الهروب من ألكاتراز Escape from Alcatraz: فيلم أمريكي من نوع دراما أنتج في العام 1979، من بطولة كلينت إيستود. تبدأ قصة الفيلم حول حبس السجين فرانك موريس (كلينت إيستود) العام 1960 في سجن ألكاتراز، وخطط موريس بذكائه الخارق كيفية الهروب من السجن وسرقة أدوات حادة يلقاها، ومعه شخصان، ومن ثم تمكنوا من الهروب، واختفوا من المشهد نهائياً. هذا الفيلم يعدّ النقاد أحد أفضل الأفلام السينمائية التي أُكِّت في العام 1979 - م.

بعد ساعتين هبطت طائرتنا في نيروبي. يمكنك القول إن هذا المطار مختلف تمام الاختلاف عن مطار موقاديشو. كان أكبر بكثير، وكانت هنالك طائرات من جميع أنحاء العالم — «أير فرانس»، «بريتش آيرويز»، «إيجيبت أير»، «أثيوبيا أير لاينز»، وسواها كثير. لم يكن مدرج هبوط الطائرات شجوراً بخضر القنابل. من نوافذ قاعة الترانزيت يمكنك أن ترى مخازن المطار ورجالاً لايسين بدلات يسرعون بغية اللحاق بالرحلات الجوية. ربما في يوم ما سأرتدي بدلة، فكرت مع نفسي. لم يسعني الانتظار كي أصل هذه المدينة.

حاولت أن أجري بعض الاتصالات الهاتفية مع «فريق عيدي»، إلا أنه تبين أن «يسم كارد» الصومال عديم النفع في كينيا، وسرعان ما عدت إلى الطائرة، متوجهين إلى كينيا. اكتشفت نالاً أن الفريق كان قلقاً بشدة. كانت حركة «الشباب» قد استهدفت كينيا منذ عهد قريب في انفجارين تخرج خلالهما ما يقارب مئة شخص في مباراة لكرة القدم. كان الهجوم انتقاماً من الوجود العسكري الأوغندي في الصومال، وأوغندا كانت في حالة الحيلة والحذر منذ ذلك الحين. فيما كنتُ محلقاً في الجو، كان أعضاء «فريق عيدي» يعملون وراء الكواليس كي يضعنوا ألا أعقل في «مطار عتبي»¹ أو أن يتم إبعادي عن الحدود الكينية، إلا أنه لم يكن هنالك موقف في أي من البلدين يبدو أنه قادر على أن يضمن مروري.

كانت الشمس قد هبطت قليلاً أسفل الأفق فيما كانت الطائرة تميل جانباً فوق «بحيرة فيكتوريا» وهبطت نحو «مطار عتبي». إلى أسفل متي كان هناك منبع «النيل»، النهر الذي يجري مباشرة نحو «البحر الأبيض

1- مطار عتبي Entebbe Airport: مطار دولي رئيس في أوغندا. يقع على ضفاف «بحيرة فيكتوريا»، يخدم عتبي وكينيا ويبعد نحو 35 كيلومتراً عن العاصمة كينيا. كانت عتبي مقر حكومة البلاد قبل استقلالها العام 1962. تعداد سكانها نحو 70 ألفاً، وقعت فيها انقلابية حوض النيل الجديدة التي تسمح بخفض حصص مصر والسودان من مياه النيل وفيها أكبر مطار مدني وعسكري في أوغندا - م.

المتوسط» — المدخل إلى أوروبا وما وراءها، بشكل من الأشكال هذا المطار مريح وجعلني أشعر أنني أقرب إلى الأمان والحرية. في الحقيقة كنتُ بعيداً جداً عن كليهما.



جميع الصوماليين في الطائرة كانوا قد تلقوا توجيهات بالدخول إلى قاعات الانتظار. لم تكنْ هنالك مقاعد. نساء حوامل، أطفال باكون، رجال ونساء في خريف العمر بدوا عليلين وخائري القوى، جلسنا كُنّا على أرضية المطار الصلدة. ثانياً هاتفي النقال ليس فيه خدمة. أخذتُ أذرع المكان جيئةً وذهاباً متسائلاً ماذا يجري. بين القبة والقبة يأتي إلي موظف ويخاطبني قائلاً، «أنت! اجلس هنا».

مرّت ساعات. لم يأت أحد. مسافرون آخرون، يرتدون ملابس أنيقة يتقلون من طائرة إلى طائرة متوجهين إلى بلدان أخرى في أوروبا وأمريكا الشمالية، مرّوا من أمامنا. لم يأتني واحد منا، كنا صوماليين وتعودنا على هذا الأمر. في الأقل كنا مستقلّين على أرضية مصنوعة من القرميد وليس طريقاً تريباً ذا كلاب وقبور. كنتُ مُرهقاً جداً بحيث غالبني النعاس وأنا مضطجع على الأرضية مع حفنة من الصوماليين الآخرين. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل حين وقف فوقنا موظف يحمل بيده هاتفاً جوالاً وجعل يتكلم. كنتُ فقط شبه واع وظننتُ أنني أحلم لما قال، «من هو عبدي إفتين؟».

استيقظ الجميع. كلهم رفعوا أيديهم. كلهم كانوا عبدي إفتين. كان ذلك أشبه بفيلم «سبارتكوس». بطبيعة الحال رفعتُ يدي أيضاً. إلا أن الموظف، الذي لم يكن يُبالي من هو عبدي إفتين، التفت إلى شخص آخر. «هل أنت عبدي إفتين؟ تعال معي».

الشاب والموظف كانا يغادران حين التدفعتُ مسرعاً وراءهما.

«من فضلك»، قلت. «أنا عبدي إفتين».

عَبَسَ الموظف، وبعدها طلب رؤية تذكيرتها وجوازيتها. حين قرر أنني هو الشخص الصحيح، تبعته إلى غرفة صغيرة جداً. ومن دون أن ينبس ببنت شفة، سلّمني هاتفاً جوالاً.
«هي، عهدي. كيف حالك؟»

كان ذلك هو «بين يلموز» في نيروبي. كان قد اتصل هاتفاً بالمطار كي يؤكد للمسلطات أنني أملك مكاناً أقضي فيه ليلتي وأن لديّ تذكرة حافلة إلى كينيا في صباح اليوم التالي. كان الصوماليون قد أحتجزوا في المطار لأن الحكومة الأوغندية لم يكن باستطاعتها أن تقرر ما إذا كانوا سيغادرون في غضون أربع وعشرين ساعة في الواقع، كثير من زملائي المسافرين أخبروني أنه لا نية لهم في مغادرة أوغندا. كانوا قد أحتجزوا أساساً في المطار. قال «بين» إن «فريق عهدي» قد حجّزوا لي غرفة في أحد فنادق كينيا كي أقضي فيه ليلتي، وأن تذكرة الحافلة خاصتي تنتظرني هناك. امرأاً ما من الفندق كانت تنتظرني منذ ساعات خارج المطار، حاملةً باغلة تحمل اسمي. إلا أنها غادرت أخيراً، قال «بين».

«عمسين دولاراً من فضلك!» قال لي الموظف.

دفعْتُ ثمن تأشيرة الدخول، التي من الجائز أن تحتوي على رشوة للموظف. في الساعة الواحدة صباحاً، دُمِعَ جواز سفري من أجل زيارة مدنها أربع وعشرون ساعة، خرجتُ من المطار إلى الليل المظلم. ارتجفتُ في البرد الغريب، شيء ما لم أحسّ به من قبل؛ مع أنّ «مطار عنتبي» يقع تقريباً على خط الاستواء، أربعة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر. وعلى الفور، طوّقني سكرام⁽¹⁾ من سائقي سيارات الأجرة

1 - سكرام serum أحد إشارات العمل وفقاً لمقاييس منهجية تطوير البرمجيات أجابيل لإنارة تطوير المنتجات. في الأرجح أن المؤلف أراد أن يقول: إطار من السائقين - م.

وهم يصيحون عليّ بالسواحلية^(١) والإنكليزية. كنتُ بردافاً جداً وجائعاً وأحسستُ أنني أتجمد تماماً في مكاني.

وبعدها أتت قطعة أخرى من الحظ السعيد. في تلك اللحظة رجل في منتصف العمر شق طريقه عبر حشد السائقين وتكلم معي بالسومالية. «هل أنت عيدي إفتين؟»
«أجل!».

قبض عليّ يدي وجزني إلى الخارج، وهو يصيح على السائقين بالسواحلية، «ابتعدوا عنه! إنه صديقي!».
لم يسبق لي أن قابلت هذا الصديق، إلا أنه صومالي وكان أيضاً يتكلم السواحلية، وهكذا مضيتُ قدماً فيما كان يهمس في أذني: «سوف يأخذون منك مبلغاً كبيراً من المال. لا تنصت إليهم. إنهم يريدون أن يمزقوك».
«كيف عرفتُ اسمي؟».

«كأنت هنالك امرأة جميلة واقفة هنا تحمل باقطة عليها اسمك. لقد غادرت. فكرت أنه لا بد أن تكون أنت». تابع الكلام فيما كنا نتمشى إلى سيارة الأجرة خاصته. «ما هو عملك؟ هل أنت رجل أعمال؟».

لم أكن أعرف ماذا أقول. في الظاهر، أنه لم يسبق له أن رأى صومالياً كتّبت اسمه عليّ باقطة تحملها امرأة جميلة في المطار. كان يعتقد أنني رجل بالغ الثراء. دخلنا في سيارته ودفع شريط كاسيت في داخل المسجل — موسيقى صومالية! لم أسمعها منذ أمد طويل. أخبرني بأن اسمه عليّ وكان

١- السواحلية Swahili: كما تُعرف باسم اللسان السواحلي هي لغة بانتو تنتشر على سواحل أفريقيا الشرقية، وهي لغة رسمية لكينيا وتنزانيا وأوغندا وإحدى اللغات الوطنية في جمهورية الكونغو الديمقراطية، كما أنها اللغة الأم للشعب السواحلي، وهي لغة تواصل مشترك في منطقة البحيرات العظمى الأفريقية وأجزاء أخرى من شرق وجنوب شرقي أفريقيا وتتضمن تنزانيا. أحياناً ما تُصنف اللغة القمرية وهي اللغة الرسمية في جزر القمر على أنها لهجة من لهجات السواحلية رغم اختيارها لغة مستقلة بحد ذاتها من قبل بعض المصادر - م.

قد غادر الصومال منذ عشرة أعوام. كان قد عبر الحدود ودخل إلى كينيا، ومن ثم انتقل إلى كينيا، حيث الحياة كريهة أكثر بالنسبة للصوماليين، مع أن هذا الوضع تغير مع هجمات «الشباب» التي حصلت مؤخراً.

«هل أنت جائع؟» سألتني.

«نعم!».

«دعنا نأكل هنا».

توقف عند كشك صغير مفتوح في ساعة متأخرة من الليل وطلب صودا و«مندزي»، وهو نوع من الخبز المقلي. أنا بدوري طلبت الشيء نفسه. طلب مني أن أدفع الثمن. سحبتُ آخر ورقة مالية من فئة عشرة دولارات.

«أوه، عليك أن تصرف العملة النقدية»، قال لي. أخذني إلى مركز قريب لتصرف العملة النقدية حيث حولتُ الورقة النقدية الأمريكية إلى الشللات الأوغندية.

«أحتاج إلى [بسم كارد]»، أخبرته فيما كنا نتناول طعامنا. «هل تعرف مكاناً أستطيع أن أشتري واحداً منه؟».

فيما كنا نسير بالسيارة إلى المنطقة الصومالية في كينيا المدعوة «كسيني»، وضع موسيقى صومالية جديدة كل الجدة: «رغبة من أجل الحب» لـ فرحيا فسكا. فرحيا فسكا هي لاجئة صومالية سابقة تمكنت من الوصول إلى لندن وبدأت تسجل أغاني أحبها الصوماليون. رفع علي صوت المسجل؛ لا يوجد إسلاميون هنا كي يقطعوا يده.

كانت المخازن كلها مغلقة، والشوارع خالية. كنتُ أخشى ألا يوجد مكان أشتري منه «بسم كارد». إلا أن علي غادر المكان ووقف أمام مخزن معتم وفرع الباب. فتح صوت صومالي نعلان الباب وبدأ يصيح عليه.

«لماذا توقفتني من النوم بعد منتصف الليل؟ لقد أويت إلى فراشي نواً، يا رجل؟».

كان ذلك هو شقيق علي وكان هذا مخزنه، وهكذا سارت الأمور على علي ما يرام. بعد مضي دقائق أصبح لدي «بسم كارد» أوغندا الذي من الممكن استخدامه في كينيا، وخمسة دولارات من وقت التحدث. «الآن بمستطاعتك أن تتصل هاتفياً بأصدقائك»، قال لي. «أين تقيم حالياً؟»

«إنه يُسمى [دار ضيافة شالوم]».

«أوه! ماذا؟ لا، لا، هذا مستحيل! ما هو عملك، صديقي؟»

شرح لي أنه أخذ في سيارته كثيراً من الأشخاص البيض الأثرياء إلى هذا الفندق إلا أنه لم يأخذ رجلاً صومالياً أو امرأة صومالية إلى هناك. كما إنه ثانية لم يسمع صومالياً يتكلم الإنكليزية مثلي. أحسّ أنه متأكد من أنني حتماً طرثُ نواً قادمًا من لندن، ورفض أن يصدق قصتي. فهمت. فلما استطعتُ أن أصدقها أنا نفسي.

في الطريق إلى الفندق اتصلتُ هاتفياً بحسن، وبعدها «بين»، شارون، كوري، بول، وديك. جميعهم أحسوا بارتياح شديد لأنني وصلتُ بأمان إلى أوغندا. أنزلني علي عند دار الضيافة، وتبادلنا رقمي هاتفياً الجوالين. لَوَّح لي مودعاً. «سأتي إليك غداً كي أريك المدينة، سوف نقوم بجولة فيها»، قال لي.

مشيتُ نحو وظيفة الاستقبال، التي سلّمتني مفتاح غرفتي. قالت إنهم كانوا يتوقعون مجيئي في وقت أبكر بكثير. لم تكنُ تعرف شيئاً عن معاناتي وكفاحي. غرفتي لها نافذة زجاجية كبيرة وشاشة تلفزيون ضخمة. كان هنالك سرير يحجم مُلكي رُتب من وقت قريب، أكبر من كوخ أمي بأكمله في المعسكر. وحمام. على المنضدة كان هنالك مطروف مختوم كُتب اسمي عليه. بداخله تذكرة حافلة إلى نيروبي وثلاثمئة دولار نقداً. «بين» لديه صديق في كمبالا هو الذي أحضر المطروف إلى الفندق.

كنتُ في منتهى الإعياء، إلا أنني شعرتُ أنني بحاجة لأن أصبح نظيفاً قبل أن أدخل إلى النوم. وقفتُ هناك في الحمام متسائلاً لماذا لا يوجد

دلو، وما هي وظيفة كل هذه المقابض. أدركت واحداً منها ودعشت حين نزل الماء من خرطوم كالجدول، بارداً ومخيفاً. نزلت إلى الأسفل كي أسأل موظفة الاستقبال عن دلو. ضحكت. «لست بحاجة إلى دلو»، قالت لي. «سوف أريك».

ولمّا رجعنا إلى الغرفة، أرّنتي السيدة كيف أشغل المقابض وأجعل الماء يخرج لطيفاً ودافئاً. ماء ساخن من دون أن تُشعل ناراً! أحسستُ بأنني نوع من مغفل لكنني شكرتها وما لبثت المرأة أن غادرت الحجرة. وعقب ذلك خلعتُ ثيابي ووقفت تحت الماء وأدركتُ المقبض إلى أن نزل ماء يتصاعد منه البخار. وقفتُ هناك زمناً طويلاً، متشياً، مُزيلةً تراب ودم ووجع موقاديشو. وقفتُ هناك إلى أن نفذ الماء الحار.

موقاديشو الصغيرة

أفقتُ من النوم في وقت متأخر وريموت التلفزيون ما يزال في يدي. لا بد أنني غفوتُ فيما كنتُ أشاهد فيلماً سينمائياً. كانت هنالك اتصالات هاتفية فائقة كثيرة على هاتفي الجوال من «فريق عيدي». بقي لدي وقت قصير. تعين عليّ أن أقادر أوغندا في تلك الليلة متوجها نحو كينيا. الجميع لا يزالون قلقين عليّ.

اتصلت هاتفياً بعلي. قال إنه ينتظرنني أصلاً في صالة الاستقبال بالفندق. لبستُ ثيابي على عجل — من دون حقيبة كي أحزمها — ونزلت درجات السلم. كان هنالك أشخاص بيض يستعدون لقضاء يوم السياحة خاصتهم في أوغندا. كانت بحوزتهم حقائب ظهر فاخرة، وكانوا يملأونها بالقبعات، بواقيات من الشمس، وجبات طعام خفيفة، وزجاجات ماء. دخلنا في تاكسي علي وقلت له أن يأخذني إلى محطة الباص. نطلع إلي كما لو أنني مجنون.

«لا تأخذ الحافلة!» قال لي. «إنها فخ! سوف يعثرون عليك عند الحدود ويعيدونك إلى أوغندا، ومن ثم يعيدونك على متن طائرة إلى موقاديشو. فعلوا هذا مع أشخاص كثيرين أعرفهم».

شعرتُ الآن أن باستطاعتي أن أتق بعلي، إلا أنني قلت له إنني لا أملك خيارات أخرى.

«أنا أعرف سبيلاً أفضل»، قال لي. «يمكنك أن تتركب في شاحنة حوضية متجهة نحو الحدود. وهناك عند هبوط الظلام يمكنك أن تأخذ (بودا بودا) عبر البادية متجهاً إلى داخل كينيا وتلتقي سائقي الشاحنات في الجانب الآخر».

«بودا بودا» هي سيارة أجرة بهيئة دراجة نارية. أخبرني علي أنه على طول الحدود الأوغندية — الكينية الشبان يكسيون المال من خلال تهريب الصوماليين إلى كينيا في دراجاتهم النارية، متحاشين تقاطعات الطرق. «إنه أفضل سبيل»، قال علي. اتصلت هاتفياً بحسن.

«أعتقد أنه على حق»، قال شقيقي. «إذا ما فتشوا عن تأشيرات الدخول في الحافلة، لن يسمحوا لك بالدخول إلى كينيا».

عدنا بالسيارة إلى كيسيني وتوقفنا عند محطة غاز حيث كانت هناك شاحنة حوضية تعيم خزان الوقود لحاصتها. كان السائقان الأوغنديان بأكلان «مئندزي» ويشربان الشاي. تحدث علي معهما. اقتربا مني وقالوا لي إن ركوب الشاحنة يكلف مئة دولار. أعطيتهم المبلغ تقدماً، ولوحا لي بأن أصعد إلى السيارة. ودعتُ صاحبي الجديد، علي — متسائلاً ما إذا كنت سأقابلة ثانية.

«اختبئ هنا، صديقي»، قال لي أحد الرجلين بالإنكليزية، مُشيراً إلى السرير الصغير جداً في الجدار وراء المقاعد. «لا تقم بأي حركة. ابقَ ساكناً».

«لا تلتقي، يا صاح»، قال الآخر. «ستكون في كينيا في القريب العاجل». نرحنا فيما نحن نهبط الطريق. وما لبث أن هبط الظلام، إلا أن الأمر لم يختلف كثيراً في الموضع الذي كنتُ أنكؤ فيه بالسرير المثبت في جدار الشاحنة لأنني لم أكن أَر أي شيء على كل حال. «اغلق هاتفك الجوال»، قال أحدهما. «لا نريد أن نلفت الانتباه. رجال البوليس في كل مكان».

كان الطريق سيئاً وظلمتْ أحدثُ ضجة في ذلك السرير الضيق. مرّت ساعات، وكنا لا نزال في أونغندا. كان السائقان يشغلان موسيقى راب طوال الطريق. غتأماً، في الساعة الرابعة صباحاً، كنا لا نبعد سوى أميال قليلة عن الحدود. كانت الشاشة الحوضية تغادر ببطء نحو طريق جانبي، وقفت، وفتح السائق الأبواب.

«تعال. تعال. تعال»، همس لي أحدهما. «اذهب إلى هناك، خذ [بردا بردا] بسرعة».

قفزتُ من الشاشة وركضتُ عبر الشارع إلى داخل زقاق ضيق مظلم. لم يكن باستطاعتي أن أرى شيئاً باستثناء الضوء الضعيف للدراجة النارية. «[ليتي]»، قال رجل الدراجة النارية باللغة السواحلية. لنذهب. «كم المبلغ؟».

«عشر دولارات».

«لا، خمس»، ردّدتُ عليه. تحسّنتُ لي ما يتعلق بالمساومة بسبب الأشكال المتنوعة من قلبي غير المشروع. «حسناً، [ليتي]».

أعطيته النقد وصعدتُ على الدراجة النارية ورائه. اخترقنا الغابة وفي بحر خمس دقائق أصبحنا في كينيا. كانت الشاشة هناك تنتظرنِي. كان الظلام لا يزال سائداً حين تدرجنا نحو كيسومو، وهي مدينة تقع عند تقاطع ضخم في الجانب الكيني من «بحيرة ليكتوريا». كانت نيروبي لا تزال تبعد عنا أكثر من 150 ميلاً. غادرنا نحو قطعة أرض مخصصة لوقوف السيارات؛ قال السائقان إنهما متعبان جداً بحيث لا يستطيعان الاستمرار في قيادة السيارة. «دعنا ننام هنا ونتابع رحلتنا صباحاً»، قال أحدهما. نشرا قطعة من القماش تحت السيارة كي يناما عليها. كان الليل ساكناً سكوتاً مطبقاً. غفوت بسرعة فيما كان الرجلان يدخان السجائر. حين بزغت الشمس، استيقظتُ تحت الشاشة على صوت كينيين جاءوا للعمل.

كان المكان الذي أوقفنا فيه الشاحنة هو الباب الخارجي للمخزن تصليح حيث كانت في داخله سيارات بالية وأجزاء سيارات جالسة في كل حذب وصوب. كان السائقان قد غابا عن الأنظار.

«نيروي أمكا!» كان يخاطبني رجل من دون قميص بالسواحلية. كان يريد أن يعمل فوق الشاحنة وكنت تحتها. سألته أين هما السائقان، إنما لا أحد يعرف. انتظرت ساعة، ساعتين، ثلاثاً، إلا أنهما لم يعودا. اتصلت هاتفياً بحسن؛ كان قلقاً وكذلك الحال فيما يتعلق بجميع أفراد الفريق. اتضح الآن أن السائقين خدعاني. لقد دفعْتُ لهما أجرة ركوب كل الطريق المؤدي إلى نيروبي، إلا أنني لا أزال أبعد عنها ساعات عدّة بالسيارة وأنا وحدي. تفحصت جيوبي وأحسست بالسعادة فلا تزال تقودي مضخة في سروالي. سأحتاج إليها حتماً.

تجولت في الشوارع المؤجلة للمدينة، ومررت من أمام أكشاك السوق حيث كان التجار يبيعون القش، سنابل طويلة من لصب السكر، وأهرامات من الفاكهة. نساء يحملن سلالاً ضخمة على رؤوسهن، والناس يسارعون للحاق بحافلات الـ «ماتاتو»¹. أطفال الشوارع في أزقة قذرة كانوا يستشفون الصمغ من قناني بلاستيكية². كنتُ أجهل إلى أين يتعين عليّ الذهاب. وبعدها سمعت صوتاً ينادي: «نيروبي، نيروبي، نيروبي!».

كان ذلك هو جاني «ماتاتو» يصيح كي يجتذب المسافرين. قفزتُ إلى داخلها. للباصر أربعة عشر مقعداً، إنما في الوقت الذي غادرتُ فيه قاصداً نيروبي، كان الجاني قد حشر أكثر من عشرين فرداً على متنها. الركاب كانوا حرقياً واحداً فوق الآخر. أحد الركاب كان جالساً على كتفي، فيما كنتُ مستنداً إلى ظهر أحدهم. كان الستيريو يبعث صوتاً ثاقباً لـ «بوب

1 - الـ «ماتاتو matatu»: حافلة صغيرة يملكها شخص ما في كينيا؛ يضعون فيها ملصقات لأشخاص مشهورين، ويشغلون الموسيقى بغية اجتذاب الركاب - م.

2 - استشفاق الصمغ يورث الشوة، كما يسبب الهلوسة. تُعدّ هذه العادة «ثقافة الشارع» لدى صبيان كينيا. ولها، بالطبع، أضرار صحية كثيرة - م.

مارلي» عندما مدَّ الجاني في المقعد الأمامي يده كي يجمع الأجرة.
«خمسة شلن»، قال بالإنكليزية.

كنتُ أعرف أن هذا يساوي نحو خمسة دولارات. لم يكنْ بحوزتي
تقود كينة لذلك سلَّمتَه ورقتي العالية الأخيرة فئة عشرين دولاراً. أعاد
إليَّ بعض «الفكَّة» بالشلنات الكينية إلا أنها غير كافية تقريباً. حين جادلته
بالإنكليزية، ردَّ عليَّ بغضب ولكنه محلية لم يكنْ باستطاعتي أن أفهمها،
لذلك تخليت عن الموضوع.

«صاحبي، هل أنت صومالي؟» سألتني رجلٌ جالس بجاني،
بالإنكليزية. كان رجلاً في منتصف العمر ويلبس نظارات، وكان يشتم
طوال الوقت على الرغم من أن الرحلة غير مريحة.
«أنا، صومالي بالفعل»، أجبت.

«أوه، أنا أحب الشعب الصومالي، لكنني أكره [الشباب]. شاهدتهم
على التلفزيون. إنهم سيئون جداً».

أصبحنا صديقين على الفور، وكان هذا الرجل يتصرف كما لو
أنه مرشد سياحي. ظلمتُ أسأله عن أسماء المدن التي كنا نمر بها. كلُّ
شيء شديد الاضطرار كما لو أنني لم أَر مثيلاً لهذه الخضرة من قبل؛
الذرة والقش في كلِّ مكان. كان الطريق إلى نيروبي نظيفاً ومُعهداً جداً.
سيارات صفيلة، نوافذها المطوية مرفوعة للأعلى، كانت تسير بسرعة
شديدة وتتخطى حافلتنا الصغيرة. توقفنا عند نقطة تفشيش للشرطة
وكان قلبي يخفق بسرعة، إلا أن الضابط قال شيئاً ما للجاني ولوح لنا
بأن نواصل رحلتنا. لم يكنْ هذا المكان موقاديشو، لم يالوا أين تجلس
النساء أو ما إذا كانت لدينا لحمي. وقت ما بعد الظهيرة تحوَّل إلى غسق،
وانعطفنا انعطافة أخيرة إلى المدينة، الشمس الأفلة كانت تنعكس من على
ناطحات السحاب الواقعة في مركز مدينة نيروبي. كانت باهرة الجمال!
مصابيح الشوارع كانت مشتعلة في الأرجاء كلها. لم أَر من قبل مصابيح

بهذا العدد الهائل. أحسستُ كأنني رجل كهف أنزل في عالم حديث. الناس الذين في الخارج كانوا يقفون في مجاميع يتكلمون، بضحكون، يستمعون بالسماء. بعثت رسالة نصية إلى حسن، كان قلبي يخفق فرحاً. كانت حافلتنا تسير ببطء عبر حركة المرور الكثيفة، مارة بأكشاك السوق، البنوك، المباني الحكومية، والكنائس المسيحية. كل شيء كان أصحوبة بالنسبة لي، إلا أنني حسبتُ أننا لن نصل أبداً. كان المسافرون على عجلة من أمرهم حيث كانوا يقفزون حين تقلل الحافلة سرعتها. وفي نهاية المطاف وصلنا إلى محطة الـ «ماناتو» القوضوية الواقعة في «شارع أكرا»، ونزلت من الحافلة ذاتها.

كانت المحطة مزدحمة جداً، الناس يصيحون ويرطمون بعضهم ببعض. كان ذلك أشبه بمشاهدة سرب نحل. بذلتُ مجهوداً كبيراً كي أرى حسن في الحشد. ومن ثم شخصاً ما ريت على كتفي.

«عدي!» قال بصوت عميق لم أعرف عليه. التفت وأحسستُ كأنني أنظر في المرأة. كان ذلك الرجل هو شقيقي، حسن، إلا أنه في بلوغه أصبح مثلي تماماً — طويلاً، هزلاً، الوجه الطويل نفسه والجبين العريض. متى أصبحتُ ثواسين؟ تعانقتا وكل واحد منا ضمّ الآخر إليه مرات عدة. كان هاتفنا يرنان إثر اتصالات من أعضاء «فريق عدي» ساعين إلى معرفة ما إذا تقابلنا. تجاهلنا الهواتف وظللنا متعانقين فقط.

«دعنا نذهب ونأكل شيئاً ما»، قال حسن. انعطفتا من محطة الباص إلى ركن ما ودخلنا مطعماً. البافطة، بصورة رجل أبيض يضع نظارات وله لحية بيضاء، كانت تقول «KFC»¹¹. «صاحب المطعم رجل أمريكي»، قال

١- KFC: اختصاراً للكلمات الإنكليزية Kentucky Fried Chicken، هي سلسلة مطاعم للوجبات السريعة تختص أساساً بالدجاج المقلي. يقع مقرها في مدينة لوفيل بولاية كنتاكي. تعد ثاني أكبر سلسلة مطاعم وجبات سريعة في العالم من ناحية المبيعات بعد ماكدونالدز، حيث تملك دجاج كنتاكي ما يقرب من عشرين ألف فرع تتوزع على 123 بلداً وإقليماً حول العالم اعتباراً من شهر ديسمبر 2015 - م.

حسن، عارفاً أنني كنت أحب أي شيء أمريكي. المدجاج المقلبي، الأطعمة المقلية الفرنسية، والكوكا كولا بدأ مذاقها كلها مذهلاً بالنسبة لي.

«هل تأكل هنا يومياً؟» سألت شقيقي.

«لا! هذا المطعم للفقوم الأثرياء فقط. لكننا الآن نحتفل».

بعد العشاء قفزنا في داخل «ماناتو» متوجهة إلى «إيستليغ»، الحي السكني الذي يُسمى كذلك «موقاديشو الصغيرة». وصلنا في نحو التاسعة ليلاً، إلا أن المكان كان ساطعاً ومزدحماً كالنهار. الأكشاك كلها، المخازن كلها كان يديرها الصوماليون. موسيقى صومالية وراپ أمريكي كانا ينبعثان بصوت ثاقب من جميع الأرجاء. كانت الشوارع وسخة حالها حال موقاديشو، نفوح بروائح البراز والبول. لمّا نزلنا من الحافلة الصغيرة، تبين علينا أن نقفز على ماء تنن إلى رقعة صغيرة من الأرض الجافة. لم أعبأ بالأوساخ. وقضت هناك فقط ونعجبت من كل الأشياء المعروضة للبيع — أحذية، ملابس، أحزمة، حليب، حلوى، علكة، كرات لعبة كرة القدم. كل ما تشتهي. استنشقت رائحة السموسة المقلية ورأيت البخار يتصاعد من غلايات الشاي. كانت المطاعم تبيع لحم الماعز، لحم الجمال، ولحم البقر مع الرز. يبدو كما لو أنك في موقاديشو لكن مع السلع ومن دون قتابل أو عيارات ناسفة.

قطع فرحتي صخب مباغت من الحشد، أعقبه رعب وركض في كل الاتجاهات، مثل قطع غراف خائفة. لم أسمع صوت انفجار، لذلك لم أستطع أن أفهم لماذا كان الصوماليون كلهم يركضون. أمسك بي حسن من يدي.

«من هنا؟» صاح عليّ. ركضنا، انعطفتنا إلى أحد الأزقة، وتركض من جديد. ركضنا نحو ريع ميل. «ماذا يجري؟» سألته بين أنفاسي اللاهثة.

«الشرطة»، قال شقيقي. «يأتون هكذا كل ليلة كي يتهبوا الصوماليين».

بعد دقائق قليلة ذهب رجال الشرطة والجميع عادوا إلى الشارع،

والهمهن حادث إلى وضعها السابق. اكتظت محلات الشاي، والمحاورات استمرت، كما لو أن شيئاً لم يحدث. بدأت أفكر بأن حياتي في نيروبي ربما لن تكون جنة.

كان حسن قد حجز غرفة لكلينا في «فندق المدينة» لليلة واحدة. هذا هو أفضل الفنادق في «إيستليغ»، ذو ماء جارٍ ومطعم، يملكه صوماليون، إلا أنه اختاره لأن اسمه هو نفس اسم أمنا. مضينا إلى حجرتنا وتحدثنا طوال ساعات. حكيتُ لحسن عن مغامراتي، وروى لي عن رحلته الطويلة إلى نيروبي، التي كان قد ألمح إليها فقط في رسائله الإلكترونية.



كانت المرسيدس الخضراء قد تعطلت في البادية، قال لي. السابق ذو الذراع الواحدة قد التقطه سابق آخر، جنباً إلى جنب مع المرأتين والمعزاة. لم يكن هنالك حيز لحسن، لذلك تركوه في الصحراء المعزاة. كانت أثنى من شقيقي. سار طوال أيام عدة عبر الأرض الحمراء الجرداء من دون ماء، في بعض الأحيان كان يشرب يوله. صادف في طريقه هياكل عظمية بشرية كثيرة كما صادف أسوداً وضباعاً، الأمر الذي أدخل الغزع إلى فؤاده وذكره بقصص أمنا.

لم يكن يعرف الاتجاه المفضي إلى كينيا، إلا أنه في نهاية الأمر لحق ببعض العائلات التي كانت تسير هي أيضاً صوب معسكرات اللاجئين. بعد ثمانية أيام من المشي، قابلوا عند الحدود وكالات مساعدات، وبسرعة سجلوا أنفسهم كلاجئين وأخذوا بصمات أصابعهم وصورهم الفوتوغرافية. مع هويات اللاجئين الجديدة خاصتهم في أيديهم انتظروا أن يتم نقلهم إلى المعسكرات الواقعة في «داداب»، مسكنهم الجديد. حين وصلت الشاحنة التي كانت تحملهم إلى «داداب»، قيل لهم كلهم أن ينزلوا منها وينظروا. إنما بعد أن غادرت الشاحنة، لم يكن هنالك شخص آخر. ببطء الأشخاص الذين مشوا بصحبة حسن قابلوا أفراد عائلاتهم أو

أصدقاءهم. وجد حسن نفسه جالساً تحت شجرة أكاسيا ينتظر وينتظر. انقضى يومان، ولم يأتي أحد لمساعدته، لا طعام، ولا ماء.

في النهاية سافر متطوعاً بأن أوقف شاحنة نقليات تحمل الرمل إلى الناحية الثانية من «داداب»، التي تبعد عشرة أميال، وركبها مجاناً. هناك رأى أناساً يقفون في طابور بغية الحصول على الطعام؛ في المقام الأول يتعين عليه أن يحصل على كوبون كي يحصل على حصة الطعام. كانت كوبونات الطعام تُوزع على امتداد خطوط العشرة، وهذه المنطقة من المعسكر يبدو أن قبيلة «مريهان» من «كسامبو» هي التي كانت تسيطر عليه. بمئات من النساء والأطفال من عشيرتهم يصلون يومياً، ما من أحد كان مهتماً بمساعدة مراهق ذي لكمة موقاديشية قوية. وحتى لم يمنحوه شيئاً كي يني كوخه الخاص. كلما يصل إلى بداية طابور معين، يكون الرد على الدوام نفسه: «غادر هذا المكان!» كان الجميع يسعون للبقاء على قيد الحياة ولا مجال للشفقة.

أحد الأشخاص قال لحسن أن يذهب ويرى رجلاً من الـ «زحانوين» يُقيم على بعد عشرين ميلاً في أعماق المعسكر. مضى إلى هناك وقال الرجل إنه في حقيقة الأمر ليس من عشيرة الـ «زحانوين». إلا أنه على خلاف الآخرين أشفق على حسن وأعطاه مئة شلن كيني كي يأخذ حافلة إلى نيروبي. «نيروبي فيها بعض الفرص لك»، قال الرجل. «لا تُر رجال الشرطة هوية اللاجئين خاصتك، وإلا أعادوك إلى هنا. قل لهم إنك لست وليس لديك أحد».

أخذ أول حافلة متطلقة إلى الخارج. حين أوقفهم البوليس عند الحدود لمعاينة أوراقهم الثبوتية، أخفى حسن هوية اللاجئين خاصته. وفي الختام لغته الإنكليزية، التي تدربنا عليها على مدى ليال كثيرة في حجرة النوم خاصتنا كانت بمثابة طوق نجاة لحسن. بإنكليزية واضحة وبسيطة أخبر الشرطة الكينية أن عمره سبعة عشر عاماً وليس لديه هوية تعريفية. دعوه

وشأنه. وحين أنزله الباص في مركز مدينة نيروبي، تبع حسن صوماليين آخرين وانتهى به الحال إلى «إيستليغ» ومنذ ذلك الحين ظلّ يُقيم هناك.

عرف حسن حالاً كيف يبقى على قيد الحياة في شوارع «موقاديشو الصغيرة». كان قد التقط بعض الجمل السواحلية وأصبح قادراً على إقامة بعض علاقات الصداقة الطيبة، ومن بينهم شريكه في الحجرة التي يستأجرها، سياد. الاثنان كانا شريكين في المهنة — كل منهما يتنادي على الجوارب، الأحذية الخفيفة، والأحزمة فيما هما يتجولان في شوارع «إيستليغ». كانا يشتريان بالجملة من المخازن؛ حزمة الجوارب تكلف نحو عشرين دولاراً ويُمكن بيعها في الشارع، بهيئة زوج، حيث يمكن أن يكون سعرها الإجمالي ثلاثين دولاراً. هذا الشيء غير شرعي لأن الشرطة الكينية لم تكن تسمح للباعة الجوالين، بخاصة إذا كانوا لاجئين، هؤلاء لا يُسمح لهم بالعمل. إلا أنه على غرار الباعة الجوالين في المدن حول العالم، حسن وسياد طوّرا نوعاً من رادار للبوليس، وكانا يخططان سلعهما ويتدفعان بسرعة مبتعدين عنهم قبل وقوع المشكلة. بهذه الطريقة كان يوسعهما أن يوفرا مبلغاً كافياً كي يشتريا وجبة الطعام الرئيسة، يدفعان أجرة السكن، وأن يدفعوا للبوليس في بعض الأوقات الضرورية عندما يُلقى القبض عليهما.



تحدثنا حتى الساعة الثالثة فجراً، عندما غالبنا النعاس معاً. استيقظت عند شروق الشمس على صرخات الجُبهة وهم ينادون على وجهات حافلات الـ «ماناتو» الصغيرة خاصتهم. إيستليغ في الصباح مكان مليء بالصخب والضجيج، يعج على ما يبدو بالأشخاص المجائعين. نظرتُ خارج الشباك. شبان صوماليون، يلبسون ثياباً وحليفاً الذقون على غرار مُقني الراب الأمريكيين، يلبسون سماعات الرأس، يمشون بامتداد الازدحام على إيقاع موسيقى لم يكن بمستطاعني أن أسمعها. رأيتُ

نسوة صوماليات جميلات بقسائين زاهية الألوان ونساء كينيات بمظاهر مثيرة ينتمين إلى قبيلة «كيكيويو». كانت الموسيقى في كل مكان، الناس يضحكون ويرقصون. هذا المكان مُضاء!

دفعنا حساب الفندق وغادرنا. أنا وحسن كانت لدينا لائحة من الأشياء علينا القيام بها في ذلك الأحد، أولها هو شراء بعض الملابس الجديدة وقص الشعر، ومن ثم زيارة «بين بيللوز». اشترتُ سروال الجيتز بسعر خمسة دولارات وتي — شيرت يحمل العلم الأمريكي بثلاثة دولارات. وبعدها دخلتُ إلى محل حلاقة صومالي. كانت هنالك يورتريهات للاعبين كرة القدم، مغني الراب، ولممثلين على الجدران كلها. باستطاعتك أن تختار تسريحة الشعر خاصتك من صور المشاهير الملتصقة على الحيطان! ولما جاء دوري، أشرتُ إلى أوشري، المغني الأمريكي. «مثل هذه التسريحة»، قلتُ أكانت قد سُذبت الجوانب حتى الجلد، القمة والمؤخرة يظللان جامحين. ممتاز جداً.

بعدها اشترتُ قلادة، عصابة المعصم، وبعض الأحذية الخفيفة. كنتُ متيقناً أنه ما من شخص يبدو أمريكياً أكثر مني. ضحك حسن، تغيرتُ كثيراً جداً في بحر يوم واحد، إلا أن التحرر من حركة «الشباب» بنا الهبة الأفضل في العالم بأسره.

في وقت لاحق من ذلك اليوم أنا وحسن قفزنا إلى داخل حافلة «ماناترو» وتوجهنا إلى مطعم لطيف عبر المدينة كي نقابل «بين بيللوز» وزوجته، نيكول. كانا سعيدين جداً برؤيتي وفخوريين كونهما ساعدانا على اجتماع شملنا أنا وحسن. كانت لائحة الأطعمة والمشروبات مُربكة، لم تكنُ نعرف ماذا نختار، إلا أن ستديشات «البرجر» بدت هي الطبق الأمريكي بامتياز، وهكذا كلاتنا طلب هذا الطبق. بعد وجبة الطعام مضينا إلى منزل «بين» ونيكول لغرض زيارتهما. سلّمانا مئة دولار من مالهما الخاص كي يساعداني على الاستقرار. بعد بضع ساعات رجعنا

إلى «إستليغ»، إنما ليس إلى الفتدق. الآن باستطاعتي المكوث في حجرة حسن في «الشارع الثامن».

كان المبنى الذي يقيم فيه حسن مبنى سكنياً يؤوي عشرات الصوماليين، كل أسرة كانت مضغوطة في حجرة شديدة الصغر. درجات السلم، حالكة السواد حتى وقت النهار، تصبّر وتمايل كثيراً جداً بحيث شعرت أنها سوف تنهار في أي وقت. «جليكانات» مليئة بالماء وأكياس مليئة بالفحم النباتي موضوعة في كل حذب وصوب. كان الناس يغسلون ملابسهم بالدلاء ويعلقونها في شرفاتهم، وتظل تقطر على الشارع في الأسفل وتضيف إلى بركة الوحل الكاتبة أمام المبنى السكني. كانت السحالي تزحف على الحيطان. بطبيعة الحال هذه هي الطريقة التي يعيش فيها ملايين الأفارقة، في المدن حول القارة برمتها، لذا كان المقيمون في «موفاديشو الصغيرة» مرتبطين جداً لأنهم كانوا خارج منطقة الحرب الضروس.

كان حسن يقيم في الطابق الثالث. سياد تزوج ورجع ثانية إلى معسكرات اللاجئين مع زوجته، لذا كنتُ فريق الحجرة الجديد. كانت الحجرة صغيرة إلا أنها على الأقل ذات نافذتين تواجهان الشارع. لا أثاث، لا حمام، لا مطبخ. كان حسن أساساً يعيش في الخارج ويستخدم غرفته للنوم فقط. مطوياً في إحدى الزوايا كان هنالك فراش واحد من المطاط الإسفنجي ووسادة؛ استخدمنا بعض النقود من «بين» ونيكول كي نشترى طقمًا آخر (فراشاً ووسادة) لي. لا شيء من هذا كان يهمني أو يزعجني ما إن شاهدتُ الجاذبية الرئيسية في غرفته: لايتوب توشيبا وكدمس من تسجيلات ال دي. في. دي. لأفلام هوليوود. أخبرني حسن أنه توجد آلاف من تسجيلات ال دي. في. دي ثباع في شوارع نيروبي. «لا يسعك أن تشاهدها كلها في زمن حياتك»، قال لي. قررتُ أنه ربما أسعى لفعل ذلك.

كان اليوم التالي يوم إثنين، وكلّ الدوائر ستكون مفتوحة. في صبيحة

ذلك اليوم بعد الخبز والشاي قفزنا إلى داخل «ماتاتورا» متجهين إلى «المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة» (UNHCR). لأنه تم تهريبي إلى كينيا، لم أسجل نفسي بوصفي لاجئاً، وهذه هي الخطوة الأولى من أجل الوصول إلى «الولايات المتحدة». كنتُ أحمل جميع الرسائل التي بعثها «فريق عيدي». وصلنا ورأيت ويا لفزعني أن مئات الأشخاص الآخرين كانت لديهم الفكرة ذاتها صبيحة ذلك اليوم. كان الطابور قد امتد حول المبنى. بعد أربع ساعات دخلنا أخيراً، وجلستُ مع مئة من الأشخاص الآخرين في حجرة انتظار. عقب ذلك يست ساعات، خرج علينا رجل كيني ببذلة سوداء.

«انتهى الوقت!» قال بصوت مرتفع. «تعالوا غداً».

رجعنا في اليوم التالي. الطابور الطويل نفسه في الصباح البارد، أنا بالقميص القطني ذي العلم الأمريكي. الانتظار الطويل ذاته في الداخل. «مشاكل حاسوب»، قال الرجل هذه المرة. «تعالوا غداً».

مُحيطين، اتصلنا بين ييلوز. بعث رسالة إلكترونية إلى شخص ما في الدائرة الذي رد عليه قائلاً: «سأرى عيدي غداً».

في يوم الأربعاء نهضت من النوم باكراً وأخذتُ الـ «ماتاتورا» وحدي متجهاً إلى دائرة الـ «UNHCR». أربعة حراس أمن كانوا يدفعون صوماليين بعيداً عن البوابة. تدافعتُ بمنكبي عبر الحشد ودنوت من أحد الحراس.

«اسمي عيدي إفتين، شخص ما يعمل هنا يتوقع مجيئي».

وضع الحارس ذراعيه على صدري ودفعني. «ابتعد من هنا!».

لم يأت أحد كي ينادي باسمي.

في يوم الخميس أنا وحسن عدنا، مسلحين بإستراثيجية جديدة. اقترنا من أحد حراس الأمن، تكلم معه حسن بالسواحلية: «سوف أدفع لك». أخذ الحارس حسن إلى مكان لا نستطيع الكاميرا أن تدركه، وأعطينا

ألقي شلن — نحو عشرين دولاراً — سمح لي بالدخول إلى حجرة الانتظار.
في الساعة الثالثة بعد الظهر خرج رجل ونادى باسمي.

في حجرة أخرى أخذ صورتي وبصمات أصابعي، ومن ثم أُرشدني
إلى منضدة من أجل العمل الورقي. سُجلت رسمياً بوصفي لاجئاً مقيماً
في كينيا الآن يمكنني أن أفتش عن حماية واستقرار في «الغرب».

يوماً بعد ذلك، كنا أنا وحسن نمضي إلى الـ «UNHCR»، أملين أن
نحظى بمقابلة حماية. منذ مجيئه إلى نيروبي، حسن جرت مقابلاته أكثر
من عشر مرات. على جدار المبنى كانوا ينشرون أسماء الأشخاص الذين
تم اختيارهم للحماية وإعادة التوطين. كان حسن يدقق القائمة على
مدار أعوام. لم يقع الاختيار عليه. إلا أنه الآن، مع كل رسائل الدعم من
أصدقائنا الأمريكيين، كنا نحسب أن فرصنا قوية. ومع ذلك الحال نفسه
على الدوام: كان الموظفون يدنون رقمي هاتفينا الجوالين إلا أنهم لم
يتصلوا بنا من أجل إجراء المقابلة. شاهدنا صوماليين آخرين نُشرت
أسماءهم لم يكن يومهم أن يتحكموا بسعادتهم، كانت الدموع تنهمر
بغزارة على وجوههم. كان من الصعب أن تراهم وهم في هذه الحال؛ لم
يكنْ باستطاعتنا أن نشاطرهم فرحهم. إن الحياة بصفة لاجئين في نيروبي
مستكون قائمة بالنسبة للأشخاص الذين لا يتم اختيار أسمائهم. الحياة
الحقيقية بدأت فقط لأولئك الذين تم اختيارهم. كانت الـ «UNHCR» هي
مفتاح التحويل بين السعادة والتعاسة.



تابعت إرسال تقارير إذاعية إلى برنامج «The Story»، الآن من
استوديو الـ «BBC» في مركز مدينة نيروبي. بدلاً من الحياة في متطفة
حرب حكيثُ للأمريكيين عن حياتي كلاجئ في «موقاديشو الصغيرة».
ثمة اختلاف كبير واحد بين «موقاديشو الصغيرة» وموقاديشو الحقيقية:
في نسخة نيروبي أنت لا تستيقظ صباح كل يوم متسألًا ما إذا كان هذا

هو يومك الأخير على وجه البسيطة. إذاً هذا شيء مؤكد بشكل أكبر. إلا أن «موقاديشو الصغيرة» ما تزال اختباراً يومياً. أنت وحدك، وبفاؤك على قيد الحياة يعتمد على قوتك، حصافتك، وحظك السعيد. الحكومة الكينية والـ «UNHCR» اقترحنا عدم تقديم المساعدة لعشرات الآلاف من اللاجئين الصوماليين المقيمين هناك، وبدأ الأمر كما لو أننا غير موجودين أصلاً. كل امرئ يتعين عليه أن يبحث عن غذائه، ملابسه وماواه بنفسه، إلا أنَّ وثائق اللاجئين لا تسمح بعملهم، ولهذا لا توجد طريقة رسمية لكسب المال من أجل تلبية هذه الأشياء. كما أنَّ وثائقك لا تحميك من مضايقة البوليس.

نحس كما لو أنك وقعت في فخ، وهذا الفخ هو «موقاديشو الصغيرة». إلى الشرق تقع «قاعدة موي الجوية»، وهي القاعدة البريطانية «RAF» السابقة ومركز قيادة «القوة الجوية في كينيا». من الطبيعي، أنها كانت مُحاطة بسور، وطريقها مسدود. وإلى الغرب، بين «موقاديشو الصغيرة» وناطحات سحاب مركز المدينة، مخفر بوليس «بانغاني» المخيف، وكان يتحرك ضباطه الفاسدون كالمروحة كل ليلة بحثاً عن الرشاوى من اللاجئين. وإلى الشمال حي الفقراء «مثاري» الشاسع وسين السمعة، وهو واحد من أسوأ وأقذر أحياء الفقراء في أفريقيا كلها. مقارنةً بأكواخ «مثاري» الصفيح، يبدو حيّ «موقاديشو الصغيرة» مُنظماً مثل مركز مدينة منهاتن، ذو جادات مستقيمة مُرقّعة، بنايات «طبقية»، وتتوافر فيه الخدمات.

إنما في داخل «موقاديشو الصغيرة» كانت هنالك زمرة شياوية صومالية مُسلّحة تُسمّى نفسها «السلطات العليا». أعضاء الزمرة أولئك كانوا يُدركون أن الشرطة الكينية لا تحرك ساكناً من أجل حماية السكان المقيمين في «موقاديشو الصغيرة»؛ كان اللاجئون يهربون من البوليس ولا يجرؤون على التبليغ عن حدوث جريمة ما. لذلك كان أعضاء هذه الزمرة يُرهبون المقيمين، يختطفون منهم أجهزة الهواتف النقالة والأوراق المالية

تحت تهديد السلاح. في إحدى الليالي شبان من «السلطات العليا» أمسكا بحسن من رقبته أمام مبنى السكني مباشرة. أخذوا جهاز الهاتف الخليوي العائد له وبعض الأوراق المالية، ومن ثم أدخلوا سيارته. وفي ليلة أخرى طاردوني في أحد الأزقة. لحسن الحظ، تمكنت من الإفلات منهم.

لحسن الحظ، توجد أمكنة كثيرة للاندماج مع الحشد. كان الطريقان شمال — جنوب الرئيسان في «موقاديشو الصغيرة» هما «الجادة الأولى» و«الجادة الثانية»، كلا الطريقين كان يكتظ بالناس ليلاً ونهاراً بحيث يصعب عليك المشي. كانت الشوارع المتقاطعة مصطفة بينهما، بدءاً من «الشارع الأول» في الشمال وانتهاء بـ «الشارع الثاني عشر». في كل شارع من تلك الشوارع تقريباً سوف تجد مسجداً، محل «حلاقة» لإرسال المال بواسطة البرقيات، مول تسوق صغيرة، محلات شاي، استوديوهات للتصوير الفوتوغرافي، صالونات حلاقة، ومجموعات سكنية شاهقة تبيع للبشر. حتى الكينيون كانوا يقومون بتسوقهم الأسبوعي من الأطعمة من «موقاديشو الصغيرة». كان الناس يأتون من مناطق بعيدة من مثل أوغندا، بوروندي، رواندا و«غرب أفريقيا» كي يتسوقوا للسوق السوداء، وعادة ما يشترون الأجهزة الإلكترونية المزورة، وهي أرخص في «موقاديشو الصغيرة» مما هي عليه في أي مكان من القارة.

كان الحي السكني مرتباً بواسطة أسماء منحها الصوماليون لجماعات صغيرة بداخلها — فمثلاً المنطقة الواقعة في «الشارع الثاني عشر» تُسمى «عزبة كالفورنيا» لأن اللاجئين المقيمين هناك كانوا ينتقلون في أغلب الأحيان إلى «الولايات المتحدة» بعد انتظار طويل الأمد من الغربة⁽¹⁾ والمقابلات.

١- الغربة أو التخل screening أي تدقيق مستندات المرء الرسمية وطبيعة حياته وعقلانيته إلخ. كما يستخدم المصطلح نفسه في حالة التفتيش الأمني في نقاط البوليس أو الحواجز الأمنية - م.

إحدى المقيمات في «عزبة كاليفورنيا» كانت شابة حسنة الهندام تُدعى منى. كانت قصيرة القامة، ذات بشرة فاتحة، وليست شديدة الهزال حالها حال معظم الصوماليين والصوماليات، أغلب الظن لأنها نشأت في «موقاديشو الصغيرة»، تتناول كميات كبيرة من الدجاج. كانت تقيم مع عددٍ من رفيقاتها في الغرفة وكانت مستقلة بكل معنى الكلمة. اللاجئون المجدد باستطاعتهم أن يقولوا إنها كانت تعرف من العالم أكثر بكثير مما يعرفون. ولما تشاهدها وهي تمشي في «الجادة الأولى» فكذلك تشاهد امرأة أمريكية واثقة من نفسها في شوارع «نيويورك». لم تكن تخشى شيئاً ولم تكن خجولة البتة مثلها مثل أغلب الفتيات الصوماليات. كان الناس يرنون بأبصارهم إليها، بخاصة رجال الحي السكني، الذين كانت تتجاهلهم تماماً. كانت منى مجنونة بأمريكا وعقدت العزم على أن تتزوج من رجل بمستطاعه أن يأخذها إلى هناك. من الطيبي، أنني أحسستُ أنَّ بيننا قواسم مشتركة كثيرة، وقررتُ أن ألاحقها.

حبيبتي الأولى، فائزة، تقيم الآن في معسكر لاجئين بأتيوبيا، ولديها هاتف تقال وما زلنا تبادل الرسائل النصية من حين إلى آخر. ذات يوم أخبرتني أنها خُطِبتُ إلى رجل متزوج في السويد. هذا ليس حياً؛ على غرار منى كانت تتطلع فقط إلى طريقة ما للخروج من قدرها التمس بأن تكون لاجئة. فهمتُ الموضوع، إلا أنه ذكرني بشفتيتي، طريقة نعمة، زواجها. سواء كان الأمر معزّنين أو تذكرة إلى السويد، ما هو وجه الاختلاف؟ كنتُ أعرف أننا، أنا وفائزة، ربما لن نرى أحداً الأخر ثانية.

في ما بعد الظهر كان يحلو لمنى أن تسكع عند «استوديو أوباما»، وهو نوع من ناد اجتماعي حيث كانوا يعزفون هناك موسيقى أمريكية وباستطاعتك كذلك أن تستأجر دقائق كي تستخدم الإنترنت. ذات يوم شاهدتها جالسة إلى جهاز الحاسوب، تتراسل مع رجل صومالي في مينيسوتا ومع رجل آخر في سياتل في الوقت عينه. وفيما هي تفعل ذلك،

كانت تراجع أيضاً رجالاً آخرين من «الولايات المتحدة» على حسابها في الـ «فيسبوك». بعد مضي أيام قليلة قابلتها بالمصادفة في «أستوديو بلاتينيس»، وهو ناد اجتماعي آخر حيث كان شبيبة صوماليون بأحلى الثياب يرقصون على أنغام موسيقى أمريكية صاخبة، ويشربون علب الكوكاكولا. هؤلاء كانوا في الأغلب أشخاصاً يتلقون المال من أفراد عائلاتهم في «الولايات المتحدة»، لذلك إذا كانت المرأة تفكر باصطياد زوج أمريكي، فهذا النادي هو مكان جيد للظفر بمثل هذا الزوج. سررت نحو منى وأخبرتها باللغة الصومالية أنني أرغب بأن أواعددها.

ضحكت. «أنت لا تملك مالاً. لماذا أتواعد معك؟».

«لأنهم يسمونني [عبدى الأمريكى]»، قلت لها. كنت أعرف أن هذه حجة ضعيفة، إلا أنها بطلقتي الوحيدة التي يتعين علي أن ألبسها.

حدقت فيّ، تقبلت لهجتي. «هل أنت من موغاديشو؟».

«أجل».

«كيف هي؟ صفها لي».

«ألم يسبق لك أن زرتها؟».

«بلى»، قالت. «أسرني أجبرت على التزوح من الجنوب. أنا نشأت في المعسكرات. على أي حال أنت تضيّع وقتك. أنا لا أواعد رجالاً في أفريقيا. بخاصة اللاجئين».



في هذه الأثناء، أنا وحسن كنا نسعى دوماً لإجراء مقابلات إعادة التوطين، من دون أن يحالفنا الحظ. اتصلت شارون من مين، صديقتها العاملة في «جامعة ماساشوسيتس» واسمها مرغريت كوديل، كانت تترأس مجموعة من طلبة تمرّض أمريكيين ذهبوا إلى كينيا بغية تحسين صحة جهاز الدوران والصحة الأيضية في المناطق الريفية. كان المشروع يُدعى «عافية نجمة»، «الصحة الجيدة». أنا وحسن كنا مدعوين للتبرع من

أجلهم. لم يكن لدينا شيء آخر نفعله وستمين من انتظار شيء كي يحدث تغييراً، قبلنا الدعوة بسرور.

في ما بعد ظهر يوم في شهر أيار/ مايو 2012 حشرنا بعض الثياب في حقيبة ظهر ولفزنا في داخل حافلة هاتانوا قاصدين «دار الضيافة ميثوديست» في ألفينغتون، نيويورك. سوف يكون هذا ما وانا مدة أسبوعين، ولم يكن بمستطاعنا أن نصدق أن فيه مسيحاً وصلنا في وقت تقديم طعام الغداء، ولما دخلنا إلى حجرة الطعام، كانت المجموعة كلها المؤلفة من اثنين وعشرين طالباً وطالبة وثلاثة مدرسين قد هبوا واقفين وراحوا يصفقون لنا. كانوا قد سمعوا قصصي على «الإذاعة الوطنية العامة»¹، وبالنسبة لهم كنا من المشاهير. أما هم فكانوا بالنسبة لنا حلقاً يتحقق. بعد شرب الأنخاب، جلسنا أنا وحسن إلى مائدة الطعام فيما كان الجميع ينصتون إلى قصتنا. قلما كنا قادرين على تناول الطعام، إذ كانت لديهم أسئلة كثيرة جداً. أخذتُ صوراً «سيلفية» مع الجميع ونشرتها على حسابي في [الفيس بوك]. أول شخص علق على تلك الصور هي منى.

«هل أنت في [الولايات المتحدة]؟» كتبت.

نهضنا من النوم في ساعة مبكرة من الصباح وركبنا حافلتنا متجهين إلى موقع العمل جنباً إلى جنب مع مجموعة من طلبة التمريض الكينيين. ولما انطلقت الحافلة بسرعة خارج نيويورك طوال ساعتني الطريق إلى مدينة نيويورك، كان الطلبة الأمريكيون قد لبسوا سماعات الرأس الخاصة بهم. كان بعضهم يطالعون الكتب، وبعضهم يأخذون قيلولة. كنتُ أريد أن أعرف اسم كل واحد منهم وكل ما يتعلق بخلفياتهم الأمريكية.

«ما هذا؟»

1- الإذاعة الوطنية العامة NPR: هي مؤسسة إعلامية غير ربحية أمريكية تعمل بشكل سري وعلني وتعتبر شبكة وطنية تحوي 900 محطة إذاعية عامة في الولايات المتحدة الأمريكية تأسست العام 1971، ويقع مقرها الرئيس في واشنطن. اسمها الكامل بالإنكليزية National Public Radio - م.

«هذا يرطبك شفتيك».

«علامَ تستخدم هذا؟».

«إِنَّه من أجل بشرتك».

حين نرجلنا من الحافلة، أحاط بنا مئات الكينييين ممّن كانوا ينتظرون بفضل طلبه التمريض. صافحونا جميعاً واحداً واحداً. كان الكينيون يعتقدون أننا أنا وحسن أمريكيون من أصل أوروبي.

استدوا إليّ مهمة تسجيل أسماء المرضى، ومن ثم قياس أوزانهم وطول قامتهم. حسن، الذي أصبح الآن يتكلم السواحلية بطلاقة، كان يتعين عليه أن يترجم للمستين الكينيين الذين لا يتحدثون الإنكليزية. كنت أرتدي تي — شيرت كُتِب عليه «شيكاغو»، فسألني طالب كيني ما إذا كنتُ من هناك.

«نعم»، قلت، مبتعداً عنه بسرعة كي أنهي الحوار. أحسستُ بالخجل لأنني كذبت، إلا أنني كنتُ سعيداً جداً بأن أكون حول كل هؤلاء الأمريكيين بحيث أنني لم أكن قادراً على الاعتراف بأنني في حقيقة الأمر أحد الأشخاص ممّن ضيعوا حياتهم — لأجى صومالي قليل القيمة. أو أن أعترف لنفسي بأنه يتعين عليّ العودة إلى «موقاديشو الصغيرة» حين ينتهي المشروع.

بحلول اليوم الثاني، اكتشف الطلبة الكينيون أننا أنا وحسن لاجئان. في الحافلة سمعت أحدهم يسخر منا ويقمّم، «الشباب» لكنني حاولتُ أن أتجاهله وعقدت علاقات صداقة مع امرأة أمريكية اسمها شانون من بنغور، ولاية ميين.

في نهاية يومنا الأخير من العمل أقمنا حفلة في «دار الضيافة». رقص الجميع وأنشدوا الأغاني، شرب الأمريكيون البيرة. أما أنا فقبضتُ على حلبة صودا وراقصتُ مثلما رأيتُ النجوم الممتازين يفعلون في الأشرطة السينمائية، وفي أيديهم كؤوس الشراب. في صباح اليوم التالي دفعنا

الحساب وغادرتنا «دار الضيافة» وودعنا أصدقاءنا الجُدد. قالوا إنهم سوف يشتاقون إلى كيتا وسيعودون السنة المقبلة.

جلبتُ مارغريت بعض الأوراق المالية من شارون لحسن ولي. كان المبلغ كافياً كي نتخذ لنا عملاً في الشارع كأن نبيع الجوارب والأحذية. كنا نعمل سبعة عشر ساعة في اليوم كي تكسب مبلغاً كافياً لشراء الطعام ودفع أجرة السكن، حيث كنا نهض من النوم في الخامسة صباحاً كي نعمل بأفضل بقعة على الرصيف ولا نؤوب إلى منزلنا حتى منتصف الليل. إلا أنه بدا الأمر جيداً أن تدفع من مالك الخاص ولا تحتاج باستمرار إلى المال من شارون.

بعد أسابيع من العمل الشاق وقليل من التقدير في جيبي، بعثت رسالة نصية إلى منى وسألتها هل باستطاعتنا أن نلتقي معاً ونسكع. وافقت، والتقتنا في أحد المطاعم في «موقاديشو الصغيرة». دخلت مباشرة في صُلب الموضوع.

«عبيدي، أنت تبدد وقتك، يا أخي. لن أتواعد مع رجل مقيم في [موقاديشو الصغيرة]. كيف يسعني أن أواعد رجلاً مُقلساً مثلي؟».

على الرغم من ذلك، كان شيئاً لطيفاً أن تجالسها. تالياً توصلتُ إلى فكرة ما. مضيتُ إلى «أستوديو أوباما» وجعلتهم يعملون لي صورة فوتوشوب وأنا واقف بجوار «مبنى الإمباير ستيت»¹، «البيت الأبيض»، وأمكنة شهيرة أخرى في «الولايات المتحدة». مضيتُ إلى حسابي على «الفيس بوك» وحدثتُ مقر إقامتي إلى كاليفورنيا. نشرتُ الصور الفوتوغرافية كلها، جنباً إلى جنب مع تلك التي أخذتها مع

1 - مبنى الإمباير ستيت Empire State Building: ناطحة سحاب في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية، مكون من 102 طابق وفيه 72 مصعداً ويصل ارتفاعه إلى 1250 قدماً أي 441 متراً مع هوائي التلفاز. وهو يمثل طائفة ثقافية للأمريكيين عامة وسكان نيويورك خاصة وتعود شهرته الواسعة إلى ظهوره في أفلام سينمائية عدة - م.

الطالبة الأمريكية. لقد شاهدتها مني، قالت إنها انفجرت ضاحكة. كان الأمر يستحق ذلك.



«الشباب» كان لهم حضور أصلاً في معسكرات اللاجئين في شمال شرق كينيا، وكانوا قد أصبحوا أكثر عدوانية في البلد. في شهر تشرين الأول/أكتوبر 2011 اختطفوا عاملين مساعدين إسبانيين من منظمة «أطباء بلا حدود»، أغلروهما إلى داخل الصومال كرهيتين. رداً على ذلك أعلنت الحكومة الكينية الحرب على «الشباب» وأرسلت قوات، دبابات، طائرات عمودية، ومدفعية كي تحارب الإرهابيين في عمق الأراضي الصومالية.

كانت تُسمى «عملية ليندا نيشي»، «من أجل حماية الوطن»، إلا أن المقيمين في «موقاديشو الصغيرة» كان لديهم رأي جيد إلى حد ما وهو أننا لن نحظى بالحماية. ولما كانت القوات تجتاز الحدود الصومالية، طُوق البوليس «موقاديشو الصغيرة»، مفترضين أن المقيمين في هذا الحي السكتي سوف يلعبون نداء «الشباب» في الانتقام من كينيا. وفي الحال خلت الشوارع من البشر، وأغلقت المخازن والمحال التجارية. مضى الجميع إلى منازلهم وقحموا أجهزة التلفزيون. كان حسن قد أخلق باب منزلاً وجلس بهدوء. في الخارج كنا نسمع طلقات نار متفرقة.

تغيرت الحياة بين ليلة وضحاها في «موقاديشو الصغيرة». ازدادت مظاهرات الشرطة الليلية، بخاصة في المساجد. كان الرجال ذوو اللحى يؤخذون إلى جهات مجهولة. أعلنت أوامر تنفيذية: كل اللاجئين عليهم مغادرة نيروبي والذهاب إلى المعسكرات. كانت هذه هي بداية الكَرْ والفَرْ بيننا وبين البوليس. لمكنُ من التسلي في ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام، أن ألحق بـ «ماتاتو» متجهة إلى مركز المدينة، وأن أرسل تقريراً إذاعياً إلى برنامج «The Story» عن صديق أودعوه السجن أثناء الليل:

أخبرني أنهم [البوليس] هددوه لأنه، قالوا، «إِنَّكَ تعرف المتعاطفين مع [الشباب] هنا، وعليك أن نخبرنا بأسمائهم. إن لم تكن متصفاً بـ [الشباب]، فإنك تعرف إذا هؤلاء المتعاطفين معهم. «وكان يبدو كأنه «أنا لا أعرف!» ظل يصرخ أنه لا يعرف أي شيء عن «الشباب» أو عن «المتعاطفين مع [الشباب]» أو أي شيء من هذا القبيل.

بعد ذلك مباشرة، أنا وحسن كنا في طريقنا خارج شقتنا السكنية حين مشى وراءنا بسرعة رجلان بثياب مدنية.

«أرني جواز سفرك أو بطاقتك التعريفية، من فضلك»، قال أحدهما. توقفنا عن المسير ونظرنا إليهما. كاتنا قد أحضرا معهما قيوداً. «أين هما بطاقتكما التعريفيتان الكيبيتان أو جوازا السفر العائدتان لكما؟».

«ليس لدينا بطاقتان تعريفيتان كيبيتان»، أجاب حسن. «لدينا وثائق لاجئين».

حين مددتُ يدي في جيبي بحثاً عن وثيقة اللاجئين خاصتي، وضع الرجل القيد في معصمي وأخبرني أن أتبعه. «إلى أين تأخذني؟» سأله. «من فضلك أرني بطاقتك التعريفية كشرطي».

من جاكته الجلدية أخرج بطاقته التعريفية؛ لا يمكنني أن أجزم ما إذا كانت حقيقية أم مزورة. حاولتُ أن أحتج على اعتقالني، لكنه أخرج مسدساً. قادني إلى زاوية في الشارع حيث كان هناك قلة من الناس الماشين. أما حسن فقد جلبه الرجل الآخر.

«سوف آخذك إلى [مخفر بنفاني]!» صاح الرجل الذي يُمسك بي. تجمد قلبي من الرعب، إلا أن المساومة بدأت. «كم لديك من المال؟» سألني. «أعطني ألف شلن!».

«لا أملك هذا المبلغ»، قلت له.

«سبع مئة!».

«ليس بحوزتي سوى مئة شلن».

سحب محفظة النقود خاصتي من جيبى، نَقَبَ فيها، وأخذ ورقة المئة شلن مع صورة لجومو كينياتا، أول رئيس جمهورية لكينيا. ابْتَسَم، أبعد سدس دنته في حزامه، وغادر، لا شك بحثاً عن لاجئ آخر بمسطاعه أن يقر عليه كما لو أنه جهاز الصراف الآلي¹. هذا ما بدأ البوليس بتادوتنا به. حسن هو الآخر تفاوض بطريقته الخاصة انطلاقاً من تهديد الرجل الآخر. سرنا مبتعدين مدركين أن هذا هو خطرنا الجديد الذي سوف نواجهه ليلياً.

كانت نيروبي سجناً من دون سقف بالنسبة لي وبالنسبة لشقيقي، وبالنسبة لآلاف الصوماليين الآخرين. لا يوجد مستقبل بالإضافة إلى مزيد من مضايقات البوليس والخوف المروّع من ترحيلنا إلى الصومال. الضوء الكليل في نهاية نفقنا المظلم هو الأمل بأن أصدقائنا الأمريكيين ربما يساعدوننا على الهرب في يوم ما.

كانت مداخلات الشرطة في «موقاديشو الصغيرة» والقوات الكينية في الصومال هي أخبار سارة جداً لمنظمة «الشباب»، إنها على وجه الدقة القوضى العارمة التي كانوا ينشدونها. الإرهابيون صنعوا في الحال من وثيرة القتال. كانت هنالك قنابل يدوية رموها في داخل كنيسة بـ «نيروبي».

1 - جهاز الصراف الآلي ATM: جهاز إلكتروني يوفر للعملاء المؤسسات المالية إجراء المعاملات المالية في الأماكن العامة كبديل عن الحاجة إلى موظف. للقيام بأي عملية، يجب على العميل إدخال بطاقة بلاستيكية مرمزة تحتوي على رقم خاص بالعميل وبعض المعلومات الأمنية. ومن العمليات المالية التي يسمح بالقيام بها من خلال الصراف الآلي الوصول إلى الحسابات المصرفية وسحب النقود ومعرفة أرصدة الحسابات، وإيداع النقود أيضاً. اسم الجهاز الكامل بالإنكليزية: Automated Teller Machine - م.

بأميلا كانت تعمل لمصلحة منظمة «الصليب الأحمر» العائدة لكندا في كيتيا. دعنا لشرب القهوة في الجانب الغربي من المدينة في مركز تسوق فاخر يُدعى «ويست غيت مول». تمكنا أنا وحسن من تفادي نقاط تفتيش البوليس والصعود إلى حافلة «ماتاتورا». كان المول أشبه بشيء شاهدته في أفلام سينمائية تجري وقائعها في كاليفورنيا أو فلوريدا: كان ضخماً، نظيفاً، ذا حدائق وسلاالم مشحونة ومخازن تعج بالناس — أشخاص يرض، كيتين، آسيويين. الأشياء كلها كانت غالية جداً. كان لدينا حوار لطيف مع بام. أعطتنا رقم الهاتف النقال الخاص بها. «في حالة حدوث أي شيء لكما، اتصلا بي هاتفياً»، قالت.



لأننا لم نكن محظوظين في الحصول على مقابلات إعادة التوطين، كانت خطة «فريق عيدي» التالية هي أن ينجحوا في تدبير تأشيرات دخول طلبة أمريكيين لنا نحن الاثنين. وحتى نحسن فرصنا وتحصل على شيء من الخبرة، أنا وحسن بدأنا تأخذ دروساً بالإنكليزية على الإنترنت مع واحدة من معجبينا في أمريكا، وهي أستاذة جامعية بدرجة بروفيسور بالإنكليزية في «ليندون ستيت كوليج» بفرمونت، اسمها نيني ريلي. خصصت لنا أن نقرأ الأدب والمقالات وأن نكتب تقارير تلخص المسائل الرئيسة في هذه القطع، ردة فعلنا حيالها، وكيف يمكن أن تنطبق على مجتمعنا. كانت لنا اتصالات متبادلة مع عدد من الطلبة الجامعيين في «ليندون ستيت كوليج»، وبدأ كما لو أننا ندرس في «الولايات المتحدة». تحسنت كتابتي بالمراد.

بمساعدة شارون ملانا استمارة طلب الالتحاق بـ «سوثيرن ميين كومونتي كوليج» بوصفتنا طلبة جامعيين متبادلين عالميين. شارون وأفراد أسرنا بعثوا رسالة إلى الكلية مؤكدين أنها سوف تدعمنا مالياً وهم أفراد أسرنا الأمريكية في ميين. أنا وحسن علينا أن نخضع لشيء يُدعى «اختبار

الإنكليزية» بوصفها «لغة أجنبية»، الأمر الذي يستغرق نصف نهار. اجتزنا الاختبار، وبعد ذلك مباشرة نقل البريد السريع «DHL» نيروبي رسالتني قبول رسميتين من الكلية إلى أصحابها.

سوف نلتحق بكلية في أمريكا! يا للحظ السعيد! كانت الخطوة التالية هي أن نحصل على تأشيرتي دخول طلبة جامعيين لنا، الأمر الذي يتطلب مقابلات مع سفارة «الولايات المتحدة» في نيروبي. وكفي بسندوا طلباتنا، جمع «فريق عهدي» رسائل توصية من سبعة أعضاء في «مجلس الشيوخ» بالولايات المتحدة: سوزان كولبز وأولميا ستوي من ولاية «مين»؛ بيرني ساندوز من ولاية «فيرجينيا»؛ كاي هافان وريتشارد بور من ولاية «كارولينا الشمالية»؛ وكارل ليفين وديبي شيبانو من ولاية «ميشيغان». بعد أن أصبح كل شيء جاهزاً، دفعنا أجور المقابلات وانتظرنا تحديد موعد لإجراء هذه المقابلات.

من المقرر أن تجري مقابلاتي قبل مقابلة حسن بأسبوع. في صبيحة ذلك اليوم نهضت من النوم في الساعة الخامسة، متوتراً جداً، وركبت في الـ «ماتاترو» قبل أن يبدأ البوليس بالبحث عن اللاجئين. كان موعد المقابلة هو الساعة الثامنة. وصلتُ إلى هناك الساعة السادسة. بعد تَخلُّل أمني مُكثَّف دُلفْتُ إلى داخل السفارة وانضمت إلى حجرة انتظار لأشخاص بدوا فرحين وعصبيين مثلي تماماً. كانت قدماي تتران عرقاً في حقيقة الأمر. وفيما كنت جالساً هناك، فكرتُ بأمي وشقيقتي اللتين تركتهما هناك في موقاديشو. إذا ما حصلت على فيزا وذهبت إلى «الولايات المتحدة»، سأذهب إلى الكلية وأحصل على مهنة جيدة، وأرسل إليهما النقود أسبوعياً. ستكون الحياة رائعة لنا جميعاً.

«بي - 20، تقدّم إلى [شباك ثمانية].»

كان ذلك الفرد هو أنا، بي - 20. نهضت ومشيت إلى «الشباك ثمانية». كان الرجل وراء الكاونتر أمريكي أبيض في منتصف العمر، أصلع الرأس.

«كيف حالك اليوم؟» سألتني.

«أنا على ما يرام، أستاذ. وماذا عنك؟» استخدمت أفضل لكثة أمريكية لدي، ساعياً إلى ألا يُنمى عليّ بسبب أعصابي المتوترة.
«لا بأس. هل سبق لك أن سافرت إلى [الولايات المتحدة]؟»
«لا».

«هل سبق لك أن سافرت إلى بلد آخر باستثناء كينيا والصومال؟»
«لا. لكنني مررتُ بأوغندا في طريقي إلى كينيا».
«ماذا تعمل الآن في نيروبي؟»
«أنا هنا لأجني، أستاذ».
«هل سبق لك أن انتظمت في كلية بنيروبي؟»
«لا».

«والصومال؟»

«نعم، التحقْتُ بكلية في موقاديشو إلا أنها انهارت قبل أن أنهي دراستي».
«ما هذه الرسائل في يدك؟»
«هذه رسائل دعم من بعض أعضاء مجلس الشيوخ وداعمين آخرين».
أترغب برفقتها؟»
«بالتأكيد».

تطلع بسرعة إلى الرسائل، رفع بصره إليّ، وابتهرى قائلاً: «أنا آسف، أنت غير مؤهل لتبيل القيزا هذه المرة. حقاً سعيداً حينما انتهيت». وبعدها أعاد لي كل شيء».
تجمدْتُ. لم يكن باستطاعتي أن أترك شبابه. التفت إلى حاسوبه وبدأ يطبع.

«أستاذ»، قلت وعيناي مغمضتان بالدمع. «إلا أنه تجاهلني ودعا الشخص التالي، بي - 21».

خرجتُ من السفارة مثل أبي لما رجع إلى موقاديشو، مُعاقاً ومتماهلاً، ومثل حلمه، أجهض حلمي. أحسستُ أنني لا أنتمي إلى هذا العالم وأنتي

حتماً خلقتُ كي يكون لي قلب مكسور دائماً. كانت أوصالي ترتعش لوتعاشاً شديداً بحيث أنني خشيت من أن تدعسني سيارة، لذلك تعين عليّ أن أجلس وأتفحص. بعثت رسالة نصية إلى حسن، وفي الحال بعث لي كلّ أعضاء «فريق عيدي» مواساتهم لي. حسن رُفض بعددي بأسبوع.

حاولنا مرةً أخرى، بعث «بين» وبول رسائل إلكترونية إلى أشخاص كانوا يعرفان أنهم يعملون في السفارة. وثانية ثم رفضنا. أحد متطلبات الحصول على فيزات الطلبة الجامعيين أنه ينبغي أن تكون لديك أواصر عائلية قوية في بلدك الأم ولهذا لن تُغرى بالبقاء في «الولايات المتحدة» بعد إنهاءك الدراسة. بطبيعة الحال فالبقاء في «الولايات المتحدة» هو من غير ريب هدفنا، وموظفو السفارة ربما كانوا يعرفون ذلك.

قررنا أن نحاول الالتحاق بكلية في كينيا. لن يغير هذا الأمر وضعنا كلاجئين أو يساعدنا على أن نحصل على تأشيرتي دخول إلى أمريكا، إنما في الأقل سوف نحسّن حياتنا. والبوليس يصبحون أقل ميلاً لمضايقة لاجئ بحوزته بطاقة تعريفية رسمية بوصفه طالباً جامعياً. بالدعم المالي من شانون وأفراد أسرته، لم يكن لدينا شيء نخسره. في البداية ملأنا استمارات طلب القبول في «الجامعة الدولية». أصينا بخيبة الأمل، إذ رُفض طلبنا. لم يكن لدينا نسخ من سجلات مدرسية¹ صادرة من الصومال، وعلى أي حال مدرسة متكاملين بـسباس في الأرجح لن تترك لديهم انطباعاً جيداً.

خفضنا أبصارنا وفي النهاية حصلنا على القبول في شهر تشرين الأول/ أكتوبر — حسن قبل في «ميثوديست يونيفرسيتي»، وأنا في «أفريكا نازاريني يونيفرسيتي». وهكذا من دون مشاكل كثيرة جداً أصبحنا طالين

1 - سجلات مدرسية school transcripts: أي دفاتر علامات الطالب أو تدرجته. هذا النوع من الدفاتر يُسمى في العراق «البطاقة المدرسية» للطلاب، ويتم تحريرها من مرحلة دراسية إلى أخرى - م.

جامعيين رسميين، وكل واحد منا أصبح لديه بطاقته التعريفية كطالب جامعي. بدأت الفروس في نيسان/ أبريل 2013.

لرحاً لتفاسم أخباري السارة، مشيت نحو محل الشاي الأثير خاصتنا في «الشارع السادس» وقابلت أصدقائي يونس، قرح، وزكريا. كنا نحتمي الشاي ونتكلم عن الأشياء المشتركة — الحياة، الفتيات، والألعاب الرياضية — حين لفت نظري شيء ما في الناحية الثانية من الشارع. هناك، عند باب «مقهى الإنترنت»، بالطة جديدة: «ملاحظة: املاؤا الآن طلبات فرعة [البطاقة الخضراء] الأمريكية»¹.

فرعة «البطاقة الخضراء» الأمريكية؟ لم أسمع بذلك قبلاً، إلا أن يونس قال إنها طريقة من طرائق الحصول على فيزا بمجرد أن تكون سعيد الحظ. تملاً استمارة على الإنترنت وتنتظر كي ترى ما إذا وقع الاختيار عليك. المسألة كلها تعتمد على الحظ، وليس على الأشخاص الذين تعرفهم أو المهارات التي تمتلكها. كان صاحب مقهى الإنترنت يطلب عشرين ستاً عن ملء طلب التقديم، وهكذا كان يشجع الناس على المحاولة. «دعونا نحاول ذلك»، قلت.

«أوه لنس الموضوع»، قال قرح. «إنها مضيعة وقت».

«إنك لا تعرف لب المسألة»، قلت. «إنها مجرد عشرين ستاً».

جررت أصدقائي إلى الناحية الثانية من الشارع، وجلسنا ودخلنا على محرك «غوغل» بحثاً عن اليانصيب. كانت تُدعى رسمياً «برنامج فيزا هجرة التنوع»، وكان يقصد به منح الأشخاص من البلدان الفقيرة حصّة

1 - فرعة [البطاقة الخضراء] الأمريكية American Green Card Lottery: فرعة سنوية للحصول على رخصة الإقامة الدائمة والمعروفة باسم «البطاقة الخضراء» في الولايات المتحدة الأمريكية، بتفويض من الكونغرس وتديره وزارة الخارجية الأمريكية. ويسمى هذا البرنامج أيضاً «برنامج فيزا هجرة التنوع» أو الهجرة العشوائية. بالإنكليزية: Diversity Immigrant Visa Program - م.

عادلة فيما يتعلق بالهجرة إلى «الولايات المتحدة». في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من كل عام، يملا طلبات التقديم ما يتراوح بين ثمانية إلى خمسة عشر مليون فرد حول العالم، وخمسون ألف فرد فقط يحصلون على تأشيرات الدخول — وهو جزء من واحد بالمئة. سيكون أسهل بكثير مقارنة بالانتظام في «جامعة هارفارد». لا أحد في المهبط كان يعرف أن صومالياً سبق له أن حصل على الفيزا.

أنا متيقن من أن أجرة طلب التقديم لو كانت خمسين سنتاً، ما كنتُ لأهتم. لكن أن تكون الأجرة عشرين سنتاً، وهو شيء كنا نفكر فيه جميعاً أننا كنا نهدد تقودنا بلا طائل، أنا وأصحابي اغتصمنا فرصنا وملأنا طلبات التقديم في ذلك اليوم. وحذا حدونا حسن. كل ما كان يوسعنا القيام به بعد ذلك هو أن نتظر أشهر عدة ربما تظهر النتائج في شهر أيار/ مايو من العام التالي.



وصلت السنة الميلادية الجديدة وكينيا كانت مستغرقة في انتخاباتها الرئاسية المرتقبة. في 4 آذار/ مارس، 2013، صوّت البلد على أوهورو كينياتا، نجل جومو كينياتا، الذي ظهر وجهه على التلفاز التي كان يسرقها منا رجال الشرطة يومياً. الابن استمر في برنامج سياسي يتعلق بالأمن الوطني، مُقسماً على أن يقضي على «الشباب» نملعاً، الأمر الذي يعني حصول مزيد من هجمات «الشباب». توقع الصوماليون مزيداً من مظاهرات البوليس في «موقاديشو الصغيرة»، وفي ليلة الانتخاب بقينا كلنا وراء أبوابنا المغلقة، ندعو الله ألا تكون هنالك عيوات أو طلقات بنادق. بعد مضي أشهر على الانتخاب، كانت التوترات تتفاقم في أرجاء المدينة كلها.

بدأت الكليات في شهر نيسان/ أبريل. كان كورس دراستي هو «التواصل الواسع»، وهو نسخة الكلية من الصحافة، وكنتُ فرحاً أن أكون في الصفوف يومياً. كان الجزء الصعب هو الوصول إلى هناك لأن الحرم الجامعي يبعد خمسة عشر ميلاً في حي «أونغاتا رونغاوي» السكني، ويتطلب

وكوب حافلتين من نوع «ماتاترو». في كل الأمكنة على طول الطريق يمكن أن يضربك إرهابي انتحاري أو تموت بعبوة ناسفة في الرصيف أو يقبض عليك البوليس؛ أي شيء يمكن أن يحدث. ذات يوم كنتُ في حافلة «ماتاترو» آتياً إلى المنزل بعد أداء الامتحان حين لاحظ الركاب أنني صومالي، قلقوا من احتمال أن أكون أحد أعضاء حركة «الشباب» وأحمل قبلة في حقيبة الظهر خاصتي. بدؤوا يجارون على السائق.

«لماذا هذا الرجل هنا؟».

«اطرده!».

قاد السائق سيارته إلى جانب الطريق وأمرني بالترجل من السيارة. لسوء الحظ، كان قد توقف أمام «مخفر شرطة باتغاني» تماماً. كانت حركة «الشباب» قد فجرت المخفر بقنبلة قبل بضعة أسابيع خلت، وكانت الإجراءات الأمنية شديدة وصارمة. لو أنني ترجلتُ من الحافلة هناك، لا اعتقلوني في أفضل الأحوال، وربما أطلقوا علي النار في الحال. لا يسعك أن تُعطي الرشى في تلك البقعة، لأنه توجد آلات تصوير هناك. توصلتُ إلى السائق فيما كان الركاب يصرخون، «اطرده!».

«أنا طالب جامعي!» هتفت. «لستُ إرهابياً» في النهاية قلبتُ حقيبة الظهر خاصتي وأقرغتُ كل محتوياتها من الكتب، أفلام الرصاص، وأفلام الخبر على أرضية الحافلة. رفعتُ عالياً بطاقتي التعريفية كطالب جامعي كي يراها الجميع. استمر الجدل مدة خمس دقائق إلى أن أسرع السائق، وبعدها أنزلني بعيداً عن مركز الشرطة. كفتتُ عن حمل حقيبة ظهر وكنتُ ألبس قميصاً قطنياً فقط جهراً كي لا يدور في خلدكم أنني أحمي قبلة.

في نهاية المطاف، أقبل شهر أيار/ مايو كي يتم إعلان أسماء الفائزين بالقرعة. كان أصحابي قد نسوا ما يتعلق بالأمر. أما أنا فكنتُ أفكر فيها يومياً، منتظراً لحظة بلحظة. أرسلتُ رسائل نصية إلى أصحابي كي نلتقي في ما بعد الظهر في مقهى الإنترنت.

كان يلزمنا أن تنتظر نهاية الحاسوب، كان مكتظاً جداً بالأشخاص الذين يدققون النتائج. كانوا قد أتوا منذ الصباح، كينيون، أتوبيون، صوماليون، كلهم خرجوا بوجود مكتبة.

«انتظر، هذا الشيء مزيف».

لما حصلنا على حاسوب، فرح دخل أولاً. غير محفوظ. زكريا. لا. يونس. سواء. مضيتُ أخيراً. حين أدخلتُ رقم الطلب وتاريخ الولادة، فكرتُ في كلّ الحظ السعيد الذي حالقني في حياتي. كانت تلك المرة التي أفلستُ فيها أسرتي من الإعدام خلال هربنا من موقاديشو حين تعرف المقاتل على أبي، المرة التي قابلتُ فيها بول بالمصادفة ذلك اليوم في موقاديشو، وضعني على درج بوصفي مراسلاً إذاعياً؛ شارون تسمعي على الراديو في ميين ذات مساء علي، سائق التاكسي الصومالي في كمبالا الذي أنقذني من «مطار عتبي». قدر كبير من الحظ السعيد. نفرت «سلم»، في أوفر الأيام حظاً في حياتي.

هوز غير مُرجّح

حسبتُ أنه خطأ. لم يفرّز أحد بقرعة الـ «الحرين كاردا». أدخلتُ بياناتي مرتين. في كلتا المراتين جاء الشيء نفسه: «لقد تم اختيارك بصورة عشوائية...».

جنّ جنون الأشخاص في المقهى، صفعوني على ظهري وراحوا يهتفون لي. كان صاحب المقهى في منتهى السعادة، الآن بوسعه أن يتفاخر بأنه يملك مقهى سعيد الحظ. «أنت الآن أمريكي!» صاح. «سوف تذهب إلى بلاد الفرص! نذكّرنا نحن الذين ما تزال قابعين هنا».

استمرت واستمرت، المصافحات والتهاني. كنتُ في حالة من منتهى السعادة. ولما هدأت الأمور، كانت لدي الفرصة أخيراً في أن أقرأ المزيد. كان الموقع الإلكتروني قد قال فعلاً «لقد تم اختيارك بصورة عشوائية...» إلا أن هذه ليست هي الجملة كلّها. البقية تقول «... من أجل مزيد من معالجة البيانات».

لقد تم اختيارك بصورة عشوائية من أجل مزيد من معالجة البيانات. ماذا يعني ذلك؟ تابعت القراءة. تبين أن الفوز بقرعة «البطاقة الخضراء» لا يعني أن تفوز بـ «البطاقة الخضراء» فعلاً. إنه ربح لك فرصة تقديم طلب الحصول على «البطاقة الخضراء». ليس جميع الذين قدموا

الطلبات سوف يحصلون فعلاً على «البطاقة الخضراء»، أي أن القرعة تسحب ثلاثة أضعاف عدد «الفائزين» الذين سوف يُسلمون فعلاً «البطاقة الخضراء» في العام 2013 كنتُ واحداً من بين 155 ألف فائز تم اختيارهم حول العالم كي يقدموا لخمس وخمسين ألف «بطاقة خضراء» من المؤمل أن تصدر في العام 2014، أي تقريباً فرصة واحدة من بين ثلاث.

لم يكن هذا يبدو شيئاً جدياً، في حياتي حرفتي الحظ في حالات أسوأ بكثير. إلا أن هذا ليس كل شيء. الفائزون بالقرعة لهم أرقام، والأشخاص الذين لديهم أقل الأرقام يحصلون على أول محاولة في تقديم طلبات الـ «غرين كارد». حين يفشل بعض أولئك الفائزين الأوائل في المرور مهما كانت الأسباب، الأرقام التالية في الصف تُدعى لتقديم الطلبات. حين تصدر جميع الـ «بطاقات الخضراء»، تنتهي العملية فيما يتعلق بتلك السنة. إذا لم يُدخ رقمك، تكون المسألة قد انتهت. لقد فقدت فرصتك. وحتى إذا دُعي رقمك أخيراً، فإن موعد التوقف عن العمل من أجل «البطاقات الخضراء الخاصة بالتنوع» هو 30 أيلول / سبتمبر من سنة الإصدار — 2014 في حالتي. في ذلك التاريخ لن يصدر مزيد من «البطاقات الخضراء»، حتى إذا لم يفز كل الخمسة والخمسين ألف فرد حتى الآن. وهكذا كانت ساعة الحائط تتكثك للجميع.

أول اسم تم اختياره من منطقة أفريقيا تلقوا طلبه هو الحالة رقم 2014AF000000001. رقم واحد. رقم حالتي هو 2014AF00047441. يلزمني أن أقرأها بعناية مرات عدة كي أفهم ما معنى أن يكون هنالك سبعة وأربعون ألف فرد أمامي. في أفريقيا، باستثناء الفائزين الآخرين في جميع أنحاء العالم، وهم يسعون من أجل الحصول على تأشيرة الدخول ذاتها. بدا ذلك أشبه بمفاضلات مستحيلة. بالنسبة لي الوصول إلى أمريكا، يعني أن أتمنى أن يحقق في الفوز عشرات الآلاف من الأشخاص المستقلين الآخرين حول العالم.

كانت الرياضيات سيئة، إلا أن العمل الورقي بدا مشبهاً للهمة أكثر. لو حدث أن حصلتُ على مقابلة من أجل تقديم طلب نيل فيزا، سوف أحتاج إلى جميع ضروب التوثيق حول مَنْ أكون أنا، وماذا كنتُ أفعل طوال سنوات حياتي. إلا أن حكومة «الولايات المتحدة» لم تكن تعترف بأي وثائق مدنية صادرة من الصومال. لم تكن تقبل أي جوازات سفر، شهادات ولادة، أوراق طلاق أو رخص زواج صومالية. بمعنى آخر كنتُ بحاجة إلى إنتاج تقارير مدنية كي أعرب من بلد تعرّض لدمار شديد بحيث إنه لا توجد تقارير مدنية. بعد أعوام عدة عرفتُ ما يتعلّق بمصطلح «النقطة - 22». هكذا كانت هي.

الأمل الوحيد هو أنه باستطاع الصوماليين أحياناً أن يحصلوا على وثيقة تتأزّل عن تلك الوثائق. إلا أن العمل الورقي الآخر كان مطلوباً على الدوام، بدءاً بالشهادة الطبية التي تقرر أنني معافى. لا أعتقد أن هذا سيكون عملاً عسيراً جداً، إلا أنني لم يسبق لي أن زرت طبيباً طوال حياتي كلّها، لذلك لم أكن أعرف في حقيقة الأمر. ومن ثم عليك أن تحصل على سجلاتك المدرسية، إلا أنه مع كلّ مناهضات البوليس لم يكن بوسعني الذهاب إلى الكلية يومياً، وكان حضوري ضعيفاً على الرغم من بذلي أقصى الجهود. أسوأ المتطلبات، ذلك الذي عُمرني بالرحيب، هو الحصول على وثيقة تُسمى «كتاب تأييد بحُسن السلوك»، يشهد بأنني لم أقترف جُرمًا. بالطبع لم أكن مجرمًا وليس لدي تقرير يُثبت ذلك، إلا أن نيل دليل على ذلك يستلزم الدخول إلى «مركز قيادة شرطة نيروبي» وأن يتم أخذ بصمات أصابعي. الشرطة نفسها التي كانت تضايقنا يومياً.

لم يفز حسن بالقرعة. أعتقد أنني انزعجتُ أكثر منه.

طوال صيف العام 2013 اختبأتُ فيما كنا نرسم طرائق كي تجمع العمل الورقي الخاصتي إذا ما تسنى لي الحصول على إشعار بتقديم الطلب.

صنعتنا أنثقالاً¹ من حلب الحليب الفارغة المملوءة بالأحجار والرمل، وتبادلنا الأدوار في القيام بذلك في غرفتنا. فكثرت أنه إذا بدوتُ بارز العضلات على غرار أرنولد شوارزنجر، فإن ذلك سيساعدني على اجتياز الاختبار الجسدي خاصتي كي أهدو أمريكياً مثلما فعل هو.

سجلتُ تقريراً إذاعياً عن فوزي بالقرعة لبرنامج «The Story» وبعدها غمشتُ جريدة «The Huffington Post» قصةً عني. أصبحتُ أشهر فائز بقرعة الـ«غرين كاردا» في العالم، مع أنه لم يتم اختياري لإجراء مقابلة تقديم الطلب. يومياً أنفحص بريدي الإلكتروني من «وزارة الخارجية»²، إلا أنه لم يأت شيء طوال أسابيع وشهور.



في 21 أيلول/سبتمبر مجموعة من إرهابيي حركة «الشباب» هجموا على «مول ويست فيت» - المكان ذاته الذي قابلنا فيه أنا وحسن باميلا، ابنة بك غوردون، وشربنا القهوة معاً. كانوا قد أتوا وقت الظهر تقريباً في يوم السبت وبدؤوا يقذفون قنابل يدوية في كل الأرجاء. في الداخل، كانت كاميرات المراقبة الفيديوية التابعة للمول قد أظهرت إرهابيين يذرعون المكان جيفة وذهاباً، وراحوا يطلقون النار بشكل عشوائي على الكيبيين والأجناب الذين خرجوا من أجل يوم التسوق. أخلوا سبيل أولئك الذين يدون مسلمين، أو أولئك الذين كان يوسعهم أن يرتلوا القرآن، أو حتى أن يسموا أم النبي محمد (آمة، شيء جيد أن تعرف). قبل ذلك، كانت هجماتهم تحدث في أغلب الأحيان حول أحياء الفقراء القذرة، أما الآن فقد استهدفوا الشطر الثري من المدينة. وعلى مدى يومي الاستراحة من العمل، قُتل سبعة وستون فرداً ونُرحل عدد أكثر من هؤلاء.

- 1 - الأثقال barbells: جمع ثقل، وهو قضيب في كل من طرفيه ألحاص حديدية (يستخدم في رياضة رفع الأثقال) - م.
- 2 - وزارة الخارجية the State Department: أي وزارة الخارجية الأمريكية - م.

خمسة أميال إلى جهة الشرق، «موقاديشو الصغيرة» تحولت إلى مدينة أشباح. أغلق الناس مخازنهم وحوانيتهم الشوارع خالية. في الداخل، كل شقة كانت مكتظة بأشخاص يشاهدون أجهزة التلفزيون العاتلة لهم ويتفكرون العمليات الانتقامية. احتشد أشخاص آخرون في المساجد وصلّوا من أجل السلام. وفي غضون أيام، رجال البوليس يقبعاتهم الحمر اجتاحتوا منطقتنا السكنية. كانت هذه «وحدة الخدمة العامة»، وهي جناح شبه عسكري عالي التدريب. «اللاجئون يجب أن يعودوا إلى المعسكرات!» قال المتحدث الرسمي باسم الشرطة الكينية على التلفزيون. «عليهم أن يُظهروا أنفسهم لضباط الشرطة» ومن ثم مضوا مباشرة إلى المساجد وأخذوا يجزّون الجميع إلى الخارج.

كانت شاحنات البوليس تُرسل إلى كل بلوك من «موقاديشو الصغيرة»، خارج مبنانا السكني، كان رجال الشرطة يحتملون الصوماليين في داخل شاحنة كما لو أنهم أكياس ذرة، كانوا يرمونهم في داخلها واحداً فوق الآخر. كانت النساء يصرخن بأصوات عالية، والأطفال يبكون. ولما امتلأت الشاحنات، انطلقوا بالسيارات إلى ملعب كرة القدم الكبير في «قصراتي»، الذي كان قد تحول إلى معسكر احتجاز، وعندما لم يعد هنالك مزيد من الشاحنات، جعلوا الناس يسرون على أقدامهم، عشرة أميال، صوب الملعب الرياضي.

في منتصف الليل تقريباً سمعنا صرخات من الطابق الأسفل، وبعدها طرقاتاً على الباب.

«افتحوا الباب، أيها الإرهابيون، وإلا حطمتنا وقتلناكم!».

أنا وحسن كنا نعرف أن مزلاج بابنا يستسلم بسهولة، لذا قررنا أنه لا خيار أمامنا سوى أن نفتح الباب. في الجانب الآخر وقف شرطيان بقيعتين حمراوين، إلا أن الشيء الرئيس الذي رأته هو قبضة أحدهما، وهو يردد بوجهي. ضربني بقوة شديدة بحيث فقدت الرؤية. وبعدها شرع الاثنان

بركلاننا وبلكماننا معاً. الشيء الثاني الذي أتذكره هو أن أحد الشرطيين جعل يجرني إلى الطابق الأسفل من يافتي، كما يفعلون في الأفلام. كنتُ أصرخ من أجل حياتي. كان حسن وراتي مباشرة. أوقفانا في الخارج أمام مركبة الشرطة كي يستطيعا أن يشاهدا وجهينا على أضواء المركبة. كان الجو بارداً وممطراً، وكنتُ أرْتجف. كان قميصي ممزقاً. لم أكل منذ صباح ذلك اليوم. خطر بهالي أنني عائد إلى الصومال.

واحدًا واحدًا طلبوا منا أن نُظهر بطاقاتنا التعريفية. لما أخرجتُ بطاقةتي التعريفية كلاجئ، رماها الضابط بوجهي. أمسك بعنقي وقال لي أن أقفز إلى داخل مؤخرة الشاحنة. كانت مكتظة أصلاً باللاجئين الصوماليين، لا يوجد أي حيز، إلا أنني حشرتُ نفسي بينهم وانتظرت أن تتحرك الشاحنة. «حلمي الأمريكي مات إلى الأبد»، فكرت.

إنما حينئذٍ حالقني الحظ السعيد. بدأ أصحاب القبعات الحُمر يسامون من أجل المال. في النهاية شرطة الجناح شبه العسكري عظيمو الشأن أولئك لم يكن يشغل بالهم إلا الرشاوى، حالهم حال شرطة الشوارع الاحتيايين. أي فرد بوسعه أن يكفل نفسه بدفع المال يستطيع العودة إلى شقته. أنا وحسن اشترينا طريقنا إلى الحرية بثمانين دولاراً كانت لا تزال لدينا من شارون. أحسنا بالأسى على أولئك الأشخاص الذين لم يكن لديهم مال كي يعطوه كرشوة.

استمرت عمليات التطويق والترحيل على مدار أشهر عدة، حتى ربيع العام 2014. في كانون الثاني/ يناير، تلقيتُ اتصالاً هاتفياً من مراسل إذاعة الـ «BBC» في لندن واسمه ليو هورناك. كان قد قرأ منشور مدونة كنتُ كتبتُه إلى منظمة خيرية كنيية فيما يتصل بالفوز بالقرعة. كان قد عمل قصة عن أشخاص حازوا جميع أنواع القُرعات ويريد أن يحاورني. وهكذا في 4 شباط/ فبراير، تسلمتُ إلى مركز المدينة حيث استوديوهات الـ «BBC» وسجلتُ حواراً مع ليو في لندن. في نيسان/ أبريل قرر ليو أن يعمل

حلقات إذاعية مستندة إلى قصتي، وأنا أسجل اتصالاتي الهاتفية على الـ «Skype» مستخدماً خدمة رقمية صغيرة. إنما في المقام الأول ينبغي لي أن أحصل على الجهاز — رحلة أخرى إلى مركز المدينة.

كان هذا الجهاز هو مارايتز 620، بحجم مجموعة ورق اللعب. كان بمستطاعي أن أحمل التسجيلات على حاسوبنا اللوحي؛ لحسن الحظ، كنا لا نزال نملك واي — فاي، الذي كان قد نصبه بنحو غير مشروع رجل صومالي قبل الهجوم على «مول ويست غيت» مقابل مئة شطن شهرياً، وبشكل من الأشكال كان لا يزال لدينا تيار كهربائي. كان تسجيلي الأول في 18 نيسان/ أبريل، قد جعل ليو يشعر بالإنثم لأنه جعلني آتي إلى مركز المدينة:

في حجرتي هنا في «موقاديشو الصغيرة». الشوارع تحت الحصار. أكثر شيء مطلوب هنا هو «وجه صومالي». في الوقت المحدد غامرتُ في الخروج من «موقاديشو الصغيرة» أول مرة اليوم. أصحابي، شقيقي، وكل الأشخاص الذين يعرفوني ما يزالون لا يصدقون ذلك. في أول خطوة لي خارج الباب، أحسستُ بتوتر شديد. كان شقيقي في الباب يقول لي ألا أذهب. إنه شيء خطير. إنما كان لزاماً عليّ أن أقوم بيوميات إذاعية لمصلحة الـ «BBC». إلا أن الأجهزة التي من المفترض أن تسجل قصصي هي في مكتب الـ «BBC» الواقع في مركز مدينة نيروبي. إنما بين ذلك التسجيل الإذاعي وبينني رحلة صعبة وغادرة. كانت رحلتي خارج «موقاديشو الصغيرة» أشبه بعبور الحدود إلى داخل بلد آخر، ذي دوريات حدود مكثفة. مشيتُ بمحاذاة جدران المباني وتحاشيتُ الشوارع. إنما بسبب الأمطار الغزيرة صباحاً، كانت الشوارع تغص بالوحل حتى الركب. مشيتُ بتأني كل سيارة تمر من

هناك تجعلني أرعد خوفاً. شاهدتُ الحافلة رقم ستة متجهة صوب مركز المدينة، أقيتُ نظرة عامة على الراكبين. لا يوجد صومالي هنا. العيون كلها كانت مُثبتة على وجه صومالي. كانت الحافلة تتأرجح على النغام موسيقى جمابكية كانت أكثر مما نستطيع أذناي أن نتحملاه. كان الإيقاع النابض لا يُطاق. إلا أنني لم أكن أبالي بأذني، بل بحياتي.

أنا وحسن أصبحتا خائفين تماماً من مغادرة غرقتنا، وحتى من استخدام الحمام في الطابق الأسفل. أمسى المبنى السكني الآن خالياً تقريباً. وفيما كانت الأيام تمرّ، بدأ طعامنا يشح. تقاسمنا إمداداتنا مع أسرة صومالية أخرى ما تزال مقيمة في الطابق الأرضي من بنايتنا السكنية — امرأتان، إحداهما امرأة وحيدة مع غلامين صغيرين، هم أيضاً دفعوا رشاًوي كي يظلّوا في مأواهم. وسرعان ما أصبح طعامنا يقتصر على الشاي وشيء من الخبز الذي كان لا يزال يسلّمه رجل كيني يقود دراجة هوائية. وفي إحدى الليالي أخبرتُ ليو على الـ «Skype» أننا غدونا يائسين تماماً.

«بدأتُ أشعر كما لو أننا ربما لن نستطيع تخطي هذه الأزمة. كانت هيونتا قد أصبحت حُمراً وشعرنا بات يتساقط. أصبح شكلنا هزيلاً جداً إلى حدّ ما».

تساءلتُ ما إذا كان بمستطاع هيكل عظمي أن يجتاز اختباراً طبيّاً من أجل الفوز بـ «غرين كاردا».

الأسرة المقيمة في الطابق الأسفل نقد ما لديها من مال وقررت العودة إلى الصومال. أخبرتُ ليو.

هذا فعلاً شيء كسر فؤاد شقيقي وفؤادي لأن هذا يعني أننا ستكون وحدنا في المبنى السكني. ماذا يقولون لي، «عبدي، ما الذي تفعله هنا؟ هيا شقر عن ساعديك، تحرّك، أنت تحلم

بأمريكا غير موجودة! هذا حلم ليس إلا، هيا، يا فتى، أنت على خطأ». هذا ما يقولونه لي، ليو. في بعض الأحيان أفكر كما لو أنه من المناسب أن أذهب معهم، هذه ليست حياة على الإطلاق.

إلا أن طريق العودة إلى بلدنا الصومال ليس فيه وعدٌ بالحياة. في الريف الكيني كانت عصابات اللصوص والمغتصبين تقتل اللاجئين العائدين إلى ديارهم. وما إن يعبر اللاجئين الحدود، حتى يقفوا في قبضة «الشباب». تلك الأم في الطابق الأرضي كانت قلقة على غلامها الصغيرين أكثر من قلقها على نفسها لأنها كانت تعرف أنه من الجائز أن يختطفهما «الشباب» ويلقنوهما مبادئهم الفكرية والسياسية. ماذا يسعها أن تفعل ما خلا ذلك؟ هل تجوزعهما حتى الموت في شقتها؟

أخبرت ليو أن اللاجئين الصوماليين هم أشبه بحيوانات نوا¹ مهاجرة تواجه التماسيح من جهة والضباع من الجهة الأخرى. كلا الطرفين قوَّض سميت وكثيرون كانوا يهلكون في طريقهم، إلا أن بعضهم يصل إلى غايته. اخترت المكوث في كينيا، آملاً أن تقع أعجوبة من الأعاجيب.



بمغادرة الجميع ميناءا السكني، أنا وحسن توقفنا عن مغادرة شقتنا لأي سبب من الأسباب. كانت الدروس قد بدأت، إلا أننا لم تكن قادرين على الذهاب إلى الكلية. غطينا نافذتنا وأطلقنا جميع المصابيح بعد هبوط الظلام. وسعينا لأن نمتنع حتى عن الحركة. لم يتبق لدينا سوى كيلوغرام

1- حيوان النوا: gnu: ويُعرف أيضاً باسم «التيكل الأفريقي»، هو جنس من فصيلة البقرات. حيوان مميز الشكل، حيث يجمع بين رأس وقرني الثور، ووجه البقرة، وذيل وشعر الحصان، كما يصدر صوت يشبه صوت ضفدع ضخم. يصل طول النوا حتى متر ونصف المتر تقريباً كما يزن أكثر من 274 كيلوغراماً، يقل وزن الأنثى قليلاً حيث يصل إلى 230 كيلوغراماً - م.

واحد من الشاي، شيء من السكر، وقطعة من الخبز البالي. بطوننا كانت تحس كما لو أنها تهضم نفسها قليلاً وقالباً، وأصبحت عيوننا لزجة. كانت أشبه بمجاعة حقبة شبابتنا في موقاديشو، باستثناء أننا كنا في مدينة أفريقية حديثة ذات متاجر ومطاعم تبيع بالبشر. أثناء جوعي كان يسيل لعابي لتما أتذكر الـ «KFC»، بذلك الدجاج اللذيذ وحلب الكوكا كولا، في محطة الحافلات حيث تناولنا طعامنا في أول يوم وصلت فيه إلى نيروبي. بدت هذه الذكرى تبعد مليون ميل عن مدينة الأشباح التي تحمل اسم «إيستليغ». كان البوليس يربط دوماً خارج مبنانا السكني، متكئين على شاحنااتهم، أكلمين الـ «فندزي»، النسخة الكينية من الكعك المحلي المقلبي بالدهن، ويصنعون التكات. عندما كنا نجرؤ ونسلك إلى الطابق الأسفل وندخل الحمام، لم يكن باستطاعتنا أبداً أن نجعل الماء يتدفق في المرحاض، لأن رجال الشرطة سوف يسمعون الصوت. إن الاستحمام بدلو ماء شيء غير وارد! لم نستحم على مدار أشهر عدة. وذات ليلة جاء رجال الشرطة وطارقوا بابنا. مرعوبين، جئنا في مكاننا كرجلين ميثين. في النهاية غادروا.

بدت الأيام أحوالاً طويلة. انقضت الأسابيع بنحو مروع. ولما بقنا على حافة المجاعة، قررنا أنه لا بد أن يغامر أحدهنا من أجل جلب الإمدادات وإلا مُتْنَا. ليس هذا فحسب — بين وأسرته كانوا يرومون الانتقال إلى زامبيا كانت الهجمات الإرهابية في نيروبي تُلاحق حتى «الغربيين». قبل مغادرته، كنا نحتاج إلى شيء من النقد من شارون، من خلال. لذا في صبيحة يوم ما قبل ابتلاج الفجر، سرتُ ببطء من بنايتنا أول مرة منذ أسابيع. حملتُ بطاقتي التعريفية كطالب جامعي، العملة النقدية الوحيدة التي بحوزتنا، ووثيقتي كلاجي، سلكتُ الشوارع التاسع، العاشر، الحادي عشر. كانت كلها عالية وبدت مسكونة بالأشباح. كانت مصابيح شاحنات البوليس تومض في «الحجادة الأولى». ركضتُ بطريقة متعرجة كالمجندي في فيلم سينمائي، مخشياً وراء البافطات والأكشاك الفارغة. حين وصلتُ

إلى «الشارع الثاني عشر» قفزتُ إلى داخل حاقله «ماتاتو» وترجلتُ لنا
وصلتُ مركز المدينة.

لسوء الحظ: كنا قد ارتطمنا بعتراس يبعد ميلاً عن «موقاديشو
الصفيرة». كان البوليس يَدَقُّ بحثاً عن اللاجئين الصوماليين. كان فؤادي
في حنجرتي عندما صعد الضابط إلى متن الباص ولَوَّح بمصباحه الوامض
على الركاب. انتبه إليّ في الحال.

«أنت!» قال، ملوَّحاً بمصباحه.

ترجلتُ فيما كان الباص يتعد.

لنا عرضتُ عليه وثيقتي كلاجئ، صفعتني على وجهي وقال لي أن
أجلس على جانب الطريق. ظلُّ يَدَقُّ الحاقلات الأخرى ووجد صوماليين
آخرين، انضموا إليّ في المكان الذي كنتُ أجلس فيه. في الختام قال لي
الضابط أن أقف، وبعدها دفعني جانباً وبدأ المساومة المعهودة.

«تجاني؟» قلتُ بالسواحلية. كم المبلغ؟

ظننا نساوم مجيئاً وذهاباً إلى أن سلَّمته ثلاثين دولاراً. أخلى سبيلي
وأخذتُ حاقله أخرى. كلُّ دقيقة كان حسن بيعت إليّ رسائل نصية كي
يضمن أنني على ما يُرام. إذا اجتزتُ مزيداً من العتريس سوف تنفذ
نقودي.

الحياة في مركز المدينة كانت مستمرة كمهداه لم يكن هنالك بوليس
على مرأى البصر. وفيما كنتُ أقطع «شارع نوم مويبا»، بعض المشاة
كانوا يغيرون اتجاههم عني. كان يوسعهم أن يجزموا أنني صومالي،
إنما لم يتحرش بي أحد. أخذني «بين» إلى مطعم قريب من مكتبه. لأول
مرة منذ أسابيع تناولت طعاماً طازجاً وشربتُ عصير ليمون بارداً؛ كان
ذلك هو الجنة بعينها. سلَّمني ستمئة دولار لتغطية تكاليف الطعام ودفع
الرشاوى. في طريق هودني، اشتريتُ غالفونات من الماء الصافي، اللوبيا
الحمراء، الذرة، بعض الفاكهة، الحليب، والرز. عدتُ إلى شقتي من دون

مشاكل لأن البوليس لم يكونوا يبالون بالمخالفات الداخلة إلى «موقاديشو الصغيرة»، بل بتلك الخارجة منها فقط.

كنتُ قد استجملتُ شجاعتي كي أحصل على «كتاب حُسن السلوك» من البوليس. لم تكنُ لديّ فكرة ما إذا كان سوف يُدعى رقمي في القرعة لاجراء مقابلة تأشيرة الدخول، إلا أنني أردتُ أن أكون مستعداً. في 12 أيار/ مايو، وكان يوم الإثنين، نهضتُ باكراً من النوم وعملتُ مكالمات هاتفية عديدة مع كل الأشخاص الذين كانوا مهتمين بي. طلبتُ منهم أن يتصرفوا بسرعة تحسباً لاعتقالي. بعث پول رسالة إلى الصحفيين المستقرين في كينيا، من بينهم توم روديس، ممثل «شرق أفريقيا» في «لجنة حماية الصحفيين»، وبيتر غريستي، مراسل قناة «الجزيرة». أرسل ليو إميل إلى «وزارة الشؤون الداخلية». بدا شيئاً جيداً أن أعرف أشخاصاً يقاتلون من أجلي، إلا أنني كنتُ أعرف كذلك أنني سأكون بمفردي في مخفر الشرطة.

جمعتُ كلّ رسائل التوصية التي بحوزتي، رسائل بعض أعضاء «مجلس الشيوخ الأمريكي»، رسائل الصحفيين. أخذتُ كلّ أوراق التوثيق كلاجئ، في نسخ مصورة، وطلويتُ الأوراق المالية في جيوبي. ودعتُ حسن، نزلتُ إلى الطابق الأسفل، وفتحتُ الباب الأمامي شقاً واحداً. لا يوجد بوليس. كانت السماء تمطر طوال الليل، ربما جعلت الأمطار البوليس يخلطون الشوارع في ذلك الصباح. ركضتُ بسرعة عبر أزقة «موقاديشو الصغيرة» الموحلة ولفزتُ إلى داخل حافلة متجهة شمالاً إلى «طريق كيامبو».

كان «قسم التحريات الجنائية»، الـ (CID)، مجتمعاً ضخماً يتألف من بنايات بيض وأحطة في الناحية الثانية من حي الفقراء «ماتاري»، وراء الطريق السريع «A2» الذي يشطر الأثرياء عن الفقراء. كان يقع على حافة «نادي هولف مونايا» الخاص بالتخبة و«غابة كارورا»، وهو نوعاً ما أشبه

بـ «المتنزه المركزي» في نيروبي. لم أكنُ في مزاج رائق كي أفنّد المنظر الطبيعي الخلاب حتّى قدره لَمّا أنزلني الباص أمام البوابة الرئيسة. بدأ المطر يهطل من جديد. ثلاثة ضباط كانوا واقفين بوصفهم حراساً. جاء كينيون، تم تفتيشهم بأجهزة كشف المتفجرات، ومضوا إلى الداخل. قلة من الصوماليين كانوا يقفون في الجوار تحت المطر، مبلمين. حين دنوتُ من الحراس، كنتُ أرتمش خوفاً. سار أحدهم حالاً في اتجاهي وهتف قائلاً:

«لا تقترب أكثر!» قال لي. «انتظر هناك». أشار إلى الصوماليين الآخرين موضحاً أنه لا يُسمح لنا بالدخول. وقفنا تحت المطر على مدى أربع ساعات. وفي الختام خرج رجل يرتدي بذلة داكنة اللون. خاطب الصوماليين واحداً واحداً. ولَمّا جاء دوري، خاطبني قائلاً، «أرني بطاقتك التعريفية».

ولَمّا أخرجتُ بطاقتي كلاجي، تلك الصادرة من الـ «UNHCR»، دفعني جانباً وتحرك نحو الشخص التالي. لاحفته.

«أسنان، أرجوك، أنا أحتاج إلى بصمات الأصابع لدى البوليس من أجل مقابلة القيزا».

التفت وعبّس بوجهي. «إلى أيّ بلد ستذهب؟».

«الولايات المتحدة».

استدار ومضى مبتعداً. لحفته إلى عمق الطابور. وفي النهاية التفت إليّ وحذّثني قائلاً، «لا يسعني أن أفعل لك شيئاً سوى أن آخذ ورقتك وأرسلها إلى الـ [UNHCR]؛ بعدها يتعين عليّ أن أنتظرهم كي يعيدوها إليّ. سوف تأخذ المسألة أكثر من خمسة أشهر». بكلمات أخرى كان يحتاج إلى أن يتأكد من صحة وثائقي. أخذ النسخة المصورة من بطاقتي التعريفية كلاجي وأمرني بالانتصاف.

في الباص وأنا راجع إلى «إيستليغ» كنتُ أعمّ باليكاء. ليستُ لدي خمسة

أشهر، فيزا 2014 تنتهي مدة صلاحيتها في غضون أربعة أشهر ونصف الشهر أي في الثلاثين من أيلول/ سبتمبر. زيادة على ذلك، لم أكن أصدق على أي حال. هذا الأمر لم يهمي — رقمي لم يظهر حتى في مقابلة الفيزا.

تغير كل شيء بعد يومين، حين جاء الحظ السعيد في صندوق الرسائل الواردة. كان رسالة إلكترونية من «وزارة الخارجية الأمريكية»، وهذا نصها:

عزيزي طالب «فيزا التنوع» تم تحديد موعد لك في سفارة «الولايات المتحدة» بنبروي في 22 تموز/ يوليو، 2014، الساعة السابعة والنصف صباحاً. يتحتم عليك أن تقدّم برهاناً كافياً فيما يتعلق ببطاقتك التعريفية لدى وصولك إلى هناك. إذا أعفقت في الحصول على «فيزا التنوع» 2014 — في 30 أيلول/ سبتمبر، 2014، سوف تنتهي مدة صلاحية تسجيلك.

هكذا هو الأمر. كنتُ في اللاتحة! لدي تسعة وستون يوماً كي أجهز الأعمال الورقية. تسعة وستون يوماً كي أرتب الفحص الطبي وأحصل على سجل درجاتي من الكلية التي لم يعد بإمكاناتي الذهاب إليها بأمان. تسعة وستون يوماً كي أحصل بشكلٍ من الأشكال على تدقيق البوليس فيما يتعلق بخلفيتي. بعثت رسائل نصية إلى جميع أصدقائي الصوماليين تتضمن الأنباء. لم يشجعوني.

«آيا، أنت معتومة»، كتب يونس. «أليس ما يتعلق بأمريكا وقضية الفرعة. هذا الأمر لن يحدث».

حتى حين ظنّ أنني أخدع نفسي في ما يتصل بهذه المسألة. «عبدي، أحسبُ أنه آن الأوان كي تتخلّى عن الموضوع».

إلا أنني لم أتخلّ عن حلمي الأمريكي إلى أن تسد أمريكا بابها بشدة بوجهي. لذلك أنا وشقيقي أبرمنا اتفاقاً في ذلك اليوم: إن لم أحصل على فيزا بعد مقابلة 22 تموز/ يوليو، سوف نلتحق باللاجئين المهاجرين

شمالاً عبر السودان وصولاً إلى ليبيا، أملين بأن نخاطر بأرواحنا بركوب البحر متجهين إلى إيطاليا. لن نرجع إلى الصومال، وقد شئنا من العيش في كينيا، «خلاص»، لا بد لنا أن نغادرها.



أولاً، الدور السهل. جامعة «أفريكا نازاريني»، بعثت رسالة إلكترونية تتضمن سجلاتي المدرسية الرسمية. كانت الجامعة متعاطفة مع كدحي وعرفت كم كان من الصعب علي أن أركب الباص ذاهباً إلى الكلية. لبنتي أستطيع أن أحصل على تقرير من الشرطة بالسهولة نفسها.

16 أيار / مايو، يوم الجمعة، سبعة وستون يوماً، حتى يوم مقابلتي. كان «الشباب» قد فجرُوا حافلتين صغيرتين في سوق «جيكومبا» الضخم في نيروبي. قُتل على الأقل عشرة أشخاص، وأصيب أكثر من سبعين شخصاً. كان البوليس قد جاءوا كعهدهم أفواجاً أفواجاً إلى «موقاديشو الصغيرة»، ما بقي من السكان هناك. كانوا قد فُشوا المباني تفشياً دقيقاً طابقاً طابقاً. هؤلاء الشرطة الجدد لا يتلقون رشاوى، كانت لديهم أوامر باعتقال اللاجئين وحتى رميهم بالرصاص إذا ما حاولوا الهرب. لذلك كانت طلقات البنادق تنتر في الأرجاء كلها. أنا وحسن جلسنا ملتصقين أحداً بالآخر نرتعش في حبرتنا. سمعنا أصوات الشرطة وهم يصعدون درجات السلم. كانت جزماتهم تركل بآبنا، إلا أنهم غادروا طائين أن لا أحد هناك. بعد مضي بضعة أيام تعب رجال الشرطة من المداهمات. حدثنا من النافذة ورأيانهم جالسين في شاحناتهم، يأكلون ويتحدثون. نزلت درجات السلم ببطء كي استخدم الحمام. كان حسن يراقب ما يجري خارج الشباك بحثاً عن شرطة وسوف يرسل إلي رسالة نصية إذا ما دخلوا المبنى. ومن ثم جاء دوره في النزول إلى الحمام فيما كنت أنا الذي يراقب. دقت «الفيبيوك» على هاتفني، صديقي زكريا الذي لم يفر بالقرعة، كان يأخذ صوراً فوتوغرافية له في موقاديشو. كان قد رُحِّل من كينيا.

عندما يكون باستطاعتنا أن نسلل، كنا أنا وحسن نشترى الكتب المستعملة زهيدة الثمن من بائعين جوالين في الشارع، متطلعين دوماً إلى تحسين لغتنا الإنكليزية. كنا نحب الكتب التي يؤلفها أمريكيون نأجحون بوسعهم أن يلهموننا: علماء، مخترعون، ورجال أعمال. كان بيل غيتس هو أحدهم. وثمة كتاب آخر أحببناه عنوانه «فن الاتفاق» من تأليف دونالد جتي. ترامپ. أنا وحسن قرأنا هذا الكتاب كله ونحن مختبان في حجرتنا. كنا تضايق أحدهما الآخر، قائلين إننا في يوم من الأيام سوف نغدو أثرياء ونأجحين على غرار هذا الرجل المدهو ترامپ.

رجعت إلى مركز قيادة الـ «CID» مرات قليلة، على الرغم من الخطورة، متغلباً على خوفي، كي أرى ما إذا كان من الجائر أن أحصل على رد مختلف. في كل مرة يكون الرجل العبوس نفسه صاحب البذلة الداكنة، ولم يكن يقدرني.

«أنا أميز وجهك»، قال لي مرة. «أنت رجل فظيع! ألم أقل لك أن تنتظر إلى أن أسمع من الـ [UNHCR]؟».

كان الزمن ينقضي. آلاف تأشيرات دخول القردة تمت الموافقة عليها في وقت سابق لعام 2014. عدد ضئيل من الناس كانوا يذهبون لمقابلاتهم وهم مستعدون جيداً، وأقل قلقاً. سفارة «الولايات المتحدة» في نيروبي كانت قد أجرت أصلاً تدقيقاً بالغاً للصوماليين الذين قدموا طلبات الفيزا. رجل في مقتبل العمر يسافر وحيداً، من دون أسرة إلى «الولايات المتحدة»، كان مشكوكاً فيه إلى درجة كبيرة. كان أمني ينكمش في كل مكان. كنت أتمنى أن نقرأ السفارة قلبي بدلاً من كل تلك الأوراق التي لم تكن سوى براز.

29 أيار/ مايو. الخميس. أربعة وعشرون يوماً حتى موعد المقابلة. تلقيت مكالمة هاتفية من پامبلا غاردون. كانت تقرأ سلسلة إيميلاتي مع «فريق عبدي» فيما يخص المشكلات التي واجهتها من أجل الحصول

على شهادة البوليس. قالت إن سائقها الكيني يعرف ضابطاً في داخل «قسم التحريات الجنائية» وربما باستطاعته أن يقدم المساعدة. في الأقل بسائقها المجالس وراء عجلة القيادة ربما يكون بوسعي الدخول إلى المجمع. سألتني متى أريد المحاولة فأجبتُها الآن تحديداً.

في ما بعد ظهر ذلك اليوم تسَلَّطُ من حجرتي كي ألحق بحافلة «ماتاتو» ذاهبة إلى مركز المدينة. كان البوليس في مكان بعيد ولم يتجهوا إليّ. تَوَحَّتُ لإحدى الحافلات، إلا أن السائق مرّ بي مسرعاً؛ لم بشأ أن يجعل رجلاً صومالياً يركب سيارته. حافلات عديدة أخرى تجاهلّني. خرجتُ عن طوري، فيما كنتُ أراقب الشرطة. في النهاية توقفت إحدى الحافلات. تَرَجَّلْتُ من الباص في مركز المدينة وقابلتُ هامبلا وسائقها الكيني. خلال الطريق إلى «قسم التحريات الجنائية»، هامبلا سلّمتني متي دولار كي أكفل نفسي إذا ما حصل شيء ما. بسهولة دخلنا عبر البوابة بسبب السيدة البيضاء والسائق الكيني.

عند الطاولة الرئيسة ذكرنا اسم صديق السائق، وأخذوني وحدي إلى مكتبه. على طاولته كانت هنالك نسخة من وثيقة الـ «UNHCR» خاصتي. الرجل الآخر لم يرسلها، لا عجب. نهض الرجل من خلف متصدته، «اتبعني»، قال لي.

انعطفنا حول رواق الميني، وهو مكان خالي من كاميرات المراقبة. «أعطني ثمانمئة دولار»، قال لي الضابط، وهو يجيل نظره من حوله بعصبية.

«لا أملك مبلغاً بهذا القدر».

«ماذا لديك؟».

مددتُ يدي في جيبي وأخرجت المتي دولار التي أعطيتني إياها هامبلا وسلّمتها له. اختطفها من يدي وأعادني إلى مكتبه.

إيهام! الدمعة نزلت على وظيفتي كلاجن، كانت أشبه بموسيقى لأذني.

«انزل إلى الأسفل كي يأخذوا بصمات أصابعك!» قال.

انتظرتُ في طابور يضع دقائق في حجرة أخرى. وعندما نادوا باسمي، سيدة ضغطتُ كلَّ أصابعي العشرة على مختمة من الحبر الأسود ومن ثم على ورقة بيضاء كُتب فيها:

المديرية العامة للتحريات الجنائية

شهادة ترخيص الشرطة

الملاحظات في حالة وجود تقرير سابق، لا يوجد

«لا يوجد». ما من تقرير. هو ذا لم يكن باستطاعتي أن أصدق. تكلمت مع ليو في تلك الليلة من حجرتنا. ترخيص الشرطة خاصتي أُتجز. نظرتُ إلى أصابعي العشرة. أصبحت كلها سوداء بسبب الحبر الأسود الذي ضغطتُ فيه أصابعي. هذه هي المشكلة الوحيدة، لقد عالجتها، انتهت!

6 حزيران/يونيو، الجمعة. ستة وأربعون يوماً حتى موعد مقابلاتي. لقد حددتُ موعد فحوصي الطبي، الذي سيجري في «مركز تقييم الصحة الخاص بالهجرة» في الشمال الغربي من نيروبي، بالقرب من سفارة «الولايات المتحدة». اندفاع مروع آخر نحو حافلة «ماتاتورا». هذه المرة لما تحدثتُ بنائنا، وجدتُ ضابط شرطة واقفاً أمام البناية. كان أكبر سنّاً وله كرش، مع كثير من النجوم على كتفه وهرأوة شرطي تحت ذراعه. فوجئتُ بي، وأعتقد أنني أخفته أكثر مما أخافني. يمكنني الجزم أنه ضابط رفيع المستوى، وليس واحداً من شرطة الضرب العاديين الذين من دأبهم أن يسلكوا سلوكاً خشناً مع الصوماليين. لعله خرج كي يتحرى جريمة حقيقية. حين رأيته، أخرج حاكيتيه واستدعى سيارة بيك آب، كما لو أنه لا يريد أن يتعامل وحده معي. وفي الحال انضم إليه شرطيان. الشرطيان

الجديديان حاولا أن يطرحاني أرضاً كي يشعاني ضرباً، إلا أن الضابط الأكبر سناً منعهما، لعله أحس بالشفقة عليّ، لا أندري.

«قف!» قال لي. «من هو موجود هناك؟»

«لا أحد». كذبت عليه لأن حسن كان في الطابق الأعلى.

لم يكلف الضابط نفسه بأن يطلب رؤية بطاقتي التعريفية؛ بل طلب مني شيئاً من المال. بعد مضي دقائق كنتُ في طريقي.

الحازمي عند بوابة «مركز تقييم الصحة الخاص بالهجرة» فتشني بجهاز كشف المتفجرات، وبعدها سمح لي بالدخول. كانت بحوزتي كل الوثائق المطلوبة. في البداية أجروا لي فحص الدم؛ بعدها دققوا وزني وطولي، ومن ثم فحص جسدي سريع. في بحر عشرين دقيقة انتهى كل شيء. «أنت معافى تماماً!» قالت السيدة. «سوف نرسل نتائج الفحوصات إلى السفارة. حظاً سعيدة في مقابلتك!»

15 حزيران/ يونيو، يوم الأحد، بقي سبعة وثلاثون يوماً، ثلاثون رجلاً ملثماً مزودون بالبنادق من «الشباب» فجروا بالتقابل مخفر شرطة في مدينة «ماليندي» الساحلية الكينية، سرقوا أسلحة المخفر، واندفعوا في ثورة، قتلوا ثمانية وأربعين فرداً في قرية صغيرة تُدعى ميكتوني. كان عدد كبير من الضحايا يشاهدون مباراة من تصفيات «كأس العالم» في قاعة فيديو. وتباهى الناطق الرسمي لمنظمة «الشباب» بالهجوم وقال إنهم يخططون لشن مزيد من الهجمات. واستجعبنا قواتنا استعداداً لمزيد من مدهامات الشرطة.

7 تموز/ يوليو، يوم الإثنين بعد الظهر. خمسة عشر يوماً قابلة للزيادة. كنتُ أمشي في «الشارع الثامن» لَمَّا ظهرتُ زمرة من نحو خمسين شاباً من حي الفقراء «مئاري»، مسلحين بالمعدي والهرافات، من حول ناصية الشارع. لأنني كنتُ شاكياً وقيناً من «الشباب»، فأنا هدف نموذجي لغضبهم. طاردوني عبر الشارع، رجموني بالأحجار ولوحوا بمدبهم وهرواتهم.

دكشتُ بأسرع ما أستطيع ورميتُ نفسي مباشرة في داخل المسجد، ومن ثم أغلقت الباب بقوة، وأحكمتُ إغلاقه بالترنج ورائي. فرحوا الباب وركلوه فيما كنتُ أنضم إلى صوماليين آخرين في صلاة المغرب. في نهاية الأمر غادروا. أنا متيقن من أنهم كانوا سيقطعونني إرباً إرباً حتى الموت لأن أشخاصاً صوماليين كثيرين سواي قُتلوا على أيدي أعضاء هذه الزُمر التي تقوم بعمل لجنة أمن أهلية^١، القتل لا يشترط الأخبار.

21 تموز/ يوليو، اليوم الذي سبق المقابلة. غسلتُ قميصي وسروالي تحت الحنفية في حمام الطابق الأرضي. بعناية وضعت قميصي تحت الفراش كي أكوئه أثناء الليل. اتصل ليو هاتفياً. «لن أذهب إلى الفراش بعد الآن»، قلت له.

لن أنام. أنا متيقن من ذلك. يوم غد سوف يغيّر حياتي. سوف يغيّر حياتي إلى أسعد فرد أو بخلاف ذلك سوف يغيّر حياتي كي أصبح أتمس فرد على وجه البسيطة، هذان إذاً هما الاحتمالان. يوم غد ليلاً سأعود إلى هذه الغرفة، أكرر كل شيء، أهدم كل شيء. موجود هنا لأنني سعيد أو لأنني غاضب. في كلتا الحالتين سوف أكرر كل ما أعرفه؛ سوف أسدد لكمة إلى حاسوبي اللوحي.

لم يكن بمستطاعي أن أخلد إلى النوم ليس بسبب الترقب فقط، إنما أيضاً بسبب الخوف المخلص. ماذا لو حدث أن داهم البوليس غرفتنا في تلك الليلة؟ ماذا لو اقتادوني إلى السجن أو إلى المطار كي يرخلوني إلى الصومال؟ ما إن تقولك المقابلة في السفارة، حتى ينتهي كل شيء. ما من فرص أخرى. كانت نبضات قلبي تتسارع.

١- لجنة أمن أهلية vigilante gang: عصابة أو زمرة تخذ القانون من دون تفويض رسمي - م -

في الرابعة والنصف صباحاً نزلتُ إلى الطابق الأسفل حاملاً مظروفاً يحتوي على «كتاب حُسن السلوك» خاصتي، رسائل الدعم من بعض أعضاء «مجلس الشيوخ» الأمريكي ومن الصحفيين. رسالة شايرون التي تتضمن رعايتها لي، ونسخة مطبوعة من سجلي المدرسي الذي أرسل إلي بالإيميل من «جامعة أفريكا نازاريني». وصلتُ إلى باب السفارة في الخامسة صباحاً. جلستُ على رصيف الشارع بجوار مبنى السفارة التي تفتح أبوابها في الساعة السابعة. في الساعة السادسة، طابور من الناس يصلون بفرض إجراء مقابلات تأشيرة الدخول خاصتهم، وهذا الطابور امتد حول المبنى. عدد كبير منهم كانوا كينيين فازوا في القرعة مثلي. في الساعة وخمسة عشرة دقيقة مررتُ عبر نقطة التفتيش الأمنية، تقدمتُ إلى الداخل، ودفعتُ 330 دولاراً كأجرة عن المقابلة. فيما كنت أنتظر، شاهدتُ أفراداً يخرجون مبتهمين بتهنئات عريضة. فيزهم تمت الموافقة عليها. في حين رُفض آخرون وكانوا سيكون. روية هذه العواطف المتباينة جعلتني عصياً أكثر.

ذهي رقمي إلى «النافذة تسعة». امرأة أمريكية أفريقية ذات بسمة مشرقة رحبت بي. «أهلاً وسهلاً».

«صباح الخير، مدام»، قلت لها، هذه المرأة كانت سوداء البشرة مثلي وبدتُ لطيفة.

«من فضلك هل تستطيع أن ترفع يدك اليمنى وتقسم بأن كل ما تقوله هو الحقيقة؟».

فعلت ما طلبت مني.

«إلى أي كلية ذهبت؟» سألتني.

أخبرتُها وأشرتُ إلى سجلي المدرسي.

«هذا السجل المدرسي من دون توقيع. هل تعرف ذلك؟».

نظرتُ إليه. كانت على حق. السجل المدرسي المُرسَل بالإيميل لا يوجد فيه توقيع. تناولت قصاصة ورقى وردية وفي الأسفل كتبت ثلاث

كلمات، «سجل مدرسي مفقود». سلمتني إياها وقالت، «آسفة، لا يمكنك أن أعطيك الفيزا. أرسل السجل إلينا إن استطعت مع التوقيع. ولا ترجع إلى هنا. فقط أرسله بالبريد السريع (DHL)».

أرسله بالبريد السريع (DHL)

أصابني الخرس، تجمدت من الخوف. كل ما أستطيع أن أفعله هو التحديق في عينيها والتوصل إليها يعني من أجل أن تشفق عليّ. «أرجوك غيري رأيك»، صليتُ. «أنا بحاجة إلى شيء من الحظ اليوم».

إلا أن المرأة لم تغبر رأبها. التفتت ميكرفونها ودعت الرقم التالي.

مُصاباً بالدوار، خرجتُ من المبنى وتهاويت منهاراً تحت شجرة. كنتُ أمسك رأسي بين يديّ، متمنياً أن يكون هذا كابوساً استيقظتُ منه. إلا أن القصاصه الوردية بين يديّ بدتُ حقيقة تماماً. أرسلتُ رسائل نصية إلى جميع أصدقائي: «هذا هو أسوأ يوم في حياتي». جلستُ هناك بضع دقائق أخرى، أدعك القصاصه الوردية بين يديّ. ومن ثم دمستها في جيبي، نهضتُ، وتوجهت إلى محطة الحافلات. كانت الجامعة بعيدة وحركة المرور سيئة. ولما جلسنا مُرهقين وراء حافلات أخرى تسعل دخاناً أسود، كان قلبي يخفق بسرعة وركبتي اليمنى تنب كالكرة. تحرك من فضلك، تحرك من فضلك. كان الوقت هو الساعة الرابعة حين دخلتُ مسرعاً في «مكتب شؤون الطلبة». قالت المرأة التي وراء النافذة، «معذرة، حان وقت الإغلاق».

«أرجوك!» قلت. «أرجوك ساعديني!» شاهدت المرأة وجهي وأدركت أنني على نار. وقعتُ سجلي المدرسي. رجعتُ مسرعاً إلى مركز المدينة في حافلة أخرى، تسير ببطء خلال ساعة الازدحام المروري الشديد، ووصلتُ إلى مكتب الـ «DHL» في الساعة السادسة.

«حان وقت إغلاق المكتب»، قال الرجل في المكتب. «نحن نغلق في الساعة السادسة».

تضرعت إليه وتوسلت كما حصل في الكلية. سمح لي أن أسقط
الزُمة. في بحر يوم واحد سوف تستلمها سفارة الولايات المتحدة
الأمريكية، قال لي.

مرت تسعة أيام. كنتُ أتصل هاتفياً بالسفارة الأمريكية يومياً، وفي كل
مرة يقولون لي، «لا، نحن لم نستلم السجل المدرسي».

في الأول من شهر آب/أغسطس، اتصل ليو بالسفارة الأمريكية.
عرّف نفسه وقال إنه في آخر موعد لتقديم قصته وكان يريد أن يعرف
مَنْ يتم اتخاذ القرار في طلبه. العضو الإداري في السفارة لم تكن لديه
معلومات هني. لكن بعد مضي ساعتين تلقيتُ رسالة إلكترونية من «وزارة
الخارجية» الأمريكية: «استلمنا وثيقتك وتأشيرة الدخول خاصتك سوف
تُرسل إليك غداً».

ضرف بيض

على الهاتف في تلك الليلة، سألتني ليو ماذا فعلتُ لَمَّا تلقيت الإيميل.
«لو، يا إلهي»، قلت له، «قفزتُ من سريري وخربتُ رأسي بالسقف!».

لقد صدوت الفيزا! لم يبق لي إطلاقاً أن أهنئ
ابنة عريضة كهذه، إطلاقاً إطلاقاً إطلاقاً. يبدو كما لو أن
الحلم قد تحقق تَوَّأ. أشعر كما لو أنني لستُ لاجئاً. هذا ليس
لاجئاً الذي يخشى من البوليس. أنا مواطن أمريكي!

حسناً، ليس على وجه الدقة. إلا أنني ربحْتُ الحق في الإقامة والعمل
في أمريكا. لا، ليس «ربحْتُ». لقد «التزمتُ» هذا الحق. سنوات من
ممارسة الإنكليزية، زمن حياة أمضيتها في تحاشي طلفات البنادق
والقنابل، ممرَّهاً نفسي للخطر من خلال رفضي الانضمام إلى صفوف
«الإسلاميين»، مخشياً من رجال الشرطة غير التزيهين، وقبل كل شيء
عدم الاستسلام. ليو سأل حسن ما إذا كان يشعر بأي قدر من الغيرة
والحسد لأنني حصلتُ على الفيزا. ردَّ عليه قائلاً:

في حقيقة الأمر، ليو، أقول لك إنني لا أملك أدنى ذرة من
الغيرة والحسد على الإطلاق. لو أننا كلنا حصلنا على الفيزا،

لكان الحال أفضل أيضاً. لكن لو قال لي شخص ما الآن تحديداً، «توجد فيزا واحد، من منكما سيأخذها؟» سأقول له عيدي. لأنه جديد على هذا البلد وأنا أعرف كم نحن خائفون جداً أثناء الليل. وأنا أعرف أنه لا يستطيع النوم ليلاً. أن يحصل عيدي على فيزا هذه هي سعادتي العظمى. نعم، يوجد حظ في هذه المسألة، إلا أن الحظ يُمكن أن يكون مُتصفاً.

سأل ليو «وزارة الخارجية الأمريكية» ما إذا كان اتصاله الهاتفي هو الذي صنع الاختلاف الأخير. ردوا عليه، «اتصال الصحافي لم يلعب دوراً في توقيت إصدار الفيزا. أي عملية فيزا تتزامن مع استفسار من الصحافة هو محض مصادفة ليس إلا».

ربما، وربما لا. لم أكثر بالأمر. عيدي الأمريكي هو ذا أخيراً يذهب إلى أمريكا.

في 8 آب/ أغسطس، تلقيتُ اتصالاً هاتفياً من «DHL» أن بحوزتهم الفيزا العائدة لي ويمكنني المجيء كي أأخذها. ظهراً خرجتُ من المبنى حاملاً الفيزا الأمريكية الجميلة، المذهلة خاصتي. كان اليوم جمعة في مركز مدينة نيروبي، وكانت الشوارع مكتظة بألاف الناس السعداء لأن أيام العمل الأسبوعية قد انتهت. إنما ما من أحد كان يشب فرحاً مثلي. يلزمني أن أكون أسعد إنسان في نيروبي ذلك اليوم.

بالفيزا في يدي شارون وبين اشترها لي تذكرة طائرة متجهة إلى بوسطن. سيكون موعد الطائرة يوم الإثنين في الساعة الخامسة صباحاً، مروراً من أديس أبابا، وفرانكفورت. بعد أن تأكدت هذه الأشياء كلها، طار ليو إلى نيروبي في نهاية ذلك الأسبوع كي يقابلني ويُنتهي البرنامج الإذاعي الوثائقي الذي كنا ننجزه معاً، مساء يوم الأحد، يومي الأخير في «موقاديشو الصغيرة»، تسللنا من أمام البوليس وأدركنا حافلة «ماتاترو» مزينة بصور فوتوغرافية للرئيس أوباما. كان السائق يشغل أغاني مايكل

جاكسون. كنتُ في وضع مثالي. قبل لقائي بليو في فندقه، قمنا برحلة تسوق سريعة. كنتُ أحتاج إلى حطية أضع فيها حاجياتي — كل ما كنتُ أملكه هو أكياس تسوق بلاستيكية — وبعض الملابس النظيفة.

في الساعة التاسعة مساءً ذلك اليوم، سيارة «ملزدا» صغيرة استأجرها الكادر الوظيفي لإذاعة الـ «BBC» ظهرت أمام الفندق. لا أتذكر أنني تنفستُ خلال الدقائق الاثنتين والعشرين وهي مدة ركوبي السيارة المتجهة نحو المطار. ماذا لو حصل هجوم إرهابي، أو رُميت قنبلة في مكان ما؟ بمستطاعهم أن يخلقوا المطار ولن أكون قادراً على المغادرة! ليو كان بحوزته الميكرفون خاصته في وجهي يسألني ماذا أشعر الآن. أخبرته أنني أشعر كما لو أن ساعة الحائط تتكثك. كنتُ عصياً جداً فيما يتصل بالمطار وما إذا كان موظفو الهجرة سيلقون القبض عليّ لأنني لاجئ. في غضون ذلك، كنتُ أفكر بأن حسن يتعين عليه أن يعود إلى تلك القرعة، وحيداً، ويبقى هناك في الظلام من دون رفيق، باستثناء الشرطة القساة.

في مدخل المطار أوقفنا رجال الشرطة، تفرسوا في داخل السيارة، قال ليو «مرحباً»، ولوّح لهم بالسائق الكيني. سمحوا لنا بالمرور. خرجنا كلنا ودخلنا نهاية خط مغادرة المطار. أخذ ليو بعض الصور الفوتوغرافية لحسن ولّي. تعانقنا بحرارة وودع كل واحد منا الآخر. كنتُ مختفياً تماماً بحيث لم يكن بوسعي أن أقول أي شيء لشقيقي. قال لي حسن أن أتعلّى بالقوة. كانت آخر كلماته هي، «تذكر أن تدعم أمنا».

بذلك، مضيتُ قُدماً، ودخلت. حدّق ضابط الهجرة الكيني في الشيزا العائدة لي، دمع واثق اللجوء خاصتي، ولوّح لي. الأمر سهل جداً بقصاصة الورق الصحيحة. كان الوقت الساعة العاشرة حين جلستُ عند البوابة من أجل الانتظار الطويل حتى يحين موعد تحليق الطائرة. أنا أول مسافر هناك.

حسن وليو قررا الانتظار في الكافيتيريا الكائنة في داخل المطار إلى

أن تقلع الطائرة، كي يضمنوا أنني غادرت المطار من دون أن يتم اعتقالني. جلستُ هناك أنقل بصري في أرجاء المطار، أراقب الناس في غدوهم ورواحهم. خلال ساعات قلائل انضم إلي أشخاص كثيرون آخرون في الانتظار. وفي النهاية، أعلن وقت ركوب الطائرة. كان مقعدي بجوار النافذة. حين أقلعت طائرتنا، كانت الشمس قد لوتفعتُ تَوّاً فوق الأفق. حلمي الأمريكي أصبح الآن حياة حقيقية، وبدأ كما لو أنّ كلّ شيء في حياتي الماضية أمسى حُلماً بحيث أحتاج إلى أن أليق منه.

بعد توقف في أثينا هبطنا في فرانكفورت، حيث تعين عليّ أن أسبدل الطائرة. ذلك المطار كان ضخماً جداً بحيث أنني خرجتُ من طوري لحظة فيما كنت أحاول اللحاق بطائرتي المتجهة إلى بوسطن. كان يجب علينا أن نأخذ حافلة إلى بوابة المغادرة في الناحية الأخرى. ومن جديد ركبتُ طائرة تابعة لشركة لوفتهانزا، أضخم طائرة رأيتها في حياتي. ومن جديد كان مقعدي بجوار النافذة. كانت تجلس إلى جانبي سيدة أمريكية مع ابنتها المراهقة. بعد الإقلاع أغمضتُ عيونهما وتظاهرتا كما لو أنّ الطيران شيء سهل. كنتُ يقطاً لم يكن باستطاعتي أن أنزع عيني عن الشباك والشاشة التي أمامي تعرض أين نحن الآن. في لحظة ما كنا نظير فوق «المملكة المتحدة» تطلعتُ إلى الأسفل، وكان بميسوري أن أشاهد الماء وما يبدو أنه مدينة. وبعدها كلّ شيء أصبح أزرق على مدار ساعات وساعات.



كان قلبي يخفق بسرعة فيما كانت الطائرة تميل نحو مركز مدينة بوسطن وتهبط في «مطار لوغان». كان وجهي قد التصق بالنافذة فيما كنتُ أحدى إلى ناطحات سحاب أمريكا، وبعدها المياه الزرق للآطلسي. على الرغم من أننا كنا نهبط، أحسستُ كأنني أصعد إلى الفردوس. حين ارتطمت الدواليب بالمتزج، لم يكن باستطاعتي السيطرة على نفسي، «أنا في أمريكا!» صحتُ.

حتى السيدة الفسحة الجالسة لصفي وجدت طريقة للاهتمام.
«مرحباً!» قالت.

فيما كنا نركب سيارة الأجرة متجهين نحو البوابة، فكرت بشقي في
كينيا، بأمي في شوارع موقاديشو الترابية تنتظر الأنباء السارة، بأصحابي
في محل الشاي في «موقاديشو الصغيرة» الذين نظموا طلبات قرعة الفيزا
لما أرغمتهم على ذلك، في حين كانوا يؤكدون لي أن ذلك هو كلام
فارغ. غير أنني لم أفكر بأن أقول لهم «قلتُ لكم ذلك». كانت السعادة قد
غمرتني، والدموع تذوب على خدي.

بدأت مغادرة الطائرة لحظة تاريخية، مثل تلك التي سار فيها أول
إنسان على سطح القمر. تساءلتُ ما إذا كانت الجاذبية تبدو مختلفة في
أمريكا، إلا أنها تبدو تقريباً هي نفسها في أفريقيا. تدفق الناس خارجين
من الطائرة؛ كانوا بشكلٍ من الأشكال على عجلة من أمرهم. بدا كما
لو أن الجميع كانوا يعرفون ماذا يفعلون وكانوا يعرفون إلى أين هم
ذاهبون. أحسستُ كما لو أنني واقف هناك وأشاهد كل شيء. نظرتُ
حول حجرة الهجرة. حتى الآن لا هوليوود، ولا عالم ديزني، ولا
«تمثال الحرية» أو «جامعة هارفارد»، ولا حتى «وولمرت» أو «KFC».
أبصرتُ أناساً يشبهون بروس ويليس، سيلفيستر ستالون، إيدي
مورفي، أوبرا، أو توم كروز، ولم يكن باستطاعتي أن أرفع عيني عنهم.
إلا أنني لستُ الأجنبي الوحيد هناك. مجموعة من الآسيويين يتكلمون
لغة أجنبية كانوا مصطفين في رتل قباتني. أناس من ألوان أخرى كانوا
حاضرين في كل الأرجاء. رجل أسود خلفي مباشرة في الطابور كان
ملتصقاً بهاتفه الجوال.

«مرحباً!» قال لي.

«مرحباً». وبإلهة شني كانت له لكنة أفريقية ثقيلة.

«أنا من الصومال. من أي بلد أنت؟»

«نيجيريا»، أجاب، فلما يرفع عينيه عن هاتفه.

كانت تلك أول مرة في حياتي كلها أرى شخصاً من نيجيريا. أخبروني أنه مقيم في أمريكا منذ عشرة أعوام.

اصناف شتى من البشر في أمريكا! توقعت رجلاً ييضاً بأبدان ضخمة، وعضلات مفتولة أن يكونوا مسؤولين عن المطار، على غرار المارتز الذين عرفتهم من زمن الصومال. إلا أن عدداً كبيراً من موظفي المطار كانوا آسيويين، بقامات قصيرة ووجوه مستديرة. وفيما كان الطابور يتحرك بهبط، رفعت بصري ناظراً إلى شاشة التلفزيون الضخمة وهي تومض بالأنباء:

... الممثل روبن ويلميز انتحر...

احتجاجات عنيفة اندلعت في فيرغسون، ولاية ميسوري، بعد مقتل رجل أسود...

كان ضابط شرطة هو الذي أطلق النار على الرجل، إلا أن الناس كانوا يحتجون، ولجأوا إلى الشوارع. مع أن أمريكيين كثيرين ربما لم يكونوا سعداء بما يجري من وقائع في «الولايات المتحدة»، كانت الاحتجاجات بالنسبة لي علامة من علامات الحرية التي بمستطاع الناس أن يحصلوا عليها في الشوارع ويظهروا عدم سعادتهم. الشرطة الكينية كانت تقتل الصوماليين لو أنهم تجرؤوا ولجأوا إلى الاحتجاج في «موقاديشو الصغيرة».

ولما جاء دوري، سألتني ضابط بعض الأسئلة وسألني استمارة كي أملاها. كان عليّ أن أختار بين أن أكون أفريقياً، أمريكياً أفريقياً، من أمريكا اللاتينية، أو لوقازياً. هذا الأمر شوّشتني في بداية الأمر لأنني لم أفكر بنفسني أبداً بوصفي أفريقياً. في الصومال نحن نعرّف أنفسنا بقبائلنا؟

فادني أحد الضباط إلى داخل حجرة حيث أخذت هناك سيدة أمريكية لطيفة بصمات أصابعي وصورتني. كانت لها عينا زرقاوان وشعر أشقر، وقالت إن الـ «جرين كارد» الرسمية خاصتي سوف تصلني على عنواني في مين. «مرحباً بك في [الولايات المتحدة]!» قالت

بدفه. كل شيء في منتهى الهدوء، رسمي، ومهني في المطار، وليس على غرار القووس العارمة والصياح في المطارات الأفريقية، ونساء ملت ما إذا كانت أمريكا كلها بهذه الدرجة من الجدية. غير أنني حين مشيتُ أخيراً عبر الأبواب من حجرة الهجرة إلى نهاية خط الرحلة «التيرمينال»، جففتُ من الانتدفاع المبالغ للنشاط. البشر في كل مكان، يحملون بافطات، ينقلون حقائب السفر بالعربات، يعانون أقدارهم. الآن أنا فعلاً في أمريكا! في مكان ما بالخارج وسط الحشد كانت شارون مكدونيل وابنتها، ناتاليا، كلتاهما تحاولان أن تلمحاني. وبعدها رأيتهما؛ كانتا تحملان بافطة كُتب عليها «عندي إفتين». شارون كان لها شعر أشقر مبط يصل حتى كتفها، وناتاليا لها تسريحة شعر ذيل القرس ذاكن اللون. التفتنا واتحيتُ كي أعانقهما. كلتاهما كانتا أقصر مما تصوّرت بكثير، وهما ليستا كالأمريكيين في الأشرطة السينمائية أو كالمارينز في موقاديشو. رفعتا عيونهما وتطلعتا إليّ ببسمات عريضة. «مرحباً بك!» قالت شارون. «دعنا نأخذك إلى منزلك الجديد».

غادرنا عبر باب ضخم دوّاراً إلى رصيف المشاة. كانت لحظتي الأولى في استنشاق هواء أمريكا النقي! باستثناء أن رائحته تشبه رائحة دخان الديزل هناك، هو لا يختلف كثيراً عما هو عليه في أفريقيا. اتحيتُ إلى الأسفل وأبقيتُ عينيّ مثبتتين على شارون، هذه المخلوقة الصغيرة الحجم التي غيرت حياتي إلى الأبد. كنتُ أحقق إليها كما لو كانت إنساناً خارقاً. ليس إنساناً خارقاً على غرار أبطال كتب القصص المصوّرة الذين شاهدتهم في الأفلام السينمائية إنما بطريقة أخرى ربما تكون حتى أقوى منها. أخذنا بعض الصور؛ كنتُ أثب من موضع إلى موضع من أجل اللقطات.

في حقيقة الأمر كنتُ أيضاً خائفاً إلى حد ما. أن يسكن رجل صومالي مع أسرة بيضاء ربما يكون معروفاً كشخص اعتنق ديناً جديداً، شخص ما ترك ثقافة شعبه وعقيدته الإسلامية. ماذا سيدور بخلد أفراد أسرتي

وأصحابي؟ ماذا لو كانت شارون تملك كلباً؟ ماذا لو لعقني الكلب وتشممني؟ كيف يعني أن أتصرف؟

دخلنا في السيارة. جلسْتُ في المقعد الخلفي، ما أزال فضولياً فيما يتعلق بمدينة بوسطن الوامضة، حين بادرت شارون قائلة، «يلزمك أن ترتدي حزام المقعد خاصتك».

لم أكنُ أعرف كيف أفعل ذلك. شارون وناثاليا ضحكنا وعرضتا لي كيف ألبت الإيزيم. «يلزمك أن تفضل هذا كل مرة تدخل فيها إلى السيارة، أي سيارة»، قالت شارون، «إنه القانون». لم يكن باستطاعتي أن أصدق أنني في مكان يطعم فيه الناس القوائم فعلاً. وكذلك لم يسيق لي أن شاهدت امرأة تقود سيارة في حياتي، عندما ما شاهدته في السينما.

غادونا المطار في طريق مزدحم منقسم خارج بوسطن متجهين نحو مين. شاهدتُ عدداً لا يُحصى من المخازن والمطاعم الضخمة. شاهدتُ مطعماً يُدعى «كولوون» شكله يشبه نوعاً من كوخ في جزيرة بـ «جنوب الأطلسي»، إلا أنه لا يشبه أي كوخ في الصومال؛ بدا أكبر من جامع «إصباحيسغا» في موفاديشو. بعدها جاء نوع من مكان كاويوي ذي يافطة صبار من الثيون شاهقة على غرار المباني في نيروبي. ظلمتُ أفكر، ها أنا ذا في سيارة بأمريكا برفقة أصحاب ساعدوني وساعدوا أسرتي مع أننا لا ننتمي إلى قبيلتهم أو حتى إلى عقيدتهم. هذا جانب من الروح الإنسانية كان جديداً كل العجلة بالنسبة لي. جلسْتُ بهدوء فيما كنا راكبين في السيارة وسعيثُ لأن أجعل من ذلك شيئاً ذا مغزى.

جرّ الليل ببطء وبشكل متأخر، كان الوقت قد تجاوز الساعة الثامنة ليلاً ولا يزال هنالك ضوء. ظلمنا راكبين عبر الشفق، منطلقين بسرعة بمحاذاة متاجر أضخم وقطع أراضي لوقوف السيارات، تتألق الآن تحت الأضواء الزرق. وفي الحال أصبحت الأضواء والمباني أقل، وازدادت الأشجار. دَوْرْتُ نافذتي إلى الأسفل كي أحصل على نكهة أفضل لأمريكا، ربح

أواخر الصيف الباردة وهي تصفح وجهي. وحين غادرنا الطريق السريع كي نعتن السيارة بالغاز وتناول شيئاً من الطعام، طلبت همبورغر بالجبن لأول عشاء لي في أمريكا. بعد أن ملأنا خزان السيارة بالوقود انطلقنا في الطريق مجدداً، هذه المرة ناناليا هي التي تقود السيارة. تحدثت شارون عن الجو، كيف أن الأشجار سوف تغير ألوانها، وكيف سيهطل الثلج. عيد الشكر، والكريسماس. كانت لديهم أصلاً خطط لهذه المناسبات كلها.

في النهاية وصلنا إلى الطريق الخاص المؤدي إلى منزلهم. كنت متيقناً بنحو كافٍ من ذلك، عند الباب رحبنا كليتهم، المدعوة لاسي. ففرت عليّ، وراحت تلعنني. لعاب الكلب يعض المسلمون غير طاهر، لذلك من المؤكد أن أعصابي قد توترت بشدة الآن. تجمدتُ خوفاً.

«إنها كلبة ودية»، قالت ناناليا. «إنها مسرورة ليس إلا».

القطران تغير وياسمين، حتى لم نكلّفنا نفسيهما بأن نفيقا من قبلوثهما. لكن الكلبة لحقتني إلى الطابق الأعلى حيث حجرتي ووثت على سريري. حين تمت لي شارون وناناليا ليلة سعيدة، تساءلت ما إذا كانت الكلبة سوف تتركني. ظلت هناك. لم يكن بمستطاعني النوم والكلبة لا تزال في حجرتي، كانت مخيفة جداً، لذا تمكّنتُ أخيراً من أن أجعلها تخرج وأن أغلق الباب. كنتُ في منتهى السعادة بحيث غادرني النعاس، إنما لحسن الحظ سرعان ما أقبل الصباح: الساعة الخامسة وكان هناك نور. بدت أمريكا هادئة، وليس على لحرار شوارع موقاديشو أو «موقاديشو الصغيرة». شاهدتُ نور الصباح يرشح داخلاً إلى حجرتي من النافذة الكبيرة المُطلّة على الطريق الخاص المؤدي إلى المنزل ومن ثم نهضتُ كي ألقي نظرة إلى الخارج. سرب من الغزلان كان يرعى كالجمال وراء السيارات مباشرة. ولما كانت الغزلان تتحرك هنا وهناك عبر المروج وتولّي بين الأشجار الباسقة، ظهرت الشمس بين الأغصان حيث كانت تظهر المناجيب. النافذة

إذا كانت في مواجهة الشرق، الآن عرفت أي جهة أختارها كي أصلي. كانت جدران غرفتي مطلية باللونين الأبيض والأزرق، وهما لوانان غربيان بالنسبة للجدران، فهما على الدوام بلون الطين في أفريقيا. كان السقف مستوياً ونموذجياً تماماً، كيف تسى لهم أن يجعلوه هكذا؟ شُيّد المنزل في القرن التاسع عشر، إلا أنه بالنسبة لي بدا جديداً كلّ الجدة. كان هنالك قرص مدرّج على الحائط ينظم درجة الحرارة. كانت الحجرة مرتبة بنحو مفرط إلى درجة غير سوية: ملابس شخص ما معلقة بانتظام في خزانة الثياب، وليست مجمعة على حبل غسيل متهرئ كما في كوخ أفريقي، وكانت هنالك صور طيور وأزهار في إطارات ذهبية معلقة على الجدار. تمثال ليوناردتسب بهدوء على الأرض. لم أكن أعرف من هو يودا، لكنني سرعان ما عرفت أن شارون وأفراد أسرتها يؤمنون بالبودية.

في الخارج، طيور طنانة سريعة صغيرة جداً هيّطت من إحدى الأشجار إلى مُغذي طيور من أجل جرعة سريعة من الرحيق. لم يكن حجم هذه الطيور أكبر من حجم البعوض الأفريقي، وقد راقبتها برهة طويلة، متسائلاً ما إذا حدث أن قتلها القطة. الصوت الوحيد الأني من الخارج هو صوت أجراس تزن برقة في الريح اللطيفة. هذه الغرفة بدت بنحوي ما كبيرة جداً كي أسكن فيها أنا وحدي، لعلها ضعف مساحة الغرفة التي تقاسمناها أنا وشقيقي في نيروبي.

ارتديت ثيابي ونزلت إلى الأسفل كي أرى الأسرة.

«دعني أساعدك كي أرتب لك أول فطور أمريكي»، قالت شارون. سيكون الفطور الحليب، البيض، والخبز المحمص. كانت بحوزتهم كميات كبيرة من البيض من دجاجاتهم. «كما توجد أيضاً كميات كبيرة من بقايا الأطعمة محفوظة في الثلاجة الكهربائية»، قالت. لم أكن أعرف أن الأمريكيين يأكلون بقايا وجبات الطعام. كانت الثلاجة الكهربائية مكتظة ببقايا الحساء، الرز، المعجنات، العصير، الصلصة، وكل شيء. كانت

الأدراج مليئة بالطعام. كانت هنالك بسكويتات رقيقة وهشة، غراتولا^١، طعام الكلاب، وطعام القطط. طعام في كل مكان بالمطبخ. غرفة المعيشة تعج بالكتب والمجلات. كانت هنالك أريكة حمراء ضخمة كي يجلس عليها المرء ويقرأ. شرفة لطيفة وحاسوب «أبل» ضخمة. مضيتُ قديماً وحدثتُ منشوراتي على حسابي في الفيس بوك. هذه المرة لا أحتاج إلى أن أرتب صوراً فوتوغرافية لي بالفوتوشوب وأنا في أمريكا! استخدمتُ صوراً فوتوغرافية حقيقية أخذناها في «لونغان» الليلة القاتلة. علّق أصحابي مع أسئلة من مثل «هل أنت مقيم حالياً مع عائلة مسيحية؟» «هل ستعتق ديناً جديداً؟».



كان تأقلمي مع الظروف قد بدأ مع استخدام القرن الكهربائي ومُحتصة الخبز. كنتُ شاهدتُ مطابخ كثيرة في الأشرطة السينمائية، إلا أنني لم أفكر أنني سوف أستخدم هذه الأشياء في يوم من الأيام. تعلّمتُ كيف أدقّ الأشياء من «الثلاجة الكهربائية» مستخدماً الميكروويف. وفي الحال تعلّمتُ ما يتصل بغسالة الصحون، غسالة الملابس، مجفف الشعر، أين يكون موضع كل لون من ألوان الطعام في الثلاجة. تعلّمتُ كيف أقيس الأشياء بالبوصات والأرطال، وليس بالأمتار والكيلوغرامات. تعلّمتُ أن أترك اليقاشيش في المطاعم. وكنتُ أتعلّم كلمات إنكليزية جديدة يومياً، بدءاً بـ «المرحاض closet»، «المكنسة الكهربائية vacuum»، «الطبيب البيطري the vet»، «فن الدجاج chicken coop»، «حظيرة الماشية the barn»، «قصّ التحيل mowing»، وكلّ ضروب الأطعمة.

قابلتُ جب، زوج شارون، أكثر الأشخاص هدوءاً ممّن صادفتهم

١ - غراتولا granola: طعام يؤكل في الإفطار أو كوجبة خفيفة ويكون من حبوب الشوفان المسحوقة والمكسرات والعسل، أو معلّى آخر مثل السكر البني أو شراب القيقب، وهي عادة ما تُطبخ حتى تصبح مقرمشة ومحمصة وبنية ذهبية اللون - م.

في حياتي كلها. كان قصير القامة ونحيلًا، وعيناه عميقتا الزرقاة لا يفوتها شيء البتة. يبدو أنه يفكر بتأني شديد قبل أن ينطق بأي شيء، وكان يحب أن تكون الأشياء مرتبة ومنظمة. يجب يُعلَّم علم الأوبئة لطلبة ما بعد البكالوريوس في «جامعة نيو هامبشاير» بمانشستر. قبل أن يخرج كي «بتحيز مهمات معينة»، سألتني قائلًا، «هل شعة شيء تُريدني أن أجلبه لك من مخزن البقالة؟» كان يقضي وقت فراغه في القيام بأشياء حول المنزل. كان يختفي في السرداب ويعمل على الأسلاك الكهربائية، أو يخرج إلى الغناء كي يتعصب سورا.

في أفريقيا إنه شيء غير مألوف بالنسبة للرجل أن يعرف كيف يطهو، إلا أن جب كان يطهو وجبات طعام رائعة — الرز المقلبي، طبق هو مزيج من ثمرة الأفوكاتو، البصل، الطماطم، والبهارات، ويؤكل بارداً على الدوام، ألد أنواع الكمك. حين مضينا معاً كي نشري الفواكه والخضار، توقفنا عند نافذة خارجية¹ كي نشرب القهوة في الهواء الطلق. شرح لي كيف يعمل صندوق الحاكي. «يوجد رجل حقيقي يتكلم، مع أننا لا نستطيع رؤيته»، شرح لي. بدا كما لو أننا نطلب الطعام في هاتف جوال، الأمر الذي عرفت أنه شيء يمكنك أن تقوم به.

لم يكن يومسعي أن أحصل على مهنة في «الولايات المتحدة» إلى أن تصلني «بطاقة الأمن الاجتماعي» و«البطاقة الخضراء» خاصتي. وفيما كنتُ أنتظر، عرضتُ عليّ أسرة مكدونيل — باريس مهنة في منزلهم. أن أقوم بقطع الحطب وتكديسه من أجل الشتاء. أطعمتُ الحصان، نظفتُ الاصطبل وبقن الدجاج، سقيتُ النباتات، رقعْتُ الأقصان المساقطة من الطريق الخاص المؤدي إلى المنزل. أمضيتُ النهار كله أعمل في خارج المنزل ولم أدخل إلا من أجل استراحة غداء سريعة، وكان الغداء

1 - نافذة خارجية drive - up window نافذة في مطعم، أو بنك، أو متجر حيث يستطيع الزبون أن يحصل على الخدمة من دون أن يغادر سيارته - م.

مكوناً من سندويتش وشيء من عصير البرتقال. كانوا يدفعون لي عشرة دولارات بالساعة الواحدة. كنتُ أعمل في جميع أيام الأسبوع وأكسب أكثر من سبعة دولار، إلا أنها كانت تذهب بسرعة. بعد شراء دراجة هوائية، بعض الملابس الجديدة، قفازات العمل، ونظارات واقية لغرض تقطيع الحطب، وبقي لدي ما يكفي من أجل متعتي اليومية بشاؤل الكعك المحلى المغطى بالدهن وشرب القهوة في مطعم «دانكن دونتس»¹ ليلاً. أسترخي بتصفح الـ «نيغليكس»² ومشاهدة الأفلام.

كنتُ أستيقظ يومياً مستمتعاً بالعمل الذي أقوم به، وكان يوجد على الدوام شيء ما كي أقوم به حتى إزالة أنسجة العنكبوت من حظيرة العاشية هو عمل كانت الأسرة ترغب أن تقوم به منذ أمد طويل. كانت ناتاليا تخاف من العناكب، إلا أنني في سنوات مراهقة كنتُ قد أزلت أنسجة العنكبوت لفاليس في كوخ الفيديو العائد لها، لذا كنتُ مستعداً لعمل من هذا الطراز.

كانت ناتاليا مَدْرَسَة مُخْضَر مَة في «ثانوية يرملاوث»، إلا أن إجازة الصيف ما تزال مستمرة، لذلك كنا نحن الاثنين نمشي أحياناً عديدة كل يوم عبر المدينة. وفيما كنا نسير، كنتُ ألوح للسائقين، وكانوا يردون على تلوحي أو يتسمون. قالت لي ناتاليا إن بعض الناس في أمريكا عنصريون. لم أكن متأكداً ما هي «العنصرية»؛ كل ما أعرفه هو الكراهية والتعصب الأعمى من كينيا، وهذا ليس بسبب لون البشرة. أخذتني هنا وهناك للقاء الجيران حتى يعرفوني كلهم ولن يديروا قرص التليفون على الرقم 911 حين أتمشى هنا وهناك. لعبنا كرة القدم والألعاب الفيدوية ومضينا في رحلات تسوق إلى أبل. أبل. بين لي فريبورت. نعتني ناتاليا للجميع بكوني أخاها المثني.

1 - دانكن دونتس Dunkin Donuts: سلسلة محلات قهوة عالمية، بدأت منذ 1950 في كوينسي بالولايات المتحدة الأمريكية - م.

2 - نيغليكس Netflix: مجهز شبكة إعلام أمريكية، مقره الرئيس لوس غاتوس، ولاية كاليفورنيا. هذا المجهز تأسس في العام 1997 - م.

لم يكن لديها أحد في البيت كي تستكع معه منذ انتقال شقيقها الأكبر سناً، مورغان، للسكن في كاليفورنيا؛ الآن هي ذي مجدداً كانت تستمتع بعمل الأشياء بمعية أخ. ذات يوم نشرت صورة فوتوغرافية لي على وسيلة التواصل الاجتماعي وأنا أحمل آيس كريم الشوكولاتة بالفانيللا الأكبر لدي، واصفةً إياي بكوني أختها الأكبر. بدأ أصدقائي الصوماليون يتصلون بي على الهاتف الخليوي - وهم مصدومون. قال أحدهم، «هل فقدت صوابك؟ لا يمكنك أن تتخطها أختاً لك ما لم تكن مسلمة».



انقضت أسابيع. جاء الخريف. كانت الشمس تشرق وتأفل كما هو الحال في الصومال في الساعة السادسة تقريباً، إلا أن الجو هنا يصبح أبرد بكثير مما هو عليه في الصومال. أوراق الشجر باتت ذهبية وحمراء اللون؛ لم يسبق لي أن رأيت ألواناً كهذه في الشجر. في المنزل تحدثوا عن الجو، الطعام، الإجازات، الكتب، والأفلام. كان هنالك على الدوام شيء ما يجري على قدم وساق. إلا أننا اليوم كنا نتكلم عن عيد «الهالوين»⁽¹⁾، وهو يومان، واليقطينة الضخمة كانت عند عتبة الباب. تكيّفت مع الخُدع، مع الدعوات للولائم على النفقة الخاصة وارتياء البدلات. أعطتني شارون لائحة من الشخصيات المضحكة يمكنني أن أختار منها. اخترت «الرجل — الوطواط»⁽²⁾ لأنني كنت أعرفه من تسجيلات الـ «DVD» التي شاهدتها في أفريقيا، إلا أن الشخصيات الأخرى المذكورة في القائمة كانت غريبة بالنسبة لي. أنا بزيمي، زي الرجل — الوطواط، وناتاليا بزيبها، زي شيخ فيكتور، زونا منازل الجيران من أجل الخُدع أو الدعوات للولائم على النفقة الخاصة. بدا هذا غريباً نوعاً ما لأنه لا يلبس عددٌ كبير من البالغين تلك الأزياء، إلا أن الجيران ملأوا كيسي الصغير بالحلوى.

1 - عيد الهالوين Haloween: عيد جميع القديسين، عشية 31 تشرين الأول/ أكتوبر -

لم يسبق لي أن سمعتُ بتغيير الوقت في ساعات الحائط — كنتُ أحسب أن الوقت هو ما هو عليه — إلا أنه في صباح يوم أحد ما الجميع ذهبوا حول المنزل ونصبوا الساعات الجدارية بحيث أعادوا الزمن ساعة للوراء، وعلى حين غرة حلّ الظلام بنحو ياكرفعلاً. وفي الحال جاء «عيد الشكر». ولما وصل العيد أخيراً، كان لدينا عشرة أشخاص حول المائدة، معظمهم أقارب. كان الجميع يريدون اللقاء بي، العضو الجديد في أسرة مكدونيل — باريش. كان لدينا ديك رومي، بطاطس حلوة متفوخة بالخيز، فطيرة التفاح، الأيس كريم — طعام وفير جداً. نسيْتُ تقريباً كيف تكون حالة المرء حين يتصور جوعاً بحيث أنك تكون في حالة كَرْب جسدي. تقريباً. لم يكن بوسعني أن أصدق أنني جالس إلى مائدة ضخمة يُحيط بها أناس يبض في أيديهم كلّوس بيرق، وكنتُ على غرارهم. تحدثوا عن لعبة كرة القدم الأمريكية، البرامج التلفزيونية التي كانوا يشاهدونها، النزاهات الطويلة على الأقدام والرحلات الأخرى التي قاموا بها. تكلموا عن حيواناتهم، عن عائلاتهم. كنتُ أصدق وأتعلّم. تكلمتُ عن حياتي، عن قصتي، وحياتي الجديدة في ولاية ميين.



شاهدتُ من الجهة الأخرى للشارع سامي البريد وهو يُسقط المظاريف في الصندوق يومياً. كانت فكرة البريد فكرة غريبة جداً حتى لو كنتُ أجنبياً سوف يُسلم البريد إلى متارك بدلاً من أن تنتظر في طابور في مكانٍ ما وتدفع رشوة، غير أنني تعوّدتُ على ذلك. كنتُ أهرع للقبض على البريد حالما يأتي سامي البريد، أدقّق فيه لأرى ما إذا كان اسمي مدوّنًا على أيّ شيء. في أغلب الأحيان كانت العواد البريدية هي كتالوجات تسوّق، من المضحك أن تخصصها بعناية وترى كلّ الأشياء التي بمستطاعتك أن تشتريها من دون أن تمضي إلى المخزن، أي مخزن. لم أكن أُرغب بالتسوق. كنتُ أنتظر «البطاقة المخضراء» العائلة لي.

ولمّا وَصَلْتُ أخيراً، كُنْتُ أود فقط أن أُمزق المظروف وأفتحهُ، إلا أنني كُنْتُ محترساً كي لا أُمزق البطاقة الموجودة في داخله. تبين أن البطاقة بلاستيكية صلبة وليس من السهل أن تُمزق. كانت البطاقة تحتوي على صورة لي أُخذتْ بالكومبيوتر، الصورة التي أخذوها لي في «مطار لونغان»، بجانب صورة لـ «تمثال الحرية». كُتِبَ على البطاقة «الولايات المتحدة الأمريكية» و«مقيم دائم». وأنا و«تمثال الحرية»، مقيمان دائماً. بطاقة «الأمن الاجتماعي» من المؤمل أن تصل بعدها قريباً جداً، الأمر الذي يعني أن باستطاعتي أن أعمل وأشتري سيارة. الشيء الجوهرى، إنها الخطوة الأولى نحو هدفي بأن أصبح مواطناً «الولايات المتحدة الأمريكية».



في هذه الأثناء، هناك في الصومال، تدقق الناس على كوخ أمي في معسكر «إيلانشا» كي يهنتوها على وصولي إلى «الولايات المتحدة». كانوا يعاملونها كما لو أنها ربحت كثيراً. أقارب بعيدون كانوا يتحاشون أمي على الدوام دخلوا فعلاً إلى كوخها، انتظروها كي تعدهم بشيء ما. إلا أنها لم تكن قد تَلَقَّتْ مني قرشاً واحداً. كانت تتوقع أن أبعث إليها المال في اليوم التالي لوصولي، إلا أن أسابيع عديدة مرّت ولم أرسل إليها دولاراً واحداً، لأنه لم يكن باستطاعتي أن أجدي عملاً، وكُنْتُ قد أنفقتْ النقود التي كسبتها من العمل المنزلي. شارون وحب كانا في منتهى الكرم في أن يهياني مأوى ووجبات طعام مجانية، لكنني ما إن أنتهي من تنظيف كلّ ما يحيط بعفلهما، لن يتبقى عملاً كثير بمكنتي أن أنجزه لهما. كانت بحوزتي «البطاقة الخضراء» خاصتي، إلا أنني عانيتُ من شحّة «greenbacks»⁽¹⁾، وهذه كلمة جديدة أخرى.

ما من أحد في إفريقيا صدّقني. حين كُنْتُ أتحدّث مع أمي على الهاتف

1- greenbacks: الأوراق النقدية الأمريكية - م.

الجوال، كانت تصمّم أذنيها حيال شكلاوي من شُح العمل في أمريكا، حيث تنمو النقود على الشجر. كانت تعتقد أنني أصبحت متفطرساً، وأن ثروتي التي وجدتها حديثاً غيرتني. لم أستطع أن أقتنعها أن الحياة في أمريكا يمكن أن تكون صعبة أيضاً، إلا أن مشكلاتها كانت أكبر من مشكلاتي، كانت هي ونعمة نحتاجان إلى المال كي نغلا على قيد الحياة وكي تشتريا الطعام. كنتُ أظل صاحباً طوال الليل أتصفح JobsMaine.com ومواقع إلكترونية أخرى، أملاً استثمارات طلب العمل، أيّ عمل أعتقد أنني قادر على القيام به. حاولت أن أعمل في مخازن السلع، محال غسل الثياب وكتيها، المخازن، تنظيف الحمامات، مسح الأرضيات، ومهن كثيرة أخرى. أغلب هذه المهن تبين أنها في مناطق بعيدة جداً عن «يرماوث»، وأنا لا أملك سيارة أو حتى رخصة قيادة سيارة. لذلك تعيّن عليّ أن أحده بحثي على المهن التي يمكنني الذهاب إليها مشياً على الأقدام أو راكباً دراجتي الهوائية مسافة قصيرة.

سرتُ حول المدينة، زائراً الجيران، سائلاً إياهم ما إذا كانوا يحتاجون شخصاً ما كي يعمل في فناءاتهم أو يساعدهم في أيّ شيء. زرتُ بعض المزارع المحلية كي أرى ما إذا كانوا يحتاجون إلى مساعدة. بعض الطلبات على الإنترنت من أجل مهنة ما في مخازن البضائع ردت عليّ بأنه يجب إجراء مقابلات. كان مديرو المخازن يتسمون، وأحسستُ أنني أحسن التحدث إليهم. قلتُ كم أنا قادر على العمل بجد ودأب. ملأت استثمارات كثيرة جداً، وقعتُ أوراقي، وأجبتُ عن الأسئلة. هذه كلها غيرت أملتي. هل السبب هو لغتي الإنكليزية؟ كنتُ أعرف أنها ليست جيدة بقدر جودة لغة أغلب الأمريكيين. لعلمهم خطئوني لأنني جديد على البلاد. لم تكن لديّ أيّ تجربة سابقة في العمل هنا في «الولايات المتحدة»، وهو شيء كانوا يسألون عنه على الدوام. لم تكن لديّ خلاصة أو مراجع.

كانت مخاوفي من العطالة تزداد وتغدو أكبر بعد كلّ مقابلة. كنتُ أكافح فعلاً كي أفهم كيف تعمل أمريكا. ماذا لو أنني لم أجد لي عملاً

فيها على الإطلاق؟ كنتُ مستعداً لأداء أي عمل مهما كان نوعه، أقدر المهن، إنما مع ذلك لم أجذُ عملاً لي. أنا وحب وضعنا يالطة أمام الساحة الأمامية للمنزل. ساعدتني شارون على كتابة بضعة سطور: «أنا شاب من أفريقيا، معافى، لا أتعاطى العقاقير. أحتاج إلى عمل ما. أي عمل. إن كنت تعرف أي عمل من فضلك اتصل بهذا الرقم».

كانت ولاية مين تروي نحو خمسين ألف مهاجر صومالي، معظمهم يُقيمون في لويستون، وهي مدينة معمل نسيج قديم تقع في وسط ولاية مين ومقر «كلية بيش». ويقيم عدد كبير آخر منهم في بورتلاند، وهي أكبر مدن الولايات. كان اللاجئون الصوماليون يحصلون على المساعدة من وكالات إعادة التوطين من مثل «الجمعيات الخيرية الكاثوليكية» التي تعطيهم النفود خلال الشهور الثمانية الأولى وتُعين أشخاصاً يتقصون سير الأفراد ومشكلاتهم وتساعدهم على التكيف وإيجاد أعمال لهم. إلا أنني فنياً لستُ لاجئاً. وبما أن شارون وحب طيبان ومن دأبهما أن يسافرا حول العالم كي يساعدوا في القضاء على الأمراض، لم يكونا هاملين في الميدان الاجتماعي مُدربين لمساعدة مهاجر أفريقي أبحر إلى أمريكا.

كذلك لا يوجد صوماليون في يرموث، وهي بلدة تابعة¹ تبعد عشرة أميال شمال بورتلاند عدد نفوسها أقل من تسعة آلاف نسمة. في لويستون وبورتلاند، بمستطاع الصوماليين أن يركبوا الحافلات حول المدينة. في يرموث في الأوقات التي لا توجد فيها حافلات، كنتُ أركب دراجتي الهوائية وأدور حول المدينة، أسأل كل محل ومتجر في «الشارع الرئيس» ما إذا كان يوجد لديهم أي عمل. كان الأطفال يحدقون إليّ مفزوعين؛ كانوا يُخبثون أنفسهم وراء أرجل آبائهم ويشيرون إليّ بأصابعهم. أحسستُ بأنه من الغرابة أن أكون مختلفاً عنهم إلى هذه الدرجة. الصوماليون لا يشبهون

1 - بلدة تابعة bedroom community: لو بلدة المسافرين، هي بلدة سكنية أساساً يعمل أغلبية سكانها الموظفين في مدن مجاورة يسافرون لها عادة بشكل يومي - م.

الكثيرين، إلا أنها مسألة درجات لا غير. هنا أنا أشبه بكاتين غريب هبط من الفضاء الخارجي. توقفتُ عند «ذاكن دونتس»، «رومبوس بيترا»، حفائز أحصنة عديدة، المكوى، وحتى محطة الانتقال من قطار إلى آخر. إننا لا أحد لديه عمل. فكرت أنه ربما يتعين عليّ أن أعمل بانعاً جوالاً أبيع الجوارب على الرصيف كما كنتُ أفعل في نيروبي، إلى أن تذكرتُ أن الجميع يقودون السيارات وربما يشترون الجوارب عبر الإنترنت أو من «أل. أل. بين» في أعلى الطريق السريع تماماً.

بعد أسابيع من العمل العقيم وأنا أبحث في أرجاء يرموث، قررنا أنه يلزمنا الذهاب إلى مركز هورتلاند وأسأل هناك في المنطقة التي يسكنها الصوماليون عن المهن. وفيما كنا ننتظر أن يأتي ذلك اليوم، وقت العشاء في يوم من أيام تشرين الثاني / نوفمبر رنّ جرس الهاتف. كانت تلك هي كريستين، إحدى صديقات شارون وهي مقيمة في يرموث وكانت قد رأت الياقطة في فناء منزلنا. أخبرتُ شارون أن شركة محلية متخصصة باستخدام المواد العازلة كانت تفتش عن رجال قادرين على القيام بعمل شاق. كان الشتاء على الأبواب والحاجة للمواد العازلة في تزايد مطرد. أرسلت إيميل إلى مدير الشركة، ورتبنا لاجراء مقابلة خلال ذلك الأسبوع. كانت أوراق الشجر قد تحولت إلى اللون البني الباهت وكانت تسقط فيما كنتُ ذاهباً للمقابلة. كان الظلام قد بدأ يهبط حتى في وقت أبكر من المعتاد وبدأ الجو يبرد. نظر مدير الشركة إلى «البطاقة الخضراء» خاصتي. «ما اسمك؟» سألتني. كان مقيداً في «البطاقة»، إلا أنني أخمن أنه لم يكن قادراً على أن يميز اسمي الأول من اسمي الأخير.

«عبدي»، أجبت.

«سامحتني إذا ما نظقت اسمك بشكل خاطئ»، قال. «أنت تبدو جيداً، قوياً ونشطاً» نحن نحتاج إلى رجال مثلك، أيها. هذه المهنة تتعامل مع مادة ثقيلة وتتطلب تسلق سطوح. هل أنت على ما يرام مع المرتفعات؟»

قلتُ له إنه ليس لديّ مشكلة مع المرتفعات وإني أحتاج فعلاً إلى هذه المهنة.

«نحن ندفع أحد عشر دولاراً في الساعة»، قال لي. «من الجائز أن نزيد الأجر إذا كان عملك جيداً». بدا كأنه يعتذر عن قلّة الأجر، إنما بالنسبة لي كان أجراً ممتازاً، أكبر أجر كسبته في حياتي كلّها. سألتني إن كان باستطاعتي أن أعمل في نهايات الأسابيع. أجبته أن بإمكانني أن أعمل في أيّ وقت ليلاً أو نهاراً. خرجتُ من ذلك المبنى إلى الهواء الطلق.



صباح يوم الاثنين، 17 تشرين الثاني/ نوفمبر، هو اليوم الأول من عملي. حين دُفْتُ ساعتني المنبهة في الساعة الرابعة صباحاً، ارتديتُ ثياباً سميكّة، باعثة على الدفء، بطبقات من الحرير والصوف. تناولتُ فطوري الاعتيادي المؤلف من البيض، الحليب، والخبز المحمص. كان أفراد المنزل الآخرين نائمين. يستغرق الوصول إلى موقع العمل خمساً وأربعين دقيقة من المشي وتوجّهتُ مباشرةً، وسكين حرفتي اليدوية الجديدة محشورة في حزامي، ومشكٌ سلّكي⁽¹⁾ في جيبي الخلفي، وقبعتي الصلدة على رأسي. سرّتُ عبر الغابة؛ كل شيء كان هادئاً وساكناً باستثناء الغزلان الخائفة التي اندفعت حين سمعني وأنا قادم.

«مرحباً بك وأنت تنضم إلينا»، قال المدير لما وصلت. عرّفتني على الرجال الذين سأعمل معهم. كانوا جميعهم بأجسام ضخمة، وذوي عضلات مفتولة. رجال ميين بشباب وسخة وجزعات بناء كبيرة الحجم. كلّما تكلموا، كانوا يطلقون الشتائم. تعسّاً، تَبّاً، زانية، مؤخرّة. كانوا يتصارعون ويلكمون أحدهم الآخر. هذا كونهم بيض البشرة، ذُكُروني

1- المشك السلّكي staple gun: آلة تُحمل باليد لغرز مسامير أو أسلاك معدنية مزودة السن أو معقوفة في الخشب، البلاستيك، أو مواد البناء. تُثبت بها مواد مختلفة من مثل مواد العزل، السفوف، السجاجيد، وأقمشة التجهيد «الدوشمة» - بالدرجة العرفيّة، تشبه كابسة الأوراق المزودة بالأسلاك المعقوفة - م.

برجال الميليشيات الصوماليين، إلا أنني كنتُ سعيداً جداً بأن أحصل على مهنة بحيث أنني تجاملتُ حولي.

كان رئيس الطاقم، جويي، قد أخبر العاملين باسمي، إلا أنهم كلهم كافحوا كي ينطقوه. أريد، أبي، أبدو. قلتُ لهم مهما كان الاسم الذي تطلقونه عليّ فلا بأس به. بالكاد تمكنتُ من فهم لكتهم، لكنة ميين الثقيلة على كل حال. حتى الآن أنا فخور بلغتي الإنكليزية، إلا أنهم ظلّوا يصححون أخطائي ويضحكون على لكتتي، لذلك شعرتُ بأنني مُهان ومختلف. كنتُ في نظرهم رجلاً أفريقياً أجنبياً، وليس الأمريكي الذي كنتُ أريد أن أكونه. طلعت الشمس فيما كنا نجتمع من أجل اجتماع الأمان اليومي خاصتنا. تحدّث العمال عن اثنين من المستخلفين كانا قد سقطا من على سقف ما والحقا الأذى بنفسيهما، وكُسر سلّم شخص آخر، تشقلب أحدهم وأوذي على ركبتيه. في كلّ أسبوع كانت هنالك قصص عن عظام مكسورة. قيل لي إنه بمستطاعي الذهاب إلى المستشفى وتلقي العلاج مجاناً إذا ما لحق بي أدّى ما، الأمر الذي أذهلني. لم أكن أعرف أن القانون يقضى بذلك، فكرتُ حالاً أن الشركة هي شركة لطيفة.

حدد جويي موقع عملي مع ميلتون وشين، وهما عاملان متمرسان كانا يعملان في الشركة منذ ما يزيد على عشرة أعوام. يقرأ ميلتون التعليمات لعمل اليوم. كانت بنّاية تجارية، ستة طوابق، كنا «نثبت» مواد عازلة من الفايبرغلاس على الجدران والسقوف. كانوا يسموننا «جماعة التثبيت». ميلتون وشين رجلان ضخما البدن، قويا الجسم مع وشم في كلّ أنحاء جسميهما. شين كان لديه ثقبان¹ في أنفه وشفته السفلى. فقد ميلتون بعض أسنانه الأمامية.

حملتُ لفّات المادة العازلة الثقيلة في شاحنة التسليم الضخمة

١ - ثقب piercing ثقب في أحد أعضاء الجسم توضع فيه حلقة من ذهب أو فضة إلخ، وهي موضة شائعة في بعض بلدان الغرب - م.

من «المحل»، وهو الذي ندعوه «مخزن يرموث». حزم ثقيلة من الفايبرغلاس كانت موجودة في كل حذب وصوب. استخدم ميلتون بدأً واحداً في دحرجة حزمة كاملة وأخذها إلى الشاحنة. أما أنا فكافحتُ بكلتا يديّ. فيما كنتُ أحمل واحدة، كان هو يحمل ثلاثاً. كانت الجدائل شديدة الصغر للفايبرغلاس قد انتشرت على كل ثيابي حتى مع القفازات، وقناع وجه، ونظارات واقية كنتُ أشعر بالحكة. ثلاثتنا، نحن «جماعة التثبيت»، صعدنا إلى داخل السيارة وانطلقنا، ميلتون وراء عجلة القيادة. قيل أن تغادر الشاحنة، صاح علينا جوي من غرفة مكثبه، «تذكروا، كلّكم، لا تنسوا القبعات الصلدة والنظارات الواقية! إنه القانون!».

ما إن غادرت الشاحنة المخزن، حتى مدّ الرجلان أيديهما في كيسيهما المصنوعين من الدفيل⁽¹⁾ وأخرجنا الماريهواتا. «هل تدخن اللعنة، يا رجل؟» سألتني ميلتون.

«كلا»، قلت. لم يسبق لي أن دغنتُ الماريهواتا من قبل أو حتى رأيتها قبلاً. وحتى إنني لم أدخن سيجارة من قبل. وفيما كانا بنفخان سيجارتهما، ملأ الدخان كابينة السيارة. «رائحتها كريهة»، قلت. فهبطنا فقط، نطلعا إليّ، وقالوا شيئاً ما لم أستطع أن أفهمه. تكلمنا بسرعة شديدة وبسخرية كانت جديدة عليّ. تكلمنا عن زوجتيهما، عن ذهابهما إلى النوادي، عن شرب البيرة، تدخين الماريهواتا، السيارات، الفوز باليانصيب، البيئز، والمصارعة المهنية. جلستُ لصفهما بصمت، ساعياً إلى أن أستوعب ثقافتهما وأنعلّمهما، ناظراً إلى الخارج حيث الأشجار والمباني.

تلقي ميلتون اتصالاً هاتفياً من زوجته. كان يسميها «السيدة العجوز». في أول الأمر حسيتُ أنه يتحدث عن أمه، إلا أنه قال إن أمه ميتة. «هي، اليوم لدينا رجل جديد، أهي»، قال لزوجته، وبعدها وضعها على سماعة المتكلم وأوماً لي أن أقول شيئاً ما. لم أكن أعرف ماذا أقول.

1- الدفيل (duffel): نسيج صوفي غليظ الزنبر - م.

تحدثنا عن أفريقيا. بالنسبة لهما، أفريقيا بلد واحد ضخم يسكنه بشر عراة يأكلون الشعابيين. عدد القردة والأسود أكثر من عدد البشر. أخبرتهما أن لدينا طرقات سريعة، طائرات، وسيارات، الأمر الذي أثار دهشتهما.

لم يعد هنالك حيز في جسم ميلتون لوشم آخر، ولذلك ذهلتُ لدى سماعي أنه يخطط لأن يهدي وشماً جديداً إلى والدته الراحلة في حقبة، الأمر الذي يكلفه ما يزيد على خمسمئة دولار. لم يكن باستطاعتي أن أفهم ذلك، أو الثقين، إلا أن شيئاً كنا نتفاسمه هو أن هؤلاء الرجال كلهم يحبون عائلاتهم. كان ميلتون يعلّق الصور القوتوغرافية لزوجته وأطفاله في كلّ مكان، في قبعته، في الشاحنة، وفي المخزن.

كانت جدران المبنى مصنوعة من المسامير المعدنية كبيرة الرأس، لا من الطين ولا من البلوك. المبنى لم يكن يبدو ثابتاً جداً بالنسبة لي. فيما كان ميلتون وشين يدخان سيجارتهما ويشربان «ريد بُل»^١ خارج المبنى، بدأت أفترخ ألواح الفايبرغلاس وأحملها إلى الطوابق العليا على درج غير مكتمل. كنتُ أتفخض بصعوبة وكانت نظارتي الراقية قد أصبحت ضبابية، لذلك نادراً ما كنتُ أرى درجات السلم. وفي الختام ميلتون وشين وضعاً موسيقاهما الأثيرة، موسيقى الروك أند رول، التي بعثت صوتاً ثاقباً في كلّ أرجاء البناية وشرعاً بالعمل. عرضاً لي كيف أفتح رزم المادة العازلة، ويعدها كيف أضع الركائز على الأرض كي يكون بوسعنا أن نثبت المادة العازلة في السقف. رأيتُ العوارض الخشبية في الأعلى وفهمتُ الآن كيف تمكن الأمريكيون من الحصول على سقف مسطح كهذه. لم يابه شين وميلتون بلبس الأقنعة أو النظارات الواقية، غير أنهما أخبراني أنه يتعين عليّ أن ألبسهما لأنني جديد ولم أتعود بعد على الفايبرغلاس. «سوف تخلعهما كليهما بعد برهة من الزمن»، قال ميلتون، ضاحكاً. كانا

١ - ريد بُل Red Bull: مشروب طاقة تتبعه شركة Red Bull GmbH، وهي شركة نمساوية تأسست في العام ١٩٨٧. ويُعد مشروب الطاقة هذا من ألذ الماركات وأكثرها مبيعاً في العالم - م.

سريعين جداً بحيث كانا في حقيقة الأمر يركضان على ركائزهما. أما أنا فبالكاد أمشي على ركائزي من دون أن أسقط. وبعدما عملنا الجدران، متسلقين سلالم عالية. حرك ميلتون وشين سلمييهما إلى الأمام فيما كانا واقفين عليهما، بأن قفزا. كانا أشبه ببهلواني سيرك.

كان أول شيك أجرة استلمته يوماً سعيداً؛ كسبتُ أربعةَ دولار. لأنني كنتُ أقيم مع شارون وجب ولا أزال لا أملك سيارة، كانت نفقاتي الشخصية قليلة، وكنتُ قادراً على إرسال 360 دولاراً إلى أمي. كنتُ فخوراً جداً فيما كنتُ أدخل إلى سوق بورتلاند للحلال، وهو محطة تحويل المال «حولة» غير الرسمي. سلمتُ النقود للرجل الواقف وراء الكاونتر، أخذ ستة دولارات إضافية عن كل مئة دولار كأجر. ومن ثم تواصل من خلال الكمبيوتر مع كشك الحولة في موقاديشو، حيث يوسع أمي أن تدخل إليه وتطالب به.

كانت سعيدة جداً بحيث أنها اشترت معزاة وذبحتها، طبخت فُقدراً من الرز، وأقامت حفلة لجيرانها. جاء متكاليين بسباس واستمتع بتناول وجبة الطعام. قالت إمي إنه دهالي: «عسى أن يحفظه الله من كل مكروه ويجعله يعمل بمثابة».



في كل يوم كنا نثبت المادة العازلة في منازل وبنيات مختلفة في مدن مختلفة. عشرة أميال، عشرين ميلاً، وغالباً بعيدة جداً بحيث تفصل المسافة إلى ثمانين ميلاً. كان يجب علينا أن نتهي تثبيت ألواح المادة العازلة في المنزل كله في اليوم نفسه، لذلك كنا نتحرك بسرعة. كانت استراحة الغداء ثلاثين دقيقة فقط. كان ميلتون وشين يأكلان الكعك المحلى المقلبي بالدهن، وغالباً الهمبورغر الذي يُحضّرانه معهما. أما أنا فأبحث عن مكان نظيف وأصلي. كانا كلاهما باتيان وينظران إليّ فيما أنا أحني رأسي وأرتل القرآن.

«ماذا تفعل؟» سألتني ميلتون.

أثناء الصلاة ليس من المفترض أن أتكلّم، لذلك كنتُ ألتزم الصمت وأجيبه عندما أنهى من أداء الصلاة. «أنا أصلي».

التقط ميلتون هاتفه الجوّال وراح يتصل بجميع العاملين في الشركة وحتى سيّدته العجوز. كان يسخر من القضية كلّها. «هذا الرجل ينحني ويقول إنه يصلي»، قال وهو يضحك.

كان يلزمني أن أقول لهم بأنّي مسلم، ويتمنّ عليّ أن أصلي خمس مرات يومياً. «لديهم مسلمون في أفريقيا؟» سألتني شين.

بالطبع كانوا يحسبون أن جميع المسلمين يشبهون أسامة بن لادن.

بعد العمل يتوقف ميلتون وشين في مخزن للراحة كي يشتريا البيرة والسجائر. وكان من دأبهما أن يطلبوا أن يستدينا المال مني حتى موعد تسديد الأجر القادم. كنتُ دوماً أعطيتهما دولارات قليلة حين كانا يطلبان مني، إلا أنهما لا يسدّدان الدين. لستُ متيقناً ما إذا كان شيئاً مؤدياً أن أذكّرهما في يوم استلامنا الأجر.

ذات يوم في العمل اختفتُ قبعتي الصلدة. وفي يوم آخر اختفى المشك السلكي، وبعدها معطف الشتاء خاصتي. ولما كنتُ أسأل ماذا حصل، كان ميلتون يفهقه ويرد قائلًا، «هذا ما يحدث عندما تكون جديداً هنا». قال رئيس الطاقم إنه ليس باستطاعته أن يفعل شيئاً. كان يتحمّ عليّ أن أشتري قبعة صلدة جديدة ومشكاً سلكياً جديداً من المخزن. لم تكن لدي أيّ فكرة من هذا الذي يسرق حاجياتي إلى أن ذات يوم وجدتُ قبعتي الصلدة في مؤخرة شاشة ميلتون اليك آب. الرجلان نفسيهما اللذان كنتُ أعمل معهما على مدار أشهر، ولما سألتهما، لم يزّدا بشيء! كان الأمر مُهيناً، وبدا لي كما لو أن حلمي الأمريكي قد بدأ ينهار.

سألتُ جويي بأن يضعني في «مجموعة تثبيت» مختلفة، وقال لي أن أعمل مع رجل اسمه توم. كان يحترمني، يدير نافذة سيارته إلى الأسفل

عندما يدخلن الماريهوانا. كان قد أودع السجن مراراً، بسبب المخدرات، وقال لي إنه يريد الإفلاق عن الإدمان. إلا أنه شرح لي قائلاً إنه يحتاج إلى الماريهوانا كي يتجز عمله. كان نوم يود أن ينتظم في كلية، وطرح عليّ أسئلة عن حياتي هناك في أفريقيا. حكيتُ له عن الحروب والموت وعمليات هروب المواطنين، فهز رأسه غير مصدق. «يا رجل!» قال. «لقد تعرضتُ مع أب فاسد وملكُتُ سبعة أعوام في السجن، إلا أنه هذا لا شيء» مقارنةً باللعنة خاصتك».

أنا ونوم السجنتنا معاً. بدأ الأمر أننا أنكرنا حاجياتي في شاحنته. كان يريد أن يرى العالم خارج «الولايات المتحدة» كان يريد أن يستكشف. أخبرني أنه يحب مشاهدة برامج «ناتسيونال جيوغرافيك» التلفزيونية. كان يشاهد البرامج التي تدور حول المعتززين القوميين «مآسي مارا» و«سيرينغيتي» في كينيا وتنزانيا. تحدثنا عن الأسود، الضباع، وحيوانات النور. حكيتُ له قصصاً عن أمي وأبي وهما يواجهان الأسود في الحياة الواقعية. أحييتُ نوم إلا أنني لاحظتُ أن العقاقير المخدرة التي كان يتعاطاها كي يتغلب على العمل الشاق بدتْ كأنها تسبب له المشكلات أيضاً.

كان هنالك دوماً راديو في موقع العمل، وكان يجار بالـ «روك أند رول»، «أغاني البلوز»، أو الموسيقى الريفية. الرجال بوسعهم أن يسموا جميع الفرق الموسيقية وجميع الفنانين، إلا أنهم لا يعرفون شيئاً عن التاريخ الأمريكي. إذ ليس في مستطاعهم أن يسموا عدداً كبيراً من رؤساء الجمهورية باستثناء الرؤساء الحديشين أو جورج واشنطن، ولم يكونوا يعرفون عن حادثة سقوط طائرتي الـ «بلاك هاوك»، على الرغم من أن هنالك صوراً على الإنترنت للمجنود الأمريكيين القتلَى وهم يُسحبون عبر شوارع موقاديشو¹. لم تكن لديهم أي فكرة أين تقع الصومال

1- يوجد فيلم سينمائي أمريكي عن هذه الحادثة يحمل اسم «Black Hawk Down» من إخراج ريدلي سكوت، أُنتج في العام 2001 - م.

كثير من الرجال في «جماعة تثبيت الألواح» صودرت منهم تراخيص قيادة السيارات العالدة لهم بسبب قيادتهم العجلات وهم سكارى، لذلك كانوا كلهم يركبون مع واحد منهم في طريقهم إلى المنزل. كان ميلتون يوصل شين بسيارته، وتوم يلتقط شخصين آخرين. سألت ما إذا كان أحدهم يستطيع أن يجعلني أركب معه في طريقي إلى المنزل، وقال لي ميلتون إنه يتعين عليّ أن أدفع أجرة وقود السيارة. لم يعطه أحد من الرجال الآخرين ثمن الوقود، إلا أنه كان يريد عشرين دولاراً بالأسبوع مني. قلت له إنني سعيد بالسير شيئاً على الأقدام في طريقي إلى المنزل مع أنني أكون متعباً جداً ووسخاً بعد انتهاء العمل.

لا أعرف ما إذا كان الرجال العاملون في «مجموعة تثبيت الألواح» مختصرين، لم يمضي عليّ زمن طويل في أمريكا كي أعرف عن هذه المسألة. إلا أنه بدا فعلاً أشبه بشيء فهمته بشكل جيد جداً: القبيلة الصومالية. سمعتُ أن الأمريكيين يتذمرون قائلين إن الأفارقة جلبوا مشكلاتهم مع ضفائهم وحزازياتهم القبيلة، وثمة قدرٌ من الحقيقة في هذه المسألة. إلا أن رجال ميين هؤلاء لديهم قبيلة أيضاً. ربما لم يكونوا يسمون أنفسهم «دارود» أو «هوي»، إلا أنها قبيلة، وأنا يقيناً لستُ فرداً في هذه القبيلة.

وهكذا كان يتوجب عليّ أن أعود إلى المنزل سيراً على قدمي، قاطعاً «الشارع الرئيس»، أبدو مثل رجل بلا مأوى ثياب العمل القفزة خاصتي ومكسواً بخيوط الفايبر غلاس الوردية. لحسن الحظ، أناس يرمواوث باتوا يعرفونني وأدركوا أنني رجل يعمل بجِد ودأب. ولما أصل إلى المنزل، أحلج ثيابي الخشنة، آخذ حماماً ساخناً، ألبس ثياباً لطيفة، وأعود من جديد إلى «الشارع الرئيس» كي أسترخي في «داتكن دونتس». كان الناس يلوحون ويتسممون لي. بدأتُ أشعر كما لو أنني جزءٌ من المجتمع ولستُ مجرد غريب مثلما كنتُ أحس خلال العمل.



كان رجال «جماعة تبيت الأكراد» يفرحون بقدوم الشتاء لأنه يعني أنه لا يلزمهم أن يلقوا بشأن التعرق كثيراً جداً أثناء العمل. الأشجار أمست عارية من الأوراق، شبيهة بالهياكل العظمية. ريحٌ باردة كانت تهب من البحر مباشرة، إلا أن السماء كانت زرقاء ساطعة. في يوم استراحتي كنتُ أمشي عبر الممرج المكوّن من الحشائش اليابسة خلف المنزل. كان حصان ناتاليا قد نما له غطاءٌ شتائي. على مائدة العشاء كانت أخبار الجو ما تزال مستمرة؛ كانت هنالك عاصفة شتائية قاسية ومبكرة آتية إلى مين، قالوا. «رياح شمالية شرقية». الناس تلقوا تعليمات بأن يقودوا سياراتهم ببطء، ألغى دوام المدارس. كلُّ الأشخاص الذين يحيطون بالمائدة كانوا جاهزين. كانت هنالك مجارف جاهزة عند الباب الأمامي. وُسمي الخشب في الموقد المشتعل.

«يلزمنا أن نأخذك بالسيارة إلى مقر عملك غداً»، قال جب. «سوف يكون صعباً عليك أن تمشي في العاصفة». أويْتُ إلى فراشي في الساعة السابعة كما جرت العادة ونهضتُ من النوم الساعة الرابعة فجراً. عندما كان الظلام لا يزال مخيماً في الخارج. من نافذة غرفتي رأيتُ الثلج يهطل بغزارة — أول ثلج أراه في حياتي! لاحظتُ رقائق الثلج تهطل ببطء، وهي لا تشبه المطر. كانت السماء يضاء متوهجة وضيائية.

ليستُ ثيابي وخرجتُ كي أساعد جب في جرف الأرصفة. كان الثلج يغطي السيارات والسقوف. «الطرقات قلماً يُمكن تمييزها. الأشجار ترقص في العاصفة؛ الصوت الوحيد هو صوت الأغصان وهي تتكسر تحت الثلج، الذي ظلَّ يهطل ويهطل. كانت يداي قد أصابهما الخدر جزاء البرد، حتى مع القفازين. وفيما كنا راكبين في طريقنا إلى مقر العمل، كان «هيت» السيارة ما يزال يدلفي وأنا أرتجف، يداي كِلتاها مدفوتان في حضني. «هذا هو ما تسميه [الشتاء]، عهدي»، قال جب، باسمّاً. «وغالباً ما يكون حتى أسوأ». طوال يوم عملي كنتُ أنجمد، لأنه لا توجد حتى

الآن أي حرارة في المعاني حيث كنا نصب ألواح التثبيت. كنت بحاجة إلى ملابس أكثر دفئاً.

استمر فصل الشتاء. هطلت ثلوج كثيرة جداً بحيث أنني بالكاد كنت أرى منزلاً، أو خارج منزلاً؛ كان الثلج أعلى من الشيايك، والحروب التي جرفناها باتت أشبه بحيطان متاهة عملاقة. كنا نركض خارج الأمكنة كي نعبث الثلج كله. كانت شاحنات النفايات تأخذ الثلج من قطع الأرض المخصصة لوقوف السيارات في المخزن إلى المحيط. بدا شيئاً جيداً أن نأتي إلى البيت مساءً كي تأخذ حماماً ساخناً وتتناول عشاءاً لذيذاً. رفعت درجة حرارة الغرفة، تصفحتُ الـ «تيفليكس» وشاهدتُ كثيراً من الأفلام، أشاهد فيلماً واحداً يومياً قبل ذهابي إلى النوم. شاهدتُ الأشرطة السينمائية التي سبق لي أن شاهدتها هناك في أفريقيا التي ألهمني الحلم الأمريكي لأن مشاهدتها ثانية ساعدتني في فهم أشياء كثيرة. في الصومال شاهدتُ مرةً فيلم «اللون الرمادي»، حيث يلعب ليام نيسون دور شاب يصارع الذئاب في آلاسكا بعد أن تتحطم طائرته. في الواقع لم أفهم كيف سيكون الحال فظيلاً في البرية خلال العاصفة الثلجية. الآن شاهدته مجدداً وكان ذلك ذا مغزى.

في كل ليلة بعد فيلم رائع أدفن نفسي تحت بطانية سميكَة وأفكر في حياتي العاصية، السنوات العجاف، سنوات الحروب والتشرد واللجوء، سنوات الفرار عندما كان يحفُّ بي الموت ويرقص من حولي. السعادة تغمر فؤادي عندما أدركُ أنني بعيدٌ جداً عن ذلك الموضع، مع أنني ما أزال قلقاً على أسرتي هناك في ذلك البلد الأفريقي. لكنني حين أستيقظ صباحاً وأستعد للذهاب إلى العمل، يتعين عليّ أن أواجه يوماً آخر شديد البرودة إلى حد التجمد مع «جماعة تثبيت الألواح»، نسختي من الحياة الحقيقية المأخوذة من فيلم «اللون الرمادي». فني الأقل لا توجد هنا ذئاب. لم أكن أكثرث بالعمل الشاق، إلا أنني كنتُ أكثره البرد.

في يوم من الأيام استدعاني مدير الشركة إلى مكتبه كي يُخبرني أنني حصلتُ على ترقية بحيث أصبح أجري اثني عشر دولاراً بالساعة. وضمني في التوبة الليلية مع «جماعة تثبيت ألواح المادة العازلة» في مبنى مدرسة جديدة تقوم على جزيرة قريبة من ساحل پورتلاند. كل مساء كنا نأخذ شاحنتنا إلى الجزيرة بواسطة عبارة، ومن ثم عملنا طوال ساعات الليل فيما كان يتهمر مزيدٌ ومزيدٌ من الثلج. أحد أعضاء الطاقم هو بوب، وهو رجل ضئيل البنية كانت لديه ثقب في شفته السفلى ووشم في عنقه. الرجال الآخرون يسمونه «ميني» لأن جسمه ضئيل جداً. لقلب هذا ذكرني برجال الميليشيات في الصومال الذين كانت لهم القاب من مثل «ذو الأذنين الطويلتين»، «وحيد العين»، أما أنا فكنْتُ أسميه بوب. كان يحب أن ينجز عمله، إلا أنه كان يسب كثيراً، ربما كي يعوّض عن حجمه الصغير.

ذات مرة خلال استراحتنا في منتصف الليل، بدأ بوب حواراً معي. «يا رجل، أنا أخاف على زوجتي خوفاً شديداً إلى درجة اللعنة»، قال، شارحاً لي أنه لا يريد أن يتركها وحدها طوال الليل. قال إن مديته لها سجل سيئ فيما يتصل بالعنف الناجم عن استخدام البنادق وقطاع الطرق الذين يدهمون المنازل ويسرقون الأشياء الثمينة فيها. كان قد فقد شقيقاً له على يد تاجر مخدرات أطلق عليه رصاصتين في الرأس. «لدي بندقيّة لعينة في منزلي لذلك بمستطاع زوجتي أن تحمي نفسها»، قال لي. سألته ما إذا سبق له أن رأى فرداً يُقتل بالرصاص فقال لي لا، لم ير سوى الحيوانات حين يخرج في رحلات صيد.

كلّ زملائي في العمل يحبون الذهاب في رحلات القنص؛ كانوا يطلقون الرصاص على الغزلان والديكة الرومية وغالباً على الموظ¹ والديبة. روى لي قصصاً عن الأمريكيين الذي ماتوا بمحض المصادفة

1 = الموظ: moose حيوان ضخم من حيوانات أمريكا الشمالية شبيه بالآلكة، أو الغزال - م.

برصاص البنادق في الغابات وكيف أنك تحتاج إلى أن ترتدي اللون البرتقالي خلال موسم صيد الغزلان. تحدثوا طوال الوقت عن البنادق وضروب البنادق التي كانوا يحبونها أكثر من سواها. كنتُ أعرف كثيراً من البنادق أيضاً، إلا أنني لا أعرف ذلك النوع الذي يستخدمونه في صيد الحيوانات. بطبيعة الحال شاهدتُ دوماً أنواعاً كثيرة من الأسلحة في الأفلام الهوليوودية إلا أنني لا ألتهم حقيقةً كم كان الأمريكيون يفكرون في إطلاق النار من بنادقهم. لم يكن الأمر يقتصر على الصيد فحسب؛ خلال جميع الأنباء إبان ذلك الشتاء كانت هنالك قصص عن أمريكيين سود قُتلوا بالرصاص على أيدي الشرطة. كان هنالك حديث كثير جداً عن العنصرية؛ لم أكن أعرف أن هذا موجود في «الولايات المتحدة». يوماً تحمل لنا الأنباء أعجوبة جديدة.

لم يكن باستطاعتي أن أصدق أن الأمريكيين يخافون على زوجاتهم في منازلهم إلى أن سمعتُ قصصاً مماثلة لقصة يوب. نمتُ في حجرتي البيضاء الكبيرة بسلام، من دون أزيز الرصاص في أي مكان من حولنا أو صوت البوليس وهم يركلون باب حجرتي من أجل أن يتزعوا مني رشوة. وبعدها حصلت لنا حادثة بندقية في العمل. جيمي، أحد الرجال الأكبر سناً العاملين في الشركة، طُرد من العمل لأنه يدخن الحشيشة في داخل غرفة المكتب. عيبتُ أنه لم يكن بوسعه أن ينتظر حتى رجوعه إلى الشاحنة. كان لزملائه في العمل يوم حافل باللهو وهم يتكلمون عن ريفهم الذي طُرد من العمل فيما كنتُ أنصتُ مندهشاً. إنما في الصباح التالي عاد جيمي إلى المخزن حاملاً بندقية بيده، مهدداً بأن يرشقنا بوابل من الرصاص. كان يوم جمعة ويوم استلام الأجر، لذلك كان جميع الرجال في مزاج رائق، متحدثين عن كيف سيتقنون النقود على ملذات نهاية الأسبوع. إلا أن اليوم السعيد تحوّل إلى مباراة مسعورة من الكرّ والفِرّ حين تفرّقنا وراء أكنداس المواد العازلة. وما لبث أن وصل رجال

الشرطة وتمكنوا من مصادرة بندقية جيمي قبل أن يُلْقُوا القبض عليه. جرى ذلك في وقت مبكر جداً من الصباح وأغلب سكان يرمابوث ما يزالون نائمين. حتى ذلك الوقت كان الأمريكيون الوحيدون الذين رأيتهم يحملون البنادق هم المارينز الومسيين في موقاديشو، وكانوا يُصوبون بنادقهم بعيداً عنا. لم تكن لديّ أدنى فكرة عن كون الأمريكيين يوجهون بنادقهم بعضهم على بعض على غرار رجال الميليشيات الصوماليين، وهذا الأمر جعلني خائفاً ومرتبكاً.



انطوت بضعة شهور وانتهى الشتاء أخيراً. الجو الدافئ بدا جيداً جداً، إلا أنني أدركت أنني هنا في أمريكا منذ ما يناهز العام ومن دون تحقيق تقدّم كبير. بذلتُ كل ما بوسعي كي أتكيّف، غير أنه ما زالت أمامي أشياء كثيرة جداً يلزمني أن أتعلّمها. ذات يوم تركتُ القرن مشتعلًا، نسيتُ أنه عليّ أن أطفئه، فهو ليس كنار الطبخ التي تنطفئ. شارون وجب كانا صبورين ولطيفين جداً، إلا أنّ كبرياتي جعلتني أحس بالخرج إزاء ارتكاب الأخطاء. في بعض الأحيان كنتُ أصعد إلى الطابق الأعلى، أسألني في سريري، وأتذكّر أيام الخير الماضيات، عندما كان التفكير في أمريكا شيئاً مُبهجاً. كنتُ أعرف أنه ما من شيء سهل، حتى في أمريكا.

كان الصوماليون متحفظين إلى حد ما فيما يتصل بالأجانب؛ إلى أن تعرف واحداً منهم، إذ كان يُعد من الأفضل أن تتصّت باحترام وأن تلتزم الهدوء. إلا أنّ الأمريكيين يتكلمون بما يجول في أذهانهم مباشرةً ومن دون تردد. إنهم لا يخشون الخوض في حوار ما. كافحتُ على مدار أشهر كي أكتسب ثقة بالنفس كهذه.

لم أشأ أن أعترف بهذا الأمر لنفسي، غير أنني أيضاً كنتُ أعاني من علة الضغط التي أعقبت الصدمة النفسية. ومنذ ذلك الحين عرفتُ أنه عملياً جميع اللاجئين الصوماليين لديهم نسخة معينة من هذه العلة.

كنتُ أستيقظ أثناء الليل وأنا مبتل بالعرق، بسبب الكولاييس، التي كانت تجعلني مُرهقاً أكثر خلال العمل. وعندما لا أعمل، كنتُ أنقضي مزيداً من الوقت في حجرتي أشاهد الأفلام وأنصفح الإنترنت. كنتُ أتكلم على الهاتف مع حسن كثيراً جداً، ولسبب ما أجد الطمأنينة لِمَا أحكي له عن حياتي، مع أنه كان لا يزال تحت رحمة الشرطة الكينية القاسية. كان يحدثني دوماً قائلاً إن كل شيء سيكون على ما يرام. كان حسن يستعد للزواج من حبيبته الجديدة — وهي لاجئة صومالية أخرى، امرأة قابلها في «موقاديشو الصغيرة» وكانت تباع الفاكهة والحليب في الشارع. خططنا معاً لزفافة على الهاتف، كنا نلهو ونحن نتحدث عن الموسيقى والطعام اللذين سوف يربتهما لمناسبة الزفاف.

ألفيتُ نفسي مشتاقاً لجميع أصحابي الأفارقة ولغتنا وثقافتنا المشتركة. اشتقتُ لشرب الشاي الصومالي والجلوس هنا وهناك على حصير الأرض وتناول وجبات الطعام الرئيسة بأيدينا، بلا شوكات، ولا ملاعق. أدركتُ أنه مع أن حياتي كانت مُروعة في أفريقيا، إلا أنني أحسستُ بالحنين المُفرّضي إليها.

كنتُ أعرف أنه ليس باستطاعتي العودة بنحو معقول إلى كينيا حتى ولو كان ذلك من سبيل الزيارة، فما بالك بالصومال، إلا أنني كنتُ أتحرّق شوقاً لأن أرى مزيداً من أمريكا. كنتُ أريد أن أرى أمريكا من خلال السينما، حيث كان الناس السود يأخذتهم الخفيفة يلعبون كرة السلة في جانب الشارع. سمعتُ أن مجموعة من المهاجرين كانوا يلعبون كرة القدم في نهاية كل أسبوع في پورتلاند، وعقدتُ العزم على الانضمام إليهم.

ركبتُ في سيارة جيب إلى أن وصلتُ إلى الملعب الكائن في «باك كوف». لم يكن باستطاعتي أن أصدق أنني أرى — عراقيين، يورونديين، روانديين، صوماليين، أمريكيين لاتينيين، وأناساً آخرين، جميعهم يلعبون كرة القدم معاً. سمعتُ الإسبانية، الفرنسية، السواحلية،

الصومالية، الكينيارواندا¹¹، العربية، وسواها من اللغات. إلا أننا كلنا معاً كنا نتحدث الإنكليزية، لغتنا المشتركة الوحيدة. لم تكن لدي أدنى فكرة أن هؤلاء البشر كلهم كانوا مقيمين في ميينا نحو ثلث اللاعبين من الإناث، نساء أمريكيات يضاوات مغرمات بلعبة كرة القدم. كنّ يلعبن لعباً قوياً ويسجلن الأهداف، يعبين الملعب جيئةً وذهاباً بصفة مُدافعات، مُهاجمات، وحتى لاعبات في خط الوسط. لم يسبق لي أن شاهدتُ شيئاً من هذا القبيل أيضاً.

التحقّت بهم بسرعة وكان لي يوم رائع، وحتى سجلتُ هدفاً. لعبنا بخشونة، كانت هنالك كثير من حالات الإمساك بالخصم أثناء اللعب وإيقافه، وزلات أقدام، وهي أشياء تجتذب حتماً ضربات الجزاء في مباراة احترافية. إنما في المحصلة النهائية كانت هنالك مصافحات وتهاون للفائزين، وكثير من اللهو والمرح. وبقدر محبتي الكبيرة لأسرتي في يرمواوث، قررتُ أنني بحاجة إلى أن أكون قريباً من هؤلاء القوم.

11 - كينيارواندا Kinyarwanda لغة أفريقية، وهي اللغة الرسمية في رواندا. يتكلمها نحو 12 مليون فرد بحسب آخر الإحصائيات - م.

احترام

من خلال أحد أصدقاء شارون تعرّفْتُ على عبدول، وهو شاب يدير وكالة في پورتلاند كانت تساعد على توطين المهاجرين الصوماليين الجُدد، غالبيتهم عانوا من الصدمة النفسية ومن الضغط العاطفي ولم يكونوا يتكلمون الإنكليزية. أخذني عبدول إلى الجامع الرئيس في المدينة، ولم يكن باستطاعتي أن أصدّق أن كلّ هؤلاء صوماليون، غالبيتهم لديهم سيارات، مهن، ومنازلهم الخاصة. في غضون أسبوعٍ ودعتُ أسرتي الأمريكية وداعاً حاراً، تخلّيتُ عن مهنتي في «مجموعة تثبيت ألواح المواد العازلة»، وانتقلت إلى شقة في پورتلاند مع عبدول وثلاثة رجال صوماليين آخرين. كانت شقة الطابق الثاني في مجمع مؤلف من بنايات عديدة متعائلة تقريباً، متشرة في طريق ملتو وسط عدد هائل من الأشجار، يشبه شارعاً يقع في إحدى الضواحي. كثير من الشقق السكنية يسكنها لاجئون صوماليون ولاجئون من بلدان أخرى، أو أمريكيون فقراء فعلاً، وكانوا يطلقون معونات مالية حكومية. كنا ندفع أسعار السوق لأننا كنّا لدينا «بطاقات خضراء» وبإستطاعتنا أن نعمل. كانت خطتي هي أن أحصل على مهنة في پورتلاند حتى ذلك الحين يتّعين عليّ أن أدفع أربعمئة دولار شهرياً كإيجار ونمن أشياء مستعملة لكنها صالحة من بين مدخراتي.

بدأ ذلك أشبه ببرنامج تلفزيوني: خمسة رجال صوماليين في شقة

صغيرة بولاية ميين. كان هنالك عبدول، الفرد الوحيد من بيننا الذي أصبح مواطناً أمريكياً. يوسف وآول كانا يعملان في «وولمرت» و«مخزن شو»؛ محمد كان سائق سيارة أجرة. الشقة فيها سريراً نوم فقط وحمام واحد، إلا أننا كنا نمد المرشنتا وننام على طول البلاط، نتبادل الأدوار في الدخول إلى الحمام. كنت أتولى مسؤولية إعداد طعام الفطور، وهو عادةً فطائر حامضة تُسمى «أنجارا»، مع البازلا وشيء من لحم الحمل أو لحم الماعز بهيئة مكعبات من سوق الحلال. فيما يتعلق بالغداء نكون كلنا منخرطين بالعمل؛ العشاء يكون نسخة صومالية من الفاصوليا والرز، ووجبة الطعام هذه تُسمى «أمبولو»، ويرش عليها السمسم أو زيت الزيتون وقليل من السكر. حسناً، كثير من السكر. بالطبع، كنا نأكل على الأرض، بأيدينا، كما كنا نفعل في أفريقيا. كنا نضحك بقوة شديدة، نتصارع، نركب معاً إلى مباريات كرة القدم ونؤم الجامع أيضاً، وربما نغسل الأطباق مرة واحدة في الأسبوع.

كان جميع رفاقي في الغرفة قد مضى عليهم في ميين ما يزيد على عشرة أعوام، وجعلوا مني الرجل الجديد في المدينة. إلا أنني كنت متدهشاً كم هي قليلة الثقافة الأمريكية التي تشربوا بها. أشغل آخر أغاني الهيب هوب في هاتفي الجوال فيما أنا أطهو الطعام، إلا أنهم كانوا لا يصغون إلا إلى الترانيم العربية المدعوة «أناشيد». لا أحد منهم مواي لديه شغف بأمريكا. كان عبدول هو الشخص الوحيد الذي كان مهتماً بتعلم الإنكليزية، وهي اللغة التي كان يحتاجها من أجل عمله. في مهتهم في تكديس السلع على الرفوف في «مخزن وولمرت» و«مخزن شو»، لم يكن يوسف وآول يحتاجان فعلاً للتحدث بالإنكليزية. كانا يعرفان أين تذهب علب الطعام المحفوظة، كيفية فتح الصناديق، كيف يمكنهما أن يسجلا موعد حضورهما إلى العمل وموعد انصرافهما منه بواسطة «ساعة الدوام». حين يقترب الزبائن منهما وي طرحون أسئلة، كانا يهربان بسرعة — لأنهما يشعران بخرج شديد وليس بوسعهما مواجهة شخص أمريكي ويضبطهما لأنهما

لا يعرفان الإنكليزية، كما لو كانا عاريين. الأمر نفسه ينطبق على محمد، الذي يعرف ما يكفي من الإنكليزية كي يجمع أجور الركوب ويدخل إلى العناوين من خلال جهاز الـ «GIBS» العائد لسيارة الأجرة خاصته.

قلتُ لهم، «عشرة أعوام في أمريكا، لماذا لا تتعلمون الإنكليزية. يمكنكم أن تحصلوا على مهن أفضل مهنة [أمين الصندوق] راتبها أكثر من تكديس السلع على الرفوف، إلا أنها تحتاج إلى التكلم بالإنكليزية. ويمكنكم أن تتسلوا وتمرحوا في نهاية الأسبوع، تذهبوا إلى السينما والحفلات». إلا أن محمدًا، أول، ويوسف بدوا كأنهم ينتظرون فرصتهم المناسبة حتى يكون بمستطاعهم أن يعودوا إلى الصومال. كانوا يتفحصون بعناية الأخبار الصومالية كل يوم، أملين أن يحلّ السلام. في غضون عقد من الأعوام لا أحد منهم غادر حدود ولاية ميين، باستثناء بوسطن كي يركبوا الطائرة التي تعود بهم إلى الصومال. كانوا كلهم يرجعون إلى الديار مرتين في الأقل على سبيل الزيارة، وكانوا يتحدثون عن الاستمتاع بحليب النوق ولحم الجمال، اللذين لا يمكنك أن تجدهما في ميين. كان والد محمد زعيم قرية في جنوب الصومال، وكان محمد يأمل أن يرث التاج عندما يتقاعد أبوه عن هذا المنصب. لَمَّا رجع إلى الصومال، استقبله القرويون استقبالاً ملكياً، وعملياً رشوا عليه حليب النوق. لا بد أنه كان من الصعب أن يعود إلى بورتلاند ويلتقط الركاب عند نهاية خط الحافلات. بطبيعة الحال كانت أسرته في الصومال تحسب أنه ثري.

جميع رفاقي في الغرفة كانوا يدعمون عائلاتهم هناك في الوطن الأم مادياً. أيّ واحد منهم لا يملك حساب توفير؛ كلّ قرش لا يصرفونه على نفقاتهم القليلة يُعيدونه إلى الصومال. كان هنالك على الدوام أشخاص كثيرون جداً يجب دعمهم مادياً وليس هنالك ما يكفي من النقود. كلّ أسبوع هو نفسه: يدفعون لك الأجر يوم الجمعة؛ ترسل أيّ مبلغ من المال تبقى لديك من الأسبوع الفائت إلى أمك، أو أبيك، أو عمك أو خالك أو

شقيقك في الصومال أو كينيا. الحياة هي شيك واحد من المستحقات المالية في كل مرة، مختلفة جداً عن أصحابي الأمريكيين الذين كانوا يتحدثون على الدوام عن أهدافهم المستقبلية. كانوا يُريدون أن ينتظموا في الكليات، أن يحصلوا على مهنة جيدة، أن يذخروا المال كي يشتروا منزلاً أو يسافروا، وهي أشياء عادية. بالنسبة لأغلب الصوماليين في ميين، الهدف المستقبلي الوحيد بالإضافة إلى الذهاب إلى وطنهم الأم هو أن يبقى لديهم قدرٌ من المال في نهاية الأسبوع كي يكون بوسع أسرته في الصومال أن تسلق شيئاً من الفاصوليا والذرة.

كان رفاقي في الحجرة أفراد عشيرة «عوي» أو عشيرة «دارود»، كل واحد منهما كان لديها عدد نظير من الأفراد يُقيمون في ميين. عشيرتي الـ «زحانوين» لم يكن لديها حضور كبير هنا في ميين، وعادةً ما كنتُ أحس أنني قطعتُ صلاتي بها. كل صومالي أقابله كنتُ أسأله عن عشيرتي. لما أخبرتهم أنني أنتمي إلى عشيرة الـ «زحانوين»، كانوا يسألونني ماذا أعمل في ميين؛ يوجد عدد أكبر من الـ «زحانوين» في ولايتي مينيسوتا وسياتل، كانوا يردون عليّ: «إلا أنني كنتُ أقول لهم إني هنا ليس من أجل أن أجمع بشمل عشيرتي، أنا هنا كي أصبح أمريكياً». كان هذا الشيء في نظرهم أشبه بالجريمة — أن تبتذ عشيرتك وتغدو أمريكياً! في رأيهم لا يسعك أن تكون صومالياً من دون أن يكون لديك عشيرة.

في الصومال، «الشباب» وحتى رجال الدين الأكثر اعتدالاً يقولون لنا إن جميع البشر في أمريكا هم مسيحيون صليبيون يعملون إلى أن يجعلوا المسلمين يعتقدون دينهم وتدمير الإسلام. لذلك كنتُ أتدهش فعلاً حين وصلتُ إلى ميين ورأيتُ أن لا أحد ممن قابلتهم كان مهتماً بالتحدث عن يسوع المسيح أو العقيدة المسيحية. أغلب الأمريكيين بدوا كأنهم يعملون إلى أن يقضوا أيام الأضاح خاصتهم في خارج منازلهم، أو يطالعوا الصحف، أو يتناولوا وجبة طعام بين القطور والغداء، أو يقوموا

بأي شيء زيادة على الذهاب إلى الكنيسة. في كينيا كنائس مسيحية أكثر بكثير؛ وحتى إن الأساقفة كانوا يصعدون إلى متن الحافلات العمومية ويلقون المواظ، يلقون بالكتاب المقدس وينشرون كلمة الله. لم أُرَ أبداً أي شخص يلقي مواظة في حافلة في ميين أو بوسطن. عرفت أنه حين يكون رجل أجني لطيفاً معي، يكفي أن تقول له فقط «شكراً لك» وليس «ليباركك الله».

شانون، صديقتي الأمريكية من باتغور التي التقيتها في المشروع الصحي بكنيا، وصديقتها تينا قالتا لي إنهما روحانيتان إنما ليستا ورعيتين. كانتا تقيمان مع صديقيهما، مع أن أسرتهما تملكان منزليين شخصيين. كانتا تفضّلان أن تقيما بطريقتهما الخاصة. كانت تلك «الحرية الشخصية» مفهوماً جديداً تماماً بالنسبة لي، ولأغلب الأفرقة، وكان مفهوماً مرّوحاً إلا أنه مثير. هذا المفهوم دفعني إلى التفكير أن هذا البلد بلد عظيم حيث بوسعك أن تكون أي فرد، طالما أن بمستطاعتك أن تفهم فهماً جيداً وتتعلم اللغة والعادات والطقوس. كانت تلك مهمتي، وقد عملت عليها كل يوم. عدد كبير جداً من الاستعارات الكلامية ينبغي لي أن أحفظها عن ظهر قلب! سأنتي شخصاً ما، «كيف يبدو وضع شقتك السكنية؟» بدأت أصف المطبخ، الحمام، الموقع. ومن ثم خاطبني قائلاً إنه يقصد من هم الذين يشاركوني السكن في الحجرة، كم يبلغ إيجار الشقة، وهل جزأ. إلى «وضع The situation».

كنت على الدوام سريعاً في تعلّم اللغات، إلا أنني الآن أجد أن الطقوس والعادات والثقافة كان يصعب علي كثيراً أن أتشرّبها وفي هذه الحالات مهاراتي اللغوية عادة ما تخذلني. النقاشات حول الموسيقى، الألعاب الرياضية، البرامج التلفزيونية، الطعام، سلاسل الكلاب وأنواع الطيور الأمريكية كانت تجعلني أجلس هناك كالأبله، من دون أن أعطي رأياً ما في هذه الأشياء كلها. في بعض الأحيان كنتُ أشعر أنني قادر فقط

على التحدث عن قصص حياتي. كان الناس يهربون عن تقديرهم فيما هم يستمعون إليها، إلا أنني كذلك كنتُ أود أن أشعر كأني أرغب بالانتماء إلى هذا البلد وبمستطاعي أن أتحدث عن الأشياء الأمريكية. لذلك أخذتُ عهداً على نفسي أن أواصل التعلم.

كنتُ أتلقى دوماً دعوات من أصدقائي الأمريكيين كي تنزه سيراً على الأقدام، وأن نترج على الجليلد، وأشياء مُسلية أخرى في نهاية الأسبوع، وكنتُ أوافق على هذه الدعوات دوماً. في هذه الرحلات كنا نتقاسم تكاليف كل شيء، غاز السيارات، الطعام، حجرات الفندق. هذا جانب من الثقافة الأمريكية مختلف تماماً عما هو عليه الحال في الصومال، حيث جرت العادة أن يُشرف المرء أن يدفع ثمن وجبة الطعام. ذات يوم أنا ورفاقي في الغرفة تناولنا الغداء معاً في «مطعم بابل» العراقي. بعد لحم الماعز والرز أخرجتُ بطاقة الدفع¹ وطلبت من الجميع أن يحذوا حذوي. «دعونا نتقاسم الثمن»، قلت لهم. إلا أنهم جميعاً استشاطوا غضباً وذهلوا لأنني اقترحتُ هذه العادة الأمريكية الطائشة. أصروا على أن أدفع الثمن عن الجميع.

وبالطريقة ذاتها في شقتنا حين يأتي ضيوفنا الصوماليون من ولايتي مينيسوتا أو مياتل، كنا نجعلهم يتقاسمون معنا أسرتنا. فردان في سرير واحد. أو أنام أنا على أرضية غرفة المعيشة وأدعهم يأخذون سريرتي. إلا أنني لما كنتُ أزور أصدقائي الأمريكيين في منازلهم، كانوا يطلبون مني أن أنام في غرفة المعيشة. لم يتقاسموا معي أبداً أسرّتهم! كنتُ أجد نفسي أتلاعب باستمرار بعادات وطقوس هذين العالمين المختلفين.

عندما كنتُ أعود من السينما أو الزهات الراجلة أو الأشياء المسلية

1- بطاقة الدفع (debit card): بطاقة السحب المباشر من الرصيد؛ هي بطاقة بلاملكية صغيرة يتم استخدامها لدفع الأموال أو شراء البضائع بدلاً من التعامل بالنقد. الاسم الأكثر شهرة: فيزا كارد (visa card) - م.

الأخرى إلى شقتي، كنتُ أروي أنشطتي. كان رفاقي في الغرفة يسألونني ما إذا كنتُ أصلي خلال هذه التسليات كلها. ولما أقول لهم «لا»، كانوا يصيحون عليّ لأنني أصبحتُ أمريكياً بامتياز. «لقد تخلّيت عن إيمانك، من أجل نزعة راجلة في الغابات!».

رفاقي في الحجرة كانوا يعتقدون أيضاً أن أنشطتي خارج المنزل حمقاء.

«لماذا تزعج نفسك بأن تشيد معسكراً في البرية حين يكون باستطاعتك أن تنام في سريرك المُرْتَب تَوَّأً؟».

«أثينا إلى هنا من معسكرات اللاجئين. العيش في المعسكرات ليس مزاحاً!».

«تنزهنا مشياً على الأقدام مئات الأميال عبر البادية حتى وصولنا إلى كينيا، ونحن الآن لدينا سيارات، ولنا بحاجة إلى أن تنزه راجلين!».

كانت أعياد الميلاد الشخصية مفهوماً غريباً آخر بالنسبة لرفاقي في الحجرة. جميع الأشخاص في شقتنا السكنية باستثنائي ولّدوا في الأول من كانون الثاني/يناير. ذات مرة أحد زملاء العمل الأمريكيين في «وولمرت» جلب ليوسف كعكاً مخبوزاً في قوالب كوية الشكل لمناسبة عيد ميلاده، الأمر الذي جعله يقضب غضباً شديداً. شعر كما لو أن هذا الرجل الأمريكي قد تجاوز الحدود غير المكتوبة من خلال توريثه في عادة أمريكية. في الصومال لا يابه المرء بعمره. الناس يولدون ويموتون. مدة زمنية، ليس إلا. لذا وصل إلى البيت، رمى الكعك في صندوق النفايات. رفاقي في الحجرة كانوا يحسبون أنني مجنون لأنني اخترتُ 20 حزيران/يونيو باعتباره يوم ميلادي، لكن هل أن هذا هو أسوأ من اختيار الأول من كانون الثاني/يناير؟ بطبيعة الحال أسرتني في يرماتو بذلت مجهوداً كبيراً في الاحتفال بعيد ميلادي سنوياً، بجلب الكعك وإضاءة الشموع وإعداد عشاء وفير وفاخر. وأصدقائي الأمريكيون على الفيس بوك

غمروني دوماً بعواطفهم وثماناتهم المناسبة عيد ميلادي. في 20 حزيران / يونيو، كنتُ أحس على الدوام كما لو أنني ولدتُ أمريكياً.



كانت الجالية الصومالية في ميين يُديرها الشيوخ والأئمة، الذين كانوا يتزعمون الصلاة في الجوامع. في پورتلاند، «مركز الجالية المسلمة» هو الموقع الذي يحتشد فيه الجميع كي يصلّوا، وبخاصة أيام الجمع. الشيخ أحمد هو واحد من أرفع الزعماء، وكان أيضاً يملك سوقاً للحلال. وفي يوم من الأيام أعطى حديثاً مُحذراً فيه النساء الصوماليات من أن يسقطن بسرعة في فخ إغراءات الحرية الفردية التي تملكها النساء الأمريكيات. «انظرون، إتهن ينمن مع عشاقهن الذين لم يتزوجوا متهن!» قال. «وأيالهن يشعرون بالرضا عن هذا! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!».

بعد إدائه للنساء بنحو كافٍ، تحوّل إلى الرجال.

«لدينا مشكلة في ما يتعلق بـ [الهوية المسلمة] في ميين. عدد كبير من شبانا يتخلّون عن ثقافتنا. وحتى إنّ بعضهم يُقيمون مع عائلات بيض!» وبعضهم يواعدون نساءً غير مسلمات؛ بعضهم يحسّون المشروبات الكحولية. هذه مشكلة كبيرة. نحن نطالب بدهمكم في أن تتصحوا هؤلاء الشبان في العودة إلى كلمة الله».

كنتُ أهدئ نفسي على الدوام مُباركاً من قبل الحظ السعيد المدهش، الأمر الذي من شأنه أن يجعل من الصعب أن أفهم كيف كان باستطاعة الشيخ أحمد أن يُقيم في الطابق الأسفل منا مباشرةً. كان يطرق باب شقتنا بقوة في الساعة الخامسة من صباح كلّ يوم، يوقظنا من نومنا ويطلبنا بأن نمضي معه إلى الجامع كي نُؤدي صلاة الفجر. كلّ يوم الشيء نفسه: حين نركب معه في سيارته، كان يطلب منا أن نقرأ القرآن أثناء الطريق حتى نستطيع أن نصل إلى الجامع بأمان. لم تكن پورتلاند مشهورة بقنابل الأرضة أو متاريس المبلّشيات، لذلك هذه الصلاة بدتْ أشبه بإسراف

في التدبير خلال مسافة الركوب القصيرة، إلا أن الشيخ أحمد كان يتحاشى كل ما يُحتمل أن يكون له عواقب وخيمة. كان يتلو القرآن في كل مرة يخطو فيها خارج باب منزله. كانت الصومال والولايات المتحدة بالنسبة له سواء فيما يتصل بالموت. من الجائز أن تموت في أي يوم، في أي مكان، ومن الأفضل أن تقرأ القرآن كي تبقى آمناً.

مساءً، كان من عادة الشيخ أحمد أن يصعد إلى شفتنا، كي يضمن أن الشيطان لا يجوس المكان. وكان يتعين عليّ أن أوقف موسيقى الـ «هيب هوب» لأنه من الجائز أن يسبني. كان يسير حول منزلنا كما لو أنه يقوم بعملية تفتيش. ذات مرة كان لديّ بورتر بهان جالسان بجوار سريري، أوباما وشوارزنجير. ميّز الشيخ أحمد أوباما بالطبع وأخبرني بأن أرفع صورته. «هذا شيء لا ينفعك»، قال لي. «مَنْ هذا الرجل الآخر؟» «ممثل سينمائي مشهور»، أجبته.

«أرجوك ارمِ صورته في صندوق القمامة! الملائكة لن تأتي إلى هذه الشقة!».

في اليوم التالي أحضر خمس سور من القرآن مكتوبة بخط جميل كي نعلقها في حجراتنا وحصير صلاة.

بعد أن اكتشف الشيخ أحمد ما يتعلق بأسرني البيضاء في برماوث، صار يأتي إلى شفتنا ويقضي ساعات طويلة في التحدّث وطرح الأسئلة.

«هل يسمحون لك بأن تمارس شعائر دينك؟».

«هل يأكلون اللحم الحلال؟».

«كيف تتعامل مع الكلب؟».

«هل تحدّث أن طلبوا منك أن تعتنق ديناً جديداً؟».

«هل يمكننا أن نجعلهم يعتنقون الإسلام؟».

بالنسبة له لا توجد منطقة وسطى، لا يوجد خلط، أو مزج. «يلزمك

أن تكون الأول أو الآخر». هذا الأمر أشبه بالعشائر، هكذا فكرت. إما أن تكون من عشيرة «زحانوين» أو تكون أمريكياً، إما مسيحياً أو مسلماً. أصابني الإحباط والتصرفت بعيداً. وبعدها صرْتُ أتجاهل دعواته لأداء صلاة الصبح. هناك نوعان من الناس في «الهوية الصومالية»: الذين يذهبون إلى الجامع (الصالحون) والذين يذهبون إلى النوادي ويحتسون المشروبات الكحولية (الطالحون). مع أنني لا أذهب إلى النوادي أو أشرب الكحول، تمكنتُ من أن أصنف ضمن الشبان السيئين بسبب حبي للثقافة الأمريكية.

كان الشيوخ في بورتلاند قد قالوا للناس أن يفعلوا الأشياء ذاتها التي كانوا يتوقعونها في الصومال: النساء يجب ألا يخرجن من منازلهن من دون أزواجهن، الرجال يجب عليهم أن يرتدوا ثياباً تصل حتى الكاحلين وأن تكون لهم لحى، وما إلى ذلك. إنما هنا في «الولايات المتحدة» لا يسعهم أن يرغموا الناس على الانصياع لهم، وبخاصة أنا. لقد حفظتُ القرآن عن ظهر قلب؛ أنا أعرف الدين وأحترمه. لكن مع ذلك أنا ورفاقي في الحجرة كنا نتهكم في نقاشات ساخنة حول الرسالة التي يعثها القرآن. في نظرهم الرسالة جليلة: عليك أن تكون فرداً يخشى الله وأن تبعد عن أي شيء يُلْهِيك عن الصلوات اليومية الخمس. في محل عمليهما في «وولمرت» و«شو»، يوسف وأول كانا يطلبان من رئيسيهما استراحة بفرص أداء الصلاة. وهكذا يومياً، في مكان ما في مؤخرة المبنى مع جميع الصوماليين الآخرين، يمدّان حصيراً على البلاط ويصليان لله خلف أكداش لحم الخنزير المعلّب والمحفوظ وأجهزة التلفزيون ذات الشاشات المسطحة.

توصّلتُ إلى إدراك حقيقة مفادها أن رفاقي في الغرفة لا يستوعبون أبداً، ولم يكونوا وحدهم كذلك. على غرار أوائل الإيطاليين أو الصينيين أو السلوفاكيين الذين جاءوا إلى أمريكا، الجيل الأول من الصوماليين،

عدد كبير منهم كانوا كبار السن أصلاً لما وصلوا، كانوا متمسكين جداً بلغتهم، ثقافتهم، ودينتهم. الجيل الثاني منهم هم الذين كان يوسعهم أن يسموا أنفسهم أمريكيين، وكانوا أولئك هم الذين سببوا لأبائهم، وللشيوخ، حالات كثيرة من الصداق من خلال مواعدة الفتيات قبل الزواج منهن أو حتى ارتياد النوادي الليلية وشرب الكحول.

في هذه الأثناء، جيش من الموظفين الاجتماعيين، كثير منهم كانوا يعملون لمصلحة منظمات مسيحية، يجتمعون كي يساعدوا اللاجئين على الإبحار إلى هذا البلد الجديد الأجنبي. كانت هنالك وظائف شاغرة للعمل بصفة مترجم في موقع «المنظمات المسيحية الخيرية في مين» على الإنترنت. كان الناس يحتاجون إلى المستشفيات والمحاكم كي يساعدوا الصوماليين على التكلم مع محامين، أطباء، وقضاة. دخلتُ إلى الموقع بسرعة ودونت طلبي وبعد يوم واحد تلقت اتصالاً هاتفياً من لوسي في «قسم اللغة» خاصتها. «أوه، لغتك الإنكليزية جيدة»، قالت لي. مضيتُ لإجراء مقابلة، ملأت الاستمارات المألوفة. وبعد مضي أسبوع تم استنجاري، إنما قبل الشروع في مهتي، أرسلوني كي أتلقى كورس ترجمة في «كلية سوثيرن مين كوميونتي».

كان رفاقي في الصف كلُّهم أجنب من بوروندي، رواندا، العراق، وحتى روسيا. كانوا يعلموننا المصطلحات الطبية والقانونية، ما هي الأشياء التي يجب أن يفعلها أو لا يفعلها المترجم. قالوا إنه ينبغي لنا ألا نتدخل في شؤون الزبائن خارج نطاق المهنة؛ سيكون هذا شيئاً غير مهني. تعرّفنا على نظام الرعاية الصحية في «الولايات المتحدة»، وعلى المصطلحات الطبية، وأساسيات علم الأحياء البشري، الأجهزة ومعالجاتها.

كانت مهنتي الأولى في «جمعية طب الأسنان»، أن أترجم لفرحان، وهو عجوز صومالي جاء إلى هورتلاند منذ عامين. كان لدى فرحان جرح

تاجم عن طلق ناري في رأسه بسبب اقتتال بالبنادق في الصومال. جلستُ قبالة، بجوار طبيب الأسنان، أترجم ما كان يقوله الطبيب وكذلك ما يقوله فرحان. في الأسابيع القليلة التالية أختاروني لأداء مزيد ومزيد من المهمات، مسافراً إلى «مركز ميين الطبي»، «مستشفى الرحمة»، «قسم الصحة والخدمات الإنسانية»، «اتحاد الفرص»¹، «مدارس بورتلاند الثانوية»، «معارض المهن»، «المحاكم»، وأمكنة كثيرة أخرى حول جنوب ميين.

سرعان ما أدركتُ أنه سيكون مستحيلاً أن أحافظ على مسافة مهنية معينة عن الزبائن. مرات كثيرة كانوا يريدون فقط أن يسألوني عن قبليتي أو عن خلفيتي، وكنتُ أحسُّ أنه سيكون سلوكاً قطعاً ألا أتجاوز معهم. وكذلك، كانت لديهم عادة أسئلة كثيرة جداً عن القانون أو العلاج الطبي، تلك الأسئلة التي لم يُجب عنها المحامون أو الأطباء. كان هذا شيئاً ثقافياً: أحياناً يطلب الطبيب من مريضه أن يأكل أشياء معينة، من مثل اللبن الرائب، وهو شيء كنتُ أعرف أن الصوماليين لم يسمعوا به البتة. الأطباء يسألون مريضاتهم كم عدد المرات التي يمارسن فيها التمارين الرياضية. وكنتُ أترجم انطلاقاً من إحساسي بالواجب، إلا أنني كنتُ أعرف الجواب أصلاً: النسوة الصوماليات لا يتمشين الهويئا هنا وهناك بحجابهن. كان من دأبنا أن تغادر المبنى الطبي، الزبائن يمطرونني بوابل الأسئلة: ماذا يعني هذا؟ ماذا يعني ذلك؟ في بعض الأحيان يتذمرون من أنَّ الطبيب لا يد أنه أحمق، ومن ثم يسألوني أين يسعهم أن يحصلوا على أعشاب طبية صومالية تقليدية.

أصبحتُ خبيراً في نظام المحافلات العمومية في بورتلاند، غير أنني كنتُ أعرف أنني أحتاج إلى أن أقود سيارة في يوم ما، لذلك بدأتُ آخذ

1- الاتحاد الفرص Opportunity Alliance: منظمة خدمات اجتماعية في جنوب بورتلاند، ولاية ميين - م.

سلسلة محاضرات في تعلّم قيادة السيارة. كان الصف في «مدرسة يرمابوث الثانوية»، كلّ من المراهقين والمراهقات. لم يكن باستطاعتي أن أصدّق الطريقة التي كانوا يجلسون بها وأرجلهم على سطوح المكاتب، يناقشون المعلم ويرمون الأشياء بعضهم على بعض. لو كنت في الصومال لكان من المؤكد أنك سوف تُجلد بالوسط على كلّ عمل ينم عن عدم الاحترام كهذا. كنتُ أنتبه بعناية، إلا أنني لم أفهم الأشياء الأساسية من مثل العلامات الضوئية أو الياقظات المرورية، أشياء كان الطلبة الأمريكيون يعدّونها مُسلّمات. كان المعلم لطيفاً وساعدني بعد الدرس. ولما أصبحتُ مستعداً أخيراً للمشروع بقيادة السيارة، أول شيء فعلته هو أنني هسّمتُ سيارة شارون في داخل المرآب. استغرقت ثلاث مرات كي أجتاز اختبار الحصول على رخصة القيادة، إلا أنني أصبحتُ أخيراً سائقاً آمناً ومسؤولاً.

في تشرين الثاني / نوفمبر 2013 وفرتُ مالاً كافياً كي أشتري سيارة مستعملة، الأمر الذي سوف يتيح لي أن أخذ منها أخرى. الآن تضاعفت مهماتي وكنتُ أترجم لقضايا المحاكم في لويسون وبورتلاند. كنتُ في قاعة المحكمة مع زوجين صوماليين يسعيان إلى الطلاق وكانا يتجادلان على حضانة أطفاليهما. وقفتُ بين القاضي والزوجين، وكنتُ أترجم للطرفين في الوقت نفسه. ولما اشتدت نقاشات الزوجين، ارتفع صوتي كي يُضاهي نبرات صوتيهما الغاضبة. أحسستُ كما لو أنني تلقيتُ أجراً كي أكون ممثلاً، وفي تلك اللحظة عرفتُ أن المهنة التي مارستها طوال كلّ تلك الأعوام التي كنتُ أشاهد فيها الأفلام الهوليوودية في كوخ فيديو فإليس أصبحتُ في النهاية تدر عليّ ربحاً.



ذات يوم ذهبتُ لأترجم في مركز لطب الأسنان في بات، ولاية مين، التي تبعد نحو أربعين دقيقة عن بورتلاند في أعلى الساحل. كانت

المريضة امرأة صومالية عجوزاً، وكانت موظفتها الاجتماعية فتاة فائقة الجمال لم يسبق لي أن قابلتها البتة. كانت طويلة القامة مثلي، وذات وجه متفتح وعينين بدنا متعطشتين لمعرفة كل ما يتعلق بالعالم. نصف شعرها لم يكن مُغطى، وكانت تلبس سروال الجيتز وفستان «ديرك» خفيفاً فوقه. بدت ودية جداً وواثقة من نفسها بحيث أنني في بادئ الأمر لم أتخيل أنها مهاجرة صومالية. كان اسمها فطومة، وقالت إنها تكلم في لويسون.

ظلت المعجوز تسألني عن قبيلتي. بدأنا نتناقش عن القبائل، الحيوانات، والحياة في الأدغال. كانت فطومة جالسة هناك نصت فقط، إلا أنها لم تقل كلمة. طلبت منها أن تنخرط في حوارنا، إلا أنها اعترفت قائلة إن لغتها الصومالية ليست جيدة ولا يمكنها أن تتابع ما نقوله. «صومالية لا يمكنها أن تتحدث الصومالية؟» سألتها.

«نشأت في فيرمونت»، قالت يانكليزية أمريكية من دون أي لكنة. «أنتِ إذاً أمريكية؟»

ابتسمت بزهو. «أسرتني جاءت إلى هنا لقا كنتُ في السادسة من عمري».

التحقت فطومة بالكلية في فيرمونت ومبين، نالت شهادة البكالوريوس في العمل الاجتماعي. وفي سن السادسة والعشرين كانت قد أصبحت صاحب شريك لـ «مبادرة الصحة العامة الخاصة بسكان مين الجديد»، كما عملت مع وكالة متخصصة بخدمة المجتمع. كانت أمريكية أكثر منها صومالية، ولذلك السبب كانت تتعرض للضغط من أبويها كي تغدو فتاة صومالية نموذجية تلازم المنزل وتعرف ما يتصل بقبيلتها وتاريخ أسرتها. فطومة كان لديها قطتان وتقيم في شقتها الخاصة مع عدد من أشقائها وشقيقاتها؛ لم يسبق لي أن رأيت صومالياً أو صومالية يعيش مع حيوان أليف، وحتى إنها سمّت قطتها على اسمي أفضل صديقاتها في المدرسة الثانوية، يا لها من فكرة أمريكية! حين قلت لها إنني في

«الولايات المتحدة» منذ سنتين فقط، لم تصدقني. كل ما رأيته في عملها هم الصوماليون الذين وصلوا حديثاً وهم يكافحون كي يتكيفوا. إنهم لا يتكلمون إلا عن قبائلهم، إلا أننا وفتومة حين بدأنا نتحدث، كان محور حديثنا هو الأفلام السينمائية التي شاهدناها قبلاً، وألوان الأطعمة التي كنا نفضلها، والأمكنة التي تنزهنا فيها مشياً على الأقدام. كان حواراً أمريكياً بامتياز، هذا أنه مع فتاة صومالية. كان ذلك أول حوار لي من هذا النوع، وطار الوقت سريعاً. وبعدها انتهى الموعد في عيادة طب الأسنان وودعنا أحدها الآخر. بعد ليال معدودات بعثت لي رسالة نصية قائلة، «أحببتك. أنت رجل مُرعب».



تناولنا العشاء معاً مرات قليلة وبدأنا نكوّن صداقة رائعة. رويت لها قصة حياتي وكيف أنني كنتُ الغلام الذي كان كل الناس في موقاديشو يسمونه «عبيدي الأمريكي». ضحككت بقوة على فكرة أنني كنتُ أصلاً أمريكياً هناك في بلادي. وكل مرة نلتقي فيها، يكون شعر فتومة مكشوقاً ولايسة سروال الجينز. قلتُ لها إنها تبدو آية في الجمال. كانت صديقاتها مواطنات أمريكيات؛ بعضهن حتى بيض البشرة. وكانت لديهن ما يسمينها «ليالي الفتيات»، حيث كن يتحدثن عن مساحيق التجميل، الثياب، والموسيقى الحديثة.

كنا نتمشى على طول شواطئ مين الجميلة؛ وكنا نركب متجهين إلى فيرمونت، حيث أرنتي منطقتهما السكنية القديمة في بيرلغتون. وأخذتها بدوري إلى يروماوث وعزفتها على أسرتي الأمريكية. طهتُ فتومة السمبوسات الصومالية التقليدية لشارون وجيب؛ وقد أحبها الجميع.

وبعدها حان الوقت كي ألتقي أبويها. مع أنهما كانا في «الولايات المتحدة» منذ عشرين عاماً، إلا أن والدي فتومة لم يتكيفاً على الإطلاق. كان أبوها مهندساً في الصومال، ويمتهن وظيفة حكومية قبل اندلاع

الحروب، لكنه في لوستون لم يكن يعمل؛ كان يقضي وقته في المسجد. كانت أمها هي معيلة الأسرة؛ كانت تملك متجراً يورد كل أنواع المواد المتزلية والنياب للمهاجرين الصوماليين. كانت عادة ما تسافر إلى الصين، كي تبضع السلع لمتجرها.

شعرت بالتوتر الشديد في اليوم الذي مضيت فيه إلى منزلها. كان والد فطوممة ينتظرنني خارج الباب. كان الثلج بهطل، وقد انتصفت رقائق بيض متجمدة بلحمته الطويلة كقصاصات الورق الملونة التي يثرها الناس في الأعراس والكرتالات. صافحتني وسألني، «هل صليت اليوم؟».

أجبت نعم صليت. طرح عليّ أسئلة اختبارات عدة عن الإسلام، الثقافة الصومالية، وعن أمكنة هناك في الديار. أدركت أنه لم يكن لديه انطباع جيد عن قبيلتنا، إلا أنني أعتقد أنه ما يزال يحترمني لأنه هو وزوجته كانا قد أقاما في موقاديشو في ثمانينيات القرن العشرين، ولذلك كانت لدينا كلنا لكتات موقاديشو. وما إن دلفنا إلى الداخل، أخرج هاتفه النقال وطلب مني رقم هاتف أبي. اتصل بأبي في بيدوة، وتحدثت معه دقائق قليلة. ومن ثم أنهى مكالمته واتصل بأبي في موقاديشو. وفي بحر ساعة، أبانوا الأربعة رتبوا مسألة خطوبتنا.

أنا وفطوممة أحسنا بأننا مخدوعان جداً. كلانا كان يفهم جيداً أنه في الثقافة الصومالية «الخطوبة» ليست التزاماً رمزياً الصوماليون لا يكونون مخطوبين ويتزوجون بعد عامين، كالأمريكيين. إنه بالأساس إعلان زفاف. مثلما حصل مع شقيقتي، نعم، الخطوبة تعني أن الزفاف سوف يتم حالما تطوق الماعز والجمال كي تُذبح.

أنا وفطوممة أحسنا بأننا بحيرة وعفوان هذا الالتزام، إلا أن أبا منا لم يكن مستعداً للزواج في القريب العاجل؛ كنا نريد فقط أن نلقي تحياتنا على أبيهما من سبل الاحترام. لحسن الحظ، لم تكن فطوممة تتخوف من التحدث جهاراً لهما. أخبرت والدنا أن يقطع اتصاله بأبي وأنها كانت

تريد أن تتكلم معه ومع أمها على أفراد. غاب ثلاثهم في حجرة النوم دقائق معدودات. وعندما خرجوا من الغرفة، كان أبوها مقطب الحبين وبدت أمها غاضبة.

كان والدا فطوممة يهتمان بالعودة إلى الصومال. أبوها لديه مشاكل صحية وكانت حالته تزداد سوءاً بسبب الجو البارد، وقررا الرجوع إلى منزلهما في كسمايو بجنوب الصومال، مع أنه كان مُحاطاً بـ «الشباب» ولم يكن آمناً جداً. كانا قد ادخرا المال وكانا يأملان بالشروع في مهنة صيد السمك. حاولا أن يشجعا فطوممة على الذهاب معهما، إلا أنها رفضت. كان وطنها هو أمريكا. هما الآن قلقان بنحو مفهوم على ابنتهما لأنها سوف تبقى وحدها، مع أن لديها تسعة أشقاء وشقيقات في لويستون. «كيف يمكننا أن نثق به عليك؟» قال الأب لابنته فطوممة، كما لو أنني لم أكن في الحجرة. «نحن لا نريد هذا الشيء الأمريكي حيث الأشخاص ينامون معاً من دون أن يكونوا متزوجين. نحن نحترم ثقافتنا ونمجد ديننا». وبعدها نظر مباشرة في عينيّ وسألني، «ما هي نيتك؟».

«أنا وفطوممة لم يمضي على معرفة أحدنا بالآخر سوى أسبوعين»، أجبت. «حينما نعرف أحدنا الآخر بنحو أفضل سوف نتخذ قراراتنا. نحن لا نريد أن يتخذ أي فرد القرارات لنا».

سوف يكون هذا شيئاً لا يمكن تصوّره إذا ما قلته لوالد فائزة في موفاديشو، إلا أنني كنتُ أجد صوتي الأمريكي. بالطبع ساعدني الأمر أن تقف فطوممة إلى جانبي. كنا قادرين على أن نقف معاً وأن نقول «لا» لأيّ زواج يرتبه الأباء.

بعد ذلك اللقاء، كان والدا فطوممة يتصلان بها بالتليفون باستمرار. كانا يسألانها أين هي الآن، ماذا تفعل في ذلك الحين، كي يتأكدا من أنها لا تقضي وقتاً طويلاً جداً معي. وأخيراً جاء اليوم في نيسان/ أبريل 2017 حين كان أبوها يهتمان بأن يتركاها متجهين إلى الصومال. كانا قد دعوانني

إلى منزلهما كي ألقي عليهما تحية الوداع في اليوم الذي سبق رحيلهما. أخذني أبوها إلى الجامع. أدبنا صلاة الظهر، وبعدها دعا معنا مجموعة من المسنين الآخرين. جلسنا كلنا معاً في أحد الأركان. أخرج والد فطومة كتاب «القرآن» وفتحه.

«ضع يدك في الكتاب»، قال لي. فعلت ذلك.

«الآن أقسم بالآ تملوس الجنس مع فطومة إلى أن تتزوجا».

أحسستُ بصدمة كبيرة بحيث أنني لم أحرز جواباً. كنتُ في سن الحادية والثلاثين! هل سيُتلى عليّ الشيوخ كيف ينبغي لي أن أعيش بقية سنوات حياتي؟ ألم يكن هذا هو السبب الذي دفعني للمجيء إلى أمريكا؟ كنتُ أريد أن أعرب من ذلك الجامع، أعرب من والد فطومة ومن لحيته الطويلة ومن أولئك الرجال الصارمين الآخرين في ذلك الركن، إلا أن أبوي علّماني أن أحترم المسنين، فهذا جزء من الثقافة الصومالية. ومن ثم فكرتُ، ماذا عن احترام فطومة واحترام قراراتها؟ سيكون هذا ثقافة أمريكية. لم يسبق لي أن شعرتُ أنني عالق جداً في الوسط، غير متأكد بكل معنى الكلمة من قيمي. وحتى أكون صادقاً، كنتُ خائفاً أيضاً. تساءلتُ ما إذا سيجعلني الله أحافظ على هذا القسم. والد فطومة دفع القرآن كي يكون أقرب إليّ. كانت عيناه تحفران ثقوباً في عيني.

فكرتُ بكلّ الاتصالات التي أتجزئها إبان سنوات حياتي. كنتُ أحب أبوي فعلاً، إلا أنني مرّات كثيرة عصبتهما كي أتبع أحلامي. لو أنني أصفيتُ إليهما، لكنّ الآن إماماً في موقاديشو، أو أضرب الأولاد في مدرستي الخاصة، أو في الأرجح جندياً إسلامياً قتيلاً. هل كان هذا شيئاً يتمّ من عدم الاحترام أن أفعل ما احتججتُ للقيام به، أن أقول ما كان يجب عليّ أن أقوله، في سعيي وراء حلمي الأمريكي؟ في كلّ شيء فعلته لتفسي، لم ألحق الأذى بأي شخص آخر.

فكرتُ بفطومة. كانت هي الحلّ. كانت هي أمريكية مثلها مثل قنيات

كاليفورنيا اللاتني رأيتهن مرات لا تُعد ولا تُحصى في أفلام هوليوود. كانت قد انتظمت في مدرسة ثانوية عمومية وكلية، أقامت في شقتها مع قطيعها، ليست سرابيل الجيتز الأزرق، لم تكن لديها أي كنكة ولا شأن لها بقبيلة أي فرد من الناس. غير أنها كذلك كانت صومالية آية وكُرست حياتها كلها كي تقدم العون للاجئين الصوماليين الآخرين. وحتى إذا لم تكن مستعدين للزواج، كنا قد تحدثنا عنه وقررنا أننا نريد بالتأكيد أن ننمو أولادنا وهم يتحدثون الإنكليزية والصومالية معاً. كنا نريد ذلك كله، وهو شيء يبدو أمريكياً إلى حد ما.

أغلق والد فطومة الكتاب على يدي. أخفضت عيني وقلت، «أقسم بذلك».

الخاتمة

حين صحوتُ من نومي في 9 تشرين الثاني / نوفمبر، 2016، تأكدتُ من أن ذلك كله كان خطأ. ربما كنتُ ما أزال نائماً، أحلم. سأفوق من النوم طبعاً وأجد أن دونالد ترامب قد خسر المنافسة. هذا هو ترامب نفسه الذي طالعتُ كتابه بسعادة بالغة فيما كنتُ أختبئ من البوليس في نيويورك. الآن أحسستُ أنني أحتاج إلى أن أختبئ منه. لم أكنُ محطماً جداً بسبب أحداث العالم، وخائفاً جداً منذ حادثة الهجوم على «مول ويستغيت» في نيويورك. شعرتُ بالانقباض نفسه في معدتي. الخوف الغامض نفسه من أن الأشياء البعيدة عن سيطرتي كانت تتأمر كي تدمر حلمي الأمريكي.

بدأ هاتفني يرن باتصالات من أصحابي وأسرتي. كان الاتصال الهاتفي الأول من حسن الذي كان يشاهد الانتخابات على التلفاز في كينيا. «عبدي، كُنْ قوياً»، قال لي. كان يوسعي أن أشعر أن صوته يرتجف. «أتمنى أن تنتهي الأشياء نهاية حسنة. أتمنى ألا يخذ ما قاله».

مهما يفعل ترامب، فإن فصاحته عن المسلمين كانت كافية لأن تزرع الخوف في نفوس كل الذين أعرفهم. وجدتُ شيئاً من الراحة فيما كنتُ أتكلّم مع حسن، إلا أنني أحسستُ أيضاً كما لو أن العالم انقلب بحيث أصبح عاليه سافله. أما قلتُ وداعاً لشقيقي قبل ما يزيد على عامين في كينيا، قلتُ له، «إني ذاهب إلى بلاد الأحرار. ستمتُ من الخوف».

إلا أنني كنتُ مخطئاً. لم اعتقدُ أبداً أن حسن سوف يهاتفني من

«موقاديشو الصغيرة» كي يقول لي، «لا تقلق، كل شيء في أمريكا سيكون على ما يرام».

اتصل لي من الـ «BBC»، «مرحباً، عهدي، لا أكاد أصدق ما يجري في [الولايات المتحدة] ما هو شعورك؟».

«أشعر بالخوف»، أجبت، «أشعر بالخطر. أنا غائف فعلاً».

«أوه، هذا ليس ما توقعت أن تقول لي وأنت في أمريكا، عهدي».

اصدقائي من كل أنحاء «الولايات المتحدة» بدؤوا يتصلون بي هاتفياً، عارضين عليّ مساعدتهم أو حتى توفير الملاذ الآمن لي إذا دعت الضرورة. هذا الأمر جعلني أشعر بأنني في حالة أفضل، إلا أنني لبثتُ في منزلي. كان هنالك أعداد غفيرة من المسلمين في مجتمعنا السكني، لذلك أمضيتُ النهار كله أصدق عبر نوافذ شفتي كي أرى ما إذا كان رجال الشرطة هناك في الخارج يتخذون إجراءات صارمة بحق المواطنين. لم تكن لدي أي فكرة ما إذا كان البوليس سيبدؤون فعلاً في تطويق المسلمين في أمريكا، إنما كانت هنالك أيضاً إمكانية بأن تشعر العصابات التابعة للجان الأمن الأهلية أن الانتخابات منحتها سلطة. لعبتُ دوري بأمان وتفاؤيتُ الخروج من المنزل في ذلك اليوم. كان الوضع أشبه بـ «موقاديشو الصغير» مرة أخرى.

رفاتي في الحجرة لبثوا في المنزل أيضاً. كان عبدول خائفاً هو الآخر، على الرغم من كونه مواطناً أمريكياً وكان قد صوّت في يوم الثلاثاء. إلا أن انتخاب ترامب لم يقلق أول، محمد، ويوسف، الذين كانوا يتمنون العودة إلى الصومال على أي حال. «سوف أدخر ما يكفي من المال كي أشتري الجمال»، قال محمد. «وفي الحال سأعقدو زعيماً وأتولى إدارة مدينتي».

وهكذا فإن مسألة ترحيلهم لم تكن مسألة مهمة بالنسبة لهم. إنما حالهم حال جميع المسلمين في أمريكا، كانوا قلقين فيما يخص العنف، وبالنسبة لهم، كان الانتخاب دليلاً على الطرائق الشريرة في أمريكا. «قلتُ

لك! قال محمد. «أمريكا عدو الإسلام. الآن انظر بعينك! لقد انتخبوا ترامپ». لم أناقشه في ذلك اليوم.

تلقينا رسالة نصية بالذهاب إلى الجامع من أجل عقد اجتماع للجمالية مساء ذلك اليوم. ركبنا السيارة معاً، وبعد صلاة المغرب دعا الشيوخ إلى التزام الهدوء إنما أيضاً إلى توخي الحيلة والحذر. «لا تذهبوا إلى الاجتماعات الحاشدة»، حذونا الشيخ أحمد. «تجنبوا الذهاب إلى المطاعم، المنزهات، مباريات لعبة كرة القدم. وحتى لا تذهبوا إلى نافذة «ستاربوكس»¹ كي تشربوا القهوة وأنتم جالسون في السيارة. سوف يكون بوسعهم أن يقرؤوا اسمك من بطاقة الدفع». بالمقارنة مع بعض الولايات الأخرى، كان سكان ولاية ميسن عموماً يعاملون المسلمين بكميامة — الجوامع ليس فيها أمان — لكننا الآن لدينا سبب وجيه كي نشعر بعدم الأمان: في ذلك الصيف خلال الحملة الرئاسية، كانت مذكرات الكراهية قد تُركت على باب عائلة مسلمة في «ويستبروك»، بالقرب من پورتلاند، وبعض الناس قالوا إنهم هُددوا على القيس بوك بجرأتهم كراهية وبالترحيل كونهم أجانب غير مرغوب فيهم.

«النساء ينبغي ألا يذهبن إلى محلات البقالة بمفردهن»، قال الشيخ أحمد. «عليهن أن يذهبن مع الرجال. عليكم أن تصلوا أكثر. تعالوا إلى الجامع بانتظام. نحن في بلد غير مسلم، ويتمين علينا أن نصلي لله كي يُقيتنا آمنين هنا إلى أن يكون بمستطاعنا الرجوع إلى بلدنا». رفعتُ يدي وصححتُ «آمين!» مع كل الحاضرين هناك. كان الخطر حقيقياً. شعرتُ أنني أحتاج إلى أمان الهوية وإلى الصلاة.

1- ستاربوكس Starbucks: شركة مقاهي أمريكية، بدأت العام 1971 في سياتل بولاية واشنطن على يد ثلاثة شركاء وهم مدرس اللغة الإنجليزية جيري بولدوين ومدرس التاريخ زيف زيجل والكاتب غوردون باوكر، حين كانوا طلبة في «جامعة سان فرانسيسكو». استفاد هؤلاء من المقاول ألفريد بيت، الذي علمهم طريقة تحضير حبوب القهوة. وتمتلك الشركة الآن أكثر من 16,326 فرعاً حول العالم منها 11,434 داخل الولايات المتحدة الأمريكية وأكثر من 172,000 موظفاً في جميع فروعها - م.

خلف الشيخ أحمد بصره ناظراً إليّ من دون أن ينس بينت شفة، إنما من عينيه المتوهجتين يمكنكني أن أرى أنه يفكر. «قلت لك ذلك قبلاً».

كنتُ أعرف أن يوسعي دوماً الرجوع إلى يرماتوت والبقاء مع شارون وجب من أجل الأمان، إلا أنني أحسستُ أن هذا هو الوقت الذي تحتاج فيه الهوية الصومالية دعماً وموازرتي. قلة من اللاجئين كانوا يتحدثون الإنكليزية، لذلك فإن مهاراتي في الترجمة يُمكن أن تكون ضرورية أكثر من أي وقت مضى إذا ما حصلتُ مشكلة ما. لذلك بقيتُ على مقربة منهم، أqvصص الجامع كلّ مساء، وأصغني إلى آخر مستجدات الأحداث خلال ذلك اليوم.



بعد أسبوع من توليه منصبه، وقع الرئيس أمراً تنفيذياً يمنع فيه المواطنين في سبع دول، من ضمنها الصومال، من المجيء إلى «الولايات المتحدة». وهذا الأمر يشمل المقيمين الدائمين الذين يحملون «البطاقات الخضراء» مثلي. كان المحامي قد نصحتني بعدم مغادرة «الولايات المتحدة» لأي سبب من الأسباب، لأنه من الجائز ألا يسمحوا لي بالدخول ثانية. كان شيئاً يعث على الارتياح أن ترى الأمريكيين ينددون بهذا المنع، وأعقب ذلك قرارات صادرة من المحاكم بإبطال هذا القرار. إلا أنّ الضرر كان حقيقياً وأثر على أسرتي كما كنتُ أخشى. بعد أيام قليلة من صدور الأمر التنفيذي، تلقى حسن رسالة تبرؤ أخيرة من السفارة الأمريكية في نيروبي. كانت الرسالة تقول، فيما أن طلب مراجعة الحالة مجدداً قد رُفض، فإن مقدّم الطلب قد أستخدم كلّ السبل كي يسعى إلى قرار جديد فيما يتعلق بطلب اللجوء خاصته والقرار الأصلي يبقى نهائياً».

شقيفي مضى عليه حتى الآن خمسة عشر عاماً لاجئاً في كينيا. خلال هذه الحقبة الزمنية ذهب ورجع مرات كثيرة بفرض إجراء المقابلات كي يحصل على إعادة توطين في «الولايات المتحدة». الآن حلمه في المجيء إلى أمريكا قد تبدد إلى الأبد.

حسن الآن زوج وأب لتوأم صبي وفناء. لا يمكنني أن أنكر أن ثمة جانباً عملياً في زواجه من نصرة: حسن كان يعرف أن رجلاً عزباً يقدم طلب إعادة توطين في أمريكا لديه فرص أقل مما لو كان رجلاً متزوجاً لأنه من المرجح أن يكون إرهابياً. وفيما يتعلق بنصرة، كونها متزوجة من رجل صومالي وله شقيق في «الولايات المتحدة»، هذا شكل من أشكال الأمان. كان والدها قد نصرة يقيم في موقاديشو، على بعد ثلاثة أميال من أمي. كان أبوها قد التقى أمي وذبخوا أربع معزات، أكلوا الرز، وشربوا حليب النوق في حفل الزفاف، مع أن العروس والعريس لم يكونا هناك.

كهدية، أرسلت ألف دولار إلى حسن كي يشتري سريراً ثانياً وبعض مستلزمات المطبخ، ثياباً جديدة، وبعض المجوهرات لزوجته. عاد إلى المدرسة الثانوية بعد أن هدأت الأوضاع في «موقاديشو الجديدة»، وفي شهر آذار/مارس 2017 حصل على شهادة المعهد العالي في «صحة المجتمع». دفعت شارون كل تكاليف تعليمه. إلا أن حسن الآن عاد إلى شوارع «موقاديشو الصغيرة» بصفة بائع جوال يبحث الناس على شراء الجوارب والأحذية، مكافئاً كي يدعم أسرته مادياً. في كينيا لا يُسمح للاجئين بالعمل، حتى أولئك اللاجئين الذين حصلوا على شهادة باللغة الإنكليزية أو شهادة جامعية.

في يوم ما مرضت نصرة وكذلك التوأم. لم يكن بمستطاع حسن أن يدفع تكاليف العيادة الطبية في نيروبي، لذلك فعل ما يقعله أبوانا في الصومال: قرأ القرآن وجعلهم يشربون الماء المقدس. مع أن طفليه كليهما ولدا في نيروبي، لا حق لهما أن يكونا مواطنين كينييين. حسن حالياً يقدم لهما طبيباً كي يحصل على وثائق اللجوء العائلية لهما.

خلال ذلك في موقاديشو، أبناء شقيقي وشقيقي وبنت شقيقي وشقيقي نموا في الحرب الأهلية ذاتها التي استمرت بعنف شديد طوال ما يزيد على ربع قرن. طرأ تغير طفيف على الصومال منذ مغادرتي. «الشباب» نشيطون، وقوات «الاتحاد الأفريقي» ما تزال تقاتلهم. موقاديشو تحولت

إلى مجرد خرائب أكثر من عشر مرات. في تشرين الأول/ أكتوبر 2017، انفجرت شاحنتان مفخختان في «ساحة زوي»، المكان الذي تعود شقيقي أن يتسكع فيه مع أصحابه، وتسبب الانفجار في مقتل خمسةة فرد، من بينهم رجلان لعبت معهما كرة القدم في الأيام الخوالي.

أطفال شقيقي نعمة نشأوا بالطريقة الصومالية المألوفة. إنهم يذهبون إلى المدرسة ويضربون كي يتعلموا القرآن. كانت الفتيات قد خضعن لعمليات الختان. وحين كانوا يعودون إلى كوخهم المكوّن من حجريّين، المشيد من ألواح المعدن المتموج، ليلاً، كانت أمي تروي لهم القصص نفسها التي حكّتها لنعمة عن الحياة البدوية في الأدغال. لما كانت تلاحق الطباء الصغيرة، تغزّ فوق الشجيرات الشائكة، تنشّد الأغنيات حول نيران المخيمات، وتصلّي من أجل أن يهطل المطر.

في يوم ما أرسلوا إليّ صورة فوتوغرافية جماعية. لم يكن باستطاعتي أن أميّز أمي من شقيقي؛ كل منهما يبدت في العمر عينه. نعمة لديها خمسة أولاد. جميع ولادتها جرّت في المنزل من دون عناية طبية مهنية؛ كلّ ولادة أكثر تعقيداً من سابقتها، وطفلها السادس توفي في أحشائها قبل ولادته. خضعت لعملية جراحية؛ قالوا إن نسبة بقائها على قيد الحياة خمسون بالمئة. بقيت حيّة إلا أنها ظلت علية وخائرة القوى، وكانت تلازم كوخها طوال اليوم.

عمر، زوج نعمة، لم يعد يتلقى المال من ابن عمه المقيم في أمريكا. في الظاهر، أن احتياجاته أصبحت كبيرة جداً بعد أن أصبح مسؤولاً عن تربية أسرق، وابن عمه قطع عنه الدعم المادي. كان عاطلاً عن العمل، يطوف شوارع موقاديشو نهراً ويؤوب إلى المنزل خالي الوفاض. في 8 أيار/ مايو 2017، شقيقه الأصغر سناً قُتل في هجوم نغله «الشباب» حينما كانا يسيران معاً في الشارع. كان الإرهابيون يستهدفون موظفاً حكومياً بعبوة ناسفة مزروعة في الرصيف، إلا أن عمر وشقيقه شاءت الأقدار أن كانا هناك. عمر أصيب بجروح طفيفة وسرعان ما تماثل للشفاء. حين تحدّثت معه على الهاتف الجوال، «إن شاء الله سأكون على ما يرام».

بفضلي، لم يكن أولاده يتوسلون طلباً للطعام. حاولتُ جاهداً أن أوفر الطعام على مالتهم وأكسو أجسامهم بالملابس، إذ كنتُ أبعث لهم أربعمئة دولار شهرياً. كنتُ أعرف كم هو شيء صعب أن ترى أبك وقد بات لا يفعل شيئاً في حياته. إنني واثق كل الثقة بأنهم لن يجوعوا إلى حد الموت كما حصل لشقيقتي الطفلة سعاد، إلا أن جفافاً جديداً في الصومال رفع أسعار الطعام الشحيح، وكان باستطاعتي أن أرسل إليهم مبلغاً كبيراً من المال.

أبي في بيدوة مع أولاده الثلاثة من زوجته الثانية. كان يتصل هاتفياً ويطلب مني النقود. في بعض الأحيان لم يكن بإمكانني تقديم العون له؛ لا يسعك أن تدعم الجميع مادياً. إلا أن الجفاف ضرب بيدوة بقوة، وأمسَتْ شديدة الجفاف والحر هناك. الناس والحيوانات كانوا يتألمون وباتوا يموتون بسرعة. كيف يمكنني أن أدع أبي يتضور جوعاً؟ لذلك بعثتُ إليه المال المتوافر لدي كي أبقه على قيد الحياة. كنتُ أقول له أن يأتي بأسرته إلى موقاديشو ويبقى قريباً من أمي كي يكون بوسعهم أن يأكلوا معاً ويظلوا أحياء. غير أن الطريق المؤدي إلى موقاديشو كان تحت سيطرة «الشياب»، وكانوا يقتلون الأشخاص الذين يغادرون بيدوة. كان مرغماً على عدم مغادرة مدينته.

مكاليين سياسي أصبح رجلاً عجوزاً الآن وقلماً يستطيع أن يمشي، إلا أنه كان يتخذ خطوات قصيرة بقية الوصول إلى منزلنا كي يُلقي التحية على أمي. كان يزورها عادةً في نهاية الشهر لأنه يعرف أنني أبعثُ إليها المال. كانت تعطيه الغذاء وغالباً تشتري له الثياب. وأرسلتُ إليه مرات عدة المال مباشرة. هذا الأمر قد يبدو صعباً أن تفهمه بعد كل الوحشية التي أبدعها تجاهي، إلا أن أمي كانت تشعر بضغط نفسي حين تراه يتمرغ في وحل البروس والحرمان والفاقة، لذلك كنتُ أمدّ له يد العون. كما أنني أعرف أنني لولاء ما كنتُ لأحفظ القرآن عن ظهر قلب؛ تلك السور والآيات تُريحني يومياً. أغلب الظن لا يتذكر مكاليين سياسي أنه شتمني حين رقصتُ في زفاف شقيقتي. في ذلك الحين كنتُ الفتى الأحمق، التلميذ المُضيع،

وليس على فرار صديقي مختار، مساعدته المخلص له أهدأ، الذي مات خلال الجهاد. متكالين بسبب ما صار يكنّ لي الاحترام الآن.

سعيد، صديق أبي وماتق شاحتنا، توفي لأسباب طبيعية. فاليس، التي عرفتني على الثقافة الأمريكية في كوخ الفيديو خاصتها، هي أيضاً قرّرت من الصومال. آخر ما سمعته عنها، أنها تُقيم في نيروبي، إلا أنني لم أعد على تواصل معها.

في مطلع العام 2017، انضممتُ إلى مجموعة درشة على «الواتساب» مع فائزة، التي تقيم حالياً في معسكر اللاجئين «دولو أدو» في أثيوبيا. مرّرت صوتي وبعثت لي رسالة شخصية: «هل أنت عيدي الأمريكي؟» وفي لحظة من الزمن تكلمنا على الهاتف النقال. لمّا أخبرتها أنني حالياً في «الولايات المتحدة» لم يسعها أن تصدق الخبر. تحدثنا عن ذكرياتنا في أزمنة الخير على الشاطئ في موقاديشو، قبل أن تأتي حركة «الشباب» وتدمرها كلّها. كانت قبلتنا الأولى المختلصة، تحت أشجار المنجا، والقردة التي كانت تهذر عند النهر في أفغوي. كم غيّرتنا نواب الدهر. فائزة متزوجة الآن ولها ليس بمقدورها أن تتكلّم زمناً طويلاً معي.

كنتُ أعرف أنها قابلت رجلاً من قبيلتها قبل بضعة أعوام خلت. هذا الرجل مقيم حالياً في السويد؛ كانا قد تواصلنا عبر النت. سلك الرجل الطريق الخطير إلى الصومال عبر كينيا والسودان ومن ثم اجتاز «الصحراء الكبرى». اعتقلته عصابات معينة في ليبيا طوال عدّة أشهر. كفلته أسرته كي يتم إطلاق سراحه، وفي خاتمة المطاف عبر البحر ووصل إلى إيطاليا، ومن هناك مضى إلى السويد، حيث يقيم حالياً. كان قد طلب اللجوء وهو الآن يقيم في شقة مزدحمة مع لاجئين آخرين. إنه يحصل الآن على إعانة مالية بمبلغ خمسة وستين دولاراً شهرياً من الحكومة السويدية. ليس باستطاعته أن يهوى سيارة، ولا أن يعمل، أو يسافر. الحكومة السويدية لم تمنحه حتى الآن حق اللجوء، إلا أنّ الصور الفوتوغرافية التي أرسلها إلى فائزة جعلتها تفرح فرحاً بالغاً فيما يتصل بأوروبا. وهي تأمل أن يغدو

هذا الرجل في يوم من الأيام مواطناً سويدياً، وافقت على طلبه للزواج منها. زفافها الذي لم يكن بمستطاع زوجها أن يحضره، أقيم في معسكر اللاجئين «دولوا أدو». ذبح عدد من الماعز. قالت فائزاً إنها رقصت في هذا الحفل البهيج بغياب العريس. هذا الأمر غمرني بالسعادة.

منى لا تزال في «موقاديشو الصغيرة»، وهي لا تزال تتطلع إلى السيد المناسب على «الفيبيوك». إنها «تواعد» رجالاً كثيرين في «الولايات المتحدة»، أحدهم في ولاية سياتل، الآخر في ولاية مينيسوتا، وثالث في ولاية أطلنتا. تقول لي إنها أصبحت على علاقة وثيقة مع الرجل المقيم في أطلنتا، الذي يعمل سائق شاحنة. إنه يكبرها سناً وله زوجة أخرى إلا أنه وعد منى بأن يأتي بها إلى «الولايات المتحدة» وفقاً للثقافة الصومالية، وليس وفقاً للنظام الأمريكي. أقول لها إنه شيء غير ممكن حقيقة وإنه لن تكون لها حقوق كزوجة في أمريكا. منى لم يكن بوسعها أن تمنع نفسها من التمازج معي. كنا مجرد صديقين ويمكننا أن نتفاسم قصصنا وأحلامنا.

أمي أصبحت امرأة مسنة. لم يكن بوسعها أن ترى أو تسمع جيداً، ولم يكن باستطاعتها أن تحصل على عوينات طبية أو أجهزة تساعد على السمع. إلا أنها ما تزال قادرة على أن تركض بسرعة وأن تقفز عالياً في مدينة الشجاعة لا تزال قوية. إنها تحلم بصومال خالية من العنف كي يكون بوسعها العودة إلى حياتها البدوية. أحلم بأن آتي بها إلى أمريكا، في سبيل الزيارة، ففي الأقل يكون بوسعها أن تختبر حياةً مختلفة. أحب أن ترى بأم عينها الثلج وورق الخريف، وأن أدها تتفوق المشروبات الحلوة في «ستاربوكس». سأأخذها إلى بعض المزارع في أمريكا حيث يملكون هناك الأبقار وبوسعها أن تلمسها وتشمها، حتى إذا كانت ضخمة ومسميتة، وليس على غرار الأبقار الشديدة الهزال الطويلة القرون التي كانت أمي وأسرتها تملكها. ومن ثم سأجعلها تعود وتقضي أيامها الأخيرة في ياديتها المحبوبة، حين كانت تجمع أخشاب الصحراء الزكية الرائحة، وأن نستحم

تحت شلال «إيشا بيدوة»، وتتادي على الجمال والمعاز. ما زال البشر قادرين على أن يعيشوا فعلاً بتلك الطريقة في القرن الحادي والعشرين. في الصومال، على الأقل السياسة أصبحت أكثر إشراقاً نوعاً ما. بالتوافق مع الانتخابات في «الولايات المتحدة» العام 2016 حدثت انتخابات رئاسية في بلادي. كان الفائز صومالي أمريكي من بوفالو⁽¹⁾، ولاية نيويورك. حكومته ما تزال ارتجالية ولم تفرض كامل سيطرتها على البلد بأكمله، إلا أنها محض بداية. نصف الأشخاص الموجودين في الحكومة الصومالية الحالية هم من «الولايات المتحدة». بعضهم لا يمكنهم حتى أن يتكلموا الصومالية اللاتفة؛ لقد نشأوا هنا. لذلك فإن «محب الأدمغة» بدأ يتخذ مساراً معاكساً؛ الصوماليون جاءوا إلى أمريكا كلاجئين وهم الآن يعودون بوصفهم قادة وزعماء.



إبان الأعوام الأربعة التي أمضيتها في أمريكا، كنتُ أشرك في برامج الراديو والتلفزيون، وأكتب في الجرائد، وأحضر المؤتمرات. كنتُ المتحدث الرئيس في «جامعة ميين». أتكلّم عادة إلى طلبة المدارس الثانوية في أنحاء الولاية. سافرتُ كثيراً حتى وصلتُ إلى ناشفيل كي أتحدث في «جامعة فلندربيلت». في كل مرة أسرد فيها قصتي، أتذكر كم أنا محظوظ أن أكون هنا. عبادي إثنين، صبي الحرب في موقاديشو، من دون تعليم حكومي هذا مدرسة متكالين سياسي، يتحدث إلى طلبة جامعات أمريكية ذاتة الصيت! ذات مرة كنتُ أريد أن أكون شبيهاً بأرنولد شوارزنجر؛ الآن

1- بوفالو Buffalo: مدينة أمريكية في ولاية نيويورك، تقع في غرب نيويورك على السواحل الشرقية من بحيرة إيري على رأس نهر نياجرا، على الجانب الآخر من مدينة فورت إيرى الكندية، هي المقر الإداري لمقاطعة إيرى. اليوم مدينة بوفالو تعتبر من أكبر القطاعات الاقتصادية في الولايات المتحدة الأمريكية، تعتبر بوفالو المدينة الثانية الأكثر اكتظاظاً بالسكان في ولاية نيويورك، بعد مدينة نيويورك، وقد صنفتها مجلة فوربس في عام 2010 في فئة أفضل 10 أماكن لتربية الأسرة في أمريكا - م.

قدواتي هم أولئك الطلبة الجامعيون الذين أقبلهم. سجلتُ في «جامعة ميين الجنوبية» وأخطط أخيراً لدراسة القانون. أحلم بأن أتبوا في يوم ما منصب رئيس جمهورية الصومال.

لم يستطع أحد من عشيرتي «زحانوين» حتى الآن أن يذهب إلى السباق الرئاسي في الصومال. إذ إنهم لا يزالون يُعدّون طبقة دنيا وغير ملائمين لشغل وظيفة عليا في ظل نظام تقاسم السلطة الذي تم اعتماده بعد الاستقلال في العام 1960. إلا أنّ أفراد عشيرة «زحانوين» كثيرون، ويوسع السياسة أن تغتير. في يوم ما أود أن أكون أول رئيس جمهورية من عشيرة «زحانوين»، إلا أنني أود أن أدخل السباق الرئاسي بوصفي صومالياً أمريكياً، وليس باعتياري فرداً من عشيرة «زحانوين»، وأعد بأن ينعم الصوماليون كافة بالسلام والعدالة بصرف النظر عن عشيرتهم.

أود أن أسط في «مطار موقاديشو» في يوم ما بفؤاد زاهر بالمحبة والطموح لشعبي. الصوماليون فيما وراء البحار يرسلون 14 بليون دولار سنوياً إلى بلدتهم الأصلي، بحسب تقرير «البنك الدولي» لعام 2016، من خلال الحوالات إلى أفراد عائلاتهم. هذا المبلغ أكثر من مساعدات الحكومات الأجنبية كلها. لكنني أعتقد أننا قادرون على فعل المزيد. ماذا لو كان بمقدورنا أن نطبق تلك النغود كي نفتح المدارس في الصومال، أن نعلّم ما هو أكثر من القرآن؟ ماذا لو عبّدنا الطرقات، وأنشأنا أنظمة للصرف الصحي، وشيدنا مستشفيات، وبنات سكنية؟ التطرف الإسلامي هو أكبر عقبة في طريق التقدّم حالياً؟ حركة «الشباب» تفضل المدارس التقليدية المختصة بعلوم القرآن، وتفضل الجنود الفتيان على المشافي والكلليات. ولأنهم ينمون بقوة على القوضى العازمة، فإنهم يحبون ترانمب والسياسيين الآخرين حول العالم الذين يشهرون سيوفهم على الإسلام.

إنّ المسلمين الأصوليين لا يمثلون الإسلام. ولا هم يمثلون آمال الشعب الصومالي وأحلامه. يمكنك أن تصلي لوجه الله خمس مرات يومياً ومع ذلك يمكنك أن تمسك السيخما بيدك، هذا ما أعرفه. إنّي أعرف أنه بإمكان

المرء أن يستمتع بحليب النوق والديمقراطية معاً، أن يطارد الظباء الصغيرة عبر البادية وأن يتوقف عند علامات المرور الحمراء، أن تسمي بزهر أجدادك البدو وأن ترقص الـ «هيب هوب» في يوم زفافك. هذه ليست تناقضات أو أشياء بغيضة جداً بل هي انعكاسات لإنسانيتنا الكونية ونعم، لعالمنا المنهار. وإلا كيف تفسر حب غلام أفريقي لأفلام الـ «ترمينتر»، أو أن يتم تعليم التطيل الأفريقي في المدارس الثانوية الأمريكية؟

كان شغفي بأمريكا قد أشعله في داخلي أرنولد شوارزنجر. مختبئاً من مقاتلي الميليشيات في كوخ فاليس الكائن في موقاديشو، مشاهداً الـ «ترمينتر» وهو يقتل خصومه من مقعد دراجة نارية، لم تكن لدي فكرة أن بطلي لم يُولد في أمريكا. وهو مثلي، كان يحلم بأن يسمي نفسه «الأمريكي» منذ أن كان طفلاً يعاني من سوء المعاملة — في حالته الضرب المبرح من أب صارم. ومثلي، كان لديه أبطال أفلام هوليوودية، من بينهم الرياضي جوني وايسموللر (وهو أيضاً مهاجر فقير!) الذي اشتهر بدور طرزان. علّم نفسه الإنكليزية، وكان يحرص دوماً على أن يكون جاهزاً حين يحالفة الحظ السعيد. وبالطبع، لم يكن هنالك أحد لديه أيّ تلميح بأنه سيكون في يوم من الأيام حاكم ولاية كاليفورنيا. الآن يمكنني أن أرى طرائق كثيرة جداً كان فيها هذا الغلام المسكين الأنّي من النعسا التي مرقتها الحرب يشبه فيها الغلام المسكين من موقاديشو العنيفة، التي شهدت حروباً طاحنة وقتالاً مريراً. حين وُلد أرنولد غلب الحرب الكونية الثانية، عدد صغير من الناس كانوا يحسبون أن بلدان أوروبا غير قادرة على تبني الديمقراطية؛ الشيء نفسه يُقال اليوم فيما يخص البلدان الأفريقية. الديمقراطية أخذت وقتاً واحتاجت إلى دعم أمريكا، إلا أنه أخيراً كثير من البلدان الأوروبية، بما فيها ألمانيا نفسها، أصبحت منارات للحرية والتسامح. أتعنى أن يبقى هذا، إلا أن الأهم هو أن مثالي هذا يذكّر الناس بما هو ممكن. ما من أحد يوسعه أن يختار زمان ومكان ولادته، إلا أنّ ما يحدث ما بعد ذلك هو ما يمكنك أن تتخيله.

شكر وعرفان

ما كان باستطاعتي أن أؤلف هذا الكتاب من دون الدعم، الصلوات، والتشجيع، من جانب أسرتي؛ إذ كانت هذه كلها غير محدودة ولا تعرف الكلل؛ أمي، مدينة إبراهيم معلّم أبي، نور إيتين؛ شقيقي، حسن نور إيتين، وشقيقتي، نعمة نور إيتين، تقاسمنا كلنا قصصاً من طفولتي وطفولتهم. فيما كانت هذه القصص قد أصبحت أصلاً جزءاً من حياتي، أبوي وشقيقي وشقيقتي ملأوا تفاصيل جوهرية لا تُعد ولا تحصى كي أدق التفاصيل والمعلومات الواردة في الكتاب على مدى ساعات كثيرة من النقاشات الهاتفية بين ميين، كيتا، والصومال. وفي أحيان كثيرة هذه القصص كانت موجهة بالنسبة لهم لقا عادوا بذاكرتهم إلى الورد، وأنا أحيي شجاعتهم في استعادة ذكريات بشعة. وفيما كان الأمر صاعداً للغربيين، كفاح أسرتي المتواصل من أجل البقاء على قيد الحياة، سيكون معروفاً بنحو حزين لعلايين البشر من الصومالين الآخرين — لأولئك الأشخاص الذين مثلي، خرجوا من وطننا، وأولئك الذين على غرار أفراد أسرتي، ظلوا هناك في بلادنا.

كما أود أن أشكر بلطف الفريق الذي هبّ لنجديني حين كنتُ مقيماً في موقاديشو ففي سنوات شبابي سعى الإسلاميون الأصوليون والحركات المسلحة الأخرى إلى مطاردتي واضطهادي؛ بول سالويك، كوري برينسيل، دك غوردون، بين بيللوز، وشارون مكندونيل وأسرتها صنعوا فريق حلم بحيث أسسوا صندوقاً لجمع التبرعات كي يدعموا أسرتي مادياً ورحلتي من الصومال إلى كيتا وأخيراً إلى «الولايات المتحدة».

في نيروبي، شكري الخاص إلى يامبلا غوردون، التي جازفت بحياتها كي تساعدني، وإلى صديقتي يونس وفرح، لكونتهما ولفا معي وبقينا نتبادل الرسائل النصية عندما أصبحنا ضحايا لدى البوليس.

أنا ممن لأن لديّ وكالة أدبية مدعولة، زوي Zoi باغاناميتا، التي كانت بمنزلة الناصح المخلص كي تغدو كتابتي متقنة جداً، والفريق الرائع في كتويغ، ومن بينهم أندرو ميلر، زكية هاريس، وبيتي ألكسندر. شكري لماكس ألكسندر على الشغف والإرشاد اللذين جلبهما إلى هذا الكتاب. أنا محظوظ لكوني أقيم في الولاية نفسها التي يقيم فيها ماكس، والعمل الذي قمنا به معاً على هذا الكتاب كان استثنائياً. شكراً، ماكس، لأنك كنت صديقاً صالحاً جداً وداعماً.

شكر خاص جداً لشارون مكدونيل وزوجها، جب باريش، على كرمهما في السماح لي بأن أصبح عضواً في أسرتهما وأن أؤلف هذا الكتاب في منزلهما الواقع في يوماوث، ولاية ميين. ما كان بوسعي أن أكمله من دون دعمهما المعنوي والمادي. شكراً ليكي سيلي وزوجها، دوغلاس مكووين، لأنهما ناصراي وناصرتا الصوماليين الآخرين في ميين بعد أن ألحق المرشح ترامب إلى القول إننا مجرمون. شكراً الكبير وكاميلي، اللذين تطوعا بوقتهما وآرائهما.

وفي الختام، شكراً لنيكول بيللوز، مارغريت كاوديل، ليو هوتراك، وإذاعة الـ «BBC»، «هذه الحياة الأمريكية» وإيرا غلاس على المتابعة وتوثيق قصتي في كينيا وأمريكا. كما أود أن أشكر إليزابيث هارفي، يوسف، عبدول، محمد، آول، جيهان، حنة ريد، مايا تيلر، جل مورينو، ميغ، إلك، نيني ريلي، شانون سير، وناتاليا ومورغان مكدونيل.

المتروجم

ولد علي عبد الأمير صالح في مدينة الكوت - واسط سنة 1955. يمارس كتابة القصة القصيرة والرواية والترجمة منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين. نال جائزة وزارة الثقافة العراقية في الترجمة سنة 2000، وفي الإبداع الروائي سنة 2009، وجائزة دار الشؤون الثقافية العامة في النقد الأدبي سنة 2009، وجائزة الإبداع العراقي / وزارة الثقافة والسياحة والآثار لعام 2017، في حقل الترجمة. من ترجماته المنشورة: في أمريكا (بيروت 2019) قبل أن نزور الإلهة (الكويت 2019)؛ فريدا: سيرة حياة فريدا كاهلو (بيروت 2019)؛ لا تقولوا إننا لا نملك شيئاً (بيروت 2018)؛ العمى (بيروت 2018)؛ المطيرجي (بيروت 2018)؛ أشرطة تسجيل صدام (بيروت 2017)؛ العجل السحري (بيروت 2010)؛ قل لي كم مضى على رحيل القطار (القاهرة 2003)؛ حفلة الفيلة (بغداد 1989). من أعماله المنشورة: الهولندي الطائر (قصص، دمشق 2000)؛ همامة الرسام (قصص، بيروت 2010)؛ عملية الأجنة (رواية، بيروت 2008)؛ أرابيسك (رواية، عمان 2009)؛ ثقافة واسط: الماضي والحاضر (جزآن) (دمشق 2017)؛ العوالم الثلاثة: تجربي في الكتابة والترجمة والنقد (دمشق 2018).

الكاتب الصومالي الشاب عبدلي نور إيتن لا يعيش في تاريخ بلاده القريب ، ولا يكتبني بأن يقتصر سرده على الحروب العنيفة التي جرت وطته وشعره ؛ كما لا يقتصر في مذكراته هذه على واحد ما كان يرتكبه رجال الميليشيات وتالياً رجال الحركات الإسلامية المتشددة من أفعال شنيعة ، حين كانوا يطلقون النار عشوائياً على الأطفال والنساء من سبيل القراع والقهر ، ويحرمون المواطنين من أبسط حقوقهم الإنسانية : الموسيقى حرام ، والسبتا من عمل الشيطان ، والنساء يجب ألا يتخلطن بالرجال . يُعدّنا الكاتب عن تاريخ بلاده البعيد أيضاً ، عن جغرافيتها ، عاداتها ، طقوسها ، أعراسها ، عشايرها المتناحرة ، لغاتها ، عن مدنها وأنهاؤها ، عن حكاياتها الشعبية ، أساطيرها . يروي لنا بأسلوب سلس ، متعق ، وأسر حراً ومنح في ناله من ذكريات صريحة وموجعة ، عن الحطاف الذي قتل الزوج والعرض ، عن المرأة التي لم تشأ أن تترك جثة ابنها القتيل في قاعة الطريق فتنهشها الكلاب ، وعن حكمة أمه عن البادية ، حيواناتها وأعضائها الطبية ، وعن براء ليوه والجفاف في منطقة القبياع ، والأسود . وهو لا يكتبني قطعاً بهذا فحسب ، بل يمكنني لنا بلغة جميلة وأسلوب شيق ينطق الأنفاس ، عن الجوع والخوف والعطش والأسماء الشديدة وشح الأموية وانعدام الحريات والتجديد الإيجري وأوجاع الزوج الداخلي في وطنك الأم ، وإذلال اللجوء إلى بلد مجاور ، عن جور الشرطة وفسادهم ، عن ولعه بالسبنا والثقافة الأمريكيةين . ويعدّنا كذلك عن استلهامه شجاعة وقوة أمه التي أصمّت عمل أن تحافظ على حياة أبنائها الأربعة إبان أحلك الظروف ، عن دعم وتشجيع أسلافه الأمريكيين ، وعن الخط الذي خالفه أعياناً في الوصول إلى الولايات المتحدة ، يقول المؤلف إن بمسحاق المرأة أن يزواج بين عائلتين وثقافتين : " إلى أعرف أنه بإمكان المرأة أن يستمتع بحليب التنوق والديمقراطية معاً ، أن يظاوه الطبيب الصغيرة غير البادية وأن يتوقف أيضاً عند علامات المرور الحمراء " . إنها حقاً مذكرات جذابة بالقراءة والتأمل عبر سرده قوامه التشويق والتعريب ونابع عن قصير حقيق ورواية إنسانية نافذة .

